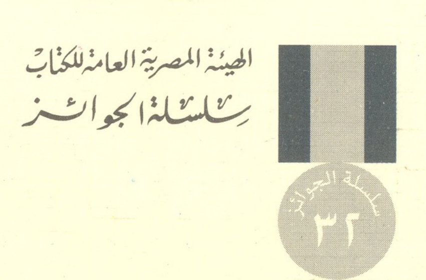


رواية

تأليف : جيرالدين بروكس

مارتش

ترجمة : دكتورة أماني توما

جيرالدين بروكس، كاتبة وصحفية أسترالية.

ولدت ونشأت في الضواحي الغربية لـ"سيدني" بأستراليا.

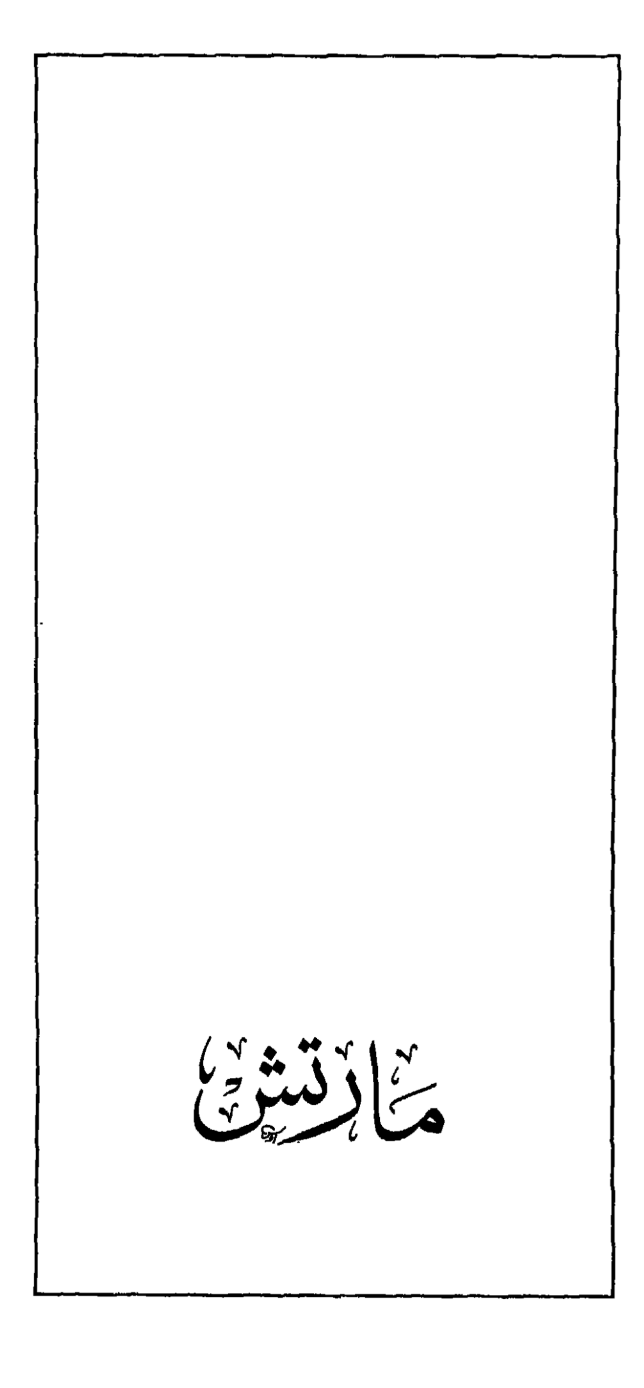
تلقت تعليمها في دير للراهبات ثم التحقت بجامعة سيدني وعملت صحفية في كبري جرائد المدينة "سيدني مورنينج" وكانت مراسلة لصحيفة "الوول ستريت" في البوسنة والصومال والشرق الأوسط ثم تفرغت للكتابة وتعيش حاليًا في ولاية فرچينيا بأمريكا.

من أعمالها الإبداعية.. عام العجائب. ومن كتبها "تسعة أجزاء للرغبة"، "مراسلة أجنبية".

حققت أعمالها الإبداعية أصداء طيبة وجعلتها نجمًا في أفق الرواية العالمية قبل أن تفوز بجائزة البوليتزر عام ٢٠٠٦ عن رواية "مارتش".

الجائزة: جائزة البوليتزر

تعد من أرفع الجوائز الأمريكية. تأسست بناء على وصية الصحفي والناشر الأمريكي المعروف "جوزيف بوليتزر (١٨٤٧ - ١٩١١). تمنح للأعمال المتميزة في مجالات الصحافة والأدب والموسيقى، تأسست الجائزة الخاصة بالشعر عام ١٩٢٢ وتمنح لديوان أو مجموعة شعرية مميزة لشاعر أمريكي أما الجائزة الخاصة بالرواية فقد بدأت عام ١٩٤٨ وتمنح لعمل مميز لكاتب أمريكي يتناول الحياة الأمريكية. ولجنة التحكيم لهذه الجائزة هي لجنة مستقلة في جامعة كولومبيا.


مارتش

بروكس ، جيرالدين ، ١٩٥٥ -
مارتش / تأليف جيرالدين بروكس ؛ ترجمة أمانى توما . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٨.
٥٠٠ ص ؛ ٢٢ سم .
تدمك ٢ ٣٢٤ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
(أ) توما ، أمانى (مترجم)
(ب) العنوان :
رقم الإيداع بدار الكتب ٩١٧٢/ ٢٠٠٨

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 324 - 2

مارتش

تأليف : جيرالدين بروكس

ترجمة : دكتورة أماني توما



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٨

● الكتاب: مارتش March
● الكاتبة: جيرالدين بروكس Geraldine Brooks
● المترجم: دكتورة أمانى توما
● يصدر هذا الكتاب باللغة العربية بإذن خاص من المؤلف للهيئة المصرية العامة للكتاب.

● الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
● طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

«سلسلة الجوائز»

مـازال أمـام سلسلة الجـوائز الكثـيـر من الأحـلام الكبرى، التى تعمل بدأب على تحقيقها، فلقد شهدت السنوات الأخيرة احتفاءً غير مسبوق بالأعمال الأدبية فى شتى أنحاء العالم، وزادت أعداد الجوائز المهمة وأشكال تكريم المبدعين، فازدادت بالتالى الروائع الأدبية، التى تنتظر الترجمة والنشر فى سلسلة الجوائز.

ولأننا نضع نصب أعيننا قطع المسافة بين الواقع والمأمول.. بين الممكن والمستحيل فقد قطعنا خطوات كبيرة وجادة للتغلب على التحديات التى تواجه عملية الترجمة بداية من احترام حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ومرورًا بتطوير شكل الكتاب، ووصولاً إلى قناعة بأن النصوص الأدبية لها وضعها الخاص باعتبارها مؤلفات جمالية متفردة ومن ثم تكون ترجمتها إبداعًا موازيًا يتحمل المترجم وحده عبء النهوض به. كما أننا استحدثنا «ذاكرة الجوائز» كرافد للسلسلة لتقديم الآثار الأدبية، التى شكلت ذروة خالدة

فى مسيرة الإبداع العالمى ولم تترجم بعد، أو أنها ترجمت ونفدت طبعاتها، إيمانًا من السلسلة بأن الأعمال الأدبية يكون لها دائمًا تأثير لا يمحى بمرور زمنها وحتى يتسنى للأجيال الجديدة قراءتها.

لقد انطلقنا من نجاحات تحققت فى مجال ترجمة الأدب فى مصر والعالم العربى، ولذا شرعنا فى تأسيس بنك معلومات رأينا أن الترجمة بحاجة إليه، ويشمل هذا البنك كل الأعمال الأدبية التى حازت جوائز دولية أو محلية فى كل أنحاء العالم، أو حققت أصداء قوية، وأثرت فى وجدان مجتمعاتها بشكل يؤهلها للحصول على جوائز أكبر، كما أنه يوفر قاعدة بيانات كبيرة عن كل المترجمين من كل اللغات، لكى يتابع القارئ العربى ما تم إنجازه والمهمات التى تنتظر السلسلة.

إن الترجمة كانت وستظل هى الحل السحرى للعديد من مشكلات الاختلاف بين الشرق والغرب، وهى وسيلة التواصل والحوار، وترجمة الأدب بالذات هى الجسر، الذى تعبر عليه أفكار الشعوب وعاداتها ومعارفها بدون قيود، فالأدب كان وسيظل أساس التقدم والخير والحق والحرية والجمال.

ولذا ستسابق سلسلة الجوائز الزمن لتحتفى بأكبر قدر ممكن من حائزى الجوائز فى العالم، تلك الجوائز التى حققت مصداقية كبيرة وسمعة حسنة حتى يتوفر للقارئ المصرى والعربى عمل اتفقت على

جودته لجان متخصصة، مهمتها التحكيم لمنح جوائز دولية ومحلية لأهم الكتب وأكبر الكُتّاب.

ولسوف تتنوع اللغات المُتَرجم عنها فى أعداد السلسلة القادمة، ولسوف تقتحم سلسلة الجوائز جوائز جديدة. وأصواتًا لم يتعرف إليها بعد القارئ العربى، وذلك بفضل زخم الأعمال الإبداعية فى العالم وبفضل تنوع الجوائز المستحدثة، التى لاقت اختياراتها ترحيبًا واحترامًا من النقاد والمتابعين للمشهد الإبداعى.

د. ناصر الأنصارى

هذه الرواية مهداة

إلى دارلين وكاسي وهما ليستا

على الإطلاق نساء صغيرات

جيرالدين بروكس

الجزء الأول

قالت «جو» بحزن شديد:

«ليس لدينا أب ولن يـكون معنا لـفترة طويلة» ولـكنهـا لم تقل «وريما أبدًا» ولـكن كل واحدة منهن أضافت هذه العبارة في داخلها وهن يفكرن فى الأب البعيد الغائب في ميدان المعركة.

لويزا ماي إلكون

رواية «نساء صغيرات»

الفصل الأول

فيرجينيا طريق وعر

٢١ أكتوبر ١٨٦١

هذا ما كتبته لها: "السماء الليلة مغطاة بالسحب، عندما غربت الشمس أطلت السماء بلون ذهبى خالص فبدت السماء وكأن بها خيوطاً من الذهب". توقفت برهة عن الكتابة لأمسح عينى، التى كانت تغمرها الدموع، فذلك السطر الذى كتبته لن يجعل زوجتى تلاحظ ما بداخلى؛ حيث إنها تقرأ ما بين السطور فى خطاباتى وتنقدها نقداً جيداً ولكن نقدها يتسم دائماً بالرقة والمرونة.

نظرت إلى يدى فوجدت بها علامات التعب والإرهاق. فأضفت قائلاً فى خطابى لها: "أرجو أن تغفرى لى خطى غير المنمق؛ حيث لا توفر ساحة القتال ولا تحرك الجيش بصفوفه إلى ميدان المعركة - الهدوء المطلوب للتأمل والمراسلة. أود أن أوجه إلى ابنتى جو (أتمنى أن تجد كاتبتى الصغيرة الوقت وسط أعبائها المنزلية؛ لكى تستخدم حجرتى الصغيرة الخاصة حتى لا تقوم الفئران الودودة بزيارة هذه الحجرة واستغلالها فى فترة غيابى القصير).

إن جلوسى تحت ظل شجرة كبيرة حيث يمزح الرجال مع بعضهم البعض يمنحنى شعوراً بالأمان والسلام. أكتب لك هذا الخطاب على المسند الصغير الذى يشبه المكتب الذى قمت أنت وبناتى بإرساله لى ورغم إنى سكبت خزينى المتبقى من الحبر فلا داعى أن ترسلى لى المزيد منه حيث قام أحد الرجال بإرشادى على الطريقة السليمة لاستخلاص الحبر من التوت المتوفر لدينا بكثرة فى الأشجار، وهذا يعنى إرسال "كلمات رقيقة وجميلة لك".

هل تذكرين أوراق صحيفة السبنسر ذات الخطوط والألوان غير المتناسقة والتى تشبه حجر الرخام والتى كنت أقرؤها لك فى ليالٍ مثل تلك الليلة من الخريف. إذا كنت تذكرين ذلك يا عزيزتى فتستطيع عيناك أن تريا السماء كما أراها الليلة؛ حيث تسبح الألوان المتداخلة بكثرة فى السماء.

والدم الذى كان يكسو الطمى وينجرف مع مياه النهر فى حركات دائرية تشبه دوامات البحر لا يشبه على الإطلاق تلك الأوراق الجميلة؛ التى كنت أقرؤها لك ولا يشبه أيضاً أرضية منزلنا عندما سقط عليها الحبر القرمزى، الذى كانت صغيرتنا تستخدمه فى رسومها وأسقطت الإناء من يدها فى عُجلة.

ولكن بالطبع لم أكتب لها فى خطابى ذلك الوصف الذى يجول بخاطرى الآن فقد وعدتها بأن أكتب إليها كل يوم وأجد نفسى ملزماً أحياناً بتنفيذ ذلك الوعد خاصة عندما أكون مرهقاً ذهنياً.

يبدو وكأنها معى الآن، أشعر بيدها الهادئة تلمس كتفى بخفة ولكنى مسرور بل أشعر بالامتنان لأنها ليست هنا لترى ما أراه ولتعرف ما عرفته أثناء الحرب وتوصلت إليه، وبهذه الفكرة تبرأت من الرقابة التى أفرضها على نفسى فلم أعد بأن أكتب الحقيقة.

كتبت بعض الكلمات التى تصف حنين وشوق الزوج لزوجته وأضفت بعض السطور لبناتى مليئة بحنان الأب وعطفه.

"إنى أفكر فى كل فرد منكم وأتخيلكم وأنتم فى الردهة، أو تستعدون للنوم فى غرفتكم أو تقرءون دروسكم، وأتخيلكم مجتمعين مع بعضكم البعض تتحدثون عن والدكم البعيد الغائب وتتعجبون أين هو؟ وماذا يفعل، ينبغى أن تعلموا جيداً أنه لا يمكن أن أترككم فبالرغم من أنى بعيدٌ عنكم جسدياً لكنى قريب منكم بعقلى وقلبى وراحتى تكمن فى حبى لكم..."

وأنهيت خطابى باعتذارى عن عدم استطاعتى الكتابة أكثر من ذلك لما ورائى من واجبات ملحة وضرورية يجب القيام بها، وختمت الخطاب بوعدى أن أكتب لهم أعرفهم بالمزيد من الأخبار فى وقت لاحق.

إن واجباتى ملحة وضرورية للغاية فهناك عدد من الرجال المحيطين بى المحتاجين للمساعدة. ولكنى لم أغلق مسندى الصغير، الذى يشبه المكتب بل تركته

على ركبتى وأكملت متابعتى وتأملى للسحب السوداء التى أخذت تملأ السماء فأصبحت بلا لون محدد. فلا عجب إن الرجال البسطاء لديهم دائماً آلهتهم التى تسبح فى الأماكن العالية البعيدة: لأنه عندما تقع عين الرجل من السماء إلى الأرض فإنه حتماً سيرى مشهداً كئيباً ومقفراً. تتجمع مجموعة من الرجال المسئولين عن دفن جثث القتلى من الجنود عند منحدر النهر؛ حيث يمشون فى وسط النهر بعمق ليحضروا جثث القتلى الملقاة فى النهر مع فروع الشجر المتساقطة. على عكس ما كتبته ووصفته فى خطابى لزوجتى فلن يكون هناك مرح الليلة فالنيران رغم قلتها لا يوجد أحد يراقبها فأصبح دخان تلك النيران يزعج عينىَّ اللتين مازالتا تبكيان.

رأيت نسراً ضخماً يحدِّقُ فى، كان على أحد فروع شجرة الجميز، التى تبعد قليلاً عن مجلسى، اعتدنا رؤية تلك الطيور طوال اليوم متجمعة حول الأشجار. لقد تخيلت هذه الطيور فى بكورها قبل ظهور أشعة الشمس، وهى تطير بأجنحتها المفرودة منتظرة سطوع الشمس، لم تتحرك أو تطر أثناء عبورنا للبوتومك فقد شاهدونا جميعاً ونحن مجتمعون بل ومستعدون بكل قوتنا وطاقتنا لعبور البوتومك. لقد شاهدت تلك النسور الجنود وأنا معهم نعبر الجانب الآخر الأبعد من الضفة، ونتسلق ذلك الطريق المنزلق المروع. وقد لاحظت هذه الطيور وهى تطير عالياً فوق ميدان المعركة مشكلة بحركتها أقواساً جميلة.

ومن هناك ظهر المأزق الذى سنواجهه فقد أصبح العدو هو المسيطر على الوضع مستعداً لإطلاق النيران فى الوقت الذى كانت فيه قوات أخرى من جيوش العدو تنطلق بشدة عبر الغابات المحيطة بنا من الشمال لمواجهتنا. لم أتلق أى تعليمات أو أوامر بالقيام بأى شئ؛ وذلك لكونى قساً ولهذا وضعت نفسى فى المكان الذى أراه مناسباً لى للقيام بعمل جيد. فقد كنت فى المؤخرة أصلى مع الجرحى والمصابين وفجأة ارتفع صوت الصراخ: "يا إلهى لقد هاجمونا".

لقد ناديت على بعض الجنود ليحملوا المصابين لمكان بعيد وقد جرى نحوى أحد الجنود قائلاً إنه إذا حملنا المصابين فسوف ننال المزيد من الطلقات النارية فى أجسامنا. وكان الجندى "سيلاس ستون" قد أصيب من طلقات العدو، ولكن إصابته كانت خفيفة كان يعرج قليلاً على ركبته فقد قمت بمساعدته وأسندته بذراعى ومشينا عبر الغابات فى طريق مزدحم وفوضوى. أردنا أن نصل إلى قمة ذلك الطريق المروع فهو الطريق الوحيد المؤدى إلى النهر رأينا نسراً ضخماً آخر، وكنا على مقربة شديدة منه لدرجة تمكننا من ملامسته. حيث كان واقفاً على جثة أحد الجنود وقد أدار رأسه نحونا بحدة شديدة لتدخلنا، كان هناك شئ متعلق بمنقاره بنى اللون ويلمع بعض الشئ. رفع "ستون: بندقيته ولكن طاقته كانت قد نفدت، وأصبحت يداه ترتعشان بعنف وكان علىّ أن أذكره بأننا إن لم نتمكن من الوصول إلى النهر وعبوره فسنصبح نحن أيضاً طعاماً للنسور.

ومشينا نحو الطريق المنزلق المروع وفى أثناء عبورنا ذلك الطريق وجدنا حشداً من الرجال مندفعين نحو طريق آخر خوفاً من نيران قوية قادمة نحوهم، كانوا من شدة خوفهم يمشون بتردد وفجأة تحركوا جميعهم دفعة واحدة مثل قطيع من الحيوانات. أخذ الرجال يتدحرجون ويقفزون فوق الحافة، وقفز الجنود من ارتفاع تسعين قدمًا قفزة قوية إلى النهر. كان هناك صراخ هائل من الجنود وهم يتخبطون بعضهم بالبعض ويتخبطون بمن هم كانوا مسبقاً فى مياه النهر. رأيت بوتاً عسكرياً لأحد الجنود وهو يعبر بقوة على رأس جندى آخر، ويهرس عظام جمجمته على الصخر.

سرت إلى حافة النهر واصطدمت يداى بسلسلة ضيقة من الصخور تحت الماء المغطى بالجوز الأسود وقد أدى هذا إلى انزلاق وتدحرج "سيلاس ستون" ووقع بعدى غير أنه لم يعّرفنى، أنه لا يجيد السباحة إلا إننا وصلنا إلى ضفة المياه الأخرى.

كان العدو يطلق نيرانه علينا من أعلى وقرر بعض رجالنا رفع الرايات البيضاء كعلامة للاستسلام وأخذوا يتسلقون ذلك الطريق الوعر عائدين مستسلمين تماماً للعدو. ولكن الأغلبية غطسوا فى مياه النهر وآخرين فى هلعهم نسوا أن يتخلصوا من ذخيرتهم وبندقيتهم الأمر الذى أدى إلى غرقهم فى مياه النهر نتيجة لثقل حجم البنادق والذخيرة التى

كانوا يحملونها وكانوا قبل غرقهم فى مياه النهر أشبه بعنقود من النحل الخارج من الخلية كل أربعة أو خمسة مع بعضهم البعض.

تخلصت من حذائى العسكرى وطلبت من "سيلاس" أن يفعل نفس الشىء، وأمرته بأن يتخلص من بندقيته ويلقى بها بعيداً عن أيدى العدو، وألقينا بأنفسنا فى مياه النهر الباردة متوجهين نحو الجزيرة. فقد اعتقدت بأنه يمكننا أن نمشى معظم الطريق ونحن فى النهر، ولكنى لم أضع فى الاعتبار قوة التيار وشدته ولا برودة الماء والطقس فوعدته قائلاً: "سأعبر بك الماء" وكنت على وشك تنفيذ وعدى ولكن طلقات النيران قد أصابته ومزقت معطفه واخترقت جسده وارتفع صوت صراخه من شدة الألم، كانت يده اليمنى قابضة على حلقى وأصابعه ملتصقة بشدة حول رقبتى لدرجة أشعرتنى أنها تمسك بالقصبة الهوائية. ظلت يده اليسرى تبحث عن رأسى لتمسك بها. حاولت أن أفلت منه لعلمى بأنه من شدة الألم الذى كان يعانيه من طلقات الرصاص سوف يدفعنى بقوة فى عمق المياه. ومن شدة الألم تمكن من انتزاع حفنة من شعرى واصطدم إبهامه بعينى اليسرى مما أدى إلى غطسى واندفاعى بقوة تحت الماء، دفعنى جسمه إلى عمق المياه أكثر وأنا أدفع برأسى إلى أعلى، شعرت بألم فى فروة رأسى عندما انتزع مرة أخرى خصلة من شعرى، اصطدمت ركبتى تحت الماء بشىء صلب، ونزلت يداه من على حلقى ومزق ظفر إصبعه قطعة من جلدى.

لقد تحول لون المياه إلى لون أحمر بنى وتمكنت من الوصول إلى سطح الماء، ومازلت ممسكاً بقطعة ممزقة من سترته ولو كان قد توقف عن التخبط فى الماء لكان من الممكن أن ألتقط جزءاً أكبر من قماش سترته، ولكن التيار كان شديداً وسريعاً ومزق بعنف ما تبقى من قماش فى سترته وقد تغير لون ونظرة عينيه عندما لاحظ ذلك وقد اختفى شعوره بالخوف والهلع حيث كانت نظرته الأخيرة نظرة تبدو فارغة وتائهة مثل نظرة الطفل حديث الولادة. كان قد توقف عن الصراخ تماماً، وكان الصوت الأخير الذى أطلقه أشبه بتنهيدة طويلة ولكنها صدرت منه كغرغرة وذلك لأن حلقه كان محشرجاً بالماء.

فى البداية حمله التيار بعيداً عنى بمقدار قدم وللحظة كان على سطح الماء وكتفاه مشدودان لى وقد سبحت بقوة شديدة ولكن عندما كنت على بعد موجة منه اصطدمت بصخرة فأمسكت برجليه وشددت الجزء السفلى من جسمه إلى تحت الماء فبدى للحظة وكأنه يقف مستقيماً فى الماء، ولكن التيار أداره بشدة وقوة دورة كاملة فاندفع كتفاه إلى أعلى وكأنه يرقص مثل غجرية. نعم كان يبدو مع طلقات النيران التى تصدر من فوق المياه وكأنه يرقص فى حفلة راقصة مضيئة بأنوار، ولكنها ليست أنوار حفلة موسيقية بل هو نور الشمس الساطع وانعكاسه على أوراق الشجر. ومرة أخرى كان فى مواجهتى ينظر إلىّ وجهاً لوجه عندما سحبته المياه بعيداً وحمله التيار فأصبح بعيداً

عنى أبعد وأبعد. وتمكنت من الوصول إلى الشاطئ وكان لا يزال معى فى قبضة يدى قطعة من قماش سترته.

إنها معى الآن فى يدى قطعة قماش من اللون الأزرق، وهى ما تبقى من "سيلاس ستون" الذى كان يبلغ العشرين عاماً والذى نشأ فى نهر البلاك ستون ولم يتمكن من تعلم السباحة. قررت إرسال هذه القطعة إلى والدته فقد كان ابنها الوحيد.

تساءلت أين يمكث الآن ؟ هل هو تحت صخرة ؟ وقد أصبح طعاماً شهياً للأسماك الصغيرة، التى تتغذى عليه أم أنه يسبح مع التيار فى الماء؟ أراهم جميعهم متجمعين فى الماء منهم من غريق ومنهم من لاقى حتفه بطلقات النيران وأياديهم جميعهم ممدودة لملامسة بعضهم البعض ولو بالأصابع. خلال يوم أو يومين ستكون جنازتهم العسكرية فى واشنطن ولكن هل سيعرفهم المدنيون؟ هل سيكون من السهل التعرف عليهم؟ هؤلاء العظماء الذين سقطوا ضحايا لتلك النيران والرصاص أم سيديرون ظهورهم باشمئزاز من عفونة أجسادهم.

لابد أن أذهب الآن لأبحث فى هذه الجزيرة عن المكان الذى يأوى الجرحى والمصابين، وبالطبع لم يكن الجرَّاح المسئول عن الجرحى من الشخصيات التى تهتم بأصول المهنة، فهو لم ير من الأهمية أن يرسل لى برسالة حيث إنه من اتباع "جون كالفن" ـ مؤسس مذهب الكالفينيزم ـ فهو رجل شرس متجهم وغير

صبور وفى رأيه آن الرجل لابد أن يكون سيد حرفته فلابد أن يعرف الحداد فرنه والزارع محراثه والقس عقيدته وقد أوضح بصورة مباشرة عدم اهتمامه بى وبخدمتى الدينية ودورى كقس مسئول عن تعزيز وتدعيم الجانب الدينى والروحى بين الجنود والضباط فى الجيش. وعندما استمع إلىَّ للمرة الأولى وأنا أعظ، أشار بأن العظة التى لا تدور فكرتها حول جهنم والهلاك الأبدى لا تعد ذات قيمة للرجال الذين يواجهون يومياً الموت، وأشار بأنه إذا أراد أن يسمع قصيدة حب فسوف يهديها إلى زوجته. مررت بيدى على شعرى الذى جف، وكان من الصعوبة بل من المأساة أن أرفع ذراعى لأقوم بأية حركة بسيطة، فقد كانت كل عضلة فى جسمى تؤلمنى.

كانت عمتى على حق عندما أشارت بأن هذا المكان - أى ميدان المعركة - وهذه المهمة الدينية التى أقوم بها لا تناسب بأى حال من الأحوال رجلاً فى مثل سنى فى الأربعينات من عمره. هذا المكان لا يناسب رجلاً يتعامل يومياً مع الكلمات، ويدخل فى سباق الكلام والإقناع هذا المكان ليس مكاناً يتسابق فيه المرء بوسائل اللغة والإقناع وإنما مكان السباق فيه يكون سباق الدم ولذا فسأظل هنا واقفاً مع الذين يقفون مستخدمين الأسلحة والبنادق سأبقى معهم على قدر استطاعتى ولكن كما أشار لى أحد الجنود من ميلبرى اليوم قائلاً "لابد وأن تعلم جيداً أن فرجينيا طريق صعب ووعر".

حملت مكتبى الصغير ووضعته فى مكانه كانت بطانيتى مشبعة بالماء من كثرة استخدامها لأجفف نفسى وملابسى المبللة، ولكن لا يزال هناك دفء فى الصوف سواء كان مبللاً أم لا. حملت بطانيتى لشاب صغير يرقد على ضفة النهر كان ذلك الجندى الصغير مبللاً تماماً ويرتعش من شدة البرد، وتوقعت أن يصاب بالحمى فى الصباح. فسألته: "ألا يمكنك أن تأتى معى بعيداً عن ضفة النهر إلى أرض جافة". ولكنه لم يُجِبْ فوضعت البطانية عليه، حيث يرقد فسوف ينام كل منا هذه الليلة، وهو يشعر بالبرد الشديد ولكن ربما ليس كما يشعر "سيلاس ستون" مشيت خطوات فى الطمى واصطدمت بأرض مليئة بالعشب والحشيش، ورأيت على مقربة منى وفى ضوء النيران الموقدة مجموعة ليست بكبيرة من الجرحى يرقدون على القش حيث سيمضون ليلتهم وهم يرتعشون من البرد القارس. سألتهم: أين تقع الخيام التى تقوم بمعالجة المصابين، فقال أحد الجنود: "لا توجد خيام بل هناك منزل قديم يستخدم ليأوى الجرحى". قال ذلك وهو يضمد جرحاً فى ذراع أحد الجنود ثم أضاف: "إنه لمكان غريب حقاً ملىء بالتماثيل البيضاء الضخمة، وغرف مليئة بالكتب القديمة. ثمة شخص يعيش هناك يشبه الفخار الملقى على الصخر وهناك شخص آخر يخدمه مثل العبد، إنها امرأة، وهى تقوم بمساعدة الجراح وقد ضمدت جرحى وربطته جيداً كما تراه".

وقد قال هذا بفخر واعتزاز وهو يرفع مقلاعه ويجفل وهو يفعل ذلك.

وقد صارحتنى قائلة. "كان هناك أكثر من دستة من العبيد فى هذا المكان قبل ذلك ولم يتبق إلاَّ هى فهى الوحيدة التى رفضت أن تهرب".

لا أعتقد أن الجندى كان يعرف يمينه من يساره وذلك لأن توجيهاته وإرشاده لنا للمكان كانت كلها غير صحيحة؛ حيث إن صديقه المصاب فى رقبته والذى كان لا يستطيع التحدث كان يشير لنا باستمرار بيديه فى اعتراض على كل ملف كان يصفه لنا ذلك الجندى، فقد أخطأت فى معرفة الاتجاه الصحيح بسبب ظلام الليل فوجدت نفسى مرة أخرى على ضفة النهر غير متأكد إذا كان الشاطئ الأبعد هو مريلاند أم فرجينيا استدرت إلى الخلف ووجدت أمامى سوراً ملتوياً أشبه بالثعبان يؤدى إلى بقايا طاحونة قمح قديمة. استكملت السير حتى نهاية السور إلى أن وصلت إلى بوابة اجتزت هذه البوابة، ومشيت داخل البوابة التى كانت مرصوفة بأحجار كانت تسبب ألماً فى قدمىّ.

علمت بعدها أنى أسير فى الطريق الصحيح؛ لأنى قد استنشقت رائحة مستشفى تشبه رائحة مرحاض الخنادق ورائحة بطون وأمعاء الجنود المفتوحة من آثار الضرب والحرب، واستنشقت أيضاً رائحة أقل عفونة من غيرها وهى رائحة لحم طازج وكأنه قادم من الجزار. توقفت واستدرت داخل شجيرات كدت أشعر باشمئزاز رهيب أدى إلى شعورى

بالقىء مما جعلنى أتذكر موقفاً حدث مع والدى منذ سنوات عندما رفضت أن آكل لحم الخنزير المملح. فقد كان أبى يعتقد أن نظامى الغذائى الخالى تماماً من اللحوم يجعلنى كسولاً فى القيام بأعمالى اليومية. ولكنى كنت أتجنب القيام بأعمال تتسم بالعنف والقسوة.

لا يوجد أحد يستطيع أن يعمل طوال اليوم دون أدنى رغبة كالثور المربوط فى ساقيه وعيناه خاليتان من الرجاء والأمل فهذا العمل الشاق يعطى جفاء فى النفس، التى تعمل دون راحة منذ سطوع الشمس وحتى الغروب. ومَنْ هذا الذى يستطيع أن يأكل لحم الخنزير وقد سمع بأذنيه صراخ تلك الحيوانات وهى تذبح والدم الأسود متفجر منها. من الجائز أن يكون الظلام هو السبب أو فصل مختلف من فصول السنة أو قد يكون حزنى وشعورى بالتعب والإعياء. ومن الجائز أيضاً أن يكون العشرون عاماً وهى فترة ليست بقصيرة لعقل نشط وذكى ليحتفظ بذكريات قديمة تمنى صاحبها أن يقذف بها فى بحر النسيان على كل حال، فقد كنت على بعد خطوات من منزل تعرفت عليه وشعرت بأنى كنت هناك من قبل.

جوزة الطيب الخشبية

لقد كنت هناك ذات يوم فى صباح يوم من أيام الربيع، وكان الضباب يملأ سطح النهر، وكأن السماء قد صبت كل السحب اللبنية فى الوادى. كنت فى الثامنة عشرة من عمرى فى ذلك الوقت وقد مشيت

الطريق كله من الميناء عند نورفولك. كنت هزيلاً بعض الشيء ولكن قوياً، وكان شعرى ذا لون فاتح من كثرة تعرضه للشمس كان أبيض اللون بعض الشيء وهو ينزل من وراء القبعة التى كنت أرتديها.

كانت هناك معدية صغيرة تقف عند الطلب عند ما يسمى بمرسى سفن البحر عند الحافة الشمالية للجزيرة وقد مشيت ما يقرب من ميل ونصف الميل إلى المنزل أصفِّر أغنية المراكبى الذى عبر بنا. كنت أمشى بجانب الشجيرات البيضاء المليئة بفروع الشجر ذات اللون الأحمر الذهبى على طول الطريق، وكان الجو محملاً بشذى العسل الذى يختلف كل الاختلاف عن شذى الطمى فى صباح مايو البارد فى سبيندل هيل. كنت أحمل اثنين من صناديق الثياب على كتفى لذا فقد كنت بلا مدافع عندما لحقنى اثنان من الكلاب الضخمة اللذان كانا يجريان ورائى مرسلين إلى الأحجار التى كانت تطير من تحت أرجلهم. يمكنك أن تقول كان ذلك نوعًا خاصًا من الترحيب تمتاز به مقاطعة كونكتيكت وتهديه لواحد من بائعيها المتجولين. لقد أثرت الظروف المادية والاقتصادية على حياتنا فإن كثيراً منا من أجل المال ضحوا بالأخلاق النبيلة مثل الشرف والأمانة والذوق من أجل الغش والخداع والمكر. فتأثرت سمعتنا وأصبح لا بريق لها. ولكنى أعرف الكلاب ففى المنزل كان لدينا كلب ضخم بمثابة زوج من الأذرع الإضافية نحتاجها عندما تجتمع من حولنا الخراف.

وتعلمت شيئاً آخر فى طريقى شمالاً من نوفورك إنه إذا صادفك كلب ضخم ورحب بك ترحيباً شديداً. فإن تسعة كلاب من عشرة سترحب بالخوف من العدوان والصداقة مع الدعابة. فى الوقت الذى وصلت فيه إلى المنزل كانت تلك الكلاب الوحشية تقفز مرحاً بجانبى وحولى ملتصقة بأرجلى ، على بعد خطوات كانت تقف خادمة تنظر بدهشة وبقليل من الضيق إلى ذلك المشهد الغريب فأطلقت بحدة صفارة وتألمت أذن الكلاب وهى تجرى بعيداً من صفارتها وقالت بصوت حاد وغير متوقع وصارم وقوى مثل دقة الجرس "إن تلك الكلاب سوف تنهش لحمك قبل أن تصل إلى المكان الذى تصبو إليه". كانت تقف بحدة واضعة يدها على خاصرتها، وكانت يداها ذات الأصابع الطويلة تميلان إلى اللون البنى الغامق من أعلى واللون البمبى الشاحب من أسفل وقد أدهشنى ذلك التناقض فى الألوان. وكانت تضع يدها على حزام التنورة المربوط على خصرها وكانت تنورتها التى ترتديها مقلمة اللون بين الأبيض الكريمى والرمادى وكان يعلوها صدارى برقبة عالية وحول رأسها مربوط بما يشبه الإيشارب المنقط يخفى شعراً مصبوغاً بلون البنجر، ويعطى تأثيراً جميلاً على لون حاجبيها النحاسى كان مظهرها الخارجى ينم على اهتمام صاحبة المنزل بمظهر خدامها ونظافتهم.

وعندما نزلت بعض الدرجات وتوجهت نحوى إلى حيث كنت واقفاً. أسقطت من على كتفى كلاً من

الصندوقين ومسحت قبعتى بيدى وابتسمت لها ابتسامة جميلة ومرضية. فسكان الجنوب يهتمون بالأخلاق الجميلة. فقد تقابلت من قبل مع العديد من سكان الجنوب، الذين كانت أياديهم جافة وخشنة تشير إلى عملهم المستمر فى الحقول وأجسامهم نصف عارية وأرجلهم دون حذاء، وكانوا ينظرون إلى أنفسهم بعزة نفس وجمال أكثر من شخص متوسط التعليم قادم من نيو إنجلاند وقد تعلمت أن الفوز على الخدامين خاصة هؤلاء الذين يعملون لدى الأسر الراقية هو الهدف الأول للرجل، الذى يبحث عن التجارة وذلك لأنهم هم هؤلاء الذين يقدمون المساعدة لمن هم مثلنا، لرجل المنزل أو لسيدة المنزل ويمكنهم القيام بذلك بمختلف طرق المساعدة.

وقد كنت واقفاً على بعد ستة أقدام من امرأة أنظر إليها وجهاً لوجه فأنا لم أواجه مثل ذلك الموقف من قبل. ولكن فى ذلك اليوم حدقت عينىَّ الزرقاوين فى عينيها غامقتى اللون واللتين كان يشع منهما نور خفيف من السعادة وحتى الآن أتذكر أنى كنت أول من أخذ ينظر بعيداً عن عينيها.

"هل تفكر فى انبهارى وإضحاكى مثل ما تفعل الكلاب"

"هل أنت من الشمال؟ هل أنت قادم من كونكتيكت؟" وقد رفعت ذقنها بحدة وأصدرت صوت طرقعة خفيفًا بلسانها. "إن آخر بائع متجول كان هنا

كان أيضاً قادماً من كونكتيكت. وقد باع للطباخ برطماناً من جوز الطيب الخشبى".

"ياله من عار" ! قد قلت ذلك وقصدت المعنى رغم رؤيتى للكثير الذين يقومون بممارسة تلك المهن فى ساعات المعسكر غير المجدية وأصبح هؤلاء منافسين لى. "أنى لا أعتقد أن أحداً بالمنزل سيكون مهتماً بأن يرى أدواتك الصغيرة ولكننا سنعاتب إذا لم نقدم إليك جرعة باردة من الشراب فى صباح دافئ".

آه! إنك عبدة سوداء قلت ذلك فى داخلى، وربما لا تكونين فى مثل سنى ورغم ذلك فإن لديك أسلوباً فى الخطابة أشبه بخطيب كبير. لم أكن أعرف أحداً فى وطنى يتحدث بمثل هذه الطريقة ولا حتى الواعظ الذى يخاطب العديد من العقول مستخدماً لسانه وطرقه فى الإقناع أثناء العظة. سبيندل هيل التى تقع على ارتفاع ألف قدم ولها طريق واحد يؤدى إليها فهى مكان محكم وجامع يتحدث شعبها بلهجة معينة حتى إن عامة الشعب فى هارتفورد والتى هى على بعد عشرين ميلاً لا يمكن أن يفهموها. فقد كنت بالمنزل شخصاً يمتاز بالنشاط والحيوية ولم أكن يوماً كسولاً أو شخصاً غبياً أو غير مجد فى عمله.

وفى قريتنا الصغيرة كنا نستخدم جمع بعض الكلمات بطريقة مختلفة وغير معتادة أى كانت لنا لهجتنا الخاصة بنا وأتذكر أنه كلما أراد أبى أن يؤكد على شىء فقد كان ينهى حديثه باستخدام كلمة "إنى أعظ" ولا يستطيع أن يفصلنا حتى ولو كان قرن من

الزمان عن أجدادنا الذين كان لهم الفضل فى تحويل تلك البرية إلى حقول خصبة ومنازل معمرة حتى أن منزلنا الذى بناه والدى مع صياد غزلان هندى كان من قبل ثلاث غرف غير مطلية أشبه بمخلفات حربٍ لقد كنت أتمنى أن أساعد والدى فى العثور على المال المناسب لبناء منزل جديد كنت أتطلع إلى اليوم الذى سأعود فيه محملاً بالمال الذى حصلت عليه كريح من بضاعتى التى كنت أبيعها فى تجوالى.

ولكن فى مكان ما بالقرب من يورك أو الجيمس توقفت عن التطلع إلى ذلك اليوم. ولكن الآن من شدة خجلى أجد نفسى أحدق فى الحرير الذى تستخدمه الزوجات ويحمر وجهى خجلاً عندما أتذكر أمى التى كانت تعمل حتى ترهق نفسها من العمل فيدها لم تكن تتوقف عن العمل منذ حلول الفجر وهى تحلب البقرة إلى منتصف الليل وهى تنسج الكتان على النول.

وقد أجبت "جريس" قائلاً "سأكون شاكراً جداً لهذا الكرم" أجبتها وأنا أفكر بأن أعظم شىء هو أن تكون وسط مجموعة من النبلاء وأصحاب الأخلاق النبيلة حتى ترتقى بأخلاقياتك وقيمك. قادت تلك المرأة الصغيرة الطريق ومررنا بجانب منزل حيطانه مبنية من الطوب، ومشينا بجانب بوابة وصلتنا إلى حديقة المطبخ؛ حيث رأيت أطراف نبات الهليون أرجوانية اللون معلقة داخل المطبخ وكذلك براعم الفراولة الصغيرة مع فاكهة خضراء أخرى لم تنضج بعد. يبدو أنهم سيحتفلون بحصاد الفراولة التى لم

تنضج بعد قبل أن يشرعوا فى حصادها من المزارع التى تقوم بزراعتها، وقد تبعتها وهى تمشى باعتدال تام وبراحة شديدة. كانت هناك روائح داخل المطبخ من خبيز الكعك ورائحة القهوة الغنية. كل ذلك جعلنى أشعر بالجوع الشديد، وكان الطباخ امرأة سألت جريس قائلة: "بماذا أتيتى يا جريس؟" امرأة ضخمة بوجه يلمع من العرق ويبدو أنها شعرت بجوعى؛ لأنها وبدون أن تسأل وضعت أمامى صحناً من الكعك الساخن وهى تعاتبنى عما يفعله من هم مثلى وكيف أنها كانت لا تبالى بهؤلاء الذين يسخرون منها، أومأت برأسى لها وأنا أضع الطعام فى فمى.

أومأت وأوضحت قائلاً "لا يوجد جوز طيب من أى نوع معى يا سيدتى"

"إن معى فقط مجموعة من الأشياء الجميلة والمفيدة لصحة وفائدة العقل والجسم".

"أحقاً ما تقول؟" قالت ذلك وهى تدير فمها العريض نحوى فى محاولة مبالغ فيها للعبس. قالت جريس "من الأفضل أن تعرض "لآنى" أدواتك التى أتيت بها من الشمال ومن الأفضل أن تسرع فى ذلك لأنه ليس لدى وقت لأضيعه". عندما نزحت لأول مرة من نورفوك كنت فخوراً وسعيداً بالصناديق التى أحملها والتى قمت بترتيبها ترتيباً جميلاً، وكان بها أرفف داخلية وأقفال محكمة للحفاظ على المخزون المتبقى من السلع وقد اخترت بنفسى بدقة وعناية شديدة جميع محتويات الصناديق واعتقدت بأن

مخزونى المتبقى من السلع هو مخزون جيد. وقد استثمرت الكثير من المال فى بضائع تروق للسيدات حيث إننى أستمتع دائماً بصحبة النساء وأفضلهن عن صحبة الرجال أى من هم من جنسى. كان معى العديد من الأمشاط التى على شكل صدف السلحفاة والتى أكد لى العديد من التجار بأن تلك الأمشاط تروق للعديد من النساء؛ حيث إنها أحدث صيحة فى أدوات الشعر، وكان بحوزتى أيضاً العديد من الأشكال المختلفة من الحلى مثل الدلايات والعقيق الأحمر واللؤلؤ وكذلك أدوات التجميل من أحمر الشفاه والروائح والعطور والزيوت والصابون. والنظارات الذهبية والفضية ذات الحفاظات الجلدية المحببة. وأيضاً العديد من أدوات الخياطة والأقمشة المختلفة مثل الحرير والأقطان ومن أدوات الخياطة الكشتبان الفضى والخيوط والأزرار والإبر ذات العيون الفضية والذهبية والمقصات والسكاكين، وهناك أيضاً الأدوات المكتبية مثل أقلام الرصاص والأقلام الجاف وحفاظات الأقلام وكذلك أوراق اللعب (الكوتشينة) والأختام والمراوح وحبال الكمنجة وألعاب الأطفال مثل الألغاز المرسومة وأيضاً الصور المرسومة على مكعبات من الحجر. وكان معى أيضاً مجموعة من الكتب ولكنها لم تكن للبيع فلم أحضرها من بائع النورفوك ولكنها كانت معى فى رحلتى فقد كنت ألتهم تلك الكتب التهاماً وأحفظُ محتوياتها حفظاً تاماً قبل أن أسلمهم لأشخاص آخرين.

لقد كنت -كما قلت من قبل -فخوراً بهذه الأشياء عندما بدأت رحلتى منذ بضعة شهور ولكنى أعلم الآن أن معظم ما كنت أملكه كان شيئاً مبهرجاً. وقد تعلمت ذلك ببطء لأن زوجات المزارعين كن يتصفن بدماثة الخلق فى التعبير عن إعجابهن ببضائعى ويعجبن بشدة بالحلى ويشترين فقط أدوات الحياكة مثل الحرير الذى يستخدم فى الحياكة ولعب الأطفال. لم تكن كلمتهن ولكنها كانت عيناى اللتان علمتانى أخطاء وعيوب السلع التى أبيعها فإن معظم المنازل التى كنت أعرض بها بضائعى كانت مجرد معابد للأناقة، حيث يمكنك مشاهدة طبق صغير مثل طبق الملح يمكن أن يكون مصنوعاً من الفضة الخالصة على يد صائغ من فلورانس أو برجس وكذلك الحلى مثل اللؤلؤ الحر الذى كان محور اهتمام سيدات تلك المنازل ويزين رقابهن وكذلك الأحجار الكريمة القديمة التى كانت موضوع اهتماماتهن فتعلمت وقتها كم كانت وضيعة بضائعى.

ولكن الكتب كانت شيئاً لم أشعر بالخجل أو العار منه. فإنى أذكر بالتفصيل ماذا كان معى فى ذلك اليوم وذلك لأن ما كان معى كان بمثابة وسيلة من الوسائل لضمان مكانى فى ذلك المنزل الجميل، وكان أيضاً سبباً قوياً لرحيلى المفاجئ. كان معى قصص وروايات قديمة مثل رواية "سياحة المسيحى" وأيضاً مقتنيات جديدة من الأشعار الحديثة للشاعر "ويليام وردزورث" وطبعة مارش لأشعار "كولريدج" المعروفة باسم

"مساعدات للتأمل" وأيضاً كان معى طبعة كوير من كتاب "الحياة والخطابات". وأيضاً كان بحوزتى كتاب "لافتر" "علم الفراسة". ورواية "جونسون" "رسلس". ورواية "جولد سميث" "قس ويكفيلد". ومقالة "جون لوك" الفلسفية تحت عنوان "كيفية فهم البعد الإنسانى". وكان معى أيضاً كتب أخرى مجدية للأطفال مثل قاموس "وبستر" الأمريكى لأحرف الهجاء وأيضاً كتب بها حكايات هادفة للأطفال لتعليمهم دروسًا أخلاقية فى الحياة مثل رواية "الثعلب وعناقيد العنب" وقصة بائعة اللبن التى سكبت لبنها.

وعندما شاهدت تلك الكتب جميعها عرضت على "جريس" الخادمة الفارعة الطول إذ كنت أحب أن آخذ معى إلى دورة المياه إبريقًا به ماء دافئ قبل أن تقودنى إلى حجرة صاحب المنزل. ولقد قمت بحلق ذقنى ذلك اليوم فى الصباح الباكر بجانب النهر وذلك قبل أن أعبر الحدود ولكنى سررت بذلك العرض السخى من الحمام الدافئ. وعندما عادت "جريس" قالت لى إن صاحب المنزل طلب منها إحضار الكتب فقط وترك باقى الأشياء من البضائع. فقد قادت الطريق بنا إلى صالة ضيقة متصلة بالمطبخ وحجرة دافئة أخرى. لم يكن ذلك المنزل منزلاً ضخماً ولا هو بمنزل كبير فقد شاهدت منازل أكبر وأضخم. إن بعض المنازل المليئة بالخضرة على ممر طريق جيمس تشبه القصور، ولكن هذا المنزل كان مثالياً فى حجمه ورائعاً فى ارتباط أهله بالمواعيد. كانت حيطانه بيضاء تماماً حتى

السقف مغطى بحلى معمارية وردية الشكل وكان يكسو الأرضية الخشب سجاد يشبه فى لونه لون الديك الرومى الأسود والأحمر ومزركش فى رسوماته بلون يشبه لون المجوهرات وفى منتصف المنزل كان هناك سلم يشبه فى دورانه ورق الشجر متصل بصالة الدخول التى كانت بيضوية الشكل.

وقد أشارت "جريس" بيدها ذات الأصابع الطويلة وكانت يداها الجميلتان توحيان بيدين غير معتادة على العمل اليومى الشاق. وقد أشارت بأنى سوف أجلس على مقعد رخامى مناسب لزاوية الحائط الجنوبى وموازٍ لباب محفور عليه بالرخام آلهة الرومان والإغريق مثل "أبولو" و"دافن" و"بروميثيوس".

قالت "جريس":

"إن هذه هى مكتبة صاحب المنزل الذى سيكون معك فى الحال".

وانصرفت لتستكمل واجباتها المنزلية.

إن مدخل المنزل الكبير كان على يمينى. كان هناك باب واسع محاط بأضواء داخل زجاج وجلست هناك أراقب شمس الصباح الذهبية الساطعة وبداخلها ألوان صغيرة من ألوان الطيف وبسبب تركيزى فى بريق ذلك الضوء لم أتمكن من رؤية صاحب المنزل عندما فتح باب المكتبة ودخل الحجرة. كان ذا قامة طويلة وجسم معتدل وممشوق وكان صوته رخيماً.

"صباح الخير يا سيدى .. هل يمكنك أن تتبعنى؟"

دخلت وتوقفت فى حجرة كبيرة ذات ارتفاع عالٍ فى السقف مزدحمة تماماً بالكتب فى كل ركن وزاوية وكان هناك فى منتصف الحجرة مكتب جميل وكبير وبسيط فى ذوقه من الخشب الوردى.

"أوغسطس كليمنت" . قال ذلك وهو يمد يده وقد حملت الكتب فى يدى الأخرى ومددت يدى لأحييه وذلك لأنى قد صدمت بالمجموعة الرائعة والضخمة من الكتب التى كانت تملأ الحجرة.

"كنت دائماً أتخيل أن الجنة تشبه المكتبة والآن علمت ماذا تشبه". بالكاد أدركت أنى أتحدث بصوت عالٍ وضحك مستر "كليمنت" وهو يربت على كتفى.

"كان هناك مثلك من الرجال من يأتى إلى هنا قبل أن تتزوج ابنتى -أعتقد أن الكلمة خرجت من شفتيه على أنها -كانت متزوجة -ماذا نسمى ذلك؟ علامة؟ أم لمسة منه؟ على أى حال فقد اشترت ابنتى العديد من الأشياء والأدوات غير المجدية على مر السنين من زملاء لك. أعتقد أنها كانت ترغب فى أن تتحدث مع الشباب من الرجال. ولكن لم يصادفنى أحد مهتم وشغوف بالكتب مثلك. من فضلك ضع الكتب هناك".

وضعت الكتب على المكتب المصنوع من الخشب الوردى، وبدأ يتطلع وينظر إلى كومة الكتب الموضوعة. أشك بأنه سيجد ما يثيره من بين تلك الكتب بعد أن

رأيت ضخامة مكتبته وحجمها الكبير وعدد الكتب غير المحدود الذى تحتويه. ولكن كتاب "لافتر" عن الفراسة أثار انتباهه "إن هذه نسخة حديثة عن النسخة التى أقتنيها. لدى فضول بأن أقرأ مراجعته. عليك أن تقول "لجريس" عن الثمن الذى تطلبه لذلك الكتاب وسوف تدفعه لك".

"سيدى إنى لا أطلب مبلغاً نقدياً للكتب".

"أوه".

"إنى أقوم باستبدالها أى أعطيك كتاباً مقابل كتاب آخر. وبهذه الطريقة أعطى لنفسى الفرصة لقراءة كتاب جديد أثناء رحلتى".

"هل حقاً تفعل ذلك ! إنها فكرة رأسمالية. رغم أنك لا تكسب شيئاً منها. أى لا تعود إليك بأى مقابل مادى".

"إنى بالطبع مهتم بالمال يا سيدى لأنه ضرورى لشاب فى ظروفى ولكن أثق بأنك لن تتهمنى بعدم تحمل المسئولية عندما تعلم أنى مهتم أكثر بغنى العقل والفكر".

حقاً مستر "مارتش". ما تقوله هو عين الصواب. إنى مشغول اليوم بعمل ما فى مكان آخر أرجو أن تجلس هنا بالمكتبة وتختار الكتاب الذى تراه مناسباً لك مقابل كتاب "لافتر" عن الفراسة. أرجو أن تشرفنا بتناولك العشاء معنا وتخبرنى فى العشاء عن الكتاب الذى اخترت أن تقرأه".

"ولكنى لا أريد أن أضايقك بوجودى".

"إنك ستكون قد أديت لى خدمة مستر "مارتش". لا أحد موجود بالمنزل فى الوقت الحاضر، إن ابنى مسافر بعيداً مع رئيسه فى رحلة عمل. إن العزلة ليست صديقة العلم. ولابد أن تعلم أننا فى الجنوب نعانى من سوء تغذية العقل إننا نقدر فن الحوار عن الموضوعات الأدبية ولذلك سنجد شيئاً نتحدث عنه حينما نجتمع مع بعضنا البعض فى المناسبات والحفلات السعيدة رغم أنه يوجد العديد من الموضوعات التى يمكن التحدث عنها فى تلك الحفلات مثل الموضوعات التى تخص حياتنا الزراعية وقد أشعر بالغيرة أحياناً منكم أنتم سكان الشمال عندما تجتمع العقول الغنية بالأفكار مع بعضها البعض مثل النحل فى المناسبات وينتج عن ذلك عسل الإنجازات الفكرية، إنى مشتاق أن أتحدث عن الكتب معك. أرجو أن تجد وقتاً لنا فى المساء لنتبادل أطراف الحديث".

"سيكون من دواعى سرورى مستر كليمنت".

"عظيم جداً. إنى متطلع لذلك". قال ذلك ووقف عند الباب واستدار لقد قالت لى "جريس" بأن لديك العديد من ألعاب الأطفال. أرجو أن تعطينى ما لديك من ألعاب وألغاز مصورة للأميين من الأطفال. سأعطى ذلك كهدايا لأطفال الخدم من العبيد. من فضلك لابد وأن تشير إلى "جريس" بما تطلبه من ثمن لتلك الألعاب".

إنى مدرك أن الشهوة هى إحدى الخطايا المميتة ورغم ذلك فإن الشهوة هى ما شعرت به ذلك الصباح عندما أغلق الباب ومكثت بمفردى داخل المكتبة وسط تلك المجموعة الهائلة والرائعة من الكتب. وعندما حل وقت الظهيرة كنت بدأت أشعر أن لدى شعوراً قوياً إيجابياً تجاه مستر "كليمنت"، حيث إنه عندما تتعرف على مكتبة أحد الرجال فإنك تتعرف على عقله وفكره. وأن هذا العقل هو عقل نبيل وواسع الأفق وله أذواق مختلفة.

لقد طرقت "جريس" على الباب وأحضرت لى لحماً بارداً ولكن حتى وإن لم يكن لحماً بارداً فإنه لم يكن فى استطاعتى بأن أتوقف لأكله وأترك تلك الكتب الرائعة من بين يدى وأتفرغ للطعام وقد أتت مرة أخرى قبل موعد العشاء بساعة وتعجبت بأننى لم أتذوق ما أحضرته من طعام لى اصطحبتنى إلى المكان الذى سأمكث به وقد أرادت أن تذهب إلى حيث كان كوخ صغير شغله من قبل مدير المزرعة.

فى هذا الكوخ الصغير حاولت أن أجعل مظهرى لائقاً رغم ضيق المكان ولقد قررت بأنى سأحتفظ بجزء من مكسبى الخاص لحياكة بدلة خاصة عند ترزى فى نيويورك عندما أعود للشمال.

كان مستر "كليمنت" منتظراً فى حجرة المعيشة عندما قمت بتقديم نفسى. كان وحده تماماً. تمنيت أن أقابل سيدة المنزل ويبدو أن هذا كان واضحاً على وجهى.

"إن مسز "كليمنت" ترحب بك وترسل اعتذارها عن عدم استطاعتها مقابلتك. إنها ليست على ما يرام مستر "مارتش" فهى لا تأخذ وجبة العشاء هنا ولكنها أشارت إلى أنها ترغب فى التعرف عليك غداً إذا تكرمت بزيارتها. تود أن تستمع لرأيك الخاص عن فرجينيا حيث إنهم علموا عن سفرياتك".

إنى لم أعتد من قبل على شرب الكحول ولكنى تصرفت حسب أصول اللياقة وأخذت كأس الشمبانيا من يد مستر "كليمنت" عندما دعانى لشرب كأس معه.

كانت معنوياتى مرتفعة ذلك اليوم بسبب ما صادفته من فرح ومعاملة حسنة من قبل مستر "كليمنت" وعندما جلسنا فى غرفة السفرة الجميلة شعرت بتأثير ذلك الخمر؛ حيث بدأت معنوياتى ترتفع أكثر فأكثر.

على بعد منى ، كان أحد الخدم السود واقفاً، ومعه طبق من الفضة به قطعة من اللحم مع قطع من البطاطس ثم أحضر بعد ذلك طبقًا من الخضراوات ووضع ذلك كله فى طبقى. ولكنى عندما وضعت أول شوكة مليئة بالطعام فى فمى شعرت بطعم دهن لحم الخنزير فنزلت الشوكة من فمى فى الحال.

لم أكن أشعر بالجوع حيث إنى تعمقت فى الحديث معه حيث تطرقنا فى حديثنا إلى العالم القديم ثم انتقلنا بالحديث من "كاتو" إلى "كانط" وتقديره للشاعر الإنجليزى "كولريدج" ثم من "كولريدج"

إلى "شيلينج". وقد قاد "كليمنت" الطريق وتابعته النبيذ يملأ معدتى الخالية من الطعام ويمد جسمى بوقود يؤهلنى للطيران.

بالكاد شعرت بالانتقال من غرفة السفرة إلى غرفة المعيشة ولم أكن أشعر بالوقت عندما أشار "كليمنت" بيده ورأيت فى أصبعه خاتماً جميلاً ووضع أصبعه على حاجبه، الذى كان رمادى اللون من آثار الإجهاد وتعب السنين، وقال:

"أرجو أن تسامحنى ولكنى لست معتاداً أن أشرف على شئون المزرعة كما قمت اليوم بالإشراف عليها وإدارتها حيث إن ابنى والمدير المسئول هما اللذان يتوليان الإشراف عليها ويلجئان إلىّ فقط فى الأمور والقضايا المهمة. وقد قمت اليوم بالإشراف على كل الأمور حيث إنهما غير موجودين هنا فى الوقت الحالى ولذا أشعر بالتعب الشديد ولكنى لم أستمتع من قبل بصحبة شاب مثلك ولا أتذكر متى كانت آخر مرة استمتعت بها بصحبة أحد الشباب. مستر "مارتش"، إن لديك فكراً جديراً بالاحترام وعقلاً يتسم بالعمق والمرونة فى الاستماع وقبول رأى الآخر. ومن الواضح أنك قرأت الكثير رغم ما صادفته من ظروف صعبة فى شبابك. مستر "مارتش" إنى أرحب بك فى منزلى وأنه سيسعدنى أن تبقى معنا وقتاً أطول إذا سمحت خطتك بذلك".

كانت هناك مقولة مشهورة يرددها دائماً بائعو كونكتيكت تقول احترس من حسن ضيافة المزارعين.

كثير من الشباب البائعين تركوا تجارتهم وربحهم بسبب ذلك العرض السخى، الذى عرض علىّ الآن وأنهوا رحلتهم فى انغماس فى أمور غير مجدية. ولكنى كنت عطشان وجائعاً للمعرفة فى تلك الأيام وأن فكرة قضاء وقت أطول داخل تلك المكتبة للبحث عن العلم والمعرفة واكتشاف عقلية مستر "كليمنت" وفكره العميق شىء يفوق قدرتى على المقاومة.

وفى اليوم التالى قمت بزيارة مسز "كليمنت"، وجدتها جالسة على كرسى تحت ضوء الشمس فى غرفة معيشتها مرتدية بلوزة أنيقة من اللاسيه الأبيض مطرزة على طريقة التطريز الإنجليزى. كانت "جريس" تجلس بجانبها وتقرأ لها شعراً برقة وعذوبة.

"شكراً لك يا "جريس". كان ذلك ممتعاً كالمعتاد. لماذا لا تأخذين قسطاً من الراحة الآن حيث سأتفرغ للتحدث مع ذلك الشاب الوسيم الذى بالطبع سوف يمتعنى بحديثه. "وعندما سمعت صوت مسز "كليمنت" وهى تتحدث، علمت أن "جريس" تقوم بتقليد صوتها وهى تتحدث ولكن كان صوت "جريس" أجمل ويمتاز بالرقة والعذوبة أكثر من صوت مسز "كليمنت".

مدت مسز "كليمنت" يدها لتحيينى وفوجئت بحرارة يدها وجفاف جلدها مثل جفاف الورق وبذلت قصارى جهدى لأخفى صدمتى.

"قالت: أبلغنى زوجى بأنك متحدث لبق ولكنه لم يذكر أبداً بأنك أيضاً شاب وسيم تماماً مثل ما تحدث

الشاعر عن الشاب الذهبى لابد وأن بنات فرجينيا يقعن تحت أرجلك.". قالت ذلك برقة صوت الفتاة وقد شعرت بالخجل وأصابتنى كحة شديدة.

أعطت لى "جريس" نظرة باردة وهى تضع ورقة ناعمة من الحرير تستخدم كفاصل عند قراءة الكتب داخل مجلد رفيع وأسرعت فى ترك الحجرة وقد لاحظت مسز "كليمنت" عينى تراقب "جريس" وهى تترك الحجرة بهدوء وصمت وقد تنهدت قائلة "أحياناً أشعر بأنى أحب تلك الفتاة أكثر من ابنتى". هل تعتقد أن فى ذلك شراً مستر "مارتش"؟ لم تنتظر منى إجابة ولم أعطها أنا أية إجابة. "إن الابن دائماً مشغول بالعالم وما فى العالم، والابنة تتزوج وتترك منزل أبويها. إن ابنتى تزوجت فى العام الماضى وهى تبلغ الخامسة عشرة من عمرها. هل تتخيل فتاة فى مثل عمرها تتولى مسئولية نفسها ومسئولية عزبة وممتلكات أخرى؟ رغم أنى حذرتها وحاولت مراراً إبعادها عن تلك الزيجة، ولكنها أصرت على قبول الزواج من ذلك الشاب رغم محاولتى أنا ووالدها بأن تنتظر ولا تسرع فى الزواج ولكن الشباب لديهم من الحماس والإرادة لقبول التحدى وأعتقد أنك تعلم ذلك لأنك أنت نفسك شاب صغير. إنك لست أكثر من صبى..."

"سأبلغ يا سيدتى التاسعة عشرة فى نوفمبر القادم"

"إذاً فإنك صبى كما قلت ولكنك ناضج جداً".
شعرت بنظرة تقدير فى عيونها ذات اللون البنى الغامق" ماذا يبلغ طولك؟ ستة أقدام؟"

"أكثر بقليل يا سيدتى".

"حسن. وأنك عريض المنكبين أيضاً. أنا أحب الرجل الطويل عريض المنكبين. إن زوجى طوله ستة أقدام ولكنه يجلس معظم الوقت فى مكتبته وللأسف لا يتمتع بالصفات البدنية للرجولة. أتمنى أن يعطى وقتاً أكثر لركوب الخيل.." منحتنى ضحكة بها نغمة موسيقية ونظرت بعيداً بتأمل وهى تفكر مرة أخرى فى ابنتها الغائبة. وأضافت قائلة: "ماريان" يمكن أن يقال عنك إنك "صاحبة المكان" ولكن يجب أن تعلمى شيئاً واحداً فقط أنه فى أغلب المزارع تقوم صاحبة المكان بدور العبد فى المكان بل تلعب دوره بالكامل".

وأضافت قائلة "هل يعلم مستر "مارتش" أن "جريس" تتمتع بحرية أكثر من ابنتى. ليست بمعنى الحرية ولكن هى لم تتركنى أشعر دائماً بأن "جريس" ملك لى وستظل معى إلى الأبد. فقد ولدت هنا وقدمها لى زوجى مستر "كليمنت" كهدية لزفافى. كانت طفلة رضيعة جميلة. أتصور أنه أراد أن أمارس دور الأم معها قبل أن يولد أطفالنا. من يستطيع القول بأن أول مقال قرأته كان فى جمال الخطاب المكتوب بأسلوب الشعراء الجميل فقد علمتها القراءة ولم أجد فى ذلك صعوبة ولم أبذل أيضاً أى مجهود. فقد كانت

تختار خطاباتها أفضل منى وقت أن كانت طفلة وأفضل من "ماريان". لا أدرى ماذا كنت سأفعل الآن وأنا مريضة كذلك دون أن تقرأ لى "جريس". لا تهتم ابنتى بالكتب ولا تجيد فن الشعر ولا أدرى لماذا؟ هل يمكنك أن تقول لماذا لا تجيد ابنتى فن الشعر؟ لا فكيف يمكن أن تبنى رأياً وأنت لم ترها؟ إن عقلى فى تساؤل مستمر. أرجو أن تسامحنى أنه المرض. أن ابنى مشغول دائماً لا يأتى أبداً ليرانى، لم أره منذ فترة....".

"أعتقد أنه مشغول بأمور المزرعة يا سيدتى".

"نعم فقد أشار مستر "كليمنت" بأنه كذلك ولكنه المرض الذى يجعلنى أنسى بعض الأمور. إذا نزلت من فضلك أرسل لى ابنى لابد وأن يزور الابن أمه أعتقد أنه ليس بكثير أن تطلب الأم رؤية ابنها. إن ابنتى فى تصورك يمكن أن تأتى لزيارتى ولكنها هى أيضاً قد تزوجت وأنا لا أعلم اسم المزرعة التى ذهبت إليها. والجميع يتحدثون عن زيجتها ويقولون إنهما كزوجين يناسبان بعضهما أتذكر بأن الجميع أشادوا بذلك، لقد أشادوا جميعاً بأنها الزيجة الفاضلة من نوعها فى هذا الموسم. ولكنى أعترف فأنى لا أذكر على الإطلاق اسم زوجها. ولكن "جريس" تعلم اسمه". وقد أدارت رأسها ونادت على "جريس" قائلة: "جريس" ما اسم الرجل الذى تزوجته "ماريان"؟ قالت ذلك وهى تبحث عن العبدة الغائبة وفوجئت بأنها ليست بالحجرة. أين "جريس"؟ قالت ذلك بصوت به ألم وخوف.

قلت لها آن تترك الغرفة يا سيدتى".

"احضرها... احضرها على الفور. أنا لا أستطيع أن أبقى وحدى فى غرفة مع شاب مثلك ماذا سيقول مستر "كليمنت"؟ "جريس" "!جريس" إن المجهود الذى بذلته فى مناداة "جريس" أصابها بالكحة الشديدة مما أدى إلى جرح البلعوم وجعلها تنزف من فمها، وأخذت تجفف الدماء التى نزلت من فمها بالمنديل، الذى كانت تحمله بيدها. أسرعت "جريس" إلى الغرفة ومعها إبريق من ماء الليمون الذى سكبته فى كوب وأعطته مسز "كليمنت" لتشرب. أخذت مسز "كليمنت" الكوب ويدها ترتجف وشربت الكوب لآخره بعطش شديد. وأزاحت "جريس" خصلة من شعرها ساقطة على جبينها من القبعة التى كانت ترتديها ومرت بإصبعها برفق على حاجبها غير الممشوط.

"يبدو على مسز "كليمنت" التعب والإعياء. إنى واثقة أنها ترغب بأن تزورها مرة ثانية".

أومأت برأسى وانسحبت من الغرفة وأنا أشعر بالراحة وبعد ذلك وفى فترة الظهيرة كان الجو بارداً مشيت تجاه الحقول، وكان الضوء على النياتات خافتاً فشعرت بأن النباتات تتمايل وتغنى وهى تعطى ثمرة حبات التبغ.

استنشقت الهواء المعطر وتأملت فى جمال ما أراه من خضرة وحقول واسعة ونباتات خضراء جميلة وقارنت ذلك المشهد الجميل بحقول سبيندل هيل

الجرداء ورجعت تجاه المنزل فوجدت "جريس" تقطف الورود اليانعة فى الحديقة المخصصة لقطف الزهور.

حملت السلة لها لتستطيع قطف زهور أغصان الأشجار العالية وفيما هى تقطف تلك الورود العالية كانت تبدو وكأنها غصن شجرة صغير لين وهزيل.
"هل أشار إليك مستر "كليمنت" عن حالة زوجته الصحية؟ اعتقد أنه لم يفعل ذلك فهو صعب عليه أن يتقبل تدهور حالتها الصحية. فهى ليست على ما يرام منذ فترة، فمنذ عامين كانت تمتطى فرستها قادمة من ظلال الغابات إلى ضوء الشمس عندما هاجت الفرس وألقت بها على الأرض ومنذ ذلك الوقت وهى تشعر دائماً بعدم الاتزان وتلتزم بالجلوس على الأريكة وأصبحت صحتها فى تدهور مستمر، حيث إنها مصابة معظم الوقت بالحمى والكحة وذلك من قلة التمرين وقلة استنشاق الهواء النقى بالخارج.

إن مسز "كليمنت" خائفة إلى حد الرعب من العالم الخارجى فهى تشعر دائماً بالخوف الشديد وتتخيل أنها تسقط من على فرستها مرة أخرى. إنها فى الوقت الحالى تستغرق فى النوم فترات طويلة وهذه نعمة حقاً".

"مؤكد أن فى ذلك نعمة كبيرة أقصد لتعطيك أنت فترة راحة".

"لا.... أنا لا أقصد ذلك مستر "مارتش" إنها نعمة لها هى، فهى التى بحاجة إلى فترة راحة -راحة من المخاوف التى تنتابها وحالات الارتباك الشديد التى تشعر بها من وقت لآخر".

شعرت داخلى بلوم من توبيخها على ما ذكرته فأسرعت أقول: "إنها تحبك كأم تحب ابنتها".

أدارت ظهرها ووضعت الزهور بحرص شديد فى السلة وأخذت تحدق فىَّ بنظرة حادة وصلبة. لم أستطع أن أقرأ تعبير وجهها وعندما تحدثت كان صوتها منخفضاً. قالت لى: "أحقاً تحبنى؟ أنت لا تعرف ذلك. إن مستر "كليمنت" هو الذى باع أمى لسكان الجنوب قبل أن أبلغ عامى الأول." أخذت السلة من يدى ومشت بخطى مستقيمة متجهة إلى المنزل.

فى تلك الأمسية كان مستر "كليمنت" مستغرقاً فى القراءة وخاصة فى قراءة "لافتر" وقمت بمناقشته فيما قرأه "للافتر" لننتقل بعد ذلك إلى "صموئيل مورثون" وكتابه الجديد الذى لم ينل إعجاب مستر "كليمنت" وكان من الضرورى بل من المحتوم أن ننتقل فى حديثنا إلى "علم دراسة الجنس الأسود". كما يطلق عليه مستر "كليمنت" ومن هناك تطرقنا إلى مراحل العبودية وقررت أن أبدأ الحديث عن موضوع العبودية بالتعبير عن إعجابى الشديد بإدارة المزرعة وعلاقات المحبة والثقة التى لاحظتها بين السيد والخادم.

"ثقة" قالها مستر "كليمنت" بأسلوب ساخر وهو يلمس لحيته بمفرش السفرة "إن الطريقة الوحيدة لجعل العبيد أمناء هو عدم الثقة بهم". ولقد بدت علىَّ علامات الدهشة عندما سمعته يقول ذلك. "هل يعتبر ذلك مستر "مارتش" فى نظرك تقييماً قاسياً أنى

أعتقد أنه كذلك ولكن مع الأسف فإن ذلك حقيقى. كان هناك فى تلك المنطقة شخص يعتبر جاراً لى كان يسكن من جهة الغرب كان شخصاً يتسم بالرحمة فقد كان لا يعاقب أبداً عبيده، وكان لديه غلام يتسم بالوقاحة والغطرسة فرفع جارى ذات مرة وبدون رغبة سياطه ليضربه ففوجئ بالعبد يضربه على رأسه بغصن من أغصان الشجرة ضربة قوية".

نظر إلىّ نظرة حادة ووضع الشوكة التى كانت فى يده على الطبق ونظر إلى العبد الواقف بعيداً وأشار إليه بأصبعه ليأتى ويأخذ الطبق. وعندما أخذ العبد الطبق وغادر الغرفة أكمل مستر "كليمنت" حديثه قائلاً". إذا تحدثنا عن صور مختلفة من الشر مستر "مارتش" مثل الكسل، الغش، السرقة، الخيانة، الفسق. فإذا وضعت ثقتك فى أحد هؤلاء العبيد فسوف ترى على وجه السرعة كم هو بارع فى تجسيد أحد تلك الشرور أو جميعها".

"ولكن يا سيدى بالتأكيد لابد وأن تأخذ فى الاعتبار الظروف التى يعانى منها العبيد فى عبوديتهم فالخطأ لا يكمن ليس فى العبيد أنفسهم ولكن فى فكرة الاستعباد نفسها فإن القلب عضو قرمزى اللون وله شكل واحد فى كل الأجناس: الأبيض والأسود وبالتأكيد الشر له نفس الصور والأشكال فى كل من الجنسين".

"ولكنى لا أتحدث عن الشر" قال مستر "كليمنت" وهو يضع يده على المنضدة " فإنك لمست صلب

الموضوع هل يتحدث أحد عن الشر فى طفل يبلغ الرابعة أو الخامسة من عمره أى لم يصل إلى سن التعقل بعد بالطبع لا. فالطفل لا يعرف الفرق بين الصدق والكذب ولا يفكر فى عواقب كل منهما ولكنه يفكر فقط فى اصطياد اللحظة وكيفية إشباعها. وكذلك الحال مع العبد الأسود. إن العبيد كالأطفال أى أنهم يجهلون الفرق بين الصدق والكذب وعلينا أن نوجههم ونرشدهم حتى ينضج جنسهم وأنى أعتقد أنه سوف ينضج نسلهم "مستر مارتش".

لا تحكم على الأمور والأشياء من ظاهرها يا "مستر مارتش". يمكن أن تأخذ معك مجلد "مورتون" فسوف ترى بنفسك إن طرقه العلمية وأساليبه فى دراسة العلاقات الإنسانية ليست دائماً صحيحة وحتى "أرسطو" كان أحياناً يخطئ فى حكمه على العلاقات الإنسانية فقد كان على اعتقاد راسخ بأنه لا يوجد هناك أفضل من نسل الهيلانيين فهم الأقرب إلى الحضارة وسلوكياتها". وضع الكوب الذى كان بيده على المنضدة وأشار بإصبعه إلى الحجرة قائلاً "ها نحن الآن أنت وأنا هنا وأجدادنا كانوا من الذين يتغذون على العظام فى وقت ازدهار مدينة أرسطو". ومسح شفتيه بمفرش السفرة الصغير وأضاء ضوء الشمعة فلمع الخاتم الذى كان يرتديه فى إصبعه وأكمل حديثه قائلاً:

"ستنتهى العبودية مع مرور الوقت، ربما ليس الآن، وربما ليس فى حياتى أو حياة ابنى، ولكنها

ستنتهى وذلك لأن الأفارقة ينمون معنوياً ونفسياً عند كل جيل جديد فوجودهم معنا وبيننا قد أثر فى تكوينهم النفسى والاجتماعى وقد غير كثيراً فى وضعهم فقد أتينا بهم "مستر مارتش" من الظلمة إلى النور ولكن العمل لم يكتمل بعد. فدورنا أن نلعب دور الأب الحازم الصارم معهم فلا يجب أن ننسيهم طفولتهم وإذا أدى الأمر إلى فرض العقاب فيجب أن يكون كذلك وذلك لأن الأب لابد وأن يعاقب ابنه المتمرد ولكن ليس فى صورة غضب أو كراهية". ورجع إلى الوراء بكرسيه وهو يشرب من كأس النبيذ الذى بيده. وكانت نبرة صوته عندما أكمل حديثه توحى بالتفكير بعمق فى شىء ما وكأنه يتحدث إلى نفسه ولا يلقى على معلوماته ومفاهيمه.

"إن التحدى المسيحى الحقيقى هو ترويض الزنجى دون المبالغة فى المشاعر، وبهذه الطريقة لا يمكن الوقوع فى الخطأ بين ما يسمى بالأذى الشخصى والعمل الجيد. وقاطعته قائلاً: "ولكن أسمح لى يا سيدى هل تقصد بالأذى الشخصى الضرب بالسياط واستخدام القسوة؟"

"أنا لا أتحدث عن الضرب بالسياط كما يدور فى ذهنكم أنتم القادمين - من الشمال الذين تتصفون بحبكم للإنسان والبشر." أجاب وقد تقدم بكرسيه إلى الأمام". إن الضرب باستمرار بالسياط ليس شيئاً ضرورياً ولكن القليل منه مهم لصالحهم ولصالحنا".

وضع مفرش السفرة على المنضدة بطريقة أنيقة وبشكل مثلث هندسى ونهض من على المنضدة، وقفت معه ودخلنا غرفة المعيشة وتوقف الحديث عن ذلك الموضوع حين عاد الخادم العبد ومعه زجاجة من الكريستال بداخلها براندى وسكب لى مستر "كليمنت" الكثير من ذلك البراندى فى كأسى وعندما انسحب الغلام أكمل مستر "كليمنت" حديثه قائلاً: "لابد وأنك تعتقد أن العبودية هى فقط لخدمة الأسياد وقد يكون هناك بعض الفوائد منها فقد تساعد العبودية على التحرر من الأعمال اليومية الروتينية التى قد تعوق العمل الذهنى ولكنها ليست بهذه البساطة". استنشق مستر "كليمنت" المحلول الأصفر اللون فى كأسه بعمق وقمت بتقليده حتى امتلأت عيناى بالدموع.

"إن العبد يستفيد من المثل الأخلاقى الذى يقدمه له سيده ويعلم كيف يتعايش ويتعامل مع وضع إنسانى أفضل وأسمى وذلك يعد امتحانًا حقيقيًا ليس للعبيد بل للأسياد؛ حيث سيؤدى ذلك إلى نتيجة واحدة من اثنين: الانضباط أو التمرد".

شعرت بأن أطرافى دافئة وثقيلة، فابتسمت له وأومأت برأسى وأنا أفكر فى المثل الذى يقدمه هو لعبيده وكم هم محظوظون أن يكون لديهم رجل مثل مستر "كليمنت". وأنا أيضاً شعرت بأنى محظوظ لأنى أتعرف على شخصية مثله فقد تملقنى بانتباهه الشديد لى وأدهشتنى حكمته الشديدة فى الحياة وشعرت بسعادة بأن أكون ولو جزءاً صغيراً من حياته.

مرت أيامى جميلة فى منزل مستر "كليمنت" وكانت مزيجاً من القراءة والاطلاع والاختلاط بمجتمع جديد على، وكانت إقامتى بمنزله بها الكثير من المرونة فبالرغم من تناولى العشاء معه كل ليلة وتمتعى بالحرية فى استخدام مكتبته أثناء النهار إلا أنى كنت أخلد إلى النوم فى كوخ صغير خاص بالعاملين بالمنزل وكنت أتناول إفطارى فى المطبخ مثل ما حدث فى اليوم الأول عند وصولى إلى ذلك المنزل. وبطريقة أو بأخرى بدأت أستمتع بوجبة الإفطار فى المطبخ مثل ما أستمتع بتناولى العشاء والحديث معه كل ليلة.

"آنى" هى الطباخة التى تقوم بطهى الطعام كان مظهرها الخارجى مثل قشرة الرغيف ولكن من الداخل كانت تتمتع بروح دافئة وجميلة وذات حنان ورقة. كانت أيضاً شخصية تتمتع بروح الدعابة وحب الأمومة. كانت تهتم بأن تجعل أطفالها بجانبها. ابنتها التى كانت فى السابعة من عمرها، طفلة مرحة وتدعى "برودنس" تلعب وتمرح بالمنزل بحذائها اللامع. وكان هناك أيضاً ابنها الذى يدعى "جستيس"، كان غلاماً وسيماً فى العاشرة من عمره أما مهنته فهى نقل الخشب بعربة وكذلك نقل الماء، وكان يقوم بتنظيف أوانى الطهى، ويقدم مساعدته فى المساء أثناء العشاء للخدم الملتف حول مائدة مستر "كليمنت".

وقالت لى ذات مرة: "إنى أشعر بفخر شديد أن "جستيس" تم اختياره للخدمة فى المنزل على العكس من والده الذى كان يعمل بالحقل إلى أن لقى مصرعه

فى حادث ما. ثم وقفت برهة وأكملت حديثها قائلة: "أنا لا أقول إنه كان شخصاً شريراً". لا يا سيدى أن "لويس" كان رجلاً عظيماً" قالت ذلك "آنى" وهى تقلب خليطاً من اللبن والبيض وأخذت الملعقة التى كانت تستخدمها تبطئ فى سرعتها وهى تفكر فى الماضى. وبدأت تظهر على وجهها ابتسامة صغيرة.

"كنت مساعدة للمربين عندما ولد ابن مستر "كليمنت"، كانت والدتى هى التى تقوم بأعمال الطهى فى ذلك الوقت. أتذكر أنى خرجت يوماً وكان ابنه وقتها طفلاً صغيراً جالساً فى عربته وكان فى فترة الصيف، والحديقة مليئة بشذى الزهور والنباتات المختلفة وكان ذلك الشذى رائعاً جداً.

وجاء "لويس" وأخذ يداعب الطفل وقلت له "أليس طفلاً جميلاً" ورد قائلاً "حقاً أنه طفل جميل ولكنك أجمل يا آنى". أكملت قائلة: "وبعد ذلك عقدنا العزم على الارتباط والاحتفال بالزفاف ولكن مستر "كليمنت" قرر أن يكون الزفاف هنا فى المنزل. وقررت مسز "كليمنت" أن يقوم الخدم بذبح بقرة بمناسبة الزفاف وجعلتنى أمكث اليوم كله فى حجرتى قائلة لا يجب أن يرى أحد العروس قبل الزفاف وكان حفل زفاف جميلاً جداً ورزقنى الله بطفلين جميلين لأتذكر "لويس" من خلالهما. "إن "جستيس" يشبه والده" قالت ذلك وهى تنظر إلى ابنها الجالس فى صمت شديد. لم أكن أدرى ماذا يدور بعقل "جستيس" وهو غير أخته فهى تتحدث كثيراً وتعبر جيداً عما بداخلها

ولكن "جستيس" يتحدث قليلاً جداً وفى بعض الأحيان يغنى بصوت جميل وعذب وقوى كأصوات من يغنون بالأوبرا.

ارتبط الطفلان بى لأنى مصدر من مصادر المتعة والتسلية بالنسبة لهما واعتقاداً منهما بأن مستر "كليمنت" قام بشرائى لأجلهم وقد شجعنى حبهما لى بتعليمهما بعض الألعاب البسيطة وكذلك الألغاز. فى بعض الأوقات كنت أقرأ لهم من كتب الأطفال رغم تنبيه "جريس" بأن هذه الكتب الموجودة بالمكتبة ليست للبيع.

وقد لاحظت أن "برودنس" كانت تحب أن تقف على كتفى أثناء قراءتى لها لبعض القصص وذات صباح أدركت أنها كانت تحاول متابعة الكلام والسطور التى أقرؤها لها. وبدأت فى استخدام إصبعى للإشارة للكلام الذى أقرؤه لها وقد لاحظت أنها بدأت فى نطق بعض الكلمات مثل "إلى" و "عند" وفى اليوم التالى بدأت "برودنس" فى رسم وتكوين بعض الأحرف وقد ساعدتها ورسمت لها بعض الأحرف مثل حرف" ب "وحرف "د".

كانت "آنى" تعطينا ظهرها عندما دخلت "جريس" الغرفة لإحضار شىء لمسز "كليمنت" أخذت "جريس" الفرشاة وبدأت فى إزالة الحروف التى كانت ترسمها لى "آنى" فأدارت "آنى" وجهها "لجريس" قائلة لها: "ماذا تفعلين يا جريس؟" ووقفت فجأة عندما رأت بقايا بعض الحروف فى الرماد. فتغير لون وجهها وقالت لى بصوت مرعب.

"ماذا تعتقد أنك تفعل يا بنتى؟"

فنظرت إليها فى ارتباك شديد وأنا غير فاهم للسؤال فسألتنى قائلة: "كم من الوقت أمضيته فى فرجينيا؟".

أجبتها قائلاً "حوالى عام".

فردت قائلة "عام"! وأنت لا تعرف أنها جريمة بأن تعلم العبد الحروف الأبجدية". فأجبتها قائلاً" : ولكن "جريس" تجيد القراءة" وقد استدرت "لجريس" طالباً المساعدة والمعونة وأنا أقول: "لقد سمعتك وأنت تقرئين لمسز "كليمنت" وهى بنفسها تجد متعة فى الاستماع إلى قراءتك لها".

أغمضت "جريس" عيونها كأنها تطلب منى أن أكون صابراً وهى تقول: "نعم فإنى أجيد القراءة أن العبيد الذين هم فى سنى يجيدون القراءة بعض منا قد حالفهم الحظ ويجيدون القراءة ولكن منذ عشر سنين مضت وإلى وقتنا هذا تعتبر جريمة بأن يجيد العبد القراءة والكتابة".

أدارت "آنى" ظهرها متحدثة إلىَّ: "آنى أسمعك تقرأ لهم منذ الصباح الباكر وحتى الغروب كتباً قديمة. فلن أعرض ابنتى أبداً للضرب بالسياط إذا علموا أنها تجيد القراءة".

"الضرب بالسياط؟ "لبرودنس"؟ لتعلم الحروف الأبجدية؟"

"لماذا لا تسأل مستر "كليمنت" عن ذلك كله؟" قالت "آنى" وأكملت "ولكن لا تقل له بأنك كنت تعلم ابنتى الحروف الأبجدية".

واستدارت "جريس" نحو الباب ووجهت حديثها إلىّ قائلة:

"مستر مارتش، هل يمكنك مساعدتى فى جمع بعض التوت لكعكة مسز كليمنت؟"

نظرت إلى "برودنس" ولاحظت بحزن شديد أن عينيها كانتا مترقرقتين بالدموع وتبعت "جريس" إلى الحديقة ولم تتوقف عن المشى حتى بعدنا تماماً عن المطبخ وبعدنا تماماً عن الأنظار مختبئين وراء صف من أشجار التفاح، واستدارت لى تحدثنى بصوت خافت وشفتاها مضغوطتان: "هل تساعدنى مستر "مارتش" فى تعليم "برودنس"؟ فهى ترغب فى التعلم بشدة. "آنى" تتمنى النجاح والتوفيق لها ولكنها لا تعلم ما هو الصالح لها. إن المستقبل يعنى غداً ولاشيئًا أكثر من ذلك فهى لا ترى أبعد ذلك. إن الفتاة قد تحتاج.. بمعنى أنه من الأفضل أن يكون لديهم الوسائل ..." إن "جريس" التى تتميز دائماً بحديثها البارع كانت تتحدث وكأن شخصاً ما قد ربط لسانها ومنعها من الكلام. أخذت نفساً عميقاً وقالت:

"لا يعلم أحد منا المستقبل مستر "مارتش" ولكن "برودنس" فتاة ماهرة وغير باقى الأطفال فلديها سرعة وقدرة على تعلم الأشياء بسهولة ويسر وفى وقت قصير".

"لماذا لا تعلمينها بنفسك؟"

"إنه غير مسموح لى بأخذ أى كتب أو أوراق من المنزل وفى جميع الأحوال لا يوجد مكان خاص فى كبائن العبيد، وهناك مجازفة كبيرة فى أن يرانى أحد وأنا أقوم بتعليمها ولكنى أستطيع أن أحضر لك "برودنس" لمدة ساعة كل يوم فى فترة ما بعد الظهيرة بعد أن تخلد "آنى" إلى النوم".

لم تكن "جريس" تعلم كم تأثرت من طلبها هذا، فعندما تركت "كونكتيكت" لم يكن لدى طموح لأكون بائعاً ولكن كان لدى اشتياق كبير لأصبح معلماً ومدرساً.

كان يبدو لى أن معظم المدارس لا ترتقى بمستوى التعليم وقد تخلفت كثيراً ورجعت إلى الوراء فى طريقة تدريسها للأطفال حيث إنها هدمت حب المعرفة للأطفال ومنعتهم من أن يسمعوا الحكمة التى تنبع من الصوت الداخلى لديهم. لم يكن لدى المؤهلات الكافية لأن أقوم بمثل هذا العمل فى الشمال وحتى فى المستوطنات البعيدة التى تمكنت من جلب العديد من خريجى جامعتنا ومؤسساتنا العلمية من الشمال ولذلك أتيت إلى الجنوب وأنا أعتقد أن السكان هنا يمكن أن يكون لهم رأى آخر فى التعليم ولكنى اكتشفت أنه حتى هنا ترغب المجتمعات فى وجود مدارس معتمدة ومدرسين ذوى شهادات عليا أو على الأقل يكونون من أصحاب السن الكبيرة وتلك المتطلبات لا

تناسبنى ومن ناحية أخرى، نجد الفقراء فى الأماكن النائية لا يهتمون على الإطلاق بتعليم أطفالهم.

ولكن لماذا لا أفعل كما قالت "آنى" بأن أسأل مستر "كليمنت" أولاً؟ فإنه رجل مثقف ومتعلم ويهوى القراءة فأنى متأكد بأنه سيرى أن فى ذلك شيئًا مفيداً لجميع الأطفال وليس فقط لبرودنس".

قطفت "جريس" بشدة بغضب تفاحة من أوراق الشجرة عندما سمعت ذلك وقالت: "إنت لا تعرف مستر "كليمنت"! قد تكون "آنى" على صواب فبرغم قراءاتك... " ولم تنه "جريس" جملتها فقد فكرت كثيراً قبل أن تكمل الجملة ولكنها نظرت إلىّ بحدة من رأسى إلى أسفل قدمى ومن قدمى إلى رأسى مرة أخرى. وفجأة كما لو كانت لم تر شيئاً يستحق النظر إليه استدارت ومشت مسرعة وقفت أحدق إليها وهى تمشى بخطى مسرعة. قابلت مستر "كليمنت" قبل موعد العشاء بساعة وكان يعتذر لى عن عدم استطاعته أن يتناول العشاء فى تلك الليلة بسبب شعوره بصداع مؤلم. "فى الحقيقة مستر "مارتش" رغم أن ابنى يضايقنى أحياناً فى طريقة عمله معى إلا أننى لا أستطيع العمل بدونه فقد مكثت اليوم بأكمله أحسب حسابات طاحونة القمح وماذا ستكون النتيجة إذا وزنت ذرة مسز "كارتر" ستة أو ستين مكيالاً؟

فكرت جيداً بأن أقاوم تلك الإجابة الواضحة بأن ذلك مهم بالنسبة لمسز "كارتر" وله نتائج مهمة بالنسبة

لها وبدلاً من إجابته بذلك سألته بمكر شديد "ألا يمكن لواحد من العبيد أن يتمرن على مثل هذا العمل الروتينى؟" ونظر إلىّ مستر "كليمنت" نظرة لها لوم وتوبيخ قائلاً" : إن ذلك معناه أنى سأساعده على السرقة و التزوير." وأكمل حديثه قائلا: " قل لى مستر "مارتش" هل أنت على دراية بتاريخ عصيان "تايدوتر"؟ إن النساء و الأطفال قد ذبحوا وهم نائمون والفلاحون قد تم مكافآتهم على حسن معاملتهم للعبيد بضربة قاضية على الجمجمة. أن ذلك المجرم السفاح "ترنر" كان رجلاً متعلماً. يجب أن تدرس جيداً تلك المأساة. فبالرغم من مرور عشر سنوات على تلك الواقعة فإنى متأكد أنه يمكن لمثل هذه الواقعة أن تحدث هنا. فكيف يمكن أن أخاطر بحياة زوجتى وأن يتكرر ما حدث فى "تايدوتر" ويذبح أطفالنا ونساءنا عندما يتعلم أحد العبيد القراءة والكتابة ونعانى نحن من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تحدث نتيجة لتعلمه القراءة. إن مؤلفى الكراريس من أبناء الشمال يمكنهم قول الكثير فى هذا الموضوع. فلن أسمح لأحد من هؤلاء العبيد أن يجيد القراءة والكتابة فى مزرعتى".

لم أسمع صوته عالياً بهذه الدرجة من قبل وضغط إصبعه على رأسه قائلاً "أرجو أن تسامح حساسيتى المفرطة فى هذا الموضوع فأنا مضطرب قليلاً. لم أقصد أن أسبب لك جرحاً أو شيئاً من هذا القبيل" ثم انحنى وهو يترك الغرفة متمنياً لى قضاء أمسية سعيدة. ذهبت إلى المطبخ طالباً شريحتين من

التفاح، وذهبت لأتناول عشائى منفرداً بنفسى ومصحوباً بشعورٍ من الارتباك والحيرة.

فى الصباح كنت قد اتخذت قرارى وفى الليل كنت أنتظر حضورهم، . انتظرت "جريس" إلى أن رأت ضوء مصباحى فى غرفتى فما أن رششت وجهى بالماء من الإبريق حتى سمعت خريشة على الباب. كانت "جريس" واقفة هناك فى الظلام وبجانبها "برودنس" لم تبد "برودنس" وكأنها مستيقظة من النوم وإنما كانت فى حالة يقظة ونشاط.

"إنك استطعت إحضار "برودنس"! ألم تشعر "آنى" بك وأنت تنهضين الطفلة من النوم؟

أشارت "برودنس" إشارة وهى تقول لى: "ماما تغط فى نومها بصوت عالٍ ولا تسمع شيئاً على الإطلاق".

"إن والدتك تنهض قبل الطيور" قالت "جريس" برفق لتحضر الماء الساخن لحمام مستر "كليمنت" وكذلك لطهى الطعام ولهذا السبب فهى تقع فى النوم مباشرة بمجرد أن تضع رأسها على الوسادة".

أحضرت القلم الرصاص وورقة كبيرة من الفولسكاب وبدأت فى فتح قاموس و"بستر" وبدأت فى العمل وكانت "برودنس" كما تنبأت "جريس" تلميذة نجيبة. فمجرد أن تعلمها شيئاً يرسخ فى ذهنها كما يلصق الطمى بجزمة البوت. فإنى أتصور أنه كان من الممكن أن تقضى الليلة كاملة تدرس الحروف الأبجدية

لولا أن رأتنى "جريس" وأنا أتثاءب فطلبت منى إيقاف الدرس لشعورى بالنعاس. فنظرت "برودنس" إليها بنظرة بها خيبة أمل قائلة "أوه".

"إنه من الواجب ألا نفرض أنفسنا أكثر من اللازم على حسن معاملة مستر "مارتش" وقلبه الطيب وأنت أيضاً بحاجة إلى النوم". ووجهت حديثى إلى "برودنس" فقلت لها": يمكن أن تأتى مرة أخرى. "فأنت بنت ماهرة وملتزمة وذاكرت دروسك بجدية".

واتفقنا أنه إذا سمحت الظروف وكانت الأمور على مايرام فسوف نتقابل ليلة بعد الأخرى حسب فترة وجودى وبقائى عند مستر "كليمنت".

وعند الباب استدارت "جريس" وابتسمت لى وأيقنت أنى لم أر يوماً ابتسامتها كاملة منذ وصولى هنا وقالت لى "شكراً مستر مارتش". وكان صوتها دافئاً وشعرت وكأنى أردت أن أدفئ نفسى داخل ذلك الصوت المليء بالدفء والحنان.

وفى الأسبوعين التاليين شعرت بأن حياتى أصبحت كاملة ولم أشعر ذلك الشعور من قبل طيلة حياتى. كنت أقوم بقراءاتى أثناء النهار وأعمل على تقوية قدرتى فى المحادثة فى المساء وفى الليل أجد نفسى أقوم بعمل ساعد كثيراً على رفع الجانب المعنوى بداخلى. وفى الليالى التى لا تحضر فيها "جريس" مع "برودنس" للاستذكار كنت أقوم بتحضير الدروس التى سوف أشرحها لها فى الليالى التالية.

كنت أتطلع بجانب كبير من السعادة فى كل جزء أقوم به أثناء اليوم، وهى نفس السعادة التى أشعر بها عند إعطائى الدروس لها. وقد تقدمت "برودنس" بشكل ملحوظ أكثر مما كنت أتصور واكتشفت أن تلك المدرسة الصغيرة هى التى كانت تمدنى بالإلهام اللازم للقراءة.

بدأت أحب الخمرة البوردو الحمراء، التى كنت أشربها فى المساء مع مستر "كليمنت" ولكن فى ليالى الدروس كنت أمنع نفسى من الشرب حتى أظل يقظاً ومنتبهاً. وفى إحدى تلك الليالى لاحظ مستر "كليمنت" أنى لا أشرب وعلق على ذلك وضحكت وقلت له أن يصب لى كأساً بسخاء شديد لبقية العشاء، وكان نتيجة ذلك إنى لم أشعر باليقظة والانتباه فى تلك الليلة فكان الدرس طويلاً ومملاً، وكنت أشرح بملل فى نقطة تربوية مهمة حين لاحظت أن تلميذتى ولأول مرة راحت فى سبات عميق فنظرت إلى "جريس" التى ابتسمت وهى تهمس قائلة وهى تنهض "سوف أحملها إلى غرفتها". وأسرعت قائلاً لها "ولكنها ثقيلة بالنسبة لك".

أبداً إنها ليست ثقيلة على الإطلاق فقد أصبحت قوية نتيجة أنى أحمل أحياناً مسز "كليمنت". فنظرت بعيداً وشعرت بحرارة شديدة فى وجهى وبخجل وبغضب عندما تخيلت "جريس" وهى تحمل مسز "كليمنت" وتقوم بتنظيف الأوانى التى تستخدمها فى غرفتها.

"إنه لا يصح ذلك ! أى لا يصح أن تقومى بمثل هذه الأعمال".

فابتسمت "جريس" ولكن لم تكن ابتسامتها واحدة من تلك الابتسامات النادرة التى تشبه سطوع الشمس ولكنها كانت ابتسامة حزينة وقالت لى: "إذا كنت تعيش برأسك فى فم الأسد فلابد أن تلاطفه".

ربما يكون جمال شفتيها أو ربما الشعور بالشفقة أو الإعجاب بكرامتها وصبرها وقوة احتمالها أو ربما تكون تلك الخمرة البوردو الحمراء أو ربما يكون ذلك كله الذى جعلنى أقف وأمد يدى لها وألمس خدها وأقبلها.

كنت فى الثامنة عشرة ولم أقبل امرأة من قبل. كانت هذه أول قبلة. أن طعم شفتيها الجميل كان يشبه ماء الربيع البارد فقد شعرت بالدوار لدرجة أنى لم أكن أستطيع الوقوف وشعرت للحظة بنعومة لسانها فى فمى ثم مرت يدها بخفة على وجهى وقامت بدفعى برقة بعيداً قائلة "ليس هذا من الصواب لكل منا". تملكنى شعور بالحيرة والارتباك. كنت سعيداً بشعورى بالقبلة الأولى وتملكتنى رغبة غامرة بأن ألمسها مرة ثانية، ألمس جسدها كله وأفقد نفسى بداخلها وتملكنى شعور وإدراك غريب بالذنب لما أشعر به من قوة غير لائقة بداخلى ذلك أن الشهوة تملكتنى إذاً فلن تستطيع تلك المرأة أن تقاوم رغبتى.

"أرجو أن تغفرى لى". قلت هذا بصوت يكاد أن يسمع

ابتسمت مرة ثانية ورفعت "برودنس" كأنها لا تحمل شيئاً على الإطلاق وهمست قائلة "لا تكن غبياً".

فتحت لها الباب فذهبت فى ظلام الليل. ظللت مستيقظاً طوال الليل أتأمل طبيعة تلك الرغبة التى غمرتنى وجعلتنى لا أشعر بشىء على الإطلاق سوى إشباع تلك الرغبة. مكثت أتأمل فى طبيعة تلك الرغبة ولماذا يمنح الله الإنسان عواطف وأحاسيس من الصعب التحكم فيها أو السيطرة عليها. وإذا كنا قد خلقنا على صورته فأى جزء من الطبيعة الإلهية يمكن أن يكون انعكاساً لتلك العواطف والأحاسيس. ولم أصل إلى أية إجابة فأخيراً سمعت صوت العصافير تغرد معاً أنشودة حلول الفجر فوجدت نفسى أستسلم للإغراء. فقد كانت هناك رعشة دافئة مصحوبة بشعور من العار ثم استسلمت للنوم. استيقظت متأخراً فقد استسلمت لنومٍ عميقٍ وشعرت بحرارة الشمس وأدركت أنه وقت متأخر من الصباح ووجدت أمامى رجلاً داخل كابينتى يشبه عصفور الصباح ينظر إلىّ من خلال نظاراته.

"مارتش؟" قال الرجل وهو يمسح قبعته ليكشف عن رأس صلعاء.

"أنا "هاريس أوجستس" مدير مستر "كليمنت". فقد قال لى إنك ستكون هنا ولكنى لم أتوقع أن أجدك نائماً. سأكون شاكراً إذا سمحت لى باستخدام

الغرفة فإنى مسافر منذ أسبوع وأنت تعرف متاعب السفر والطريق. إننى أشعر بتعب شديد كما أنى أريد أن أغتسل ومازال أمامى الكثير من العمل اليوم".

اعتذرت له بشدة وقمت ألملم متعلقاتى وفوجئت بوجود القلم والأوراق والحبر وقاموس و"بستر" وخط "برودنس" وتصحيحى لما كتبته وجدت كل ذلك مبعثراً على المكتب فتحركت فجأة وبطريقة غريبة ووضعت بروازاً كبيراً كحاجز بين "هاريس" وبين ما على المائدة من أوراق وكتب متمنياً أن أكون قد نجحت فى حجب رؤيته للمائدة.

وبدأت أتحدث بسرعة محاولاً تشتيت فكره قائلاً "أتمنى أن تكون قد وفقت فى مهمتك وأن الطريق لم يكن وعراً". فأجاب "هاريس" الذى -كان يبدو عليه التعب والإرهاق -وهو يمسح الغبار من شعره قائلاً "نعم نعم لقد وفقنا كما كنا نتوقع".

ولكن أى طريق مشيت فيه أنى أفضل طرق فرجينيا..." كنت ممسكاً بملابس داخل صرة وبحركة سريعة بمقبض يدى وضعت قميصاً على صفحات الأوراق التى على المنضدة" أود أن أريك خريطة..." ولكنى فشلت ووقعت الخريطة على كومة الأوراق التى على المنضدة فأسرع "هاريس" وهو نافد الصبر بإحضار الخريطة لى من على المائدة فقمت مسرعاً بإخفاء أوراق "برودنس" تحت سترتى وقام وأعطانى قميصى. اتجهت "نحو الباب وعندما مددت يدى لآخذ القميص منه، فأفلتت واحدة من الأوراق من يدى

ووقعت على الأرض ولكنها لم يظهر منها إلا ظهرها، بسرعة تحركت لآخذها من على الأرض، وكان "هاريس" يلاحظ سلوكى الغريب فانحنى أيضاً ليأتى بالورقة من على الأرض فتخبطت رأسانا وكان كل منا يمسك بطرف من الورقة. فشددت الورقة فتمزقت وأدار "هاريس" الجزء المتبقى من الورق إلى الخلف فتجهم وجهه:

"ما هذا بحق الجحيم؟"

فرد وجهه العابس المتهجم المرسوم عليه الكثير من الخطوط الرفيعة، كان من الواضح أنه قرأها بالورقة: أنه لشىء جميل أن أعود إلى المنزل فأجد جزءاً رائعاً لعائلة "كليمنت" مقابل ضيافتهم لك! ما هذا أيها الجبان القادم من الشمال؟

قمت بهز رأسى وكان فمى مليئاً بمادة تشبه القطن من جراء الخمر، الذى شربته ليلتها وقلة النوم وشعرت بعصارة مريرة تصعد من أعلى معدتى إلى حلقى.

"من كتب هذا"؟

لم أجب عليه

"سوف تجيب على هذا السؤال لمستر "كليمنت". أعتقد أن زيارتك هنا قد انتهت".

كان لا يزال يرتدى ملابسه الملوثة بالطمى وهو متجه نحو الباب ثم مشى وأغلق الباب خلفه بعنف. راقبته من خلال النافذة، جلست جلسة مَنْ لا يدرى

ماذا سيفعل ماذا سأفعل. أردت أن أحذر "جريس" ولكنها مشغولة مع مسز "كليمنت" فمن الصعب أن أتحدث إليها. لم أشعر قط فى حياتى بالوضاعة؟ كما شعرت ذلك الصباح. مشيت بقلب ثقيل متجهاً إلى المنزل. كان الكلام يسبقنى. كانت "آنى" فى المطبخ، جالسة ورأسها مدفون داخل ذراعها والذراع الأخرى حول "برودنس" وكان وجهها الصغير مبللاً بالدموع. نظرت "آنى" إلىّ وأنا أدخل المطبخ نظرة بها ألم وتوبيخ وخوف. ونظرت إليها بأسف شديد قائلاً: "أنا آسف حقاً". نظرت إليها" كان صمتها أقوى وأبلغ من أى كلام. اتجهت نحو المكتبة ووجدت مستر "كليمنت" جالساً وفى يديه ورق الفولسكاب، وكان واقفاً بجانبه شاب صغير يشبهه تماماً فأدركت أنه ابنه، وكان "هاريس" واقفاً بينهما وصغر حجمه البدنى والاجتماعى كان واضحاً جداً بين طول كل من مستر "كليمنت" وابنه.

وعندما تحدث "كليمنت" شعرت وكأنه أفرغ كأساً باردة من ماء الآبار على رأسى "حيث إنك كنت خائناً لحسن الضيافة ولم تهتم بمطالبى وأمنياتى فمن واجبى إذًا أن أسألك أى جزء من ممتلكاتى قمت بتلويثه بتعليمك".

كنت أشعر بذنب عظيم إلى أن جاءت تلك اللحظة التى أستخدم فيها كلمة ممتلكاتى أى أن كل من "برودنس" الطفلة و"جريس" يعتبرهما جزءاً من ممتلكاته وفجأة توقف الشعور بالذنب عندما تذكرت

كليهما. "أنا آسف حقاً أن حطمت أمنياتك لأنك أنت نفسك أشرت ذات مرة أن تعليم الشخص الإفريقى هو جزء من نظامك أى أنه واجب وعبء عليك".

"كيف تجرؤ أن تتحدث مع والدى بهذه الطريقة؟" قال ابنه "كليمنت" وهو يتحدث بصوت خشن ومرتفع يشبه نباح الكلاب. ورفع الأب يديه ليمنعه من أن يتقرب بخطوة أخرى نحوى.

وفى تلك اللحظة كانت "جريس" تقرع الباب فقال لها مستر "كليمنت":

"تفضلى بالدخول". دخلت "جريس" الحجرة وكانت تنظر إلى أسفل وتتجنب النظر إلىّ.

"ماذا هناك يا فتاة؟" سألها مستر "كليمنت" بعصبية شديدة.

رفعت "جريس" رأسها ونظرت مباشرة فى عينيه قائلة:

"أنا التى فعلت كل هذا يا سيدى. فقد طلبت من مستر "مارتش" أن يعلم "برودنس" القراءة والكتابة ضد رغبته ونيته ولا تعلم "آنى" بذلك فقد فعلت هذا ضد رغبتها".

"أشكرك يا "جريس" على صراحتك. يمكنك أن تعودى لمسز "كليمنت" الآن". فأومأت برأسها وتركت الغرفة ولم أتمكن أن أرى حتى عينيها ولو للحظة ولكنى شعرت براحة غريبة لرد فعل مستر "كليمنت" فقد كان لطيفاً ومهذباً فى حديثه معها.

"أعتقد بأنه لن تأخذ أكثر من ساعة فى جمع متعلقاتك والرحيل من هنا، وسامحنى إذا كنت لن أقوم بتوديعك". واستدار مستر "كليمنت" للخلف وأعطانى ظهره ومشيت متجهاً نحو الباب كطفل يعاقب على ما فعله.

لم تمر ربع ساعة وكنت ماشياً فى الطريق الذى أتيت منه. عندما كنت فى منزل مستر "كليمنت" لم أشعر قط بالوقت فقد مر شهر مايو ثم ها نحن فى شهر يونيو وهأنا أتجه نحو البوابة الرئيسية لمنزل مستر "كليمنت" توقفت عندما سمعت صوته ينادى على قائلاً:

"لحظة من فضلك يا مستر "مارتش" هناك شىء لابد وأن تراه قبل أن ترحل من هنا". شعرت براحة من كلامه وتمنيت أن يكونوا جميعاً قد وصلوا إلى شروط للاتفاق على رحيلى. وضعت حقائبى على الأرض وتبعته إلى الطريق الشمالى المؤدى إلى مزارع التبغ حيث كانت أوراق شجر تبغ العام الماضى مازالت متعلقة بالأشجار. وفى داخل المنزل اندهشت عندما رأيت كل العبيد والخدم وعاملى الحقل قد تم جمعهم ورأيت أيضاً "جريس"، كانت رأسها ملقاة إلى أسفل على مقعد طويل وذراعاها مشدودتان فوق رأسها وقد ربطوا إبهاميها بحبل. وأخذوا فى ربط كعبيها معاً وقد لفوا حول ظهرها حزاماً عريضاً من الجلد بشدة حتى يصبح جسمها ممدوداً بشدة على المنضدة. وقد

كشفوا عن قصد الجزء الأسفل من جسمها. فصرخت بصوت عال قائلاً: "لا داعى لهذا الانتهاك الصارخ. وبالكاد رفع "كليمنت" ذقنه إلى أعلى ونظر إلى مستر "هاريس" فسحب "هاريس" سوطاً طويلاً جداً فى مثل طوله من الجلد وتحرك بالقرب من "جريس" بحوالى ستة أقدام ثم لف السوط وحركه إلى أعلى ونزل به على جسمها محدثاً بذلك صوتًا حادًا لا يحتمل. كانت الضربة قوية وعنيفة لدرجة أنها أخذت معها قطعة من جلد "جريس" علقت بالسوط ووقعت بعد ذلك على الأرض وأخذ الدم يتساقط من جسمها على الأرض. كان جسمها كله يرتعش ويرتجف من حدة الألم وشدته.

صرخت بصوت عال مرة ثانية أرجوه أن يرحمها ويتركها قائلاً: "أتوسل إليك من أجل الرحمة". كان وجه مستر "كليمنت" بارداً ولا حياة فيه مثل وجوه التماثيل التى يقتنيها. وضربها هاريس بالسياط مرة أخرى ولكن بمنتهى الدقة هذه المرة، وكانت هذه الضربة أسفل المؤخرة موازية تماماً للضربة الأولى. كانت "برودنس" تعوى وقد دفنت وجهها فى تنورة "آنى" ورفع "كليمنت" يده أخيراً فشعرت براحة شديدة تسرى فى جسمى لنهاية ذلك المشهد الرهيب الملىء بالقسوة والرعب.

"أديروا وجه الطفلة لترى بعينيها العقاب" قال "كليمنت" هذا بحدة. فرفعت "آنى" وجه الطفلة

ومسحت بيديها وجهها المبلل بالدموع وأدارت وجه ابنتها لترى ذلك المشهد المرعب.

"استمر" قال "كليمنت". ضربة بعد ضربة وبدأ السوط يحفر بعمق فى جسد "جريس" المرتجف. وبدأت دموعى تنهمر من عينى بغزارة على الأرض ملتحمة مع الدم المتساقط قطرات من على المائدة. شعرت بضعف شديد فى ذراعى حتى أننى لم أستطع رفع يدى لأمسح المخاط الساقط من أنفى.

وأخيراً رفع "كليمنت" يده مرة أخرى وكان شعاعٌ من ضوء الشمس ساقطاً على يديه فلمع الخاتم الذى يرتديه فى أصبعه.

"شكراً مستر "هاريس". هذا يكفى".

أخذ الرجل قطعة قماش رمادية اللون ومررها على السوط ليمسح الدم الذى كان يكسوه ثم وضعه فى جرابه مرة أخرى.

وبسرعة أخذت النساء الواقفات فى فك أيدى "جريس" وأحضرن أباريق مليئة بالمياه ليغسلن الجروح التى لحقت بجسدها.

كانت "جريس" ترقد على المنضدة ووجهها بعيد عنى، رفعت وجهها وأدرته نحوى نظرنا إلى بعضنا البعض فشعرت بضربة قوية وأنا أنظر إليها. ضربة أشد وأقوى من سندان الحداد الذى لو كان سقط علىّ من السماء لما كنت شعرت به.

الفصل الثانى

جـــراح

١ نوفمبر ١٨٦١

عزيزتى:

لقد وصلنى خطابك الجميل وكذلك محتويات الطرد الذى بعثته إلىّ شكراً لك على ما كتبته داخل خطابك من أمنيات رقيقة وكلمات عذبة وأشكرك أيضاً على الهدية الرقيقة الجميلة من الصوف الدافئ الذى بعثته إلىّ داخل الطرد. لقد سعدت عندما علمت أنك أنت والبنات بصحة جيدة وعلى ما يرام رغم حلول البرد القارس، أرجو أن تبلغى "جو" ابنتى العزيزة ألا تنظر نظرة احتقار أو اشمئزاز إلى فن التطريز الذى تقوم به بل يجب أن تنظر إليه نظرة إيجابية؛ حيث إنى أرتدى الآن فى قدمىَّ الجوارب الزرقاء التى صنعتها يداها.

كنت أود أن أكتب إليكم خطاباً أطول من هذا ولكن الظروف تقتضى بأننا لابد وأن نتحرك من هنا فى وقت ليس ببعيد ومن ثم ينبغى القيام بالعديد من الأشياء. ولن أكون أنا شخصياً مستاءً من ترك ذلك

المكان والرحيل من هنا رغم أن هذا المكان قد يكون أفضل من غيره من الأماكن الأخرى.

إذ كان هناك من تساورهم الشكوك تجاه قدرة الزنجى القادم من إفريقيا على التحرر من العبودية فعليهم أن يأتوا إلى هاهنا ويقفوا بجانبى فى مستشفى الميدان التى أنشأت فى هذا المنزل الذى يملكه رجل كان يتباهى دائماً بأنه من سلالة الفرسان.

ولكنه لم يعد الآن من سلالة الفرسان لأنه لم يحافظ على قيم وتقاليد تلك السلالة، وأصبح يتسم بأخلاقيات الطبقة الوضيعة. إن معظم عبيده قد هربوا قبل نشوب الحرب هنا فى هذه الجزيرة والتى سبقت الهجوم الذى وقع علينا على شاطئ فرجينيا. ولكن بقيت هناك عبدة واحدة تتطوع لتساعد الجرَّاح وقد عملت معه دون كلل مكرسة كل جهدها ووقتها له. وقد لاحظت أن معظم الرجال الذين قامت برعايتهم قد تحسنوا بسرعة وبصورة أفضل من هؤلاء الذين كانوا تحت رعاية الطبيب الجراح.

وقد أشاد الضابط المختص بعملها الدءوب فى المستشفى لدرجة أنه وجد لها عملاً فى مستشفى العاصمة بأجر مقبول وهى التى كانت عبدة فى أحد المنازل منذ نعومة أظافرها ولكن لأن معدنها أصيل فقد رفضت تلك الوظيفة؛ حيث إنها رفضت أن تترك صاحب المنزل الذى أصبح ضعيفاً وهزيلاً نتيجة تقدمه فى السن ذلك الذى تعمل عنده بحجة أنه غير

قادر على البقاء وتحمل مسئولية نفسه بدونها. وأنى أعلم جيداً أن هذا الرجل المسن قد أصدر ذات مرة أمراً بضرب تلك العبدة بالسياط لخروجها عن أوامره. يا له من مثل حى وقوى للتسامح المسيحى، إن البعض يصفون هؤلاء العبيد بأنهم أقل من البشر ولكنى أصف هذه العبدة بأنها مثال حى للقداسة -أى نموذج لابد وأن يحتذى به خاصة من نسائنا الصغيرات وهن لسن بحاجة إلى نموذج أفضل من والدتهن التى تشع كمالاً والتزاماً والتى أعلن لها حبى وإخلاصى الدائم..

كنت أعلم أنه لابد وأن أطفئ الشمعة حيث يمكن أن يكون ضوؤها يسبب إزعاجاً لهؤلاء المصابين والذين أشترك معهم فى الجلوس على الأرض، ذلك المكان الذى كان من قبل غرفة المعيشة التابعة لمسز "كليمنت" ولكنى انتظرت لحظة قبل أن أطفئ الشمعة وأخرجت من جيبى الظرف الصغير ذا اللون البمبى الذى كنت أحتفظ به هناك. وبحرص شديد أخرجت خصل الشعر الخاصة ببناتى الأربع ووضعتها فى دائرة ضوء الشمعة. كانت خصلة منها صفراء مربوطة بشريط من الساتان ذى اللون البمبى وهى خاصة بشعر "آمى" ابنتى الصغيرة وخصلة أخرى بنية اللون خاصة بابنتى "بث" وأخرى ذات اللون الكستنائى خاصة بابنتى "مج" وتبقى خصلتان سميكتان من اللون البنى الغامق ورغم تشابه تلك الخصلتين فى اللون وطبيعة الشعر فلم أجد صعوبة فى التمييز بينها حيث أخذت الخصلة التابعة "لجو" ووضعتها مع خصل شعر أخوتها، إن

ابنتى الشقية قد دمرت شعرها تماماً حيث إن الأطراف النهائية لشعرها كانت مقصفة ومربوطة بخيط عادى.

مكثت أحدق فى خصل شعر بناتى لمدة دقيقة كاملة وأنا أتخيل رءوسهن الجميلة المحببة إلى قلبى تنمن بسلام على وسادتهن فى كونكورد. وضعت الخصلات فى الظرف ثانية وأطفأت الشمعة. واحتفظت فى يدى بالخصلة الأخيرة التى كانت تخص زوجتى ووضعتها على خدى وانتظرت لأنام ولكن النوم يكون شبه مستحيل وأنا أركض على لوح خشب وسط أنين وغطيط الجرحى والمصابين؛ ولهذا كان هناك من الوقت الكافى لأتأمل فى أن رغم كل ما شاركت فيه زوجتى فى حياتى من حب وذكريات جميلة لم أستطع أن أروى لها ما حدث فى فرجينيا فى فصل الربيع الذى كان ربيعاً حزيناً.

إن ما جرى فى فرجينيا كان قبل أن أقابل زوجتى بسنين كثيرة. إن الذنب الذى شعرت به حينما انخدعت بأخلاق مستر "كليمنت" المزيفة وبثرائه الفاحش لم يعد يؤرقنى فقد خف كثيراً ذلك الشعور بالذنب تدريجياً من ألم حاد إلى صراع ممل ومنذ ذلك الوقت وأنا لدى أمنية خاصة وهى أن أتذكر ذلك البائع المتجول الذى كان على استعداد للقيام بأى شىء فى سبيل بحثه عن المعرفة وبالتأكيد كنت لا أنوى أن أقص عليها بعد أن رأيت بعينى موقفها الصعب تجاه بعض القضايا مثل قضية العبودية.

فبعد خروجي من منزل مستر "كليمنت" استمررت في حرفتي الأولى كبائع متجول. فمنذ شبابي وأنا غير أصولي في إيماني ولم أتفق مطلقاً مع العقيدة الكلفينية التي تقول بأننا نحن جميعاً وحتى الأطفال الصغار مشبعون بالخطيئة ولا أعتقد فيما يقال عن تدخل الله في كل ما يفعله الإنسان فبالنسبة لي إن الله موجود في جمال الطبيعة وفي وداعة القلب البشري.

ولبعض من الوقت وفي كنيسة صغيرة تقع في ضواحي بيترسبرج كنت أشعر بأن هناك قوة كشفت عن نفسها لي وأوضحت لي عن الطريقة التي سوف أتبعها لمواصلة الرحلة.

وفي أثناء رحلتي بعد أن تركت منزل مستر "كليمنت" لاحظت وجود مكان لدراسة الكتاب المقدس فعقدت العزم على الانضمام إليه ولم أدر لماذا الانضمام إليه فلقد أقلعت عن الاعتقاد بأنه يمكن أن يكون هناك استفادة روحية من تلك الاجتماعات التي تقوم بدراسة الكتاب المقدس. حيث إن سكان الشمال يهتمون بما هو طقسي أما سكان الجنوب فهم مهتمون بأمور الخرافات. وبالرغم من ذلك كله فقد دخلت إلى ذلك المكان الصغير، الذي كان يقع في ذلك الجزء من المربع مجاور للفناء الذي يعرض فيه العبيد للبيع في مزاد وكان ذلك البيع يحدث أثناء دراسة الكتاب المقدس.

ومن السخرية أنه أثناء الاجتماع تسمع أذن واحدة من آذاننا عن الفرح الأكبر المنتظر لجميع المؤمنين وتسمع الأذن الثانية صوت البائع بالمزاد العلنى وهو يصرخ قائلاً "أحضروا الزنوج". وعندما كنا نتأمل فى التعاليم الدينية التى يمكن أن يتعلمها المرء من حياة التقوى والإيمان، كان هناك صوت يصرخ ويشير إلى وجود طفلين بدون أمهما. إن عقلى فى الحال أخذ يفكر فى الآية التى تقول "دعوا الأطفال يأتون إلىّ"، وإذا كان لدى الوسائل كنت مشيت إلى الفناء حيث المزاد العلنى وأعطيت لهؤلاء الأطفال حريتهم وحررتهم من الظلم والاستعباد. وما آثار انتباهى ودهشتى هو أنه لم يكن أحد داخل الكنيسة يبالى بما يحدث فى الفناء المجاور حيث المزاد العلنى للعبيد. وعندما طلب قس الكنيسة جمع التبرعات اللازمة لنشر الإنجيل فى إفريقيا لم أعد أتحمل فنهضت واقفاً فى مكانى وسألت كيف لا نرسل الخبر السار وبأرخص الأسعار إلى الكائنات المجاورة لنا وأقصد بذلك العبيد الواقفين على بعد خطوتين من الكنيسة وبعد أن قلت ذلك سمعت الجمع يهمس وطلب أحدهم أن أترك المكان وبالفعل تركته وبسرعة وبدون أن أشعر بالندم.

وفى الخارج تم بيع الطفلين داخل المزاد، وكان الدور الآن على شاب فى الثلاثينات من عمره ذى قامة طويلة ورياضية، وأعلن صاحب المزاد أن هذا الرجل هو رجل أسود حر وطليق وهو معروض للبيع

لأنه لم يدفع الضرائب المفروضة عليه من قبل بلدته. وكان الرجل يبكى ولم أندهش لبكائه، لأنه موقف لا يحتمل بأن يحصل المرء على حريته ثم يشعر بعد ذلك أنها ستسلب منه.

وكان الدور بعد ذلك على صبى فى الرابعة عشرة من عمره تقريباً ذى شعر بنى اللون ناعم وكان أبيض البشرة وبياضه ناصع أكثر من الواقفين من جمهور المشترين، وبدأت الجموع فى إطلاق صيحات غير لائقة عن الصبى وتخص بالتحديد عائلته وأبويه وأخذ وجه الصبى ذو النمش الكثير يزداد احمراراً وكان المزاد عليه متقطعاً أى كان هناك من الجموع من يتردد فى شرائه، وأخذ صاحب المزاد فى الإعلان عن مزايا ذلك الصبى وإغراء الجموع بشرائه وبدأ والجموع يطلقون صرخاتهم، بعض منهم يستهزءون بالصبى لأنه أبيض اللون؛ وكان هناك رجل واقف بجانبى هز رأسه فى أسف شديد وتقابلت نظراتنا وشعرت بأن هناك من يشاركنى ألمى على ذلك المشهد المشين وقال بنبرة منخفضة: "هذا خطأ جسيم". وأجبته قائلاً" "حقاً إن هذا مؤسف".

"إن الرقيق الأبيض يشكلون مشكلة عند بيعهم أكثر مما يستحقون".

وقد انخفض ثمن الصبى إلى ٢٥٠دولاراً وعندما تم تسليمه إلى المشترى رأيت امرأة واقفة بعيدة تلوح بيديها للصبى وهى تبكى حيث إنه من المحتمل أنها لن

تراه بعد ذلك. تركت المكان حيث لم أكن أستطيع الوقوف من شدة التعب ومكثت أسأل نفسى كيف كان الموقف سيختلف إذا كان القس قد سمح لشعبه بأن يخرجوا خارج الكنيسة الصغيرة إلى ذلك الفناء المريع وهم يحملون الكتب المقدسة فى احتجاج ومعارضة لهذا الوضع المشين والمؤسف. ومنذ ذلك اليوم كنت قد اقتنعت بأن المنبر هو المكان الذى من خلاله يمكن أن نشجب ونهاجم ذلك النظام الهمجى ولكن كيف سأجد مكانى هناك؟ لم أكن أدرى كيف سأتمكن ذات يومٍ من الوقوف على المنبر لمهاجمة ما يحدث من أمور بها عنف وقسوة وهمجية.

أكملت السير على قدمى وأنا متعب جداً كانت الطرق محملة بالغبار، وكان الجو شديد الحرارة وكذلك فى الشتاء تكون تلك الطرق مليئة بالجليد وقطع الثلج.

وعندما كنت أسير أبحث عن أسواق جديدة وجدت نفسى فى سوق تشبه الديسمال سومب، وهناك كدت أفقد الطريق وسط عاصفة مرعية كدت أشعر بالموت كنت أجرى وسط وميض البرق والأغصان المتساقطة من الأشجار من قوة العاصفة والسيول، التى كانت تنزل بغزارة من السماء. ولكنى تمكنت من أن أخوض كل ذلك ونجحت فى مواجهة الصعوبات والتحديات التى واجهتها بعد ذلك، وتمكنت من العيش بنسبة ضئيلة من المال تقدر بحوالى ٣٢ فى المائة على كل بيعة صغيرة، وتراكمت أرباحى حتى كان

لدى ما يكفى من المال لشراء حصان وأرض كبيرة وفى نهاية العام الثانى، وعندما ارتفعت أرباحى استعنت بمجموعة من شباب كونكتيكت ليعملوا لدى مقابل عمولتهم التى سوف يحصلون عليها على كل بيعة تتم، وعندما قمت ببيع أجمل الأشياء التى كانت معى أمام أعينهم، كان العائد المادى الذى حصلت عليه من تلك البيعة قليلاً جداً.

وعدت إلى الوطن من خلال مدينة نيويورك حيث وقفت فى برودواى لأوصى على البدلة التى كنت قد وعدت نفسى بها وعدت إلى سبيندل هيل وأنا أشعر بانتصار وفخر شديد. اشتريت لوالدى بيتهم الجديد وغامرت بمبلغ من المال عاد علىّ بكثير من الأرباح فى نصف دستة من المصانع فى نوجاتك.

وبالرغم من أنى أود دائماً أن أعتبر نفسى فيلسوفاً ولكن هذا لم يمنعنى من الحصول على ما كسبته يداى. فباختصار وفى أوائل العشرينيات أصبحت من أصحاب الأموال وأملك العديد من المال يكفينى لدخول مكاتب بوسطن الضخمة المزدحمة بالكتب، وهناك بدأت فى الدراسة والتأمل وعلى مراحل بدأت فى إلقاء المحاضرات على الطلاب وبدأ أصحاب المعرفة -الذين أحترم وأقدر آراءهم- يُراقبوننى. ويتدخل أحد هؤلاء وبفضله وهو القس "دانيال داى" تم التصديق علىّ وإعطائى التصريح لإلقاء العظات، وأصبحت واعظًا ولكن ليس لمنبر محدد أو كنيسة معينة. فأنى شاكر جداً ومدين

بالفضل لهذا القس أيضاً لأنه عرفنى على أخته والتى هى الآن زوجتى الحبيبة.

وفيما أنا راقد فى الظلام أفكر فى الكلام الذى كتبته إلىّ زوجتى، تذكرت قولى إنى لن أشعر بالأسف إذا تركت هذا المكان، وفيما أنا متأمل لهذا الكلام أدركت بأنه ليس صحيحاً. فسأشعر بالأسف فقط إذا تركت "جريس" وذلك لأن هذا هو الرباط الثانى الذى يربطنى بذلك المكان وذلك رغم أن الاختيار هذه المرة هو اختيار "جريس" وليس اختيارى.

وقفت لفترة طويلة هذه الليلة بعد المعركة أحاول أن أستجمع قواى لأدخل هذا المنزل مرة أخرى. لا أستطيع القول كم من وقت استغرقته وأنا واقف ورأسى على ذلك العمود الأبيض. فبالرغم من البرد كنت أشعر بالعرق يتسلل من ظهرى، كنت أسمع صراخ الجرحى من الداخل وكنت أعلم أن مكانى لابد وأن يكون معهم. وذلك لأن الألم الذى كان يشعرون به هو ألم حقيقى وحاضر أما ألمى أنا فهو ذكرى من الماضى لا يمكن لأحد أن يغيرها.

وأخيراً أخذت نفساً عميقاً من الهواء الخارجى وفتحت الباب ودخلت وبالداخل، كانت هناك قاعة استقبال بيضوية الشكل يرقد بها الرجال وهم مبللون ومجروحون. بعضهم يرقد على الأرض والبعض الآخر بالقرب من حيطان القاعة، وكانت رأس أحد الرجال موضوعة على قاعدة تمثال مربعة الشكل ووجهه يشبه التمثال المنحوت فوقه.

وكان يبدو أن لا أحد عبر النهر بكامل ملابسه فمنهم من عبر وهو يرتدى سرواله بدون القميص ومنهم من عبر وهو يرتدى القميص دون السروال ولكن معه المعطف، والبعض كانوا بدون ملابس على الإطلاق وقد تم تغطيتهم بسجاد تركى، وآخرون كانوا يرتعشون من البرد ومن قوة رعشتهم كان يبدو أنهم سيهدمون المنزل من أساسه، قمت بإعطاء العباءة التى كنت أرتديها لواحد من هؤلاء.

كان هناك صراخ يصدر من حجرة كانت من قبل مكتبة مستر "كليمنت" فقد توقعت أن أجد هناك أسوأ الحالات وأنى سأجد الطبيب الجراح هناك، كان دكتور "ماكيلوب" قصير القامة ممتلئ القوام ذا أكتاف يكسوها الشعر بغزارة وقد أدار ظهره لى ليضمد جرح ذراع رجل يدعى "سث ميلبريك" قادم من كمبريدج وقد لاحظت أن ظهر المعطف الذى كان يرتديه كان به بقع من دماء الجرحى، الذين كان يضمد جراحهم بينما كنت أنا أشعر بالتعب والحزن عليهم. ما رأيته قد غير رأيى فى ذلك الطبيب، وبدأت أنظر إليه نظرة إيجابية. كان يوجد تحت قدميه ذراع وإحدى أرجل الجرحى مقطوعة من عند الركبة. وقد رفع "ماكيلوب" حذاءه البوت من على الأرض، وبدأ يستخدم نعل الحذاء كمشحذ جلدى لمشرطه.

كان "سث" يرجو من الجراح كباقى الرجال أن ينقذ ذراعه ولكن الصاروخ الحربى قد مزق العظمة التى هى بالقرب من كوعه إلى قطع تشبه الإبر ولكنها

بيضاء اللون وقد قام الطبيب بخياطتها جميعاً داخل العضلة.

إن رأى فى "ماكيلوب" كان موضع الاختبار فى لحظة عندما نادانى وهو يمسح سكينه فى قطعة من القماش القديمة المقطعة وقد لاحظنى فنادى علىّ قائلاً "مارتش" لقد حان الوقت، تعال إلى هنا فوراً" قال هذا بصوت مرتفع كما لو كان ينادى على كلب ضال وأكمل كلامه قائلاً: "أمسك بهاتين الذراعين" قال هذا وهو يشير إلىّ كيف أمسك بهما وفعلت كما قال لى وأنا أركز فى وجه "ميلبريك" لأنى لم أستطع أن أنظر إلى "ماكيلوب" لأرى ما كان يفعله. كانت عيون "ميلبريك" تشبه عيون التلميذ الخائف، كانت نظراته بها خوف وألم مبرح وكانت رعشته عنيفة إلى درجة كبيرة حيث إن المائدة التى كان مستلقياً عليها كانت تتحرك بقوة شديدة وضعت رأسى بالقرب من أذنه وهمست فى أذنه كلمات المزمور التى تقول: "فصرخوا إلى الرب فى شدتهم فأنقذهم من آلامهم.." وفى ذلك الوقت اصطدم المشرط الذى كان بيد "ماكيلوب" بشريان دموى فدخل سائل دافئ فى عينى ولأنى كنت ممسكاً بقوة به فلم أتحرك من مكانى ولم أمسح عينى وأكملت كلمات المزمور قائلاً "فأرسل كلمته ليشفيهم ..." وقد تذوقت طعم الحديد عندما تساقطت نقطة الدم هذه من أنفى مروراً بشفتى ودخلت فمى وشعرت بأن "ميلبريك" سيفقد الوعى ولكن عندما رفع "ماكيلوب" يده رأيت أنه لا يوجد هناك نبض فأدركت أنه لقى حتفه.

نظر "ماكيلوب" إلى المريض التالى الذى قد أصيب بمعدته فوضع "ماكيلوب" أصبعه على الجرح يتحسس الجرح بطريقة متقطعة ليعرف مدى عمقه. وفجأة سحب يده قائلاً عندما يخترق الرصاص جدار البطن فمن الصعب اصطياده". ومن حسن الحظ أن هذا المصاب كان فاقداً للوعى ولم يسمع ما قاله الطبيب الجراح. وقد ترك "ماكيلوب" ذلك المصاب لينتقل إلى مصاب آخر كانت قد سحقت ودهست جمجمته فقمت برفع ذراع "ميلبريك" نصف المقطوع ووضعته على صدره ووضعت الذراع الأخرى عليه.

"إن "فيلبريد" هناك ملقى على الأرض". قال "ماكيلوب" ذلك دون أن يرفع عينيه عما كان يفعله. "إن قذيفة الشظايا قد اخترقت صدره، ليس بوسعى أن أفعل شيئاً أنه كان يطلب قساً ومن الأفضل الإسراع فى ذلك".

إن صبياً مزارعاً لا يمكن أن يخطئ فى التفريق بين كوم القش والخيام ولكنهم لم يرسلوا صبياً مزارعاً لاكتشاف شاطئ فرجينيا فقد كان "فيلبريد" معتاداً على الحيطان المبنية من الطوب والطرق المرصوفة وكذلك الشوارع الضيقة وفى ظلام الليل والضباب الكثيف كان يواجه العدو وسط الحقول، التى لم تحصد بعد طاعة لأوامر الجنرال ورغبته فى تحقيق النصر. مسكين يا فيلبريد فقد كان يعلم أن ما كان يحدث داخل المعركة هو الانهيار والتدمير بعينه

ولكن هذا ليس جريمة وكنت أهمس بذلك فى أذنيه وهو الذى كان بالكاد يستطيع أن يلتقط أنفاسه، وكان عرقه رغم برد الليل القارس يلمع على جلده الشاحب.

كنت أتمنى أن تكون نظرة عينيه ليست نظرة يائسة كما كنت أراها، كان يلتقط أنفاسه بعمق شديد وأنا أتحدث معه ولكنى لم أستطع أن أقول له مثل هذا الكلام. أعتقد أنه أراد أن يسمع جملة مثل "لنتمسك بمشيئة الله" وربما لهذا السبب طلب مقابلة قس ولكن ما قلت له كان عكس ذلك، إن ما قلته هو الحقيقة بعينها أى أن ما يحدث فى العالم اليوم ليس من فعل الله ولا من مشيئته بل من فعل البشر؛ وكنت أود الاستمرار فى الحديث معه لأوضح له أن المعركة وحدها ليست كافية لصنع الحرب، وأن القضية التى ندافع عنها تستحق ما نبذله من أجلها هنا أو فى أماكن كثيرة أخرى فى المستقبل. ولكن كل ما فعلته فى ذلك اليوم لم يأت بفائدة وما قلت له لم يغير فى الأمر شيئاً، اعتدل فى جلسته فجأة، يلتقط أنفاسه بصعوبة ويبدو أنه كانت هناك مشكلة فى رئتيه لأنه كان يحاول بيأس شديد أن يلتقط أنفاسه فأمسكته بيدى، وكان ثغره مفتوحاً فتحة كبيرة يشبه السمكة فور اصطيادها وهى ملقاة على الشاطئ وبدأ لون جلده يتغير تدريجياً وببطء حتى أصبح أبيض مثل لون الدقيق.

وبعد ذلك ذهبت لأبحث عن وعاء كبير لأضع به بقايا الأرجل والأذرع المقطوعة، حيث إن وجودها سيزيد من خوف الجرحى وتوترهم العصبى والنفسى.

وفعلت ذلك، بحثت عن الماء لأنظف الأرض التى تساقطت عليها دماء الجرحى ولكنى وجدت الأباريق خالية من الماء فجمعت أكبر عدد من الأباريق واخترقت طريقى وسط الجرحى المدمرين، ومشيت تجاه مكان الآبار حتى أحصل على الماء.

وحتى فى ضوء الشمع وبعد عشرين عاماً وحتى وهى تعطى لى ظهرها، فقد تعرفت عليها، كانت تنحنى لتملأ الأباريق من البئر وقد كان هناك شىء ما فى منحنى ظهرها وفى خصرها وبالطريقة التى اعتدلت بها قامتها ببطء وبينما أنا واقف فى الخارج أستجمع قوتى وشجاعتى لأدخل ذلك المكان أدركت أن "جريس" هى العبدة الذى تحدث عنها الجندى. أردت وتمنيت أن تكون هى التى تحدث عنها الجندى. وفى لحظة تعّرفت عليها. أن شوقى إليها والخوف الذى تملكنى من الموقف اندمجا معاً بقوة جعلتنى أشعر بارتباك شديد لدرجة أن الإبريق الذى كنت أحمله انزلق من يدى وكدت أقع لأمسك به وبالطبع سمعت "جريس" صوت الإبريق وهو ينزلق من يدى فاستدارت لترى جندياً آخر واقفاً بين الجرحى والمصابين بدون معطف وعلى وجهه بقع من الدماء من آثار الجرح الذى كان فى وجهه.

"دعنى آخذ تلك الأباريق" قالت ذلك وهى تمد يدها لتأخذها منى. إن ذلك الصوت الفضى مميز جداً وأضافت قائلة "إنه لطيف منك أن تحاول المساعدة ولكنك لا ينبغى أن تتحرك وأنت لم تضمد جرحك".

"إنى لست مجروحاً ميس "جريس". كنت أساعد الطبيب الجراح فى عملية بتر".

رفعت رأسها إلى أعلى مثل حيوان يحاول أن يشم شيئاً. رفعت المصباح الذى كان بيدها ونظرت إلىّ بحدة وقالت:

"هل أعرفك يا سيدى؟"

"إنك فى الغالب لن تتذكرينى". وحتى وأنا أقول هذا الكلام كنت أشعر بسخرية صادرة من رنين الحروف. فكيف لا تتذكر الشاب الساذج الذى كان السبب فى آلامها وجرحها.

"أسمى مارتش ... كنت هنا عام "٤١

"مستر مارتش! المدرس!"

لم أكن أعلم فى الظلام إذا كانت تسخر منى وهى تحدثنى بهذه الطريقة أم أن ذلك الدفء النابع من صوتها هو دفء حقيقى.

"أرجو أن تسامحنى لم أكن أتوقع أن أراك كجندى".

"إنى أخدم فى الجيش بصفتى قساً".

رفعت ذقنها بإيماءة خفيفة كأنها تقول لى إن هذا هو ما يناسبنى ومدّت يدها، أخذت يدها وقد لاحظت أنها أصبحت صلبة ومتشققة وبدت آثار الدهشة على وجهى لأننى عندما سحبت يدها نظرت إليها وهى مدركة تماماً ما قد ألم بها وبادرت بالقول: " إن أشياء كثيرة قد تغيرت هنا مستر "مارتش"، هناك أشياء

يمكنك أن تلاحظ التغيير الذى طرأ عليها بنفسك وأشياء أخرى لا يمكنك أن تلاحظ ما طرأ عليها من تغيير، ربما يكون هناك متسع من الوقت لنا لأحدثك عنها إذا أردت ذلك ولكن الآن الجرحى فى حاجة للماء ليرووا ظمأهم...".

"نعم بالطبع" أسرعت بالقول وأكملت قولى "إن لدينا كثيراً من المهام للقيام بها". تركتها وذهبت لأفعل واجبى تجاه الجرحى والمصابين وهو أن أحاول أن أريحهم من عذابهم وآلامهم على قدر المستطاع. كنت جالساً فى مدخل القاعة البيضوية وقت حلول الفجر وكان ظهرى مسنوداً على درج السلم عندما شعرت بإرهاق شديد، كنت ممسكاً بيد أحد المصابين الذى كانت إصابته شديدة حتى غلبنى النوم وعندما استيقظت كانت يدى مازالت ممسكة بيده ولكن يده كانت باردة وصلبة.

كانت "جريس" تقف أمامى تصب لى القهوة وأنا أقفل عينى الرجل الميت ووقفت متيبساً، كل جزء من جسمى كان يشتكى من شدة التعب والإعياء. سندت نفسى على عمود الدرابزين وقد لاحظت أن الخشب الذى كان تحت يدى كان خشناً. وضعت "جريس" إصبعها على ذلك العمود المحطم وقالت: "لقد فعلت شيئاً ما كان يجب أن أفعله فقد أحضرت حصان مستر "كليمنت" هنا، أثناء المعركة وأكل عمود الدرابزين كما ترى وبالطبع وجده الجنود واعتبروه شيئاً محرماً وأخذوه بعيداً".

نظرت بعيداً وتساءلت إذا كانت مدركة أن مكانتها ليست كمكانة الحصان.. وللأسف ممكن أن تنظر لنفسها على أنها شيء محظور أو محرم. مدت يدها وأعطتنى فنجان القهوة المصنوع من الصفيح فشربت منه وأعطيتها إياه لتعطى رجلاً آخر منه. وفى الضوء الرمادى -حيث كانت السماء رمادية اللون بسبب سقوط الأمطار الغزيرة فى الليلة الماضية والذى تسبب فى مزيد من الأسى للجرحى والمصابين الذين أمضوا ليلتهم فى الخارج دون مأوى يحميهم من البرد القارس وسقوط الأمطار -تأملت فى ملامح "جريس"، لقد تغيرت ملامحها خلال عشرين عاماً ويبدو عليها آثار السنين. وبالتأكيد، كانت هناك خطوط رفيعة حول عينيها وثغرها وكان للأوقات الصعبة التى مرت بها أثر على نضارة جلدها وحيويته. ولكنها مازالت جميلة، وكنت أرى عيون الرجال تتبعها وهى تتحرك لتساعد الجنود وتضمد جروحهم.

كان هناك الكثير من العمل للقيام به ذلك الصباح، لقد قمنا بدفن العديد من جثث القتلى والجرحى جنباً إلى جنب فى مقبرة قليلة العمق، قمنا بكتابة اسم كل رجل ووحدته على ورقة داخل زجاجة ووضعنا الزجاجة تحت قميص إذا كان يرتدى قميصاً. وقبل فترة الظهيرة، وصلت عربات الإسعاف إلى مريلاند لنقل الجرحى والمصابين إلى واشنطن فقمت بحمل العديد منهم رغم الآلام التى كنت أعانى منها فى عضلاتى. كان عملاً شاقاً استمر عدة ساعات نتيجة لسقوط الأمطار الغزيرة والطمى الذى كان

يغطى الأرض، كنا ننقل الجرحى ونضعهم فى مراكب لتأخذهم عربات الإسعاف من الضفة الأخرى من النهر. لم أكن مرتدياً البوت فكانت قدماى تتخبطان حتى أصيبتا، وتساقط الدم منهما. وفى نهاية اليوم كانت الخيل التى تجر عربات الإسعاف جائعة فكانت تحرك العربات بقوة شديدة للأمام وللوراء ويبدو أن ذلك كان له عظيم الأثر على الجرحى الراقدين بالداخل وعندما تحرك القطار الذى كان سينقل الجرحى إلى واشنطن كان ما تبقى هناك نوعان من المصابين: من هم قادرون على السير وآخرون كانت إصابتهم بالغة لن تمكنهم من القيام بتلك الرحلة الطويلة والوصول إلى واشنطن على حد قول الطبيب الجراح "ماكيلوب".

فى صباح اليوم التالى، كانت هناك أمور واضحة لم تكن واضحة فى ظلام الليلة الماضية حيث كان من الواضح أن حالة القصر المحطمة لم تكن بسبب الحرب، إن علامات الفساد كانت فى كل مكان، ... حقول التبغ كانت قد أكلتها البيقة والشوك، والنبات الذى كان يجب أن يحصد ليجف كان واقفاً فى مكانه أسود اللون من جرَّاء الصقيع. إن أشجار الفاكهة التى كانت على حديقة المطبخ كانت جافة خالية من الثمر وكانت أوراقها متداخلة بعضها ببعض دليل على أنها لم تقلّم منذ فترة طويلة وكذلك فروع وأوراق الفاصوليا الخضراء التى كانت تقلّم من قبل وتقف كطابور واحد للعرض أصبحت متشابكة بعضها لبعض

ويراعمها لم تقطف بعد منذ فترة. وأدركت أيضاً أن طاحونة القمح المحطمة التى كنت رأيتها بين الظلام هى نفس البنية بعينها التى طالما أرقت مستر "كليمنت".

كان من الواضح أن هناك خسائر عديدة حدثت لهذا المكان. كنت مشتاقاً أن أعرف أكثر ولكنى كنت مضغوطاً جداً فى ذلك اليوم وفى المساء عندما رأيت "جريس" كان لديها العديد من المهام والواجبات التى يجب أن تقوم بها لذلك لم يكن هناك أية فرصة للتحدث معها.

وفى صباح اليوم التالى جاء الكولونيل (العقيد) ليقدر حجم الخسائر ويقّيم وضعنا وحالة الجنود فأطلعنا أنه ما تبقى معنا من جنود هو ثلاثمائة وخمسون جنديًا فى كل وحدة وقد كانت كل وحدة من قبل لديها أكثر من ستمائة جندى.

لقد أثبت "ماكيلوب" كفاءته كطبيب ماهر ومتمكن من مهنته عندما تنبأ بوفاة العديد من الجنود؛ حيث إنهم قد توفوا بالفعل فى خلال يومين وفى مساء تلك الأيام كنت أساعد فى مراسم الدفن حسب ما تسمح به قواعد المراسم.

كنت قادماً من الحقل الذى كنا نستخدم أرضه كمقبرة عندما رأيت "جريس" ماشية ممسكة برجل مسن هزيل يبدو عليه التعب والضعف الجسمانى. لابد وأن يكون "أوجستس "كليمنت" لا أستطيع القول بأنى قد تعرّفت عليه ولكن يجب أن يكون هو.

كانت رأسه منتصبة إلى الأمام وفى اتجاه واحد مثل رأس الديك وكانت مائلة وكأنها نازلة لتتصل برقبته. كانت "جريس" ممسكة بذراعه اليسرى بقبضة محكمة ويدها الأخرى كانت حول خصره لتسنده فى السير. كانت ذراعه اليمنى تبدو وكأنها مشدودة وملتصقة بجسمه من الكتف إلى كوع اليد ومن كوع اليد إلى أسفل، كانت يده تتحرك بصورة غير طبيعية وأصابعه تتحرك كما لو كانت تمروح الهواء. كان يمشى وهو يرفع ركبته إلى أعلى تكاد تصل إلى خصره وتبقى هناك لحظة يضع أصبع قدمه بدقة على الأرض قبل أن يضع كعبه كما لو كان يرقص بخطوات محددة ومقصودة. وبما أنهما كانا يمشيان ببطء شديد فقد وجدت نفسى واقفاً أمامهما، لم يستطع مستر "كليمنت" أن يرفع رأسه ولكنه أدار جسمه من ناحية الجنب، كانت عيناه تبدوان كالسحاب تسبح بعيداً لترى من المتحدث. لم يبد على وُجهه أى تعبير، وكان من الواضح أن عضلات وجهه كانت مصابة بالشلل مثل بقية جسمه. مالت "جريس" بانحناءة عليه وهمست بصوت منخفض فى أذنه، صدر منه بعد ذلك صوت غريب أشبه بنهيق الحمار صادر من شفتيه المرتخيتين وتكونت على فمه فقاعة من اللعاب أخذت شكل خيوط وانزلقت على ذقنه، تشددت حركة يده وبدا عليها العنف وأسرعت "جريس" بمسح وجهه بمنديل وقالت:

"إن مستر "كليمنت" متوتر بسبب الحرب وما سببته من فوضى وارتباك".

وأضافت قائلة: "أرجو أن تسامحنى مستر "مارتش" فلابد من أن يعود مستر "كليمنت" إلى حجرته".

"هل تريدين مساعدتى؟ أنه يبدو عليه الضعف والإعياء الشديد"؟

"سأكون شاكرة جداً". فأخذت مكانى من الجانب الآخر من ذلك الجسم المرتعش ومعاً استطعنا أن ندخله إلى حجرته، فقد وضعت "جريس" له سريراً فى غرفة الإفطار وذلك لأنه من الصعب عليه أن يستخدم السلم وعندما وصلنا إلى غرفة الإفطار وساعدناه على الجلوس على أريكة أصدر مستر "كليمنت" تنهيدة تدل على شعوره بالراحة. مسكت الحوض الصغير الذى كانت "جريس" تستخدمه لغسل وجهه وعندما انتهت من غسل وجهه راح مستر "كليمنت" فى نوم عميق.

أخذت "جريس" الملابس والحوض الصغير وذهبت إلى الغرفة، التى كانت من قبل غرفة رئيس الخدم. كان هناك فرش من القش على الأرض ويبدو أنه المكان الذى تخلد فيه "جريس" إلى النوم وعندما انتهت من ترتيب أدوات الحمام الخاصة بمستر "كليمنت" وقفت باعتدال وقامت بفتح نافذة صغيرة تطل على الحقول المحيطة بالقصر، وكان نبات الشوك يغطى المكان بظلاله الطويلة.

"لا يبقى شىء بجانبى. من آثار الدمار الهائل". تنهدت "جريس" بعمق وقالت: "كانت مسز "كليمنت"

تعشق هذه القصيدة وكانت تأمرنى بأن أقرأها لها كل يوم حتى حفظتها عن ظهر قلب. أنا سعيدة أنها ليست هنا لترى بنفسها الدمار الذى نعانى منه".

أدارت "جريس" ظهرها للنافذة وعادت إلى حجرة الإفطار وقالت: "لقد توفيت مسز "كليمنت" فى خريف العام الذى قضيته أنت معنا هنا. كان الحداد لائقاً ولكن الحقيقة لم أشعر بأى تغيير من جراء وفاتها". جلست "جريس" على ظهر سلم من الخشب، أتخيل أنها كانت دائماً تجلس هكذا لتراقب من بعد مستر "كليمنت". كان ظهرها معتدلاً جداً، ظلت تحدق فى يديها وتديرهما كما لو كان شكلهما الذى يظهر عليه آثار العمل الشاق والتعب مازال يدهشها. كان يبدو عليها أنها تريد أن تحكى وتقول أشياء كثيرة فجلست أنا أيضاً على كرسى ذى ذراعين فى ظنى أنه كرسى مستر "كليمنت" الذى اعتاد الجلوس عليه. لابد وأنها لم تتحدث لأحد بحرية من فترة طويلة، لأنه مجرد أن بدأت فى سرد القصة حيث صبت كل ما كانت تريد أن تقوله من سلسلة ابتهالات من الخسائر الفادحة التى ألمت بتلك الأسرة العريقة.

"كل شىء مر على ما كان عليه، كنت على علم بأن ابنة مستر "كليمنت" كانت تريدنى أن أعمل لديها ورجت والدها أن تأخذنى لأعمل فى حقول مزرعتها فى الجيمس وقد أوضحت لمستر "كليمنت" أن واجباتى بالمنزل أصبحت معدودة خاصة بعد وفاة مسز "كليمنت" ولكن مستر "كليمنت" رفض طلبها ومشيت

من هنا فى نوبة غضب شديدة. كان من المتوقع أنى سأقوم بواجبات أحد خدام المنزل ويقوم هو بالعمل فى الحقول، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل وحتى وإذا كان مستر "هاريس" قد اقترح ذلك فلم يؤيده مستر "كليمنت" فى الرأى.

كنت أمضى معظم الوقت بمفردى ولى حرية الاختيار فى أن أملأ أوقات فراغى كيفما أشاء ففعلت ما كنت أفعله دائماً، وهى القراءة مستر "مارتش"، لقد قرأت ولكن بطريقة مختلفة هذه المرة فقد قرأت الكتب التى تتفق مع ميولى وأهوائى الشخصية وليس كما كنت أفعل؛ حيث كنت أختار الكتب التى تتفق مع أهواء وميول مسز "كليمنت" وظل الحال هكذا لأكثر من عام حتى الخريف التالى. فقد ذهب مستر "كليمنت" ذات مرة إلى مزرعة ابنته حيث كان سيقام احتفال عائلى هناك، وكان سيتبعه ابنه فى ليلة الحفل وقد قرر ابنه أنه سيحضر "ديك رومى" احتفالاً بهذه المناسبة وقد ذهب بمفرده ولم يعد، لقد وجده مستر "هاريس" فمن الواضح أن حذاءه البوت قد انحشر فى مجموعة من الأشجار الصغيرة فوقع على الأرض وطار الديك الرومى من يده وتخبط بوجهه فلقى مصرعه فى الحال. فحمل مستر "هاريس" الجثة وعاد به إلى المنزل واقترحت عليه أن يضعه فى الصندوق قبل أن يعود مستر "كليمنت" ولكنه أصر ألا يفعل أى شيء قبل أن يعلم رغبات مستر "كليمنت" وقد عاد مستر "كليمنت" إلى المنزل ممتطياً جواده وكان فى

حالة من الدهشة والذهول على فقدان ابنه وأصر أن يرى ابنه. بذلت ما فى وسعى لكى أمنعه ولكن دون جدوى". ونظرت "جريس" إلىّ ومن نظرتها فهمت الوضع الذى كانت عليه الجثة وأكملت حديثها قائلة: "جلس طوال الليل بجانب الجثة. وفى صباح اليوم التالى لاحظت وجود رعشة بيده، اعتقدت فى بادئ الأمر أنها قد تكون نتيجة التعب والإرهاق، ولكنها كانت بداية لتدهور صحته. أن مستر "هاريس" لم يمكث بالمنزل فترة طويلة خاصة بعد وفاة ابن مستر "كليمنت" وذلك لارتباطه الشديد به فقد عُرض عليه عمل آخر وقبله، إنه كان شديد التعلق بابن مستر "كليمنت" ولم يستطع البقاء بالمنزل بدونه. فقد كان يمضى معظم الوقت معه أكثر من مستر "كليمنت" الذى كان يمكث معه بعض الوقت كل يوم، وكان دائماً صريحاً بالإدلاء أن صحبة ابنه تضايقه وتشعره بالملل.

إن مستر "هاريس" هو الذى كان دائماً يثنى على عمل الابن خاصة بعد أن تمكن من العمل فى المزرعة، أعتقد أنك تعلم أن مستر "كليمنت" لم يستطع أبداً أن يخفى سخطه على شئون المزرعة أو على القائمين بها". وسكتت برهة ثم أكملت حديثها قائلة: "إنك لن تتخيل كم كانت دهشة مستر "هاريس" ذلك الصباح عندما عاد من مهمة العمل التى كان يقوم بها، وجاء إلى المطبخ لتعد له آنى مشروباً وبعض الطعام ليأكله وعلم منها أنك كنت تتناول العشاء كل ليلة مع مستر "كليمنت" فهو بنفسه لم يحظ بهذا الشرف من قبل

طيلة مدة خدمته لمستر "كليمنت" التى قاربت على التسع سنوات ومنذ ذلك اليوم وجد مستر "هاريس" إخلاصه لابن مستر "كليمنت" حيث كان يعتقد أن مستر "كليمنت" نفسه لا يستحق منه هذا الإخلاص.

"وعلى كل حال لم يعد ذلك المكان إلى ما كان عليه من قبل عندما كان يديره مستر "هاريس"، فقد قرر مستر "هاريس" أن يترك المنزل بعد وفاة ابن مستر "كليمنت" وجاء شخص آخر يقوم بمهام مستر "هاريس" وللأسف ما كان هذا الشخص إلا مخادعًا فقد رحل فجأة من القصر بعد أن سرق الربح السنوى من المزرعة وجاء شخص آخر، وكان هذه المرة رجلاً يتصف بالقسوة والوحشية...". وتوقفت لحظة عن الحديث وكأنها تستعيد ذكريات من الواضح أنها ذكريات مؤلمة لا يمكنها الإفصاح عنها. وأكملت الحديث قائلة: "لقد فصله مستر "كليمنت" بعد أن هرب أيضاً من هنا اثنان من أحسن الرجال هما "موسى" و"آسا". لم يهرب أحد من قبل من منزل "الكليمنت" ومنذ ذلك الوقت أصبح ذلك المكان معروفاً عنه سوء الإدارة والشخص الوحيد الذى كان مستر "كليمنت" يعتمد عليه كان رجلاً يسهر كل ليلة يشرب الخمر المصنوع من عصير التفاح وينام فى النهار. وفى ذلك العام قام مستر "كليمنت" ببيع العديد من الخدم حتى يسد احتياجاته واقترح عليه أحدهم أن يقوم ببيعى ولكن مستر "كليمنت" رفض فقد قام ببيع "جستيس" و"برودنس" بدلاً منى وفى اليوم الذى تم فيه بيعهم انتحرت "آنى"

والدتهم فقد مشت عبر مجرى النهر حتى غطتها المياه تماماً وادعى مستر "كليمنت" أنها قد انزلقت من على الصخور ولكنها كانت تنوى الانتحار فقد أخذت تمشى وسط النهر حتى غطست تماماً فى عمق النهر". شعرت بشىء يقف فى حلقى وقفت "جريس". فجأة وتظاهرت بأنها لتضىء المصباح الكهربائى ليضىء الحجرة التى كان الظلام يكسو أغلبها وفى لمح البصر قمت بمسح دموعى بيدى وأكملت "جريس" حديثها:

"وعندما علمنا بأن الجيش قد بنى معسكراته بالجانب الآخر من النهر فى منطقة بولسفيل قرر النصف المتبقى من الخدم الفرار وبالفعل هربوا جميعاً، ولم يتبق سوى ثلاثة من الخدم وهم اثنان آخران غيرى وأنا وقد هربا هما أيضاً منذ أسبوعين أثناء المعركة ولم يبق أحد من الخدم غيرى. قاطعتها قائلاً:

"جريس" وقفت ومشيت خطوة نحوها وقلت لها: "لماذا لا ترحلين أنت أيضاً فقد قال لى الكولونيل إنه عرض عليك وظيفة فى مستشفى جورج تاون... يمكن أن تبدئى من جديد هناك...."

ورداً على سؤالى فقد استدارت والتفتت نحو مستر "كليمنت" وانحنت لترتب الغطاء الذى كان يغطى جسمه فقد كان يغط فى نومه، كان صوت غريب يصدر منه يشبه صوت الحيوانات المفترسة عندما تكون على استعداد لمهاجمة فريستها.

أكملت حديثى قائلاً لها: "إن رفضه لبيعك ليس معناه أن تخلصى له بهذه الصورة، إن لديه ابنة ومن الواجب عليها أن تعتنى هى أيضاً به" وأكملت الحديث: "لماذا لا تعتنى هى به" وقفت مشدودة ونظرت إلىّ تلك النظرة المباشرة والتى أتذكرها بوضوح شديد وهى تقول: "إن مستر "كليمنت" لديه ابنتان، مستر "مارتش."

للحظة لم أفهم ما تقصد ولكنى وضعت يدى على الكرسى الذى كان خلفى لأقف وقفة مستقيمة؛ حيث شعرت بدوار شديد ولكن كل شىءبدا واضحاً: فمكانتها فى المنزل ودرجة لون جلدها والتشابه الذى كان بينهما وبين "كليمنت" فى طول جسمها والمشية وكذلك طريقة جلستها ووقفتها ولو لم أكن شاباً قليل الخبرة بالحياة وبريئاً إلى حد كبير عندما أتيت هنا لأول مرة لكنت قد لاحظت الشبه الذى كان بينهما من أول وهلة. لقد قالت لى من قبل إن والدتها قد تم بيعها عندما تزوج مستر "كليمنت".

أضافت قائلة: "ولكن هذا الأمر ليس السبب الذى من أجله رفض مستر "كليمنت" أن يبيعنى كما فعل مع بقية الخدم". ثم استدارت ووجدتها فى ظل الضوء الخافت تقوم بفك أربطة التنورة، التى كانت ترتديها فأسرعت أمنعها قائلاً "جريس" ولكنها رفعت يدها إلى شفتيها إشارة للسكوت والتوقف عن الكلام. "ليس هناك ما يدعو للخجل بينى وبينك" قالت

"جريس" هذا وأضافت قائلة: "لقد رأيتنى كذلك من قبل". وكانت تحدق إلىّ وهى تقول ذلك الكلام وقد حركت التنورة إلى أسفل حتى أصبحت أسفل الفخذ الأيمن حتى ظهرت بوضوح آثار الجراح، التى ألمت بها عندما خرجت بالسياط. كانت الندوب متجعدة وشاحبة وكان تجعدها ولونها الشاحب يبدو أكثر وضوحاً بين الجلد غير المصاب، الذى كان يعلو تلك الندوب لقد مضى على تلك الجريمة عشرون عاماً وقد كنت شاهداً عليها وكنت سبباً فيها.

"إن تجار بنات الهوى لا يدفعون للبضائع المدللة، مستر مارتش". قالت "جريس" فتحركت تجاهها وقمت بشد التنورة إلى أعلى لأغطى تلك العلامات البشعة. وعندما فعلت ذلك لمس أصبعى أحد الندوب، وكان صلباً مثل القشرة، فسجدت على ركبتى وأنا يتملكنى شعور بالأسف والحزن، وهمست قائلاً: "أنا آسف جداً". وعندما حاولت النهوض وضعت يديها على كتفى وبقوة ورقة ضمتنى إليها وجذبت رأسى إليها وقد شعرت فى تلك اللحظة بأن أكثر عمل أخلاق يمكننى القيام به هو ذلك العمل الذى يوحدنى معها بصورة كاملة. كنت أود أن أكذّب كل ما يدعو للتفرقة بينى وبينها فيما عدا ما ذكر فى سفر التكوين فى الكتاب المقدس عن خلق الله للرجل والمرأة، إن ما يحدث الآن هو الحقيقة بعينها: كنت أريدها حقاً، إن مجرد رؤيتى لها كان يثير أعماق نفسى وجسدى.

الفصل الثالث

الجحيم

خارج معدية هارير، ٢٥ يناير، ١٨٦٢

عزيزتى:

وأخيراً كل شىء يبدو هادئاً وجميلاً هذا الصباح بين صفوف الجيش ولهذا أنتهز الفرصة لمد أصابعى المجمدة ببعض الدفء بتمرينها بكتابة تلك السطور. وعندما يصلك هذا الخطاب ستكون احتفالات عيد الميلاد مجرد ذكريات جميلة وليس أكثر.

أتمنى أن تتمكن بناتى رغم مواجهتهن لتلك الأوقات العصيبة أن يجدن المتعة والمعنى لتلك الأيام فأنا بحكم معرفتى العميقة بكم لا أشك لحظة فى أنكم ستتعرفون على معنى تلك الأيام. أنى أتخيلكم جميعاً تقومون بعمل جيد هذه الأيام، وأتوق إلى خطاب منكم يوضح لى إذا كنت أراكم بصورة جيدة عن بعد أم لا، وأتمنى أيضاً أن يصل إلى يدى شىء من صنع أياديكم.

أنى أتخيل "مج" و"جو" كل يوم وهما تأكلان الفطير المدور الذى يعد لهما، يومياً تأكلان ذلك

الفطير وهما فى طريقهما المرصوف بالثلج إلى العمل، إن الليلة الماضية كانت الليلة الأولى فى هذا الموسم الذى غطى فيه الجليد الأرض واليوم تسطع الشمس بوضوح فى سماء صافية لتشير إلى الجمال الطبيعى لتلك الجبال والتلال المحيطة بنا.

إن شكل الجبال الآن منقسم إلى خطوط بيضاء وخطوط سوداء فلو كانت "آنى" هنا الآن لأخذت الورق والقلم ورسمت ذلك المشهد الجميل.

إن تلك التلال رغم جمالها الطبيعى إلا أن المشى عليها وعبورها يكلف الجهد والعرق. إن الوحدات والكتائب الجديدة التى وصلت انضمت إلينا قبل أن نمشى وهم شباب من نيو إنجلاند أصحاب وجوه جميلة ونضرة ولم يتعب أحد منهم أو أرهق من حمل معدات وحقائب تزن أكثر من خمسين طنًا، وبالرغم مما يصادف هؤلاء الشباب من مصاعب فهم يتمتعون بروح معنوية مرتفعة ومستعدون للدخول فى معركة مع العدو؛ وذلك لأنهم لم يقعوا تحت تجربة الحرب حتى الآن إن مهنة القس هذه حقاً تناسبنى فأنا حقاً رجل الكنيسة الذى يحمل بداخله كل ما يحتاجه الأمر للعبادة وأخيراً أصبح من الممكن أن يكون هناك صلاة وخدمة دون الحاجة إلى منبر محفور عليه برسومات جميلة أو مفرش المذبح المصنوع من اللاسيه أو أرواب يرتديها القس وطاقم الشمامسة، ولكن كان هناك فقط الزى الأسود الذى أرتديه وهو غير مطرز أو مزين بألوان أو أشكال تطريز.

ولكن هناك بعض الرجال الذين ينتمون لطائفة معينة مازالوا فى حيرة من أمرى وأنا أيضاً مازلت فى حيرة من أمرهم. سأحكى لك قصة كانت نهايتها لطيفة، حضر إلىّ جندى فى الأسبوع الماضى ليقص علىّ ما بداخله من شعور بالألم والمرارة، كان يحضر بصفة يومية وفى كل مرة كان يجثو على ركبتيه ويصرخ إلى السماء ويطلب من الله أن يغفر له ذنوبه والأعمال غير اللائقة التى كان يقوم بها، كان يصرخ لطلب شفاعة القديسين. كان يطلب شفاعتهم ليصلوا من أجله كى يرحمه الله ويغفر خطاياه وذنوبه. كان خائفاً من أن يترك الدنيا ويموت بخطاياه دون أن يتوب ويغفر الله له ذنوبه ويذهب إلى نار جهنم الأبدية.

كقاعدة عامة ليس من المفروض أن أناقشه فى معتقداته ومفاهيمه الدينية ولكن ذلك الصبى كان حقيقة مدمراً نفسياً وأردت أن أساعده بأن أناقشه قليلاً فى معتقداته وأشاركه مفاهيمى الدينية الخاصة التى تقول بأنه ليس هناك قديسون أو نار جهنم بمعناها الحرفى فليس عليه أن يعذبّ نفسه على ما فعله فى الماضى من أخطاء أو ذنوب ولكن ببساطة عليه أن يكون أفضل فى المستقبل. وعندما ذكرت كل ذلك نهض مسرعاً ووقف، وأخذ يقسم ويمد يده وأخذ قبعته بعصبية شديدة وبأسلوب يثير الاشمئزاز، وقد انتابنى خوف شديد بأنى قد أهنته عندما أثرت شكوكه تجاه عقيدته. وأخذ يقول لى: "ليس هكذا.

يبدو آنى قد أهدرت وقتى هنا، كل ما كنت أريده هو أنك تساعدنى وتصلى من أجلى لأحصل على غفران كامل لخطاياى".

كان من الواضح من عروض المدفعية أننا على وشك الدخول فى معركة عند مدينة النهر الصغيرة والتى تعتبر مقدسة مقارنة بتاريخ معاركنا وصراعنا مع العدو. لقد قمت بخدمة دينية فى الليلة الماضية وكان هناك أحد الضباط فى الجيش وهو من طائفة المسوديست(*) وكان هذا الضابط يترنم بترنيمة، ولم يكن بوسعنا أن نضىء الضوء خوفاً من أن يجذب هذا الضوء عيون الأعداء ولهذا صلينا فى الظلام وتذكرت وقتها ذلك المسن "جون براون" ومجموعة الشباب الذين كانوا معه من مختلفى الأجناس منهم الأبيض ومنهم الأسود الذين حضروا إلى هنا فى محاولة لتحرير العبيد. ولأن الظلام كان سائداً فى المكان فلم أستطع أن أقرأ وجوه الرجال ولكن الكل كان يستمع فى صمت مهيب حتى نزل الجليد وكان مشهد الستارة البيضاء التى نزلت لتختم خدمتنا الدينية هو المشهد الأخير.

عندما خرجت من منزلى المصنوع من القماش هذا الصباح إلى العالم الخارجى ذى البريق كانت أفكارى تسبح شمالاً؛ لأنك سوف تتذكرين أننى قد قابلتك أول مرة فى يوم مضىء وحيوى مثل هذا اليوم.

(*) إحدى الطوائف البروتستنتية وكلمة مسوديست تعنى المنهجى أو النظامى أى الذى يتبع منهجًا أو نظامًا دينيًا محددًا.

رفعت رأسى ووجدتها تقف أمامى: جالسة فى الصف الثانى فى الكنيسة الصغيرة، التى كان يخدم بها أخوها القس "داى" وقد نادانى ليعزز رسالته فقد شعر أن خدمته قد انتهت فى تلك الكنيسة، التى كان يخدم بها والتى كانت تقع فى كونكتيكت وقد استمرت خدمته لمدة ستة أعوام ولكنه يشعر أنه لم يترك أثراً بالغاً على رعايا هذه الكنيسة.

لقد استمرت القرية كالغابة يسكنها ناس على استعداد أن يطلقوا العنان للإدانة ولكنهم غير مستعدين أن يفعلوا شيئًا ماديًا ضد النظام الحاكم الذى يمد طواحينهم بالقطن. فلقد دعانى لأتحدث فى تلك الكنيسة وكنت مسرورًا بذلك وكنت أستنكر ما حدث وأنا أتذكر نفس العبد وإبعاده عن حضور جنازة السيد الرئيس التى تمت فى الأسبوع الماضى. كان هناك ستة رجال من بينهم وزير الخارجية وقد رحلوا جميعاً عندما تم إطلاق أول طلق نارى فى الاختبار الذى يتم قبل المعركة. إن خمسة منهم كان لهم الحق فى إقامة حداد وطنى رسمى عليهم أما الرجل السادس فنظراً لأنه كان أسود اللون فلم يكن هناك حزن عام أو حداد رسمى عليه.

قلت فى العظة أن هذا الرجل الأسود قد قتل بنفس البندقية التى قتلت هؤلاء الرجال الخمسة وقد كان إنساناً بمعنى الكلمة ليموت بينهم ولكنه لم يلق نفس الحداد والاهتمام من قبل العامة هذا يعنى أن القس عليه أن يغير فى المفاهيم الدينية التى ولابد

وأن تكون محور اهتمامنا لتتماشى مع آسس ومبادئ العنصرية غير المتسامحة.

كانت تجلس ورأسها منحنية إلى الأمام ووجهها غير واضح المعالم بسبب القبعة التى كانت ترتديها. كانت ترتدى فستاناً بسيطًا ذا درجة شاحبة من اللون الليمونى، وكانت تبدو وكأنها تشع ضوءًا نتيجة لجلوسها تحت ضوء شعاع الشمس وانعكاسه بألوانه المختلفة على نافذة الكنيسة، وتنعكس تلك الألوان عليها وعلى لون فستانها فتبدو وكأنها تشع ضوءًا لامعًا وفجأة نظرت إلى أعلى تواجهنى بنظرة حادة مباشرة، كان شعرها أسود يلمع وكانت عيناها معبرتين وتشعان ذكاءً شديدًا ولونهما غامق وتلمعان مثل عيون الإسبان. عندما قابلت هاتين العينين طارت الكلمات من عقلى وكأنها طارت ناحية الشباك وخرجت من النافذة إلى الجو البارد وشعرت بارتباك شديد وحيرة جعلت الدم يجرى بسرعة فى عروقى، كنت فى ذلك الوقت فى الثانية والعشرين من عمرى وكنت أخجل ويظهر خجلى على وجهى بصورة واضحة حيث كان لون وجهى يتغير تماماً ويزداد احمراراً مثل صبى المدرسة الذى ارتكب شيئاً ما خطأ وسيعاقب عليه.

وقفت على المنبر المصنوع من خشب شجر الماهوجنى ويبدو أن وجهى كان له لون خاص أشبه بلون البنجر، وعرضت على الشعب فى الكنيسة فترة

صلاة فى صمت عن التحكم فى النفس بالنعمة استجاب الله لصلاتى حيث قدمت عظتى بعدها وكانت عظة جيدة ولكنى تعمدت ألا أنظر فى اتجاهها الذى يعتبر اتجاهًا خطيرًا للغاية حتى أصل إلى نهاية النص الذى كنت أقرؤه عليهم، وعندما تجرأت وسمحت لعينى بالبحث عنها، كانت تنظر إلى أسفل وكان شعاع الشمس القادم من النافذة منعكسًا على حافة القبعة التى كانت ترتديها.

بعد الخدمة، قدّمها لى أخوها على أنها ميس "مارجريت مارى داى" ولكن عائلتها تطلق عليها منذ الطفولة "مارميه" ولقد دعانى أخوها لأتناول العشاء معهم وقد تصرفت أثناء تناولى العشاء معهم بمنتهى الحكمة والكياسة، وتعمدت ألا أحدق فى وجهها، فوجهها لم يكن وجهًا يوصفه العالم بأنه وجه "جميل" أو وجه "حسن" وكلمة "حسن" لا تنطبق على هذا الوجه على الإطلاق، فقد كان لون جلدها لونًا زيتونيًا مذهبًا وكانت عظام فكيها عظامًا مرتفعة إلى أعلى وواسعة وأنفها كان طويلاً وذقنها تتسم بالقوة أكثر مما تتسم بالرقة، كانت ملامحها تشبه ملامح النبلاء وكانت تبدو مثل امرأة فى لوحة مرسومة بيد فنان قادم من شبه الجزيرة التى تفصل ما بين إسبانيا والبرتغال وتدعى إيبيريا.

أثناء وجبة العشاء كانت تقوم بدور المضيفة التى تقدم واجب الضيافة لزوارها حيث إن "مسز داى" كانت ترقد فى مخدعها؛ لأنها ولدت طفلها الثانى منذ

بضعة أيام، لم تشترك "ميس داى" فى الحديث ولكنها أيضاً لم تكن خجولة أو غير مهتمة بما يقال ولكن على العكس من ذلك كانت مستمعة جيدة إلى كل ما يقوله أخوها والزائرون الآخرون ومن بينهم أنا فقد كانت تستمع جيدًا لما أقوله وشعرت وقتها بفخر شديد، كانت العائلة تنبض بالحياة، أن حرصهم على الإصلاح يتماشى مع حرصهم على اتخاذ أسلوب جيد فى الحياة للعيش به. كانت هناك مناقشات فى مختلف الموضوعات، وكان هناك أيضًا الضحك والمرح وشاركت "ميس داى" فى الحديث قليلاً بطبيعتها التلقائية التى جعلتنى أشعر بالدفء تجاهها. وكانت الوجبة التى تناولتها وجبة بسيطة ولكنها شهية فقد كان هناك كميات كبيرة من الخبز والجبن والتفاح موضوعة داخل سلة جميلة من القماش.

دعانى القس بأن أقضى الليلة فى المنزل المخصص للقساوسة، واستيقظت فى صباح اليوم التالى على صوت مدهش وجميل. وفى الحقيقة وقبل أن يوقظنى ذلك الصوت اخترقت تلك الموسيقى القادمة من هذا الصوت الجميل أحلامى وبينما أنا مستيقظ ونائم، رأيت فى حلمى طائرًا جميلاً يغرد، وعندما استيقظت أدركت أن ذلك الصوت الجميل الناعم القوى الذى يشبه أصوات من ينشدون بالأوبرا هو صوت "ميس داى". فهى تغنى وهى تقوم بأعمالها المنزلية الصباحية. شعرت فى داخلى بشعور بالحسد وأنا أرقد فى السرير تجاه زميلى القس لأن لديه مثل

هذا الصوت المدهش وتخيلت أيضاً تلك الحنجرة الجميلة التى يصدر منها ذلك الصوت الرائع الذى يشبه صوت الكروان، وتخيلت أيضاً أصابعى تلمس برقة حنجرتها الجميلة وتشعر بالذبذبة التى تصدر منها ورأيت فى خيالى صدرها وهو يرتفع وينزل عندما تلتقط أنفاسها عند كل بداية نغمة موسيقية.

إن عواقب تلك الأفكار قد أخرتنى قليلاً على الظهور فى الموعد المحدد لتناول وجبة الإفطار معهم وعندما شعرت أخيرًا بأنى أستطيع أن أنزل لأتناول معهم وجبة الإفطار علمت بأن "مستر داى" قد تم استدعاؤه فجأة لمهمة دينية طارئة.

"فى الحقيقة أن هذا الشخص الذى استدعى "مستر داى" ليس من رعيته". قالت ذلك "ميس داى" وكأنها تبوح إلىّ بسر فى ثقة وهى تضع أمامى سلة مليئة بالفطائر الرقيقة المدورة برائحتها الذكية الساخنة، وأكملت قائلة "ولكنه واحد من هؤلاء الكلفينيين المتشددين". وابتسمت على صراحتها.

"ولكن بالنسبة لأخى فإنه بمجرد أن يسمع عن أحد متعب أو متألم فإنه يعمل ما فى وسعه ليساعده على تجاوز ذلك الألم وهذا التعب، لقد كان دائمًا كذلك حتى وهو صبى صغير يفعل ما فى وسعه ليخفف من عذابات وآلام كل من يطلب منه، حتى أنه فى مرة أحضر كلباً مجروحاً معه ليضمد جراحه وكان شكر ذلك الكلب له عدداً من العضات الوحشية". كان هناك تعبير رقيق على وجهها وهى تتحدث عن ذلك

الأخ الذى يكبرها بعدة سنوات والمحبب والقريب من قلبها وللمرة الثانية فى ذلك اليوم أشعر بطعنة أخرى من الحسد فى جسدى تجاه ذلك القس.

لم تنسحب "ميس داى" بعد وجبة الإفطار كما تفعل بقية النساء فى ذلك الوقت عندما يكون فى ضيافتهن رجل غير متزوج ولكنها أخذتنى إلى ردهة وبدأت تحادثنى بطلاقة وصراحة بهرتنى بشدة فى موضوعات مختلفة كنا قد تناولناها فى الليلة الماضية.

لقد تحدثنا الليلة السالفة عن رأى أخيها فى التعليم فقد كان لديه رأى خاص فى مدارس كونكتيكت العامة؛ حيث يرى أن هناك قصوراً ما فى مستوى التعليم فى تلك المدارس وقد أبدت "ميس داى" القليل من رأيها فى ذلك الموضوع ولكنها الآن وهى معى تعبر عن رأيها بحرية وبوضوح وبصراحة بها قوة شديدة وخاصة فى موضوع قصور وعيوب التعليم النسائى.

"إنه من المؤسف أن يكون هناك قلة بل وقلة قليلة جداً من النساء قد نلن قسطًا ضئيلاً من التعليم". قالت "ميس داى". "ولكن الأسوأ من ذلك أننا سيدات محظوظات حيث إن عائلاتنا تشجع تعليمنا، فننال قسطًا من التعليم لا يضيف شيئًا إلى نمونا العقلى ولا يتفق مع أخلاقياتنا ومبادئنا".

سألتها أن تحدد مناطق معينة يوجد بها قصور وكأنى قد فتحت ينبوعًا من الماء لا ينضب، فقفزت من كرسيها وكانت ترتدى فستانًا بسيطًا لونه لون

الكراميل يتماشى تماماً مع لون بشرتها، كان يحدث صوتاً خفيفاً وهى تمشى، كانت خطوتها واسعة مثل خطوة الرجل.

"ولكن ما الذى استفدنا به نحن من التعليم". مدت يدها الجميلة وبدأت تحدد المواد التى تعلمتها عن طريق أصابعها وأكملت قائلة: "الموسيقى، نعم ولكنها مبادئ الموسيقى". رجعت برأسها إلى الوراء وقالت: "ترا -لا -لا -فا -دى -دا". قالت هذا باستهزاء شديد، وأضافت قائلة. "الرقص لحضور الحفلات ولكن هذا ليس بشىء جديد حيث إنه رقص عادى الذى تعلمناه وليس به مجهود يبذل". ولمست الإصبع الثانى وهى تقول: "الرسم -رسم الأماكن الطبيعية بألوان الباستيل الهادئة -هذا رسم عادى ولا يقارن برسم وفن "مايكل أنجلو" الذى كان رسمه ينبض بالحياة والذى استطاع أن يصور الحياة من خلال حجر، ولا يقارن أيضاً برسم وفن "جويا" الذى جسد فى لوحاته الآلام البشرية، فهم كأنهم يقولون لنا ارسموا ولكن لا تحلموا بأن تكونوا فنانين وماذا تعلمنا أيضاً؟ اللغات؟ عظيم ولكن التحدث بلغة أخرى هو أن ترى وتدخل إلى أعماق ونفس أصحاب هذه اللغة وليس فقط التحدث بكلمات جديدة ومختلفة. ألا توافقنى الرأى مستر مارتش؟" رفعت ذقنى كرد على سؤالها بالإيجاب، وأكملت حديثها بالإيجاب قائلة:

"فنحن نتعلم قواعد اللغات الأجنبية ومفرداتها ولكن غير مسموح لنا بتطبيق تلك المعلومات التى

تعلمناها، فأين هى تلك الفصول لتعليم اللغة الفرنسية حيث تستطيع الفتيات قراءة أشعار الحب "لرونارد". أوه لا هذا ليس مسموحاً لنا!

لا ينبغى علينا أن نفسد عقولنا البسيطة ولا مسموح لنا بأن نقرأ مقالات الثوريين الفرنسيين الذين كتبوا مقالات عديدة عن الثورة الفرنسية، إنه من المضحك أن هذا غير مسموح به لنا نحن فتيات أصحاب الثورة والتمرد وبنات لآباء وأمهات يريدون التمرد على تلك الأوضاع المؤسفة لا ليس من المفروض أن يكون هناك حوار أو جدال أو مشاعر أو حب أو أى شىء من هذا القبيل، من المسموح أن يكون هناك قليل من الرومانسية ولكن ليس من المفروض أن يكون هناك حب تشعر به المرأة ويخترق قلبها ليضربه بعمق". كانت واقفة على أطراف أصابع قدميها ويداها تحت ذقنها فأجبتها قائلاً: يمكنك أن تعلمى أنت تلك الفتيات فأنى متأكد أن اهتمامك بهذا الموضوع سيؤهلك لهذه الوظيفة".

فضحكت وذهب التوتر والحدة من صوتها وهزت رأسها قائلة: "ومن هذا الذى سيجعلنى أعمل لأفسد عقول الفتيات من وجهة نظره، وحتى لو حدث هذا فأنا لم أتمكن من العلم بما يؤهلنى لتعليم الفتيات فأنا لم أتسلق جبال المعرفة ومازلت أتعرج فى معرفتى الضئيلة ولكن إذا كنت قد وصلت إلى أى ارتفاعات فى العلم فهذا أشبه بصقر صغير قابل نسمة خفيفة فى

الهواء رفعته قليلاً إلى فوق". وجلست على الكرسى مثل الطفلة الصغيرة وأكملت حديثها وهى تقول: "لقد جعلتنى أتحدث كثيراً، إنى أعتبر نفسى واحدة من هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يكون العالم ولكنى أفقد الطريقة لجعل العالم على ما ينبغى أن يكون".

"أعتقد أنك قاسية بعض الشىء على نفسك".

"على العكس من ذلك أؤكد لك، فلو كنت أكثر حزماً لكنت أنجزت العديد من الأشياء، ولكن ربما يوماً ما يكون لدى من الأبناء بنات وإذا حدث هذا، فأقسم بأنى لن أسمح أن يكون لديهن العلم والمعرفة البسيطة التى يسمح بها المجتمع للمرأة، ولكنى أتمنى بل أريد إذا رزقنى الله ببنات أن يكون منهن الكاتبة والفنانة المبدعة ليثبتن للعالم ما يمكن للمرأة أن تفعله".

ثم ضحكت ضحكة خفيفة وأضافت": ولكن بالطبع يجب أولاً أن أجد الشريك الذى يرغب فى أن تشاركه الحياة زوجة عنيدة صاحبة آراء صلبة ومتسلطة".

ساد المكان سكون وصمت وفجأة عاد القس "داى" من مهمته الدينية الذى ذهب من أجلها ولا أدرى ماذا كنت سأقول أو أفعل إذا لم يحضر "داى" فى الوقت المناسب، أعتقد أنى كنت سأتقدم لخطبتها وطلب يدها للزواج ولكنى لم أفعل لحضور "داى" المفاجئ فقد حضر وقطع الصمت الذى ساد المكان

لبرهة من الوقت ولو لم يحضر "داى" لكان قد وفر علينا آلام انتظارنا وشوقنا لبعض، وعندما عاد انسحبت "ميس داى" لتقوم بواجباتها المنزلية، وبصفة عامة، كنت دائماً أنتهز الفرصة للتحدث مع القس "دانيال داى" حيث إنه كان قارئاً جيداً يمتاز بذكاء حاد وقلب كبير ومعرفة لا حدود لها بمعظم العلوم. إن مناقشته فى الكتب التى قرأها والتحدث إليه يزيد المرء علماً وثقافة، وفى ذلك الصباح كان يريد مناقشة أعمال دكتور "تشانينج" الهائل لمفهوم العظمة فقد صنفها إلى درجات مختلفة فهناك العظمة أو القدرة العقلية، والقدرة الأخلاقية والقدرة الفعلية، أنى أذكر أنى قلت له إن العظمة الأخلاقية لابد وأن تكون مصحوبة بالفعل واتخاذ مواقف إيجابية فعلية لتحقيق الهدف الأخلاقى المطلوب تحقيقه إن هذه المناقشة التى دارت بيننا هى نفس المناقشة التى دارت بيننا يوماً ما، وكانت السبب فى إحضارى هنا هذا الشتاء وفى مثل هذا الوقت ولكن فى ذلك الصباح ونحن نمشى فى حديقة المنزل، كنت أجد صعوبة فى مواصلة الحوار معه حيث إن عينىَّ كانتا تنظران إلى الدور العلوى للمنزل حيث حجرة "ميس داى" ورغم أن النافذة كانت مغلقة إلا أنه كان من السهل أن أسمع صوتها مرة ثانية فى نفس اليوم وهى تغنى مثل البلابل وتتنبئ بميلاد عهد جديد أكثر حظاً.

إنه عادة عندما ما تكون هناك فكرة ما مثل التى كنت أناقشها مع "دانيال داى" وتبدو هذه الفكرة مهمة وواضحة سواء كان الحديث عنها من فوق المنبر فى

الكنيسة أو فى الحديقة مع صديق، تصبح هذه الفكرة غير واضحة عند التنفيذ. إذا تحدث أحد عن الحرب وقال إنها واجبة وضرورية وعادلة، إذاً فهى كذلك فهى فعل، الهدف منه الوصول إلى تحقيق قضية أخلاقية، ولكن أينما ذهبت فلا أرى إلا الظلم.

وعندما أحاول كل يوم فتح قلبى وعقلى لزوجتى لكى أحكى لها فى خطاباتى عن تلك الحرب وما يحدث بها، أجد نفسى فى مشكلة كبيرة فى وصف ولو جزء مما رأيته من ظلم وقسوة ودمار داخل ميدان المعركة فلا أستطيع أن أعبر عمّا رأيته أو أشعر به. أما بالنسبة لما قمت به وعواقب أفعالى فلا أجرؤ حتى على محاولة كتابة هذا إليها.

هناك أشياء عديدة سيئة حدثت فى تلك الأسابيع التى كنا معسكرين فيها على مشارف هاربرز فارى(*)، فقام جيشنا بالعديد من محاولات وأفعال تحرش بالأعداء، إن عامة الشعب المنتمين للشمال أتوا إلينا، وقام عدد من شباب الكشافة وكذلك بعض الجواسيس بالذهاب إلى تلك المدينة الواقعة فى الشمال، وعندما قتل أحد رجالنا والذى كان محبوباً جداً من قبل الجنود والضباط أمر القائد بالانتقام من مقتل هذا الرجل الشجاع، ولكن الانتقام فى رأيى كان بشعاً وخرج عن حدود قوانين الحرب، فقد أمر فريقًا من الجنود بحرق كل المبانى الواقعة بين مصنع الأسلحة وكوبرى سكة الحديد.

(*) هاربرز فارى: اسم مكان.

أغلب تلك المبانى كانت بيوتاً للمدنيين وللأشغال وترك ذلك الحريق دماراً مرعباً ومخيفاً ورغم ذلك الدمار الذى لحق بتلك المدينة فلم يكن هناك بل ولم يتحقق أى هدف عسكرى من جراء ذلك الخراب، وعندما واجهت ذلك القائد بتلك الحقيقة أى أنه لم يحقق أى هدف عسكرى بما فعله، امتنع عن حضور عظاتى الدينية أو حتى مبادلتى التحية عندما نلتقى.

وقد علمت فيما بعد أن هذا القائد "هكتور تيندل"، قد تم اختياره لمهمة خاصة، وهى مصاحبة مسز "براون" عندما أحضرت جثة زوجها -الذى نفذ فيه حكم الإعدام -من فرجينيا إلى نيويورك، فقد تنبأ "براون" من قبل بالدمار الذى لحق بهاربرز فارى وقد دمرت بالفعل معظم تلك المدينة. وقد تساءلت عما إذا كانت روح ذلك الرجل المسن قد سيطرت على عقل "هكتور تيندل" وأمرته بالقيام بمثل هذه المهمة البشعة.

ومن هذا الذى يعرفه أكثر منى ويعرف قدرة ذلك الرجل للامتلاك والاستحواذ على عقل كل من يعرفه، فبالنسبة له كنت مجرد أداة يستخدمها مثلما يستخدم الحداد زوجاً من الملقط ويضعه فى النيران فقد استخدمنى "براون" من قبل للسيطرة على كبريائى مثلما يستخدم أى رجل يأتى إليه حتى يخلص أرضنا من البغض والكراهية.

وعندما استطعنا احتلال المدينة فى نهاية شهر فبراير، كان مشهداً مقفراً للغاية، فمعظم السكان

تمكنوا من الفرار، وبقيت أقلية كانت تأمل فى البقاء للحفاظ على ممتلكاتها، ولكن لم يتحقق هذا الأمل لهم، وبمجرد أن استولينا على المدينة، قررت الذهاب إلى ما يسمى بمصنع المحركات، حيث كانت هناك محاولة من قبل كابتن "براون" للاستيلاء على مصنع الأسلحة وتحفيز العبيد بالقيام بانقلاب، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل الذريع وانتهت بمعارك دموية.

كان هناك متسع من الوقت لى فذهبت إلى ذلك المبنى الصغير المسكون. وجدت نفسى أقف أمام ذلك المبنى ومشاعرى تتأرجح بين الإعجاب والنفور منه ودارت فى مخيلتى العديد من الأسئلة، وسألت نفسى هل حدث هنا من قبل حادث بمثل هذه البشاعة والوحشية؟ هل كان هناك من قبل رجل مثل "براون" لديه من العطاء والتضحية بالنفس؟ كان عقلى مزدحماً بالتساؤلات، وكان يدور فى ذهنى العديد من الأفكار منذ أن علمت بخبر وفاة مستر "براون"، وكنت أيضاً أفكر فى بناتى الأربع وخاصة "بث" و"آنى" عندما علمت أنهن ذهبن ليتنزهن فى ما يسمى بغابات الخريف فى أحد الأيام كما وصفت لى والدتهن فى أحد الخطابات.

كان هناك رجل يدعى "توم هيجينسن" واحد من هؤلاء الذين رحبوا "براون" كضيف فى الكونكورد، وقد حضر إلينا هذا الرجل ونظراته عابسة وهو يحمل إلينا خبر محاولة "براون" للانقلاب المسلح ووقوعه كأسير فى أيدى العدو، وأخذ يصف لنا الجراح التى

ألمت "براون" وأتباعه الذين قتلوا، وقلت "لهيجينسن" أنى اعتقدت أن ذلك العمل الذى قام به "براون" كان من الممكن أن يؤدى إلى تحقيق الحرية، ولكن عندما انتهت الحرب ووصلت إلى وطنى بسلام لأرى زوجتى وبناتى الأربع تعمدت إشعال النيران بمكتبى لأحرق كل الوثائق والأوراق التى تشير إلى معاملاتى مع "براون" رغم أن معظم هذه الأوراق والوثائق كانت تتعلق بمخططات وخرائط مسح لبعض الأراضى.

وبعد بضعة أسابيع وفى أحد أيام الشتاء الدافئة المعتدلة، حضر عدد من سكان كونكورد لحفل التأبين الذى أقيم "لبراون" ، لم تدق الأجراس ولم يلق أحدٌ خطاباً، ولكنها كلها كانت مجرد قراءات مختلفة من كتب متباينة، فقد قرأ "أمرسون" و"تورو" وكذلك "سانبورن" ومدير المدرسة الذى ألف ترنيمة جنائزية وغناها الجمع، وقرأت جزءاً من الكتاب المقدس وهو "سفر نشيد الإنشاد" "لسليمان الحكيم" وقطعة من كتاب "أفلاطون". والآن تساءلت فى داخلى ماذا سيقول "براون" عن هذه الأرض المذنبة وسفك الدماء الذى كثيراً ما تنبأ به "براون" ووصفه بمنتهى الدقة.

كنت أفكر وأتأمل فى السلوك غير اللائق الذى قام به بعض من جنودنا فى هذا المكان الصغير والذى استخدمه الأعداء كزنزانة، فإنه ليس من المعقول أن يستخدم هذا المكان كسجن للأسرى، إن هذا المكان له مقام رفيع المستوى، ولابد أن ينال الاحترام من الجميع ويستخدم بأسلوب أفضل من هذا، كان هناك داخل

ذلك المكان أربعة جنود محبوسين داخل تلك الزنزانة وكان رجالنا يحاولون التسلق عبر البراميل ويدخلون من خلال نوافذ كبيرة ليقدموا للأسرى، وللأسف قصائد من التوبيخات القاسية ـ وأتيحت لى الفرصة بعد ذلك للتحدث إلى هؤلاء الرجال الذين قاموا بهذا السلوك المعيب مع الجنود ولكنى وجدتهم متجهمى الوجه وليس لديهم الاستعداد لسماع ما يقال لهم.

كنت فى طريقى للعودة عبر الشوارع المنحدرة وأنا أسترجع بذاكرتى ذلك التاريخ المؤلم منذ تعارفى على "براون" ولكن فيما أنا أفكر فى ذلك، انقطعت أفكارى الكئيبة بصوت صراخ عالٍ لامرأة قادمة من منزل جميل يقع فوق التل أمامى، وبالطبع أسرعت لأرى إذا كان باستطاعتى أن أقدم يد المساعدة، كان الباب مواربأ فدخلت فى الوقت الذى كنت فيه سأدهش بصوت بيانو تم تدميره تماماً، وأخذ ينزل من على السلم درجا بعد درج، ولحسن الحظ ولأجل ما تصاب جمجمتى كان الجزء الأثقل من على الجانب الشمال، ومن أعلى كان هناك صوت زجاج يتحطم وعندما استدرت تجاه الشارع رأيت بقايا النوافذ العليا تتساقط كوابل من المطر وببريق هائل.

وفى تلك اللحظة سمعت صراخ المرأة مرة ثانية وأخذت أصعد السلم بصورة مسرعة جداً وأنا أتخبط بأرجل البيانو، وكان المشهد الذى فى انتظارى هو مفاجأة لى، كان هناك ثلاثة من جنودنا، تعرفت على اثنين منهم من وحدتى أما الثالث فهو أما من كتيبة

جديدة أو تم نقله حديثاً إلى وحدتنا، والثلاثة من قوات حفظ السلام ولكنى وجدتهم يضحكون بصوت عال على امرأة وابنتها فى الثالثة عشرة من عمرها وهما يرتعشان خوفاً من هؤلاء الجنود الذين كانت أعينهم على زهرية صينى غالية الثمن وتعد من التحف الأثرية، وكانت المرأة تصرخ وتقول بصوت مرتفع إن هذه الزهرية هى كل ما تبقى لها من ممتلكات جدتها وكانت تتوسل إليهم أن يتركوا هذه الزهرية ويكفوا عن اللعب بها، حيث كانوا يجرون فى الحجرة وهم يلعبون بالزهرية مثل الكرة فجرت الابنة بينهم فى الوسط محاولة أن تمسك بالزهرية وبسرعة مذهلة قبض الجندى الثالث على الابنة ومسكها من خصرها وشدها بعيداً، وعندما رأيته يضع يده بطريقة داعرة بين فخذيها تذكرت فى الحال بناتى الأربع وصرخت بصوت عال من شدة الغضب ولم ألاحظ أن صراخى هذا كان عالياً إلا عندما رأيت الجنود واقفين متجمدين من قوة الصوت فصرخت موجهاً كلامى إليهم: "من منكم القائد هنا؟" وجدت خمسة وجوه تنظر إلىّ: ثلاثة هم الجنود، وفى عيون الابنة والسيدة نظرة تطلب المساعدة. خفضت صوتى وقمت بإعادة السؤال: "من منكم القائد هنا؟".

"أنا يا سيدى". قال واحد منهم وهو يمسح عرقه من على حاجبه.

"إذاً هل تسمح بأن تفسر لى ما يحدث هنا من هجوم وعدوان".

"لماذا يا سيدى فنحن نشعل جحيماً صغيراً، ألا يتحدث الكتاب المقدس عن سدوم وعمورة بأنهم قد دمروا نتيجة الشر، الذى كان موجوداً داخل تلك المدينتين؟ إذاً فلماذا لا نقضى على تلك العشة التى يحيطها الدمار والشر من كل جهة؟

"أيها الجندى أن الأوامر كانت بأن تأخذ فقط الأشياء التى يحتاجها الرجال بشدة ولكن غير مسموح لك بالقيام بأعمال السرقة أو العنف أو التخريب وما فعلته هنا هو عمل وضيع ومثير للاشمئزاز".

نظر إلىّ العريف بحدة ثم بصق فى الأرض على السجاد التركى وأجابنى قائلاً: "هل ما أفعله يوازى ما فعله جيش هذه المنطقة من قبل برجالنا عمداً أيها القس؟" قال هذا وقد شعرت بالدم يجرى فى وجهى وأضاف قائلاً: "إن رجالنا لم ينسوا ما حدث لجنودنا وضباطنا إذا كنت قد نسيت أنت".

أجبته: "إن غضب الرجل العسكرى يمكن أن يحمله إلى ميدان المعركة ولكن ليس من الأخلاق أن يحمله هذا الغضب إلى المدنيين وخاصة النساء والأطفال. فأرجو أن تقوم بتنظيف ما فعلته يداك من فوضى وتأتى معى إلى الكولونيل".

والتفت إلى تلك السيدة وابنتها وكانت تضم ابنتها وتمسح بيديها على شعرها بحركة بها حنان وحب أحضرت إلى ذاكرتى زوجتى "مارميه" وابنتى "بث" الصغيرة فقلت لها: سيدتى أنى أعتذر إليك

بشدة، فهؤلاء لا يمثلون قطعاً جيش الوحدة ولا يمثلون قضيتنا".

نظرت عيناها إلىّ بشدة وكانتا تلمعان من شدة الغضب وقالت لى:

"إن رجالك يا سيدى هم حثالة المجتمع وكذلك قضيتكم".

سمعت العريف وهو يصهل وكان معنى صهيله واضحاً كأنه يقول لى "أنا قلت لك". التفت ونظرت إليه وكان ينظف المكان وهو يزيح بقدمه وبعنف قطع الأثاث المكسورة ناحية المدفأة. ولحرصى على ترك ذلك البيت فى عجلة، تحركنا وبسرعة تركنا المنزل وكنا نسير فى صمت بارد تجاه المنزل الآخر الذى كان مقر الكولونيل.

عندما وصلنا كان الكولونيل ينوى عقد اجتماع بخصوص الجسر العائم لهذا كنا مضطرين أن ننتظر لأكثر من ساعة حتى يحضر بقية الجموع وعندما سمح لنا بالدخول كان لا يزال يتأمل رسومات مهندس وكان يبدو أنه يستمع لشكواى بنصف أذن.

"عظيم جداً". قال لى عندما انتهيت من حديثى والتفت إلى الجنود الثلاثة وقال لهم: "إن القس على حق، لن أسمح بإهانة كرامة السيدات حتى ولو كن زوجات لمن قاموا بعمليات التمرد والانقلاب. إنى مدرك لماذا اتخذتم هذا الموقف تجاه تلك المرأة وابنتها ولكن لن أسمح بأن يتكرر ذلك الموقف ثانية. انصراف".

فانصرف الجنود ولكن ظل العريف واقفاً وهو ينظر إلىّ نظرة ازدراء.

أخذ الكولونيل البوصلة وبدأ يقيس مسافات رسومات المهندس.

"سيدى ...." بدأت فى الحديث ولكنه قاطعنى قائلاً":

"مارتش، أعتقد أنه لابد وأن تعيد حساباتك وتفهم وضعك كما ينبغى مع هذه الكتيبة".

"سيدى؟"

"يبدو أنك لا تستطيع التعامل بشكل جيد مع أحد -لقد ضايقت الضباط الآخرين حتى "تيندل" لا يستطيع أن يتعامل معك رغم أنه يتشابه معك فى كثير من الآراء أن الطبيب الجراح "ماكيلوب" قد تحدث كثيراً عن الضجة التى كنت مسئولاً عنها وسبباً فيها أخيراً. والليلة قبل الماضية قد تحدثت معه بحدة وألقيت عظاتك ومفاهيمك الدينية الغريبة عليه وعلى الرغم من أنى سمعته يتحدث مرة عن أن فكرة عظاتك الدينية لا تدور حول مفهوم الخطيئة ولكن أجدك الآن تلقى اللوم على مجموعة من العساكر لم يفعلوا شيئاً يستحق ما تشكو به منهم".

"ولكن يا سيدى أن تلك الأفعال المخرية والمدمرة التى ....".

"احتفظ بهدوئك من فضلك يا "مارتش" لمرة واحدة فى حياتك". قال هذا بحدة شديدة ومن حدته

طعن البوصلة وقد اخترقت المكتب الذى كانت عليه ووقعت على الأرض فدار حول المكتب ووضع يده على كتفى قائلاً:

"إنى معجب بك يا "مارتش" وإنى واثق أنه ليس لديك سوء نية من وراء ما تقوم به ولكنك تعتبر شديد التطرف بالنسبة لهؤلاء وأنى على دراية بآرائك ومفاهيمك الدينية خاصة بعد أن رشحك القس "دانيال داى" للقيام بهذه المهمة الدينية الوطنية، وأشار بأنك من أفضل القساوسة لتدعيم الجانب الدينى للجنود ومن الناحية الشخصية فأنا واحد من هؤلاء الذين لديهم آراء صلبة ومتشددة تجاه قضية العبودية فأنا ضد هذه القضية تماماً، ولكن معظم هؤلاء الجنود ليسوا هنا فى صفوف الجيش ليحاربوا من أجل العبيد ويدافعوا عنهم وعن حقوقهم، يجب أن تفهم ذلك مستر "مارتش" بل يجب أن تكون واضحاً ولو مرة واحدة مع نفسك فعندما يسمع الجنود هنا عظاتك عن تحرير العبيد فسوف يرحل عدد كبير منهم إلى الشمال ليحلوا محلهم فى العمل".

"سيدى أنا ..."

قاطعنى بنظرة حادة فوجدت نفسى أقف عن الحديث ولكنى بصعوبة شديدة استطعت أن أوقف لسانى عن الحديث، وتساءلت كيف لرجل مثل هذا أن يكون صديقاً "لدانيال داى"، وأكمل حديثه كأنه يكمله لنفسه قائلاً: "لماذا يكون هناك قساوسة فى الحرب؟ إن كتاب لوائح الجيش يتحدث قليلاً عن هذا الموضوع.

غريب أليس كذلك؟ فهنا حيث يكون دائماً للأوامر اليد الكبرى فى كل شىء وحيث إن لكل ضابط دوره الذى يجب أن يؤديه ولكل جندى واجبه الذى يجب عليه القيام به فإن القس فى الحرب ليس لديه أى دور ليقوم به فى الحرب سوى أن يساعد الضباط والجنود مساعدة معنوية حيث إنه يجب عليه أن يواسيهم ويعزيهم فى الأوقات الصعبة." ثم نظر إلىّ وتحدث بصوت مرتفع قائلاً: " إن هذا هو دورك حقاً مستر "مارتش" ولكن ما أجدك تفعله هو أنك تجعل الجنود والضباط يشعرون بعدم الراحة". وأخذ البوصلة ووضعها بعصبية شديدة على المكتب واستأنف حديثه بنبرة هادئة قائلاً": ألا ترى بأنه يمكنك أن تقوم بمهامك بطريقة أفضل مع العقول النابغة فى وحدة هارفارد؟

"سيدى أن وحدة هارفارد بها قساوسة مشهورون وهم خريجو كلياتها التبشيرية وهم ليسوا فى احتياج..."

رفع يده الكبيرة وكأنه يوافقنى فى وجهة نظرى هذه والتفت إلى الوراء، وأشار بيده فى اتجاه الشمال وهو يقول: "بما أنك تحب العبيد السود إلى هذه الدرجة، هل خطر إليك أن تساعد الجيش فى مشكلة المحظورات والأشياء المهربة؟ فهى خدمة بسيطة فمنذ أن فتح "بتلر" البوابات فى قلعة موزو لهؤلاء الناس يأتى إلينا المئات يومياً لينضموا لصفوفنا وآخرون

يقومون بالعمل فى المزارع، فلابد أن يكون هناك شخص ليقوم بعملية التنظيم لهم.

إن عمل الرجال مفيد وأنه من حسن الحظ أنهم يأتون إلىّ للقيام بالأعمال التى لا يستطيع الضباط أو الجنود القيام بها نتيجة لقيامهم بمهام أخرى..."

"ولكن يا سيدى الكولونيل". قاطعته وأنا آخذ خطوة للأمام تجاهه وأكملت حديثى قائلاً: "إنى أعرف الرجال فى هذه الكتيبة فقد كنت معهم من قبل فى معسكر التعليمات وقد عملنا معًا وصليت معهم عندما وصلتنا أخبار هزيمتنا فى البل رن (*) وعندما سافرنا إلى الجنوب لنلحق بالصفوف الأمامية..."

"يا إلهى.. أنا لا أحتاج أن أسمع تفاصيل خدمتك...."

ولكنى استمررت فى الحديث فقد كنت لا أستطيع أن أمنع نفسى من أن أوضح قضيتى له فأنا لم أر أنى كنت أضايقه بحديثه هذا فأكملت قائلاً:

"لقد مررنا بالهزيمة معًا، لقد اندمجت دماؤهم بدمى ...فلا يوجد قس ....."

"سكوت" صرخ الكولونيل ومشى تجاه النافذة المطلة على النهر وكانت فترة العصارى والنهار على وشك الانتهاء، وكان هناك شعاع من الضوء الأحمر واضحاً على سطح المياه وأكمل حديثه وهو ينظر إلى

(*) اسم مكان.

النافذة ليتجنب النظر إلىّ قائلاً: "مارتش"، أنى أحاول جاهداً أن أوضح لك ما أريد أن أقوله بأسلوب لطيف وإذا كنت تريد أن تعرف الحقيقة بصورة أكثر وضوحاً وصراحة فإنى مضطر أن أقول لك إن دكتور "ماكيلوب" سيتقدم بشكوى ضدك ولكن ما تتضمنه هذه الشكوى هو ليس بالشيء ... اللائق والذى ترغب أنت فى سماعه، فأنا لا أقصد أن أتدخل فى شئونك الخاصة .... قد تكون قساً ولكنك أولاً وأخيراً رجل وجندى فى الحرب ومثل هذه الأشياء تحدث ...."

وقاطعته قائلاً: "كولونيل إذا كان كابتن "ماكيلوب" قد أشار بشيء فى حديثه عن ...."

"مارتش، دعنى أقدم لك خدمة ويجب أن تقدم أنت لنفسك خدمة أيضاً أطلب تعيينك من جديد كمراقب للأشياء المهربة والمحظورات فى الجيش. من يعرف؟ ربما تجد الكثير من الواجبات والمهام للقيام بها هناك".

تركت المكان وأنا أشعر بالخزى والعار والغضب. نعم كنت أشعر بالعار ولكن تلك الشكوى لا أساس لها، فقد حضر "ماكيلوب" آنذاك يبحث عن "جريس" لتساعده فوجدنا معاً فى حجرة مستر "كليمنت" وكنت قد نزعت ذلك الشريط السميك من على شعر "جريس" الجميل ودفنت وجهى فى شعرها وتذوقت للمرة الثانية طعم ومذاق فمها العذب ولكن فى هذه اللحظة وجدتها تبكى والدموع تنهمر من عينيها وعلى

خديها وفجأة، وجدت نفسى انتقل من هذه اللحظة إلى لحظة أخرى حيث تذكرت زوجتى وتذكرت وجهاً آخر مبللاً أيضاً بالدموع وهو وجه زوجتى وتذكرت كيف أنى أحب زوجتى ومدين لها بأشياء كثيرة، وسقط هذا كله علىّ كالضباب البارد. كنت ممسكاً بوجه "جريس" بيدى ونظرت إلى عينيها ولكنها سحبت رأسها من يدى.

"ماذا بك؟" همست قائلاً.

"لقد انتهى الوقت لذلك". قالت هذا بصوت مرتعش. "فإنك لست الشاب الوسيم البرىء البائع المتجول الذى أتى إلى هنا منذ سنوات ماضية، وكانت حقائبه مليئة بالكتب ورأسه مليئة بالمعلومات القيمة وأنا لست الخادمة المحبوبة المرغوبة...."

تقدمت نحوها بخطوة أخرى وقبلتها ثانية ولكن هذه المرة كنت أقبلها كمن يقبل صديقاً متعباً، عندما حضر "ماكيلوب" بعد ذلك وجدنا كذلك كان شعر "جريس" غير مربوط ووجهها مدفوناً داخل كتفى وبالنسبة لرجل مثل "ماكيلوب" يرى الخطيئة فى كل مكان، كان ذلك المشهد كافياً بالنسبة له ليحكم على الموقف بطريقته الخاصة.

أما بالنسبة لى فكان ذلك بمثابة الخزى والعار وأعتقد أنى أستحق جزائى وما فرض علىّ من عقاب ونقلى لأخدم فى وحدة أخرى مختلفة عن التى كنت أخدم بها ولكن ما كنت أخشاه هو أن يصل ما حدث

إلى أذن زوجتى العزيزة أو تعلم بناتى بما حدث فتصدمهم تلك المصيبة وتؤثر على براءتهن ووفقاً لذلك كله أخذت أمشى عائداً من خلال الشوارع المنحدرة إلى مشارف المدينة حيث المخيمات ومعسكر الجنود والضباط وأخذت مكتبى الصغير، وكتبت طلباً لنقلى من الخدمة وبعد أن انتهيت من كتابة ذلك الطلب، نقلت إلى الورقة الأخرى التى سوف أكتب فيها بعض السطور لزوجتى وتخيلت عيون زوجتى ونظرتها إلىّ عندما رأيتها للمرة الأولى فى كنيسة أخيها منذ عدة سنوات، وعندما تخيلت ما سوف أكتبه إليها قررت أن أكتب كل شىء ولا أترك شيئاً للظروف وفكرت بأن أكتب إليها كل ما لا تستطيع الشفاه أن تحكيه ليصبح ذلك كله سجلاً لنا خالياً من الأكاذيب نقروه معًا فى وقت لاحق.

ولكنى عدلت عن التفكير فى ذلك وقررت ألا أكتب إليها شيئاً من هذا القبيل خاصة ما حدث بينى وبين "جريس" وقررت أن أشير إليها خبر نقلى ولكن بصورة إيجابية حيث إنى لا أستطيع أن أخبرها عن عدم قدرتى وفشلى فى أن أكسب عقول وقلوب الجنود والضباط وذلك لأن زوجتى قد ضحت كثيراً فى أن توافق على إرسالى هنا إلى الحرب لأكون بين هؤلاء الضباط والجنود لتشجيعهم وتدعيمهم معنوياً ونفسياً ودينياً وإذا علمت بأن لا أحد منهم يرغب فى تلك الخدمة التى أقدمها فسوف تشعر بضيق عظيم.

فقررت أن أكتب إليها بأن موضوع نقلى فى الوحدة الخاصة بالمحظورات قد خطر لى عندما مشيت بنفس خطوات كابتن "براون" فسوف أخبرها بأن المبادئ التى نادى بها مازالت سارية، وأشعر بأنى أسير معها ولكن حتى وأنا أكتب ذلك إليها أشعر بأن الحقيقة تسبق كل كلمة أكتبها إليها وذلك لما بيننا من حب صادق وفهم متبادل.

الفصل الرابع

قلم أفضل

كان هناك وقت ليس ببعيد أى منذ عدة سنوات مضت عندما كنت أشارك زوجتى الحبيبة كل أفكارى واهتماماتى العامة والخاصة، وفى يوم وأنا عائد إلى منزلى فى بوسطن بعد أن قضيت عُطلة نهاية الأسبوع فى منزل القس "دانيال داى" وفى خدمة كنيسته فى "كونكتيكت" كانت تلاحقنى لون عينيها الغامقتين وكذلك لون شعرها الغامق، فظلت تلك العينان معى فى صحبتى وأنا عائد إلى منزلى، ووجدت نفسى غير قادر على التأمل وكتابة خواطرى التى كنت معتاداً على كتابتها دون أن أكتب شعراً، على جمال صوتها العذب وأفكر فى رجاحة عقلها. كانت قد استحوذت على عقلى وفكرى تماماً بصفاتها الجميلة، فقد كانت امرأة مختلفة عن غيرها من النساء، كانت امرأة بسيطة ومتواضعة تشبه النبلاء فى طريقة حديثها وفى أسلوبها فى التعامل مع الآخرين، كانت نابضة بالحياة، تمتاز بالجدية فى تفكيرها وسلوكها مع من حولها، ولم أقض وقتاً طويلاً فى اكتشاف غرامى وحبى لها.

وحيث إننى كنت دائم الاتصال والحديث مع أخيها فلم تكن هناك أية مشكلة فى أن أقوم بزيارته كثيراً لأراها وأتحدث معها، كنت أتحدث معها فى شتى الموضوعات، ولكن أجد نفسى دائماً لا أستطيع الحديث عن أهم موضوع يخصنا وهو حبى لها وتعلقى الشديد بها، فعدت ذات يومٍ إلى بوسطن بعد أن كنت رأيتها للمرة الثانية وأنا محبط جداً لعدم استطاعتى التحدث معها فى موضوع ارتباطى بها، وأخذت أكتب مذكراتى وأصف مشاعرى المحبطة وحبى لها وأمنياتى بالزواج منها والارتباط بتلك الإنسانة الجميلة.

وعندما تلقيت اتصالاً من القس "دانيال داى" ليخبرنى فيه أن أخته ستعود إلى منزل أبيها لتمكث معه فترة، حيث إنه مريض ويحتاج وجودها معه، شعرت عند سماعى هذا الخبر بفرحة غامرة. إن مستر "داى" الأب فقد زوجته منذ عدة سنوات وأصبح هزيلاً ومتعباً معظم الوقت ويحتاج إلى رعاية ابنته، ومن حسن الحظ أننى كنت على دراية بمكان القرية التى كان مستر "داى" الأب يسكنها فهى لا تبعد كثيراً عن مكان إقامتى، فالآن أصبحت الأمور فى يدى لأتحدث مع والدها وأطلب يدها منه وإذا لم أنتهز هذه الفرصة وأتقدم لطلب يدها إذًا" فلا أستحق أن أكون سعيداً فى حياتى. ومنذ سنوات ليست ببعيدة استقر عمى فى تلك القرية بعينها واستطاع أن يكونّ ثروة من تجارة الرصاص، كان رجلاً طيب القلب وكنت أود أن يقوم بدعوة ميس "داى" لو لم أكن على خلاف

مع زوجته، فقد تزوج عمى أخيراً امرأة من عائلة فى بوسطن القديمة، كانت تتصف تلك المرأة بطبيعة وأخلاقيات تختلف عن أخلاقيات أهل "سبيندل هيل" وكان ذلك سبباً فى أنها غير مرتبطة فترة طويلة من حياتها ولكن قد أعجب عمى بشخصيتها وذكائها وكذلك لباقتها فى الحديث، وهذا كله ما جذبه إليها ولكن شخصيتها لم ترق لعديد من أفراد أسرتها وأنا من بينهم وقد أثمر ذلك الزواج عن ابنة وحيدة، ولكن شاءت الأقدار أن تخطف هذه الابنة من بين أيديهم ومنذ ذلك الوقت وقد تغيرت شخصية الأم إلى الأسوء، وأصبحت أكثر حدة وعصبية وأصبحت تشبه "الدبور" على استعداد أن تؤذى من حولها إذا شعرت بأن هناك موطن ضعف لدى شخص ما، ولهذا لم يكن من الحكمة أن أستخدم منزل عمى وزوجته لأتقدم لخطبة مس "دانيال داى".

وبدلاً من هذا فقد أرسلت خطاباً إلى عمى أسأله إذا كان يعلم أن مشروعًا رأسماليًا سيعود بربح وفير علىّ فأجابنى بأن هناك من يعمل ميكانيكيًا فى القرية ولديه ابن يعمل فى صناعة أفضل وأكثر جودة لأقلام الرصاص وقد وجدت تحدياً كبيراً فى هذا العرض البسيط، وكتبت لهذا الميكانيكى أعرض عليه العمل معه وأرسل رداً سريعاً إلىّ يدعونى فيه بحماس شديد للعمل معه.

كانت رحلة طويلة ومملة بعض الشىء واكتشفت أنه كان بالأحرى أن أقطع هذه المسافة ماشياً، إن

انطباعى الأول لهذا المكان الذى أحببته فيما بعد كان انطباعاً مشوشاً قليلاً فقد بدا لى فى بادئ الأمر أنه طريق مرصوف بالأشجار ومزدحم من الجانبين بالحانات ولكنى وجدته عكس ذلك تماماً، فقد كانت هناك بحيرات صغيرة على طول الطريق حولها الغابات الكثيفة من الجانب الأيمن والأيسر حتى نهاية القرية جنوباً، إن السير بين تلك الغابات وبجانب تلك المياه يعطى انتعاشاً رائعاً.

كانت هناك ما بين ألفى نفس كادحة فى هذه القرية والقرى الأخرى المحيطة بها يعملون جميعاً فى الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت جميع الحانات والبارات تكسب من المتجر المتخصص فى تجارة الخيل والثيران، فقد فكرت كثيراً فى أن أجد لى مكاناً فى أحد هذه المتاجر لأقيم فيه ولكن ذلك الشخص الذى يقوم بصناعة أقلام الرصاص رفض تماماً أن أقيم فى أحد تلك المتاجر وقال لى بعد أن استقبلنى وهو يمتطى جواده إن زوجته خصصت لى مكاناً فى بيتهما لأقيم فيه وقد رحبا بى ترحيباً شديداً فى منزلهما.

كان منزلهما أنيقاً جداً أكثر مما توقعت، كان منزلاً أصفر اللون مربعاً تحيطه حديقة ونبات الشوكران والبلسم من كل مكان فيبدو أن هناك شخصاً غيرى قد لاحظ أهمية أن يكون داخل هذه القرية أشجار كثيرة.

وعندما دخلت إلى منزل زوجة الميكانيكى وجدتها متحدثة لبقة، صاحبة شخصية قوية وآراء صلبة فما

أن رأتنى حتى أخذت تتحدث عن آرائها تجاه قضية العبودية وتجارة الرقيق، وألقت علىّ عظة كنت قد قمت بإلقائها فى الأيام الأخيرة على الرجال السود الذين يعملون بالبحر فى الموانئ الجنوبية لولاية ماستشوستس. كانت هذه الزوجة أحد قادة تحرير العبيد "بكونكورد" وخاصة تحرير العبيد من النساء حيث كانت ضد عبودية النساء.

وعندما علمت بهذا سألتها على الفور إذا كانت تعرف مس "داى"، فنظرت إلىّ نظرة فاحصة وأجابت بأنها قطعاً تعرفها، فإن مس "داى" صديقة حميمة لابنتيها "صوفيا" و"سينثيا"، فإنها كانت تتحدث هذا الصباح مع ابنتها "صوفيا" عن وصول مس "داى" إلى بيتها لتقيم مع أبيها بعض الوقت، وأنها تفكر أن تدعوها يوماً لتناول العشاء معهم، ونظرت إلىّ مرة ثانية نظرة فاحصة جعلت الدم يجرى فى وجهى وأحمر خجلاً، فقد كان فى نظرتها ما يوحى بأنها تشعر بشىء ما يربطنى بمس "داى" واحمرار وجهى كان بمثابة تأكيد لصحة ما تشعر به، وذهبت مسرعاً إلى الطابق الثالث مع زوجها لنتحدث عن مشروعه الجديد الخاص بتحسين وتطوير أقلام الرصاص.

كان يبدو أن ابنه هو صاحب تلك الأفكار المبتكرة والمبدعة، كان ابنه فى مثل سنى أو أكبر قليلاً، وجدناه يعمل بالطابق الثالث فقد كان يجمع عدداً كبيراً من أقلام الرصاص ليشحنها خارج القرية، كانت حجرته عبارة عن ورشة عمل تنبعث منها رائحة خشب الأرز

المقطوع، وكانت نشارة الخشب تملأ الحجرة مصحوبة بغبار مثل الضباب الرقيق ولكنها رمادية اللون. كان ابنه يدعى "هنرى ثورو"، شاب ليست به صفات الوسامة من الناحية الجسدية فساقاه قصيرتان وذراعاه طويلتان، لكن وجهه كان مغطى بشعره غير المهندم فقد كان يبدو وجهاً صارخاً، كانت ملامحه غليظة، كانت أنفه غليظة مثل الخطاف مدلاة على شفتين غليظتين وعينين كبيرتين لكنهما ذات لون شاحب وتشع بالذكاء، وقد أومأ برأسه عندما قام والده بتقديمه إلىّ ولاحظت أنه كان ممسكاً بقوة فى قبضة يده المليئة بالشعر بنحو اثنى عشر قلماً، وكانت الأقلام مربوطة كحزمة واحدة بشرائط خضراء اللون، وكان يبدو ذلك العمل وكأنه عمل يعتمد على الميكنة ولكن فى حقيقة الأمر هو عمل يدوى بحت.

إن "جون ثورو" الأب كان كثير التحدث عكس ابنه الذى كان قليل الكلام، وأخذ يتحدث إلىّ قائلاً: "إنى أقوم بصناعة أقلام الرصاص منذ عام ١٨٢٤ عندما اكتشف أخ لزوجتى لفافة كربون طرى ليكتب عليها". كل ما استطعت أن أفعله - حيث إنه لم يمهلنى الفرصة للتحدث- هو أن تثاءبت وأكمل قائلاً: إن الأقلام التى قمنا بصناعتها لم تكن جيدة مثل تلك الأقلام الأوروبية الأخرى، فقام هنرى -عندما كان يدرس فى هارفارد -بدراسة كيفية صناعة أقلام الرصاص وعلم جيداً سر جودة الأقلام الأوروبية فهم يمزجون الطين بلفافة الكربون الطرى "كمادة تساعد

على التماسك والالتحام، ولكن ابنى لم يكتف بهذا. أليس كذلك يا هنرى؟".

والتفت الرجل المسن إلى ابنه الذى اكتفى بأن هز رأسه دون أن ينظر إلى أبيه ولم يتوقف عن جمع الأقلام للشحن وأكمل الأب حديثه قائلاً: "إن لهنرى فكرة تجعل الكربون الطرى" أقل خشونة ولديه أيضاً فكرة ذكية لصناعة أنواع معينة من الرصاص تغنينا عن قطع خشب الأرز ولزقه بأشياء أخرى." وعندما أكمل مستر "ثورو" حديثه عن طريقة ابنه فى صناعة الرصاص بدرجات مختلفة من الصلابة والقوة والتى فى رأيه ستروق لعدد من الفنانين والفنيين، فقد ذهب عقلى بعيداً حيث مكثت أفكر فى نتائج تلك التحسينات التى طرأت على صناعة الأقلام ورأس المال الذى سيحتاجه ذلك المشروع لتنفيذه، فحسبت ذلك كله وجدته قليلاً جداً أى أن رأس المال الذى جهزته يكفى ويزيد للإنفاق على هذا المشروع، ولكنى ادعيت بأنى غير مقتنع حيث إن الاتفاق السريع قد يؤدى إلى فشل تحقيق أهدافى، وبدأت فى إلقاء العديد من الأسئلة المملة عليه حتى نفد صبر "هنرى" ورمى حزمة من أقلام الرصاص داخل علبة كبيرة ومسح يده فى قطعة قديمة من القماش ثم ألقاها بعصبية على الأرض وخرج من ورشة العمل، وفيما هو يمشى تاركاً الحجرة مر بجانبى وألقى علىّ نظرة جادة وحادة من عينيه الجميلتين الرمادية اللون، كانت نظرته حادة وباردة كالسيف قادرة على أن تطير أوراق نبتة شجر البلوط.

تنهد "جون ثورو" عندما سمعنا صوت حذائه البوت وهو ينزل الدرج وقال: سيذهب الآن إلى الغابات ولا أعرف متى سنراه ثانية، أرجو أن تسامح "هنرى" على سلوكه مستر "مارتش"، فقد توفى أخوه فِي الفترة الأخيرة وكان مرتبطاً به جداً ويعانى الآن من فقدانه، ويقضى معظم الوقت بمفرده منذ وفاة أخيه". فأسرعت قائلاً: "إنى آسف حقاً على فقدانك له".

مرر يده على رأسه الصلعاء ومسح عينيه بيديه، كانت عيناه ذات اللون الأزرق الشاحب مبللتين بالماء وكانت نظرات عينيه فيهما ذكاء وحنان شديدين وأكمل حديثه عن ابنه قائلاً: "كان جون فتى نابضاً بالحياة ومليئاً بالمرح والحيوية مختلفًا تماماً عن "هنرى"، فهنرى يفضل أن يمشى بمفرده فى الغابات عن قضاء أمسية فى أحد الصالونات ولكن "جون" كان يعشق التواجد فى المجتمعات، وكان "هنرى" يذهب معه لأجله فقط، ولكنه لا يحب الاختلاط بالناس، فقد كان معظم الوقت يجلس بمفرده فى تلك المجتمعات والآن يعشق وحدته أكثر من الأول، ولا يريد أن يقضى وقته فى صحبة أى من الأصدقاء.

أخذت أطمئن ذلك الرجل المسن بأنى لم أشعر بأى ضيق من تصرف "هنرى" وأنى مقدر تماماً شعوره و حزنه على فقدان أخيه وسلوكياته الناتجة عن هذا الشعور، وأكملت حديثى معه بأنى أفكر فى مسألة استثمار جزء من المال معه فى هذا المشروع، اقترحت

عليه أن نتمشى قليلاً فى الغابات؛ حيث الهواء الطلق ولنعطى لأنفسنا الفرصة لنتأمل فيما سوف نفعله بالنسبة لذلك المشروع، فأنا أشعر باحتياج للمشى فى الهواء الطلق بعد الاختناق، الذى شعرت به ذلك الصباح من شدة الازدحام وأنا قادم إلى هنا، كنت قد أحضرت معى بعض الملابس القديمة لهذا الغرض فقادنى مستر "ثورو" إلى حجرتى حيث بدلتُ ملابسى وذهبت لأتمشى معه خارجاً.

عندما يكون المرء فى حالة حب فيكون دائماً مشتاقاً إلى أن يرى محبوبته ولو لنظرة واحدة، وعندما كنت ماشياً فى الغابات تخيلت قدمها تمشى معى فى نفس الطريق، وأطلقت العنان لخيالى وتخيلت بأنى - حتى - الهواء الذى أستنشقه محملاً بذرة من أنفاسها، هكذا يكون دائماً شعور المحب الذى تنقصه العقلانية والحكمة، فكنت وأنا ماشى عندما أرى امرأة من على بعد أعتقد أنها هى "مس داى"، فأشعر بعدها بالغباء. واصلت المشى وسط الغابات وأنا أعنف نفسى لشعورى بالغباء الشديد.

لم تكن تلك الغابات مليئة بالحياة مثل تلك الغابات الجنوبية التى كنت أعرفها جيداً ولم تكن كتلك التى نشأت عليها. وقضيت فترة طفولتى بها فى "سبيندل هيل". كانت هذه الغابات مختلفة فقد كانت غابات أليفة إذا جاز التعبير، كانت أشجارها مرتفعة تشبه أشجار المزارع، تجد بها دائماً صيادى الحيوانات المفترسة وصيادى السمك وكذلك هؤلاء الذين من

هوايتهم المشى فى الهواء الطلق فى الغابات وعندما توغلت ماشياً فى عمق الغابات رأيت جبال الأرز التى لم تقطع، رأيت جمالها وهى فارعة الطول تكاد تصل إلى السماء، كان جمال الطبيعة لا يوصف داخل تلك الغابات، ومشيت إلى عمق الغابات وكلما مشيت داخل الغابات ازداد إعجابى بجمال الطبيعة هناك.

واستمعت وأنا ماشى إلى حفيف الأشجار وأوراقها، وعندما شعرت بالعطش مشيت حتى أن وصلت إلى حافة نهر صغير وأخذت أشرب من مياه ذلك النهر بيدى، وكانت المياه نقية وجميلة لم أذق مثلها من قبل ولا أعتقد أن هناك أماكن أخرى قريبة بها نفس المذاق الذى تمتاز به هذه المياه.

وفى هذا اليوم بدأت عيناى وأنفى تتعرف على الأماكن والروائح التى ستصبح فيما بعد مألوفة بالنسبة لى وبعد أن جلست قليلاً وسط الغابات لأريح قدمى من المشى، بدأت أعود من حيث أتيت وأقف فى كل مرة لألقى نظرة فاحصة على الفطريات حيث تبدو كاللوحة المرسومة، وكانت هناك أزهار مزروعة على شكل نجوم غاية فى الرقة والجمال تبدو متلألئة كأحجار الزمرد.

واستنشقت بعمق رائحة خشب الأشجار الملتفة حولى وفجأة رأيت خلفى "هنرى ثورو" ويبدو أنه كان واقفاً منذ فترة، حيث كان يستند إلى شجرة مبتسماً وكانت ذراعاه معقودتين فوق صدره، وكان فى جيب معطفه أداة "الفلوت" الموسيقية.

"لم أكن أتوقع أنك تميل إلى دراسة الطبيعة" !؟ قال "هنرى".

- "عندما يقضى ابن الريف معظم وقته فى المدينة يشتاق إلى رائحة الأرض البرية". كانت إجابتى مصحوبة بالابتسام ونهضت واقفاً وأنا أمسح التراب من على معطفى بينما هو ينظر إلىّ بتمعن ورد علىّ قائلاً: "تعال لنصطاد معًا السمك". كان هنرى لديه مركب صغير ذو مجاديف على شاطئ النهر على بعد ميل، حاولت أن أسير بنفس سرعته وهو يمشى داخل الغابات بخطى سريعة مثل الغزال، وأخيراً خرجنا من وسط الأشجار الكثيفة ورأيت أمامى بحيرة ذات أمواج قليلة وصلنا إلى الشاطئ ووجد قاربه فأخذ يدفعه حيث المياه، كان يتعامل مع ذلك المركب بمهارة فائقة مثلما يتعامل مع أقلام الرصاص.

- "إن هذه البحيرة ليست أجمل البحيرات". قال "هنرى" وأكمل قائلاً:

"لكى أتأمل جمال البحيرات أختار دائماً الذهاب إلى بحيرة تدعى "البحيرة البيضاء" وهى جوهرة الغابات، ولأجل نقاء المياه أفضل بحيرة تدعى "الولدن" ولكن هذه البحيرة مليئة بالأسماك".

"ما اسم هذه البحيرة؟"

- "اسمها بحيرة "فلنت" وهناك مزارع يدعى "فلنت" قد اختار لها هذا الاسم، وأنا لا أعرف بأى حق يعطى هذا المزارع اسمه ليطلق على بحيرة؟"

- "إن مجموعة مصطلحاتنا تبدو مقفرة وضعيفة أحياناً":

أرجع "هنرى" رأسه إلى الوراء كأنه يوافقنى الرأى وأخذ يقول: "ليكن اسمها هذا من أجل الأسماك التى تسبح بداخلها والورود البرية التى تنمو على شواطئها وليس من أجله هو -ذلك الرجل الذى يفكر فقط فى قيمتها المادية ويترك شواطئها خالية من كل ما هو جميل".

وأخذ يجدف حتى وصل إلى وسط البحيرة ثم ترك المجداف، وظل القارب يمشى فى النهر دون أن يستخدم المجاديف وأخذ يقول بسخرية: بحيرة "فلنت"! مستر "فلنت" الذى لم يحب يوماً تلك البحيرة ولم يحاول يوماً أن يحميها ولم يتفوه بأية كلمة جميلة عنها ولم يشكر الله على خلقه لها، بل كان من الممكن أن يجففها حتى العمق وتصبح كالطمى. إن هذا الرجل كان على استعداد تام أن يفعل أى شىء من أجل المال حتى ولو لزم الأمر أن يبيع الطبيعة ذاتها إذا كانت للبيع". كان يتحدث ببعض من العصبية والحدة حتى تمايل القارب فأمسكت بمسند المجداف.

- "أعلمُ أننى أسلك أحياناً سلوكاً به بعض المبالغة".

- "هذا ليس صحيحاً على الإطلاق" أسرعت قائلاً: "فإنك إلى حد كبير فصيح الكلام. إن من عادة نسلنا أن نهزم كل ما تلمسه أيدينا. قليل منا يفهم ذلك". "قليل حقاً منا من يفهم هذا". أجابنى هنرى

بالموافقة وأكمل قائلاً: "ولكنى مسرور بأن أجد شخصاً آخر يفهم ذلك." اخذ "هنرى" الفلوت ومع غروب الشمس، عندما تغير لون المياه إلى اللون الأحمر بسبب الغروب، أخذ يعزف نغمات جميلة جداً جعلتنى أشعر بأن مياه البحيرة تتجاوب مع تلك النغمات وتعطى وميضاً جميلاً.

وفى صباح اليوم التالى ونحن نتناول وجبة الإفطار أشارت مسز "ثورو" أنها قامت بدعوة بعض أصدقاء "هنرى" للعشاء فى ذلك اليوم، "إنهم عائلة "الأمرسونز"، قد أقام "هنرى" معهم بعض الوقت فى الصيف الماضى وأبدوا اهتماماً ورعاية شديدة به". وأظهرت بأدب حماسًا لهذه الدعوة قائلاً بأنى قد استمعت يوماً إلى مستر "أمرسون" يلقى محاضرة فى جامعة كمبريدج ولكن وجهى كان يبدو عليه علامات الإحباط، حيث إنى قد تمنيت أن يدعو صديقة بناتهم وليس أصدقاء ابنهم ونهضت مسز "ثورو" من على مقعدها وتركت الحجرة لكنها قبل أن تترك الحجرة التفتت وقالت: "لقد قمت بدعوة مس "داى" أيضاً، أعتقد أنك تعرفها مستر "مارتش". أليس كذلك؟".

مسحت فمى بمفرش السفرة وقد انتابتنى كحة شديدة وحاولت جاهداً إخفاء احمرار وجهى ووجدت صعوبة بالغة فى أن أخفى سعادتى طوال اليوم متمنياً أن تمر الساعات بسرعة حتى يصل موعد العشاء، حاولت أن أقرأ بعض المقالات التى كتبها مستر "أمرسون" حتى يمكننى أن أشارك معه الليلة بذكاء

فيما كتبه وفى الموضوعات التى سوف يناقشها ولكنى وجدت نفسى لا أستطيع التركيز فيما أقرؤه، حيث كانت أفكارى تسبح بعيداً وكان عقلى مشغولاً بمس "داى".

كانت مائدة العشاء مائدة جميلة مستديرة الشكل ذات لون شجر الجوز الأسود وكانت أرجل المائدة تبدو وكأنها ملفوفة بشكل جميل، وكأن شخصاً ما قد قام برسمها وصمم ما رسمه بعد ذلك وتساءلت فى نفسى - إذا كان "هنرى" قد صمم هذه المائدة بنفسه - وكنت على وشك أن أسأله لكن وصول أصدقائه "والدو" و"ليديان أمرسون" حال دون ذلك، وقد دارت بيننا مناقشات عديدة وتحدثنا فى شتى الموضوعات ولكن فجأة قاطع "هنرى" حديثنا مثل ما يقطع صياد السمك فجأة صنارته، وجرى بعيداً حيث كان "الأمرسون" يجلسون، وتحدث بلطف وأدب إلى مستر "أمرسون" متمنياً له قضاء وقت سعيد، ثم سحب زوجته فجأة بعيداً إلى نهاية الحجرة وأخذ يتحدث معها بجدية شديدة أبعدتنا جميعاً عن المشاركة معهما فى الحديث.

ومن ثم وجدت نفسى أتعرف بأسلوب غريب على مستر "أمرسون" كان متحفظاً فى حديثه معى، كان يبدو أنه مشغول البال ويفكر فى أمور أخرى، وكان من الواضح أنه لن يجد أية متعة فى حديثى إليه، حيث إن ما يفكر فيه يبدو أهم بكثير مما كنت سأتحدث عنه، ولكن وصول مس "داى" جعله يتوقف عن التفكير

ويتحدث بطريقة غير متوقعة على الإطلاق فى موضوعات مختلفة. كانت مس "داى" آخر من انضم إلينا ويبدو أنها قد تركت منزل أبيها فى عجلة لتلحق بميعاد الدعوة، كانت وجنتاها حمراوين اللون وكان لونهما يمثل انعكاساً على لون فستانها الأبيض البسيط، إن اشتياقى لرؤيتها جعلنى صامتاً معظم الوقت غير قادر على المشاركة فى حديث معها، وبعد إن كنت مشتاقاً لنظرة ولو سريعة إليها وجدت نفسى غير قادر على النظر فى عينيها الجميلتين، ويبدو أنها كانت لا تعانى مما كنت أنا أعانيه، حيث إنها رحبت بى قائلة: مستر "مارتش"! يا لها من صدفة جميلة أن أراك هنا فى كونكورد". ثم التفتت إلى مسز "ثورو" لتعتذر لها عن التأخير وتوضح لها سبب التأخير وهو وصول طرد بريدى، نظرت إليها "صوفيا" نظرة بها حب وهى تقول: "كان من الممكن أن تحضرى هذا الطرد إلى هنا لكى لا تسببى لوالدك أى متاعب أو مشاكل". فأجابتها مس "داى" وهى تبتسم ابتسامة توحى بالعرفان بالجميل ثم قبلتها قائلة": شكراً لك يا عزيزتى، إنى أعرف أننى أستطيع أن أعتمد عليك دائماً فى تلك الأمور".

وأسرع مستر "أمرسون" قائلاً وهو ينظر إليها بجدية شديدة": أتمنى ألا تكونى قد أقحمت والدك فى هذا الموضوع خارج حدود إمكاناته ورغباته، حيث إنك تعلمين أن حالته الصحية لا تسمح بهذا الآن وأن أى عواقب وخيمة فيما بعد سوف تقع على عاتقه هو،

وليس على عاتقك، أرجو ألا تجدى أية مشكلة فى تدخلى هذا".

وقد زاد الاحمرار أكثر فى وجه مس "داى" وأجابته قائلة: إذا قام هؤلاء الذين يتولون القيادة فى مدينتنا بأداء واجبهم بإخلاص فلن يكون هناك التزامات ملحة ينبغى على النساء والمسنين القيام بها تفوق قدرتهم الجسمانية".

فرد عليها قائلاً: إن الإنسان دائماً يستطيع أن يركز اهتماماته على أشياء بسيطة من حوله، فهو يهتم بالأمور التى تخصه فقط، لكن عندما أسمع أن الناس تتحدث بالسوء عن الرجل الأسود أو عندما أرى زنجياً يعامل بقسوة وبعنف فإنى دائماً أجد نفسى أدافع عنهم وأتحدث بالنيابة عنهم ولكن ليس لدى السلطة فى أن أفعل أكثر من هذا".

تعجبت مس "داى" من كلامه وصرخت قائلة فى تعجب شديد: "ليست لديك السلطة!" ويبدو أنها لم تدرك أن صوتها كان - عالياً فتوقف كل من "هنرى" و"ليدين" زوجة مستر "أمرسون" عن حديثهم ونظروا إلى مس "داى" ووقفت كل من "صوفيا" و"سينثيا" بجانب مس "داى"، واحدة من على يمينها والأخرى على يسارها وربطت واحدة منهما على ذراعها والأخرى مسكت بها كأنهما ممسكتان بكلب على وشك الهجوم على من يعاديه.

- "ليست لديك السلطة ! أنت الذى تقود مظاهرات وحشوداً من الجمع فى "ليسيوم"، وتكتب

العشرات من المقالات الشديدة اللهجة.. تقول إنك ليست لديك القوة، إنه لمن العار والخذى أن تقول هذا بل إنه من الكذب أن تدعى ذلك".

لقد فاجئنى هجومها على مستر "أمرسون" وأسلوب حديثها معه، فقد كانت تتحدث إليه بعصبية شديدة وبلهجة عنيفة، إن أسلوبها هذا جعلنى صامتاً كالحجر بل جعلنى أشعر بأنى غير قادر على أن ألتقط أنفاسى.

ولقد صدمت عند رؤيتى لذلك الوجه الجميل الذى يستطيع أن يغير من ملامحه الجميلة فى ثوان ويصبح وجهاً عنيفاً وقاسياً، فمن يتخيل أن هذا المرأة الرقيقة ذات التربية الراقية أن تحمل بداخلها هذه القوة ولا تستطيع أن تتحكم فيها، فلم أر فى حياتى امرأة تنفجر فى حديثها بمثل هذه الطريقة حتى ولو كانت بائعة فى متجر.

ولقد ذهل أيضاً مستر "أمرسون" من ذلك الأسلوب غير اللائق فى الحديث وتغير لون وجهه وأصبح أبيض مثل لون مفرش السفرة ذى اللون الناصع البياض وأجابها بصوت خافت يكاد لا يسمع: "أنا آسف إذا كنت قد جعلت نفسى أمامك بهذه الصورة الوضيعة وإنى آسف أن يكون هذا هو رأيك فيما أقوله أو أفعله سوف أخذ فى الاعتبار وجهة نظرك فى المستقبل".

كانت مس "داى" ترتعش من شدة الغضب الذى تملكها وكنت أخشى أن تستمر فى هجومها، لكنها

آدارت رأسها نحوى ثم نظرت إلىّ وأنا أقف أحدق من شدة دهشتى، رأيت عينيها السوداوين قالت "صوفيا": "تعالى معى يا عزيزتى". وأكملت قائلة: "إن الجو هنا خانق، أود آن أريك الأزهار التى جمعتها اليوم قبل أن نتناول العشاء". ولم تنتظر "صوفيا" أية إجابة منها وجذبت ذراعها التى كانت ترتعش بقوة وسحبتها من الحجرة، أما نحن فاستطعنا أن نلتقط أنفاسنا بمجرد أن غادرت الحجرة، فقد أشفقت كثيراً على مستر "ثورو" فقد كان تصرفه فى منتهى الهدوء والرقة معها بل إن تصرفه كان يوحى بالصداقة التى كانت تجمعهما، كان يبدو على وجهه شدة الحزن والألم كأن أحداً يخترق إصبع رجله بمثقب النجار، وبطريقة ما تمكنت مسز "ثورو" من إيجاد موضوع لتجاذب أطراف الحديث مع مسز "أمرسون" ولكن لم يشعر أحد بالراحة إلا بعد أن عادت "صوفيا" وحدها من الحديقة وقالت بأن مس "داى" تعتذر لأنه انتابها صداع شديد وتعتقد أنه من الأفضل أن تعود إلى منزلها.

فسحبت "صوفيا" جانباً وسألتها: "هل أفهم من ذلك أن مس "داى" سوف تلحق وحدها بمترو الأنفاق فى مثل هذا الوقت!؟".

أخذت عيون "صوفيا" الذكية تدرس ملامح وجهى وتحدثت بصوت خافت قائلة: "إن مس "داى" وأخاها كانا يعملان محصلين تذاكر بمترو الأنفاق لفترة ليست قصيرة". قالت هذا بصوت خافت جداً، وأكملت قائلة:

"قالت لى إن رحلة اليوم ستقف عند بعض المحطات لبضع ساعات، ولكن لا تقلق فهى لا تخشى أن تسافر بمفردها فى الليل، فقد كانت تقوم بمراعاة اللاجئين والهاربين لفترة طويلة، إنها امرأة قوية مستر "مارتش" ولا تخشى شيئاً رغم أن البعض ...." وتوقفت عن الحديث ورمت نظرة سريعة فى اتجاه مستر "أمرسون" ثم أكملت حديثها قائلة: "رغم أن البعض يقول عنها إنها امرأة متهورة ومندفعة". وقد أخطرنا أن نقف عند هذا الحد من الحديث؛ لأنه طلب منا أن نأخذ أماكننا فى الجلوس على مائدة السفرة.

لم أستطع أن أجد أية متعة فى تناول العشاء رغم كرم ضيافة مسز "ثورو" أثناء تناولنا تلك الوجبة وكان الجميع فى حالة من الدهشة والتعجب لذلك الموقف الذى حدث بين مس "داى" ومستر "أمرسون" وقد بدا هذا واضحاً أثناء تناولنا العشاء وبعد ذلك، حتى قررت عائلة "أمرسون" أن تغادر مبكراً وكان فى ذلك راحة كبيرة لى. كانت تلك الليلة دافئة، وكان الجو دافئاً جداً وقد حاولت مراراً أن أخلد إلى النوم لكنى فشلت، فقررت أن أرتدى ملابس الخروج وأخرج لأتمشى قليلاً فى الهواء الطلق وأتحرر من الأفكار التى كانت تساورنى. كان القمر فى تلك الليلة مكتملاً وقد أضاء طريقى وأنا أسير داخل القرية، وكان يبدو أنه يقودنى إلى أن أسلك نفس الطريق المؤدى إلى الغابات والبحيرات الصغيرة، فتحت الأشجار كان الجو أقل حرارة، وأكثر رطوبة وبدأت أتحرر قليلاً من

تلك الأفكار التى كانت تزعجنى وقبل أن أرى تلك البحيرات المضيئة تحت ضوء القمر، لاحظت أننى لم أكن بمفردى فى ذلك المكان، كانت هناك أصوات أخرى.

كانت هناك أصوات موسيقية قادمة من آلة الفلوت الموسيقية تشير إلى أن "هنرى" أيضاً كان فى نفس المكان وفى الوقت نفسه من الليل، وكان يعزف بآلته الموسيقية وهو جالس داخل قاربه فى وسط البحيرة، مشيت حول شاطئ البحيرة، كان الحجر الأبيض الناعم يلمع فى ضوء القمر فيجعل الطريق سهلاً للمشى عليه. كانت أفكارى كلها عن مس "داى" وتخيلتها بعد أن انفعلت بشدة الليلة تحاول أن تخلد للنوم ولكنها لا تستطيع أن تنام من شدة الضغط العصبى الذى تعرضت له. لم أستطع أن ألقى اللوم عليها تماماً، ولا أن أبرر اندفاعها فى الحديث مع مستر "أمرسون" حيث إننى لا أعرف مستر "أمرسون" جيداً، ولهذا لا أستطيع أن أحكم بصورة موضوعية على سلوك مس "داى" وتصرفها الهجومى تجاه مستر "أمرسون".

إن مس "داى" بحاجة إلى أن تحارب نقطة الضعف التى فى شخصيتها وهى نقطة ضعف خطيرة، فهى بحاجة إلى زوج متفهم يساعدها على محاربة ذلك الضعف، حيث إنها تفقد أعصابها بسهولة وتنفعل تجاه بعض الأمور والقضايا، وهذا لا يجدى فى جلسات الحوار والمناقشة، فينبغى أن تتعلم

كيف تتحكم فى نفسها وتتمالك أعصابها ولكن ماذا لو أن هذا جزء من شخصيتها وأنها دائماً سريعة الغضب وسريعة الانفعال؟ أى زوجة هذه؟ وأى أم تكون؟

وفى تلك اللحظة لمحت رداء أبيض ماشياً بين أشجار الغابات إنه رداء مس "داى" وكأنى كنت ساحراً أردت أن أراها فاستخدمت سحرى حتى أجدها تمشى أمامى بين الأشجار مثل الشبح، فمجرد رؤيتى لها انهزمت كل تحفظاتى العقلية أمام اشتياقى الجسمانى لها، أخذت أناديها فالتفتت وتعرفت علىّ واستجابت لتحيتى بضحكة ساخرة قائلة: "إن كل أهل "كونكورد" هنا الليلة". فغيرت اتجاهها ومشت نحوى فى اتجاه ذلك الحجر الناعم الأبيض وهى تحرك قدميها للأمام وللخلف بخفة شديدة.

– "كنت أحضر هنا مع أخى فى ليالى الصيف ونحن أطفال، كنا نشعل النيران ونصطاد السمك بالديدان المعلقة بفتلة صنارة الصيد، جعلونى أقف عن ممارسة تلك الهواية عندما كبرت وأجلس معهم فى جلساتهم مع أصدقائهم لأتبادل أطراف الحديث مع الأهل والأصدقاء بطريقة مهذبة. وتوقفت عن الحديث ثوانى وتساءلت إذا كانت تفكر مثلى فيما حدث فى تلك الليلة فى حوارها مع مستر "أمرسون"، وأكملت حديثها بنفس النبرة الخفيفة قائلة: "والآن وقد كبرت ويمكننى أن أختار لنفسى المكان الذى أرغب فى أن أكون فيه ولهذا فإنى أختار دائماً هذا

المكان وأحب أن أحضر إلى هنا كثيراً لكن أبى لا يعلم بهذا ولا يرغب فى أن أكون بمفردى فى مثل هذا المكان".

ثم جلست على الأرض تفك رباط حذائها البوت ثم وقفت فوق الأحجار لتخلع شرابها ونظرت إلىّ وهى تسألنى: "هل تعتقد أن ما حدث كان مثيراً للدهشة مستر "مارتش"؟" إن البياض المحيط بعينيها السوداوين كان يلمع تحت ضوء القمر، فقفزت لترفع ذيل فستانها إلى أعلى فظهرت ساقاها ثم مشت فى اتجاه الشاطئ ووضعت قدميها فى الماء وقد صدر منى صوت يدل على عدم الموافقة على ما حدث الليلة فتعجبت لموقفى قائلة: "آه إنك حقاً تعتبر ذلك مثيراً للدهشة، ففى ليلة واحدة كشفت لك عن شخصيتى". ورفعت رأسها إلى أعلى وأطلقت ضحكة فاعتقدت أنها ضحكة ناعمة، ولكنها لم تكن ضحكة، بل كانت تبكى ونزلت خصلة طويلة من شعرها غامقة اللون على فستانها الأبيض وأكملت قائلة: "لقد قتلوه بالنار مستر "مارتش" ذلك الرجل الذى كنت أحاول أن أسعفه وأضمد جراحه الليلة فقد اخترقوا وجهه بحديد ساخن ونحن نجلس فى صالوننا نتبادل أطراف الحديث ولا نفعل شيئاً ونقول لأنفسنا إن هذا يكفى." وأخذت تبكى بشدة حتى كادت إن تقع فأمسكت بيدها بشدة حتى أن شعرها تساقط كله إلى الخلف كان شعرها ثقيلاً كثيفاً ناعماً ولمست ذقنها وكان ضوء القمر يضىء وجهها المبلل بالدموع.

ومضت بضع ساعات على وجودنا بهذا الشاطئ، وعند عودتنا معاً كانت مس "داى" تعرف جيداً طريق العودة الآمن؛ حيث إنها كانت معتادة أن تأتى إلى هنا بمفردها وسهل ذلك كثيراً علينا حيث إننا لم نكن قادرين على مواصلة المشى بطريقة سليمة وذلك لما حدث بيننا فى هذه الليلة، فقد كان رداؤها الأبيض ملوثاً بالطمى والدم ولا أدرى ماذا فعلت فيما بعد بذلك الرداء، نعم فقد تزوجنا فى هذه الليلة أى زوجنا أنفسنا هناك بين براعم الأناناس الساقطة من أعلى الشجر، وحتى هذا اليوم مازالت رائحة الأناناس تذكرنى بزواجى منها فى تلك الليلة وقد شاركنا "هنرى" فى زواجنا هذا حيث عزف لنا موسيقى الزفاف على آلة "الفلوت".

كانت مس "داى" فى البداية فى شدة الحرج، وكنت أنا جريئاً إلى حد ما معها؛ حيث لم أستطع أن أتركها، كانت عيناها مشتعلتين بالحب والعاطفة تجاهى وهى تضمنى إليها، إن طبيعتها التى مثل أتون النار الذى قد اشتعل الليلة فى حديثها مع مستر "أمرسون" كان أيضاً مشتعلاً ولكنه اشتعال مختلف فهو اشتعال العاطفة والحب.

لم أستطع النوم فى تلك الليلة وقد ذهبت إلى منزل والدها فى الصباح الباكر لأطلب يدها طبقاً للأصول والأعراف التقليدية وقد فتحت لى الباب مديرة المنزل مسز "ميلت" التى يبدو أنها قد رأت الرداء الأبيض. ودخلت مكتب والدها وطلبت يدها

رسمياً منه وأبديت رأيى فى أن يكون حفل الزفاف حفلاً بسيطاً فى منزله ولا داعى لإقامة حفل زفاف ضخم بالكنيسة، ويبدو أن والدها قد انزعج لهذا الطلب فقد كان يتمنى دائماً أن يكون حفل زفاف ابنته حفلاً كبيراً ضخماً بالكنيسة ونظراً لأنى لا أستطيع أن أتحمل البعد عنها ليلة واحدة فقد تم حفل الزفاف خلال خمسة عشر يوماً، وحضر الزفاف كل من أبيه وعمى وعمتى وعائلة "الثورو" الذين كانوا بمثابة الشهود على الزفاف.

وبعد تسعة أشهر كنت أحمل بين ذراعىَّ أول طفلة لنا، فقد أتت هذه الطفلة إلى العالم وكانت جزءاً مصغراً منى، وكنت أنا وزوجتى نمزح مع بعضنا البعض فنقول إذا كان المولود ذكرًا فسنعطيه اسم "اكيليز"، لكن رزقنا الله بامرأة صغيرة وقررت أن أعطيها أغلى اسم إلى قلبى وهو اسم والدتها؛ ولهذا سميت أول مولودة لنا باسم "مارجريت".

الفصل الخامس

خميرة من الشمال

١٠ مارس ١٨٦٢

زوجتى الحبيبة:

كم من مرة شعرت فى هذا الشهر بأننى أقوم برحلة فى موسم بارد ليس به بهجة وأنا أعلم بقلبى أن هدف هذه الرحلة سوف يعوضنى عما تعرضت له من مصاعب عند القيام بها. إنى أرقد الليلة فى إحدى المركبات على أمل أن أقضى غداً فى أحد القصور البيضاء، التى يسكنها فرسان هذا الانقلاب وأنت أفضل من يعلم كم هى الحاجة لزراعة القطن هنا والذى لا ينال العناية الكافية من سكان ذلك المكان. ففى أوقات كثيرة كنت أرى دخاناً يتطاير فى السماء معلناً نشوب معارك من قبل المتمردين، أحياناً أخرى كنت أسبح فى حياة مليئة بالقطن الذى تم التخلص منه ليسبح معنا فى المياه.

سوف أصل غداً إلى المكان المقصود حيث توجد المساحات الشاسعة من الأراضى الحرة، التى يسكنها السود وهم تحت رعايتنا الآن، ويتعلمون تأدية العمل الصالح مقابل بعض الأجور. إن قلبى مسرور الليلة

عندما أفكر فى دورى فى هذه التجربة الرائعة من المساواة بين البيض والسود.

إنى قطعت مسافة كبيرة فى السفر جنوباً حيث أجد نفسى فى مكان.. حيث.. لا فائدة من استخدام التعبير الذى كثيراً ما نستخدمه وهو "أبيض مثل الثلج". لا أستطيع القول بأنى أرى فى هذا المكان جمال الطبيعة، فنحن نرى فى جمال الطبيعة إبداع الخالق، ولكنى مشتاق أن أرى جبالاً وسلاسل تلال "ماشاستسوس" فإن هنا كل شىء واضح كالأغنية المكتوبة على النوتة الموسيقية، فإنى أستيقظ وأنام وكل ما حولى أخضر اللون، وتبدو الشمس كصفار البيض الشاحب فى السماء البيضاء.

أما مياه النهر فهى مختلفة عن مياه أنهارنا، فهى بنية اللون وأكبر من الميناء، ميناء ليس بها وميض أو بريق، فى أماكن معينة تجد المياه تبدو وكأن أتون النار منقاد من تحتها، وفى أماكن أخرى تجدها تمتص الضوء إلى الداخل وتعطى لوناً غريباً يخبئ اللون الحقيقى للسطح ولون عمقها. إن هذا النهر يبدو نهراً غريباً كأن يسكنه ساحر فهو يبدو من الخارج نهر مياهه هادئة ولكن فى أعماقه تيارات مياه شديدة استطاعت أن تهدم جذوع أشجار ضخمة وقوية، وأن تفرق رجال أشداء سحبتهم بقوة إلى العمق.

نظرت فوقى، إلى ما وراء درابزين السفينة لأجد نفس المشهد يتكرر؛ حيث إن إحدى المراكب التابعة لنا اصطدمت بمركبة العدو لتغرق مركبة العدو فى أقل من ثلاث دقائق، ولم أقص لها فى خطابى عن ذلك

المشهد المهيب، ونزل الجرَّاح سريعاً ليرعى الجرحى ويستقبل الدماء التى سوف تنهمر من أجسادهم، وكان كل رجل من رجالنا واقفاً على متن سفينتنا يفكر هل ستكون دماؤه أم دماء زميله التى سوف تنهمر المرة القادمة؟ وكيف ستنهمر؟ وتحركت بسرعة فى ذلك اليوم لأنتقل من جريح إلى آخر لأضمد جروحهم، كنت أساعد الطبيب الجرَّاح فى ربط أرجلهم وأحمل له "أكواز" من سائل "الكلور فورم" المخدر وأقوم بغسل الجروح، وكان أحد الجرحى يحتضر فقال لى إنه كاثوليكى وسألنى إذا كنت قساً، كنت أعلم جيداً أنه من الصعب إحضار قسٍ كاثوليكى له فى مثل هذا الوقت فالتفت ورائى لأرى إذا كان أحد يسمعنى وهمست له فى أذنه وقلت له إننى قس كاثوليكى وساعدته على القيام بالاعتراف بخطاياه قبل أن يلقى حتفه -طبقاً للعقيدة الكاثوليكية -وصليت من أجله وباركته وأعطيته السماح والغفران لخطاياه كما كنت أرى القساوسة الكاثوليك يفعلون هذا، منذ ذلك الوقت وأنا أتساءل إذا كنت ما فعلته كان خطأً أم صواباً فأنا لا أعتقد أنه حتى إله روما كان سيجد خطأ فى هذا.

ظل متن السفينة غامق اللون مبقع الدماء منذ ذلك الصباح المرعب رغم ما بذلناه من مجهود لمدة أسبوع فى تنظيف السفينة وبرغم كل ذلك جلست راضياً على متن السفينة رغم بقع الدماء التى كانت من حولى، فقد كنت متأكداً أن واجبات مهامى الجديدة لن تكون بها ما لا أستطيع أن أقصه

لزوجتى. وأخيراً سيكون هناك هدف فيما أقوم به من عمل، هذا الهدف هو من أجل أن يسلك المرء حياته بطريقة أفضل وليس أن يسلك حياته ليدمر بها ذاته.

وفى اليوم التالى عند شروق الشمس كنت فى انتظار أن تصل السفينة بنا إلى مكان عملى الجديد، كانت هناك رياح خفيفة، وكان الجو رطباً، وكانت السفينة تمر بضفاف ينمو عليها الحشيش الأخضر. كنت قد عينت لأتولى إدارة مزرعة فى منطقة "أوك لاندينج" وهى حالياً تحت رعاية محام من "الينوا" يدعى "إيثان كانينج"، كانت صاحبة تلك المزرعة سيدة أرملة عقيد فى الجيش يدعى "كروفت"، كانت تلك السيدة قادمة من الشمال وقد انتقلت لتقيم فى المدينة بعد أن وقعت أراضيها تحت احتلال الجيش، وكانت قد أقسمت قسم الولاء للجيش وبالتالى فإن ممتلكاتها الآن تحت حماية الجيش ومن حقها أن تؤجر تلك الأراضى مقابل مبلغ ضئيل من المال، إضافة إلى نصف نصيبها فى الأرض فى أى ربح يمكن لمستر "كانينج" أن يحصل عليه من تلك الأرض.

إن النية من الإيجار لمثل هؤلاء الرجال من "كانينج" كما فهمت هو أولاً أن توفر ما يمكن توفيره من محصول القطن، أى أن تقدم خميرة من الشمال لرغيف من العيش إلى أهل الجنوب، وثانياً أن توجه العبيد الذين فى رعايتنا وحمايتنا وهم لأول مرة سيعملون برغبتهم وليس من خوف السياط، وثالثاً أن الذكور من العبيد سيحصلون على أجر يصل إلى عشرة دولارات فى الشهر، وسيحصلون أيضاً على

قدر أقل من المال لملابسهم واحتياجاتهم الضرورية الأخرى.

إن دورى الذى سأقوم به هو أن أساعد فى إنشاء وتأسيس المدارس لأولاد العبيد الذين لديهم الرغبة فى التعلم، وقد شغلت وقت فراغى فى الإعداد للدروس الأولية ورسم حروف الهجاء على لوحات لتعليقها فى الأماكن التى سوف يعمل بها البالغون للتسهيل على البالغين فى عملية التعلم حتى وهم يعملون فى أماكن مختلفة، إن الكولونيل الذى أصدر أمراً بإرسالى إلى هنا كان يعلم جيداً كم سأكون مشغولاً بذلك العمل الجاد والمهم، وبالفعل فإنه كلما ازداد حماسى للعمل بدأت مشاعرى الحقيقية تتخيل ذلك الوجه الجميل الذى سوف يقرأ خطاباتى ويلاحظ التغيير الشديد الذى سوف يطرأ على أسلوب كتابتى، وذلك لما حدث من تغيير فى أسلوب العمل ذاته وحبى لهذا النوع الجديد من العمل. فحقاً كنت أتطلع لتلك المهمة الجديدة فى حياتى.

توقعت بأنى سأجد "كانينج" بنفسه فى استقبالى عندما ترسو السفينة عند الميناء حيث إنه قد تلقى خبر وصولى من ضابط الحراسة، ولهذا فقد اندهشت عندما لم أر أحداً فى استقبالى سوى صبى أسود فى الثانية عشرة من العمر راكب بغل وينتظر كان البغل يبدو وقد أكل كل الحشيش الذى كان ينمو على ضفاف النهر فى فترة هذه الظهيرة وهو قادم لاستقبالى، كنت قد شعرت بجرح فى كبريائى، عندما لم أجد أحداً فى استقبالى سوى ذلك الصبى الأسود

وحتى لا يلاحظ الغلام شيئاً فقد استقبلته بابتسامة عريضة وألقيت التحية بحماس شديد لكن الغلام لم يبتسم ولم يرفع عينيه، قمت بتقديم نفسى له وسألته عن اسمه فرد بصوت غير مسموع، مما أدى إلى اضطرارى لأن أسأله ثانية وأن أحنى نفسى لألتقط إجابته.

- "اسمى "جوشيا" ياسيدى" قال هذا ورأسه منحن إلى أسفل وعيناه تنظر إلى أسفل وقد جذب البغل ليستديره إلىّ متوقعاً أن أمتطيه، وعندما قلت له إنى أفضل أن أسير بجانبه حتى تتاح لى الفرصة فى التحدث إليه، ليحدثنى عن المكان الذى سوف نذهب إليه، ألقى علىّ نظرة خاطفة وسريعة ولكنها تعبر عن الخوف، فيبدو أنه كان خائفاً من شىء ما، تحدثت إليه بمودة وبوضوح، لكنى لم أستطع أن ألتقط منه أية إجابات سوى كلمة واحدة أو كلمتين رداً على بعض أسئلتى وقبل أن نقطع أية مسافة فى السير لاحظت أنه كان يجتهد بشدة فى أن يلتقط أنفاسه، كنا نسير فى صمت، حولنا الأشجار من الجانبين، كنت مضطراً إلى أن أبطئ فى خطواتى حتى أستطيع أن أسير بجانبه، فكان يحاول دائماً أن يسير خلفى وليس بجانبى، وعندما بدا عليه الإعياء والتعب طلبت منه أن يمتطى البغل.

- "جوشيا، لابد وأن تمتطى ذلك البغل". قلت ذلك بصوت حنون فهز رأسه المنحنى بشدة وأعطانى ابتسامة عبوس.

"لابد أن تمتطى البغل". قلت ثانية؟ "فأنت لا تستطيع السير من شدة التعب".

- "لا يا سيدى إنه غير مسموح".
- "جوشيا" "..انظر إلىّ".

وببطء رفع الغلام عينيه فأضفت قائلاً": إنى أعلم أنه من الصعب أن تعتاد على هذا التغيير فى وضعك، لكنك سوف تصبح غلاماً حراً طليقاً فى القريب. امتطِ البغل فلن يضربك أحد مرة ثانية".

- "إن المرور بذلك الثقب أشد من الضرب".

"ذلك الثقب!! أى ثقب تتحدث عنه؟"

- "ذلك المكان للعبيد السود".

ولم يقل أكثر من هذا رغم أنى حاولت أن أضغط عليه بهدوء كى يستمر فى الحديث ولكنه لم يقل أكثر من هذا وأدار وجهه بعيداً عنى، ولم يرغب فى أن ينظر إلى عينى تخيلت أنه يتحدث عن بعض الهمجية لنظام حكم سابق كان قد أزعجه وأحبطه، لذلك توقفت عن الحديث وإلقاء المزيد من الأسئلة عليه واستمررت فى السير ببطء على قدر ما أستطيع وتمنيت أن يكون عدم رغبته فى الحديث ناتجًا عن شعوره بالإعياء الشديد وليست سمة أساسية مشتركة بين كل العبيد السود حتى لا يكون ذلك عملاً شاقاً علىّ يجب أن أتغلب عليه مع طلابى فيما بعد.

بدا المنزل الذى سنقف عنده قريباً فى الأفق، وصلنا إلى المنزل بعد غروب الشمس، كان المنزل أبيض اللون ويشع ضوءاً أبيض وسط ظلال الأشجار

المحيطة به، كان المنزل مكوناً من طابقين ومبنى من الطوب ويبدو من بعيد وكأنه معبد. وكانت به نوافذ ذات مصراع أخضر اللون وكانت كل غرفة فى أول الطابقين بها ممر يؤدى إلى الشرفة، وذهب خيالى بعيداً وتخيلت سيدات يرتدين تنورات من الحرير ويمشين بسرعة فى أول الليل ليستنشقن الهواء المنعش خارجاً بجانب النهر. ورجعت بخيالى إلى أرض الواقع عندما عبرت الفناء المبنى بالطوب وظهر شاب فتح الباب الأمامى، وفى الداخل كان المنزل فارغاً تماماً من الفرش المترف، دخلت قاعة خالية من السجاد، وكانت الأرضية مغطاة بجلباب من التراب بدلاً من السجاد مما يدل على الإهمال وعدم النظافة وكان "إيثان كانينج" ذلك المحامى واقفاً يمد يده إلىّ ثم أمسك بيدى ليحيينى تحية قوية، برغم أن يده كانت ناعمة تدل على أنه لا يعمل أى عمل شاق فإن قبضة يده كانت قوية جداً لدرجة أنها تؤلم يدى كأنه يود أن يعطى لى إحساساً بقوته، كانت تحيته تحية شاب غلام أراد أن يلعب دور الرجل، وحقيقة كنت مندهشاً لإحساسه القوى بالشباب والحيوية. كان حاد الملامح يبدو على وجهه الذكاء الشديد.

كنت غير متأكد من عمره فقد كان يبدو أنه فى منتصف العشرينيات، وعندما التفت ليقود الطريق كان يمشى بجدية وبرشاقة جميلة مرتدياً زياً غير رسمى لم يكن رجلاً طويل القامة، كان بالكاد يصل طوله إلى كتفىّ، كان ينظر إلىّ من خلال نظارة تكاد تصل إلى نهاية أنفه.

ـ افترضت بأننا سنتناول وجبة العشاء مباشرة فور وصولك مستر "مارتش"، فإنى أتوقع أنك قد تكون جائعاً من تعب الرحلة، ونحن هنا لا نسهر بل نتناول العشاء فى ساعة مبكرة من الليل". وقادنى إلى غرفة يبدو أنها كانت فيما قبل غرفة السفرة كانت حيطان تلك الغرفة مغطاة بورق مرسوم عليه مناظر فرنسية طبيعية للورود المزروعة على سهول، ويبدو أن الشاب الذى صمم تلك الحجرة كان قادمًا من مكان يشبه ما رسمه من مناظر طبيعية جميلة، كانت هناك مائدة صغيرة فى مكان ما كان من قبل مائدة سفرة كبيرة وأنيقة، كان على تلك المائدة الصغيرة أطباق من الخزف الصينى غير المتناسق فى الشكل واللون. وعندما أخذت مكانى فى الجلوس، رأيت رجلاً مسنًا أسود اللون يضع فى طبقى لحمًا كثير الدهن من لحم الخنزير وبما أننى نباتى لا آكل اللحم فقد رفضت تلك القطعة من لحم الخنزير واكتفيت بشرب حساء من حساء البطاطا، ولم يكن هذا بعشاء شهى حيث إننى لم أتصور أن وجبة العشاء ستكون مكونة من حساء البطاطا وقطعة من لحم الخنزير.

وعندما بدأ الليل يحل بستاره المظلم، طلب "كانينج" من الخادم أن يضىء الغرفة، فأحضر الخادم زوجًا من الشمع مضاءة على قطعتين من البطاطس التى تم تفريغها – "شكرًا لك يا "تولومى". قال "كانينج" وأضاء شعاع الشمعة ملامح وجهى "إنك لم تتخيل ذلك مستر "مارتش"؟ قال هذا وهو يمضغ طعامه بإتقان وببطء شديد. "أتى الفيدراليون إلى

هذا المكان أولاً عندما كان صاحب المنزل على قيد الحياة، وتمكن المتمردون من الحصول على كل ما لم يستطع الفيدراليون الحصول عليه من المنزل بمجرد أن علموا أن صاحبة ذلك المنزل قد أقسمت بولائها لضباط الجيش.

وجدت بعض المقتنيات فى منازل العبيد، وكان كثير من العبيد قد فروا ببقية المقتنيات، وكانت تلك المقتنيات أكثر من النصف وبعض تلك المقتنيات قد عادت مع عودة بعض العبيد فلدينا الآن نحو أربعين من العبيد يعملون معنا، ومن بينهم الخادم المسن الذى كان بالمنزل فيما قبل، الذى تم تعيينه من جديد من قبل معسكر السلع المحظورة التابع للجيش. ونحن الآن نعتبر إلى حد ما فى أمان أكثر من ذى قبل، وبصفة خاصة من الغارات، حيث إن الجميع يعلمون أنه ليس لدينا شىء الآن يستحق أن نقاتل من أجله، وربما إذا علم أحد الآن أن هناك شخصًا قادمًا من الشمال قد أتى إلى هذا المنزل، ربما يأتون يشمشمون..."

"ولكن أعلم أن هناك قلعة فى "الوتريانك" فى هذه المنطقة لحماية المستأجرين القادمين من الشمال".

ضحك "كانينج" ضحكة سخيفة وقال: "هناك حراس وجنود فى "الوتريانك" ولكن ما يطلقون عليه سلاح الفرسان غير كاف للقيام بعمل الحراسة بين تلك المدينة والقلعة التالية أو حتى لاصطياد الخارجين عن القانون، لم أر فى حياتى مثل هذه القوة التى تتصف بالإهمال واللامبالاة، إن هناك البعض

الذين مازالوا يمتطون البغل أو يركبون العربات التى تجرها الحيوانات، وقد تم استبعادهم من أن ينالوا حقوقهم فى المعاملة مثل باقى المواطنين ولن تتخيل مستر "مارتش" الجهد الذى يبذله هؤلاء ممن يمتطون البغال فى الحفاظ على النظام والأمن، إنهم يلعبون دوراً قوياً فى المطاردات الساخنة وأمور الشغب التى قد تحدث أحياناً. للأسف مستر "مارتش" فإن الحماية التى تمدها القلعة ليست بالقدر الكافى لتمنع حدوث ألوان مختلفة من أعمال الشغب أو التمرد، فأنا لا أعتقد أنهم سيقومون بأى عمل بطولى نيابة عنا".

تحدث "كانينج" بعد ذلك أثناء العشاء -هذا العشاء -الذى كان خالياً من المتعة والبهجة عن العمل فى "أوك لندينج"، إن موسم القطف فى هذا المكان يبدأ فى سبتمبر لكن فعلياً وبأى حال لا يبدأ إلا فى شهر نوفمبر وينتهى فى فترة الاحتفال بالكريسماس وأعياد الميلاد. ولكن "كانينج" كان قد ذهب إلى هناك ليجد المكان فى حالة من الفوضى. فإن العبيد الذين بقوا فى ذلك المكان يبدو كما فهمت أنهم قد قاموا بحصد المحاصيل الزراعية لأنفسهم، حتى يوفروا لأنفسهم وأولادهم الطعام الكافى، كان قبل ذلك يقوم "كانينج" بإحضار العمال، الذين تم تعيينهم له عن طريق الضابط المسئول عن السلع المحظورة فى الجيش، والذى يتولى حراسة معسكر "داروين باند" ثم يقوم بإعداد مجموعات العمل ويحدد لكل شخص عمله الذى سيقوم به، ونتج عن هذا أن ميعاد جنى

الحصاد قد تأخر، مما أدى إلى فقدان معظم المحصول نتيجة لسقوط الأمطار التى أغرقت معظم المحصول ولم يتبق شىء لجنيه.

وأشار "كانينج" قائلاً: "إن مستر "كروفت" أعطانى حسابات الزراعة وأوضح لى أن محصول القطن اليومى يحقق ربحاً قدره مائة دولار فى اليوم الواحد أو أكثر. فنحن نعتبر محظوظين بأننا نحصل فقط على خمسين دولاراً ومن أفضل الأيادى التى تقوم بعملية جنى المحصول، إن الأطفال والمسنين يأتون بربح أقل ولكننا مضطرون أن نستخدم كل يد تعمل لدينا".

إن تلك الأخبار كانت محبطة لى لأن ذلك يعنى أن فصلى الدراسى سيكون خالياً من التلاميذ حتى يتم جمع المحصول، تساءلت بصوت عالٍ - إذا كنت أستطيع أن أقوم بعمل شىء مفيد أى أساعد فى جمع المحصول بين العبيد مثل "جوشيا" الذى أحضرنى إلى هنا فهو يبدو متعبًا للغاية ولا يستطيع القيام بمثل تلك المهام التى تحتاج إلى جهد كبير.

تورد وجه "كانينج" خجلاً قائلاً: "إن هذا الغلام ليس متعبًا لكى يعمل فى جمع المحصول". وتنهد "كانينج" وأخذ يبحث عن مفرش السفرة الصغير لكى يمسح فمه، ولم يجده فمسح قطعة صغيرة من دهن لحم الخنزير بظهر يده من على ذقنه وأضاف قائلاً: إن أى شىء سمعته مستر "مارتش" عن استغلال العبيد فى الزراعة، أنا أيضاً سمعت كل هذا ولن أنكر

أى شىء من هذا ولكن الجميع يجب أن يعلم أن من أجل كسب لقمة العيش لابد وأن يعمل الجميع".

يبدو أن علامات الدهشة قد ظهرت على وجهى، أكمل "كانينج" حديثه قائلاً: "إذا كنت تظن أن فى هذا قسوة أو عنفًا يجب أن تمكث هنا أسبوعًا لترى بنفسك هؤلاء العبيد. إن "كولونيل كروفت" وزوجته كان لديهما عبد مكث معهما طيلة حياتهما، إن عملى هنا كمسئول عن هذه الأرض هو لمدة عام واحد ولابد أن أحقق ربحاً فى نهاية هذا العام مقابل كل ما ألاقيه من خطر وعدم أمان بوجودى هنا، فأنا لست مثلك مستر "مارتش" قس فى مهمة دينية فأنا رجل أعمال ولكن لكل منا دورًا يلعبه وهو إصلاح حالة السود أى إصلاح مستوى معيشتهم وحالتهم الصحية والنفسية والجسمانية، فقد أتيت إلى هنا وأنا لدى أكثر من مصلحة جئت لأحققها فى مجال العمل الحر، فإنى أعتقد أن إنتاج القطن والسكر بالعمل الحر يجب أن يكون متوفرًا ومربحًا لهم ولنا أيضاً. فإذا لم نستطع أن نبرهن عن وجهة نظرنا هذه فماذا سيكون مصير هؤلاء فى المستقبل؟ إنه قطعاً سيكون مستقبلاً مظلمًا. ألا تعتقد ذلك!؟"

نهض "كانينج" واقفًا وأخذ يبحث فى جيبه عن الساعة". والآن إذا لم يكن لديك مانع سأريك محل إقامتك. إنى أريد أن أمر بكبائن العبيد فى الدورية الليلية المعتادة لأطمئن أن كل منهم فى مكانه الخاص به، ويأخذ قسطاً من الراحة بدلاً من أن يكون فى مكان يضيع فيه طاقته الصحية والجسمانية. إن

بعضًا منهم ينبغى أن يوجد فى الحقول كربع ساعة قبل شروق الشمس.

تابعته وهو يقود الطريق من غرفة السفرة حاملاً الشمعة فى يده لتنير الطريق أمامه.

كنت متعبًا بشدة وتطلعت إلى رؤية مخدعى لأنام نومًا عميقًا، كنت مشتاقاً إلى أن أرى السرير وهو يعد أول سرير حقيقى سوف أنام عليه بعد أن تركت كونكورد منذ شهور مضت ولكن "كانينج" لم يصعد معى السلم الضخم المؤدى إلى الطوابق العليا ولكنه قادنى إلى المطبخ، حيث كان هناك العبد المسن "طولمى"، أعطاه علبة مربوطة بقطعة قماش وأعطانى مثلها وقال "كانينج" موجهاً كلامه إلىّ: هذا خبز من الذرة للصباح"، وأضاف قائلاً" : "إن إعداد وجبة الإفطار إهدار للوقت وللطاقة". وقد فهمت أن "طولمى" ذلك العبد المسن يعمل طباخًا ورئيسًا للخدم وهو أيضاً. يعمل معهم فى جمع المحصول أى أنه يعمل أيضاً بقوة فى الحقول ولهذا فإن هذا جهد كبير بالنسبة له ومن ثم ظهر الموقف خطيرًا حقاً.

اتجه "كانينج" نحو الباب المؤدى إلى الحديقة وقادنى إلى الخارج قائلاً: "إن لك مطلق الحرية فى أن تختار أن تنام بالمنزل أو بالخارج ولكنى لا أؤيد فكرة أن تنام بالمنزل فأنا أفضل أن تفعل مثلى وتختار أحد المبانى القديمة، وذلك لأنه من الجائز أن يعود هؤلاء المشاركون فى حرب العصابات بالليل، حينئذ ستكون أنت فى خطر لأنهم لا يميلون إلى هؤلاء المهتمين بمحو الأمية للعبيد مثلك".

كان القمر فى ذلك الوقت بدرًا مكتملاً ولهذا لم نجد أية صعوبة فى السير فى تلك الحديقة كان هناك على جانبى الحديقة العديد من الأكواخ وورش العمل وكان المنزل المخصص لإعداد الخمر فى نهاية الحديقة. أعطانى "كانينج" واحدة من الشموع قائلاً: "خذ هذه الشمعة وحاول أن توفرها، فأنا لا أستخدم أكثر من نصف شمعة فى الأسبوع، إنى أخلد للنوم عند طاحونة الذرة، إننى أرشح لك المخزن ليكون حجرة نومك، فهناك العديد من أكياس حبوب القطن، يمكنك أن تستخدم تلك الأكياس كمرتبة جميلة، آه لا تأخذ هذه الشمعة فى أى مكان بالقرب من المنزل المخصص لإعداد الخمر، فقد يتسبب ذلك فى مشكلة كبيرة.

قمت بدفع باب المبنى الذى أشار إليه "كانينج" فوجدت أمامى كومة ضخمة جداً من بذور القطن ومئات من مكيال الحبوب واقفة حتى السقف، ومعظم البذور كانت فى أكياس كبيرة، فقمت بترتيب زوج من تلك الأكياس لتكون بمثابة فراش أنام عليه واستخدمت معطفى الرسمى الذى كنت أرتديه كبطانية لأغطى بها جسدى وأنا نائم.

استيقظت فى الظلام على صوت مرتفع كأن شخصًا ما يدق الأجراس فقد نمت نوماً عميقاً، حيث أكياس بذور القطن التى كنت نائماً فوقها كانت حقيقة بمثابة فراش مريح للنوم فوقها ولهذا وجدت نفسى ناسياً غير مدرك أين أكون؟ وقضيت دقائق أحاول أن أتذكر فيها أين أنا وكيف أتيت إلى هنا؟ وفى النهاية

أدركت أن هذا الصوت الذى يشبه صوت الأجراس التى تدق قد يكون بالفعل صوت أجراس العبيد التى تدق لإيقاظ الجميع من النوم قبل حلول الفجر وهو الميعاد اليومى لهم للاستيقاظ من النوم حيث يبدءون عملهم فى الحقول، وبما أننى متحمس للغاية لمقابلة تلامذة المستقبل وجدت نفسى انهض مسرعاً وقد وضعت المعطف حول ذراعى ليحمينى من البرد القارس الذى بالخارج وذهبت أبحث عن الماء لأغتسل.

كان الوقت -كما أشار "كانينج" -قبل حلول الفجر وكان الجو شديد البرودة ووضعت المعطف بشدة حول جسمى، حتى لا أشعر ببرودة الطقس، تخبطت وأنا أسير فى الطريق باحثاً عن مكان الآبار حتى وجدت منزلاً خاصاً للآبار، وكان الجو داخل ذلك المنزل شديد البرودة أيضاً لدرجة أن المرء يشعر بالبرد يخترق عظامه. كان هناك حبل طويل ولكن لم يكن هناك الدلو الذى يربط بذلك الحبل لجذب المياه من البئر ولهذا أخذت أبحث عن دلو لأربطه بالحبل، وفيما أنا ماشى فى الظلام ولأن أرضية المكان كانت مصنوعة من الحجر كانت هناك قطعة من البلاط المصنوع بالحجر مرتفعة قليلاً فاصطدمت بها وانزلقت لأسقط على مؤخرتى فصرخت بصوت عال بعض الشىء وأنا ألعن ما أنا فيه.

كان هناك صوت ينادى علىّ فى مكان ما تحت الأرض.

- " سيدى .."

- "من هــذا؟" صــرخت وأنــا أســأل عن ذلك الصوت الذى أسمعه فى الظلام آتياً من تحت الأرض "أين أنت؟"

- أنا "زكا" يا سيدى؟ هل تتذكرنى؟ أنا كنت هنا من يومين وأنا آسف على ما فعلته. أنا هنا تحت فى عمق البئر متجمدًا من شدة البرودة. أرجو أن تساعدنى لكى أخرج من هنا".

كنت راقدًا على الأرض على بطنى وكانت الأرض رطبة وباردة ونظرت من سطح البئر لأجده، كانت هذه البئر عميقة جدًا بمقدار عشرين قدمًا. فى البداية لم أستطع أن أرى شيئاً سوى ظلام حالك ولكن عندما بدأت عيناى فى التأقلم على الظلام بدأت أرى بياض عينين تنظران إلىّ من تحت الماء فى خوف شديد وكانت البئر جافة تمامًا فيما عدا بعض البوصات التى كان بها ماء فى قاع البئر حيث كان يقف ذلك الرجل.

- "يا إلهى! ما هذا؟ هل يمكنك أن تتسلق كل هذا إذا أنزلت لك الحبل؟

- "نعم يا سيد أعتقد أنه بإمكانى أن أتسلق كل هذا، ولكنك لست السيد وإذا علم السيد بهذا فأنا لا أعتقد أنه سيسمح لى بأن أتسلق البئر".

- "زكا، إنى أعمل مع مستر "كانينج" وسوف أتحدث معه فى هذا الموضوع ولكن الآن خذ الحبل وأنا سأجذبك إلى أعلى". كان "زكا" رجلاً طويل القامة ولهذا لم أبذل جهدًا فى رفعه حتى سطح

البئر، وذلك لأنه تمكن بسهولة من تسلق البئر جيداً فقد ساعده طوله على تسلقه بسهولة، نزل "زكا" من على سطح البئر ثم رقد على الأرض وهو يرتعش من شدة البرودة قمت بتغطيته وضعت المعطف حول جسده، كان يتلعثم فى الكلام من شدة البرد، ورأيت قدميه الحافيتين زرقاء اللون من البرودة ومن وقوفه فى الماء فترة طويلة. جلسنا على الأرض وظهورنا على حائط ذلك المنزل المخصص للآبار عندما نظرنا فى الأفق لنرى بداية شروق الشمس، فتحت العلبة التى أعطاها لى "كانينج" الليلة الماضية وأعطيت "زكا" رغيف الذرة الذى كان بها. أخذ منى الرغيف ويداه ترتعشان وقد لاحظت بروز العروق فى يديه من آثار البرد والتعب والإعياء، وأخذ يأكل الرغيف بشراهة شديدة كأنه لم يأكل منذ دهر ثم رجع بظهره إلى الوراء عندما أنهى طعامه وأغلق عينيه وأطلق تنهيدة شعرت أنها قادمة من أعماق نفسه وروحه. يبدو أن وجهه كان جميلاً ذات يوم ولكن وجهه شاحب اللون وخدوده غائرة إلى الداخل.

"لماذا كنت أسفل البئر يا "زكا"؟"

تحرك جفناه وعيناه مغلقتان وقال: "من الأفضل أن تسأل مستر "كانينج" عن هذا الموضوع؟"

- "ولكنى أسألك أنت الآن وأريد منك إجابة واضحة".

- لقد قمت بذبح خنزير وأكلته أنا وأسرتى، فتضايق سيدى واعتقد أنى قد سرقت الخنزير وذبحته، لكنى لم أسرقه وعندما قلت له إنى لم أسرقه

اتهمنى بالكذب ولكنى لم أكذب عليه. أن السيد يملك المزرعة -مزرعة الذرة -ويملك جميع الحيوانات وأنا من واجبى أن أطعم البغل وأعطيه من الذرة ليأكل، وهذا كله جزء من رعايتى لممتلكاته ومن ثم أنا وأسرتى جزء من ممتلكات سيدى، وكذلك الخنازير فماذا يمنع لو أطعمت نفسى وأسرتى من لحم الخنزير؟ إن الخنزير جزء مننا الآن ولا يزال سيدى يمتلكه كسائر الحيوانات لأنه مازال يمتلكنا نحن أيضاً.

- "ولكن يا زكا. إن مستر "كانينج" لا يمتلكك، أنت تعمل كموظف عنده، إنك لست عبداً له".

- "أحقاً" ما تقول؟" قال "زكا" هذا باستهزاء شديد وأضاف" ولكنى أشعر أنى عبد له" وقد أشار بإصبعه إلى الأفق حيث كان هناك ضوء خفيف للقمر ثم أكمل حديثه قائلاً: "إن مستر "كانينج" دائماً ما يتحدث إلينا عن أهمية العمل وأهمية أن نعمل للأسياد فإذا خدمنا بعضنا بعض نحن ـ السود ـ فليست هناك فائدة فى ذلك ولن نشبع بطوننا، أما إذا قمنا بخدمة أسيادنا مثل مستر "كانينج" وأتباعه فسنملأ بطوننا بالطعام وسيكون لذلك فائدة لنا".

لم أكن أعلم أن ما يقوله "زكا" هو الحقيقة بعينها فقررت أن أذهب لأتحدث إلى "كانينج" وسألت نفسى كيف يفرض "كانينج" مثل هذه القسوة؟ أن يجعل من يعمل يموت جوعًا ويحبسهم فى بئر عميقة لارتكابهم جريمة، وهى أنهم أطعموا أنفسهم. وطبقاً لما حدث وصف "زكا" لى الطريق المؤدى إلى حقل القطن، وفى

طريقى إلى الحقل رأيت فتاة فى عمر "آنى" ابنتى، تشبهها إلى درجة كبيرة فى طولها وحركتها وكانت تحمل دلوٌ فوق رأسها وكان شعرها أسود اللون مختلفًا عن شعر "آنى" الذهبى اللون فقمت بإلقاء التحية عليها وردت التحية بترحاب شديد ومودة كانت بمثابة راحة لى عن عدم استجابة "جوشيا" لى اليوم السابق، وعندما علمت أننى المعلم الذى سوف يقوم بالتدريس لها، كانت سعيدة وصفقت بيديها بطريقة ماهرة لدرجة أن الدلو لم يسقط من على رأسها بل ظل ثابتاً فى مكانه، وأخذت تقول: "إنى أريد أن أتعلم بشدة". كنت أتمنى أن تسمع ابنتى "آنى" هذه الفتاة وهى تتحدث بحماس شديد عن التعليم حيث إن ابنتى تشكو دائماً من مدرستها ومدرسيها.

كانت الفتاة تدعى "سيلا" وقد عرفتنى بنفسها وعرضت علىّ أن تقودنى إلى الحقل، وكانت تتحدث طوال الطريق عن محصول القطن والإنجاز الذى حققه هؤلاء العبيد فى جنى المحصول والمشكلات التى يمكن أن تحدث نتيجة جفاف الطقس، وسألتنى عن الدروس التى سوف يتلقونها فى فصول التعليم وعن موعد بدايتها.

وعندما وصلنا إلى الحقل، كان المشهد جميلاً جداً، كان فى تقديرى مساحته أكثر من ميل ولكنه كان حقلاً جميلاً، كان النبات واقفًا على ضفاف النهر وكان لونه الأخضر يبدو رائعاً فى مثل هذه الساعة من بداية الصباح. كان من سيقوم بجنى المحصول من العبيد يتحركون حتى وصلوا إلى نصف مساحة

الحقل، ولم أكن أعرف كم تكلفت تلك المزرعة من مصاريف ضخمة للزراعة، وعندما اقتربت من هؤلاء العمال الذين يقومون بجنى المحصول؛ حيث كان البعض يقطف الثمار بيديه الاثنتين بطريقة تلقائية معينة حتى أن الثمرة تسقط كاملة فى قبضة يده، وكان البعض الآخر أقل مهارة فيقطفون الثمرة بيد واحدة وكان "كانينج" قد أشار قبل ذلك أن كل يد تستخدم فى جنى الثمار، وبالفعل هذا ما حدث فقد استخدم "كانينج" واستفاد من كل يد من أيادى العبيد الذين يعملون عنده حتى صغار الأطفال كانوا يساعدون فى قطف الثمار، أما المسنون من النساء والرجال فكانوا بأجسادهم المحنية يحملون أكياساً ضخمة من ثمار القطن التى تم جمعها، ويتصارعون بأياديهم المرتعشة فى وضع المزيد من القطن فى تلك الأكياس.

كان "كانينج" يشهد عملية جنى المحصول، وكان يمر بينهم فى الصفوف يأمرهم أن يسرعوا فى عملية الجنى، وكان يقف ويشاهد ويعقد مقارنة بين سرعتهم فى جنى الثمار اليوم والأيام السابقة، ثم تحدث بصوت مرتفع إلى أحد الرجال، كان غير مسرور بثقل وزن الكيس الذى يحمله؛ ومدح شخصًا آخر كان يجرى مسرعاً حاملاً فوق ظهره كيسًا كبيرًا من القطن.

كان "كانينج" يرتدى نفس المعطف والسروال الجميل كما كان فى الليلة الماضية، ولكنه لم يكن مرتدياً الجاكيت، وبدأ العرق يظهر على قميصه حتى

إن لون قميصه أصبح غامق اللون من كثرة العرق، كان يبدو شاحب اللون ومتعباً ذلك الصباح حتى أنى تساءلت إذا كان تصرفه الخادع يخفى مرضًا أوليًا، كان يرتدى قبعة مثل التى يرتديها العبيد السود، وكان يرفعها من وقت إلى آخر بعصبية ليمسح عرقه من على حاجبيه.

مكثت أشاهد ذلك المشهد من العمل الشاق برهة من الوقت، كان مشهداً من العمل الشاق المجهد فى خدمة الصناعة. كان العبيد يتعجبون من وجودى بينهم حيث إنه لا معنى لوجودى بينهم وسط الحقول فليس من المعتاد وجود الغرباء فى الحقول أثناء جنى المحصول، وكان "كانينج" يرانى ولكنه لم يعبأ بأن يحيينى أو يتحدث إلىّ.

ومرت ساعة كاملة على ذلك العمل الشاق وكان العديد منهم متعبًا للغاية، انتابت معظمهم كحة شديدة مثل التى كان يعانى منها "جوشيا" ولم يبد على أحد منهم القوة أو الشدة، ولكن كان يبدو عليهم جميعاً الضعف والإجهاد، وكان عدد كبير منهم خاصة المسنين والأطفال سيقعون من شدة التعب، كانت كل قطعة من ملابسهم رثة ومقطعة ومرقعة.

وعندما طلب كانينج شخصاً يقوم بحمل المياه، كنت أول من تقدم إليه؛ حيث كنت أريد أن أقوم بأى دور إيجابى، ولكن أخذ "كانينج" قليلاً من الماء ومضمض به فمه وبصق الماء على الأرض، وقد كنت مندهشاً لتصرفه هذا البذىء وأخذت أحدثه بصراحة شديدة عن سوء معاملته "لزكا" العبد.

وفجأة قبض "كانينج" بشدة على ذراعى ثم جذبنى بقوة بعيداً عن الحقل وعن مسمع وأعين العبيد، وعندما كنا على بعد بحيث لا يمكن لأحد أن يسمع ما كان سيقوله "كانينج"، أخذ "كانينج" يصيح فى وجهى قائلاً:

"كيف تجرؤ يا سيدى أن تصل إلى هنا فى هذا الوقت وأنا أعمل ولدينا الكثير من العمل لإنجازه والقيام به؟ كيف تجرؤ بأن توبخنى بين العمال؟ سوء معاملة؟ دعنى أؤكد لك أن الذى يتلقى سوء المعاملة هو أنا ! فأنا أتلقى سوء المعاملة من الجيش ومن العبيد ومن المؤجر؟ ولا ينبغى أن تتحدث فى مثل هذا الموضوع أمام العمال، أليس لديك أى شعور بالنظام؟ أليس لديك شعور على الإطلاق؟"

كان يصرخ بصوت مرتفع وكانت قبضته على ذراعى قوية للغاية لدرجة أنها كانت تؤلمنى بشدة، رمى ذراعى بحركة عنيفة وقوية إلى أسفل، وفتح فمه ليكمل حديثه، واستجمع قوته وأخفض صوته قليلاً وأضاف قائلاً: "ليس لدى الوقت لهذا، إذا كان لديك تساؤلات بخصوص إدارتى فعليك أن تنتظر للمساء حتى أجيب على كل أسئلتك باستفاضة والآن إذا سمحت لى، فعلىّ أن أذهب لأستكمل العمل، فلدى الكثير لأنجزه، ومن الأفضل أن تجد لنفسك شيئاً تنجزه بنفسك؟ أليس لديك الكثير من الدروس لتعدها لتلاميذك؟

– "أنا لا أعرف بالضبط.." كنت على وشك أن أكمل حديثى بأنى لا أعرف أى مبنى سيكون متاحًا لإعطاء الدروس فيه لتلاميذى ولكنه قاطعنى قائلاً:

- "لا، أنت لا تعرف. أنت لا تعرف شيئاً على الإطلاق" . وبهذه الجملة التفت إلى الخلف معطياً لى ظهره ومشى فى اتجاه الحقل والعمال، كان "كانينج" شابًا متعجرفًا وفظ القلب لم أقابل مثله فى حياتى.

قضيت بقية اليوم أسير فى المزرعة لأتعرف على مبانيها وأماكنها وفى فترة الظهيرة ذهبت إلى المطبخ وأخذت قطعة من الخبز غمستها فى برطمان عسل كان قد ترك بدون غطاء وبإهمال شديد لدرجة أنى مكثت بعض الوقت أسحب الذباب الميت منه، وبعد هذه الوجبة غير اللائقة، ذهبت لأبحث عن المكان الذى يعيش فيه العبيد - أى العمال، ثم اكتشفت أن هذا المكان هو عبارة عن قرية صغيرة مزدحمة بالأكواخ المبنية جنباً إلى جنب، كانت هذه الأكواخ مبنية بالطين وكانت موازية بعضها لبعض مثل الشارع، كان المكان يبدو وكأنه مهجور وليس به أحد فالجميع يعملون فى الحقل ولكن بعد قليل سمعت صوت طفل رضيع يبكى من أحد الأكواخ وعندما اقتربت من الكوخ رأيت امرأة عجوزًا منحنية الظهر تجلس فى ركن الغرفة، وكان هناك ما بين ثمانى إلى تسع أرجوحة شبكية، وبداخل كل واحدة منها طفل، كان من بين الأطفال من هم حديثو الولادة، ومن هم يبلغون بضعة أشهر ولكنهم جميعاً كانوا بدون ملابس على الإطلاق، وكان هناك من يبلغون عامًا أو اثنين وكانوا أيضاً بدون ملابس يتزاحمون مثل الكلاب حول طعام مطهى من البازلاء التى كانت قد نزلت من على وعاء الطمى إلى الأرض مباشرة.

كانت هناك عصا كبيرة تمسك به المرأة العجوز، حيث يمكنها أن تحرك الأرجوحة الشبكية لكل طفل دون أن تتحرك هى من على مقعدها الصغير، وفجأة ضربت بعصاها أحد الأطفال الذى كان يأكل من على الأرض حفنة زائدة من البازلاء الفظيعة ذات اللون الرمادى وسحب الطفل يده الصغيرة وصرخ بشدة باكياً.

- "ليس من الضرورى أن تضربى هذا الطفل يا أمى. قلت لها.

رفعت رأسها لأعلى ونظرت إلىّ بعينيها نظرة مبهمة قائلة: "ومن هذا الذى يقول لى ذلك؟"

عّرفتها بنفسى قالت: "بما أنك قس فقل لى الآن لماذا يخلق الرب العصا إذا لم تكن لضرب بطون الصغار؟"

ثم نهضت وأسرعت نحو الباب وصرخت فى الأطفال الصغار قائلة: لا يتحرك أحد منكم من مكانه خطوة واحدة. مفهوم؟" صرخت بشدة فى الأطفال السود الصغار الذين كانوا فى وداعة الحمل وقد خافوا بشدة من العصا وبدا على وجوههم الفزع والرعب. وأكملت قائلة: "علىّ أن أباشر هؤلاء من وصلوا مؤخراً وعلىّ أيضاً أن أراعى هؤلاء الذين سوف يتركوننا قريباً" ومدت يدها النحيلة وأخذتها بدون رغبة، فكانت تسند إلىّ وإلى العصا وخرجنا خارج هذا الكوخ لنذهب إلى كوخ آخر، وفتحت الباب استقبلتنا رائحة مرض وإعياء كريهة، كان هناك ما يقرب من دستة أطفال يرقدون فوق حصائر ملقاة

على الأرض، وكان الأمر واضحاً جداً بل ليس يحتاج إلى طبيب ليقول إن كل واحد منهم يعانى من شدة المرض.

كان هناك دلو من الماء بالقرب من الباب أخذت المرأة قطعة من القماش المبللة من الدلو - وأخذت تلمس جبين كل طفل بها تغسل حاجب كل واحد منهم، وكان هناك دلو آخر به مغرفة فغمست المغرفة به وتابعتها، أخذت أعطى الماء لهؤلاء القادرين على أن يشربوا أما هؤلاء الذين كانوا ضعفاء جسمانياً جداً وغير قادرين على بذل أى مجهودًا حتى ولو كان مجهوداٍبسيطاً مثل الشرب، فكنت أسكب قطرات من الماء على شفاههم حتى يستطيعوا أن يشربوا "بماذا يعانون هؤلاء الأطفال؟"

هزت كتفيها المنحنيتين وقالت: "حمى، إسهال والبعض منهم يعانى من مرض الصفراء والبعض الآخر يعانى من ارتفاع فى درجة الحرارة، فالطفل الذى هناك يعانى من الحمى".

"هل أحضرتم لهم الطبيب؟

- "الأطباء لا يأتون إلى هذه المناطق ولا يأتون لمن هم مثلنا".

تساءلت بدهشة لماذا لا يرسل "كانينج" لإحضار الأطباء المختصين بالجيش وسألتها قائلاً" إذًا ماذا تفعلون عندما يكون هناك مرضى؟

فأجابت قائلة: "فى ربيع كان صاحب الأرض القديم يحضر العسل الأسود والكبريت الكيميائى

والشاى الساسفراسى لينقى دماءهم ويعطى الدواء لكل بغل وخنزير وعبد فى المكان كله، كان دواء فعال وفى ذلك الوقت لم يكن العبيد يمرضون كثيراً، كما هو الآن وإذا مرضوا كانوا يأخذون ما تقدمه لهم زوجة صاحب الأرض من دواء، قليل من هذا وقليل من ذاك، كان الدواء عبارة عن مجموعة من الأعشاب المفيدة التى كانت زوجته تعلم بها وإذا أصيب أحد بالحمى كانت تقول لنا أعطوه ماء ممزوجاً بالملح والخل ولكن اليوم ليس لدينا الملح أو الخل لنغسل بهم هؤلاء الأطفال الصغار، كان صاحب الأرض السابق يقول لنا هو وزوجته أعطيهم قليلاً من هذا وذاك، وسوف يشعرون بتحسن، أما مستر "كانينج" فيقول لنا اجعل المرضى يقومون وينهضون ويعملون حتى لا يستطيعوا أن يعملوا ثانية".

تركت المرأة العجوز، مشيت فى طريقى للمنزل وأنا أشعر بغضب شديد كاد أن يقتلنى من قسوة "كانينج" على العبيد وتعسفه الشديد لهم وشعوره المجرد من الرحمة تجاههم، انتظرته فى غرفة المعيشة وعندما سمعت خطواته أسرعت لمقابلته، لكن شيئاً ما استوقفنى عندما رأيته حيث وجدته يجر رجله اليسرى وهو يمشى كمن يجر شيئاً ثقيلاً خلفه، استنتجت أنه قد يكون ساق العمال لكى يعملوا ست عشرة ساعة كاملة، إن هذا أغضبنى جداً فإن من محاذير الجيش أن يعمل العمال أكثر من عشر ساعات فى الصيف وتسع ساعات فى الشتاء، ويبدو أن وجهى كان يبدو عليه الغضب لأنى وجدت "كانينج"

يرفع يده عندما رآنى ويقول بصوت منخفض يكاد يسمع: "فى الحال ولكن ليس الآن. أعطنى قليلاً من الوقت كى أرتاح قبل أن تلقى إلىَّ بسيفك".

صعد إلى الطابق الأعلى حيث غرفته وكان يستخدم السلم بصعوبة حتى أنه كان يستند إلى درابزين السلم وخلفه "طولى" العبد الأسود حامل أباريق من الماء وقطعة قماش مربعة من الكتان.

وبعد نصف ساعة نزل "كانينج" وكان يبدو عليه أنه متماسك إلى حد ما، كنت أنتظره بجانب الرخام الأسود الذى كان بداخل غرفة المعيشة، وكنت أضرب بيدى من شدة العصبية الحجر البارد، إن نوافذ حجرة المعيشة كانت عالية جداً وواسعة تمكن من رؤية الحدائق التى يبدو أنها كانت حدائق جميلة فى الماضى عندما كان هناك من يرعاها ويعتنى بها، التفت إلى "كانينج" عندما دخل الحجرة، فقد سحب كرسيًا وجلس عليه بثقله قائلاً: "والآن يمكن أن تقول اسوأ ما عندك".

بدأت أقص عليه ما رأيته فى ذلك المكان الذى كان به العديد من الأطفال المرضى والذى أطلقت عليه كلمة "المشفى" ومدى الإهمال الذى يتعرض له هؤلاء الأطفال والذى يعد جريمة كبيرة وقلت له: "إن المرأة التى ترعاهم؛ امرأة عجوز مسنة تحتاج - هى نفسها - إلى رعاية وهى فى حقيقة الأمر تعتبر العناية والراحة الوحيدة التى يتلقاها هؤلاء الأطفال".

- "مستر مارتش" قال هذه العبارة بأدب شديد ومبالغ فيه وأكمل قائلاً: "إن أول شىء فعلته منذ أن

أتيت إلى هنا هو أنى ذهبت إلى الطبيب المختص بالجيش فى منطقة "الوتريانك" وهو نفسه أشار إلىّ أن احتياجات الجنود للدواء والرعاية ملحة جداً، وعندما تحدثت إليه بصورة تفصيلية عن المحن التى يمر بها هؤلاء العبيد أجابنى قائلاً: هؤلاء العبيد هم حيوانات وليسوا ذات قيمة مثل الماشية، فالماشية أهم من هؤلاء العبيد". وبعد هذا توقفت عن التحدث إلى هذا الطبيب وتعجبت بداخلى كيف يمكن لمثل هذا الطبيب الجرَّاح أن يقوم بمعالجة المرضى وهو يحمل بداخله مثل هذه المعتقدات الوحشية"؟!. "ولكن ماذا عن المرض الذى تحمله تلك المرأة العجوز المسنة ثانية إلى ذلك الكوخ الذى به الأطفال حديثو الولادة والذى يعانى من الإهمال وسوء معاملة هؤلاء الأطفال الذين هم فى شهورهم الأولى فتلك المرأة العجوز لا تستطيع أن تباشر بمفردها كل هؤلاء الأطفال، إنك تعرض حياة هؤلاء الأطفال للخطر مقابل أن تحصل على المزيد من أكياس القطن؟ ألا تستطيع أن تستغنى عن امرأة واحدة فى جنى المحصول لتساعد تلك المرأة العجوز فى رعاية ومتابعة هؤلاء الأطفال؟

أجاب "كانينج" قائلاً: إن الأمهات ليست هن الأمهات المثاليات كما يدور فى ذهنك. ألم تسمعهم كيف يتحدثون إلى أطفالهن؟ ابتسم "كانينج" ابتسامة خفيفة بها نوع من السخرية والاستهزاء وأكمل قائلاً: فى ذلك الوقت إن قدر هؤلاء الأطفال حديثى الولادة غير مؤكد مهما فعلت تجاههم، لكنى سأحاول أن أجد لهم من يرعاهم بجانب هذه السيدة المسنة فليس من

الضرورى أن أعرض حياة هؤلاء الأطفال إلى ذلك الجو الملوث الذى تجلبه هذه العجوز إليهم من ذلك المكان الملىء بالأمراض.

- "كيف لم تفكر فى هذا من قبل؟ " سألته وأنا مندهش من استعداده لمساعدتهم. مرر يده على شعره " وقال: "إن هناك أشياء أواجهها يومياً تمنيت أن أكون قد فكرت فيها من قبل، لقد أتيت هنا بهدف أن أجمع القطن وأرسله إلى السوق، ولم أحضر هنا بصفتى رجل سياسة أو طبيباً أو ممرضاً فأنا محام، وهذه هى مهنتى مستر "مارتش". محام أعزب لقد تعلمت كيف أقوم بإدارة مزرعة كيف يتوقع منى الناس أن أقوم بمهنة الطبيب وأوفر الدواء للمرضى أو أقوم بمهنة الداية وأراعى الأطفال حديثى الولادة؟ إننى أبذل قصارى جهدى فى ذلك المكان مستر "مارتش".

- أحقاً تبذل قصارى جهدك؟" سألته باستهزاء شديد. "كيف تقول هذا بعد أن أصدرت أمراً بأن ترمى إنساناً فى عمق البئر لجريمة إطعام نفسه وأسرته؟"

- "آه، .. الآن نتحدث عن موضوع "زكا"."

- "نعم، وكان الرجل المسكين يعانى من .." قاطعنى قائلاً: "أظن أنه قال لك إنه سرق الطعام ليطعم أطفاله وأسرته".

- "لعلك تقول إن هذا الكلام غير صحيح."

"نعم إنه صحيح، ولكنه لم يقل لك إن هؤلاء الأطفال هم شباب ناجح يعمل مع هؤلاء الذين يريدون

القيام بعملية انقلاب". لابد وأن وجهى ظهر عليه علامات الدهشة والحيرة فتغيرت نبرة صوته، وأصبحت نبرة حادة تنم عن الغضب وقال: "لا تكن مغفلاً مستر "مارتش"، إن هناك عدداً من الزنوج العبيد الذين يعملون مع مَنْ يريدون القيام بعملية تمرد على الجيش. لابد وأن تعلم هذا مستر مارتش".

– "نعم بالطبع ولكن.."

هز "كانينج" رأسه، يبدو وأن صبره كاد أن ينفد وأكمل قائلاً: "إن زوجة "زكا" كانت خادمة بمنزل ملاحظ العمال ومن ثم فإن أولادها نشأوا كخدم ومرافقين لأولاد ملاحظ العمال ومن جميع الجوانب كانوا يتمتعون بمزايا عديدة، منها أنهم تعلموا بعض الحِرف ولم يعملوا بالحقل وتعلموا أن يقبضوا بأيديهم المال مقابل عملهم فى تلك الحرف التى كسبوا منها الكثير من المال، وعندما التحق أولاد الملاحظ بالجيش ذهبوا معهم أولاد "زكا" كخدم لهم ولقى واحد من أولاد الملاحظ مصرعه، وانضم الابن الآخر إلى صفوف المتمردين، وعاد أولاد "زكا" إلى هنا، ولكنهم هربوا مباشرة فور علمهم بأنهم سيعملون فى الحقل مع بقية العمال، ففضلوا الهرب والبقاء فى الخفاء عن أن يعملوا فى الحقل، إن لوجودهم هنا فى المزرعة خطورة على حياتى لذلك أنا لا أقبل أن يتم إطعامهم على أيدى من يعملون معى".

– "من الجائز أنهم كانوا يريدون البقاء هنا وليس الهروب إذا لم تكن أنت قاسياً مع الجميع"..

- "إنى حضرت إلى هنا فى مهمة محددة، وهى أن أجنى محصول القطن للجيش مستر "مارتش"، إن جنى المحصول فى ذلك الوقت من العام وفى تلك الظروف يتطلب الكثير من التضحيات من جانب كل فرد، ولكى يتحقق ذلك العمل يجب أن أستخدم طاقة كل رجل وكل امرأة وكل طفل فى هذا المكان وحتى أنا نفسى يجب أن أعمل معهم جميعاً، ولن أعتذر عن ذلك" وقد قفز من مقعده وهو يتحدث وكان صوته عالياً ثم تخبط وهو يمشى وكأنه سيقع وأخذ يتحسس صدره بيده.

مشيت تجاهه مسرعاً معتقداً أنه سيقع فاقد الوعى ولكنه أشار إلىّ بيده وجلس ثانية وهو يتنهد، وعندما استأنف حديثه كانت نبرة صوته عادية وهادئة: إن السياسة التى أسير على نهجها هنا، هى سياسة العقل مستر "مارتش"، فأنا لا أواجه فقط البرد القارس أو المتمردين القتلة وإنما أواجه أيضاً موقف العقل تجاه كل هذا، فإن الأمر سيتطلب بعض الوقت لكى يفهم هؤلاء الزنوج العبيد أن الحرية ليست معناها أن يتحرر المرء من العمل الذى هو نصيب وقدر كل خلفاء الله منذ خروج آدم وحواء من الجنة، فإن البعض منهم وصل فى اعتقاده أن يوماً سيأخذ مستر "لنيكولن" صاحب الأرض السابق جميع العبيد هنا إلى بوسطن ويعطيهم رجالاً من الجنس الأبيض ليكونوا عبيداً لهم!".

- كيف تريد منهم أن يشعروا أنهم أحراراً وأنت تعاملهم بطغيان شديد وتستخدم السياط فى تأديبهم ولا تدفع لهم أجورهم؟".

- "إنى أدفع للعامل ثمانية دولارات فى الشهر، آما الأطفال والشيوخ فاعتبرهم نصف عامل فأدفع لهم حسب عملهم."

- ولكنهم يقولون إنهم لا يقبضون شيئاً من المال"!..

- الطبع .. فهم لم يقبضوا شيئاً حتى الآن لأنى سوف أدفع لهم بعد أن نقبض المال الخاص ببيع المحصول".

ليس بشيء غريب إذا ساور "زكا" وأمثاله الشك تجاه مثل هذه الوعود، عندما يكذب عليهم أصحاب العمل -منْ هم مِنْ الجنس الأبيض -طبقاً لسياسة معينة يريدون أن يطبقوها. إن هؤلاء العبيد يعلمون جيداً أنهم إذا هربوا خارجاً مثل "كندا" فسوف يقبض عليهم البريطانيون الذين سوف يجعلونهم يعملون حتى الموت فى المناجم التى تقع تحت الأرض.

تذكرت النساء اللاتى رأيتهن اليوم فى الحقول يعملن عملاً شاقاً، تذكرت الأطفال حديثى الولادة الذين كانوا بدون ملابس، يصرخون وهم داخل أرجوحتهم الشبكية المبللة، وسألته "أليس هناك فى الوقت الحاضر ما يمكن أن تفعله لتوفر لهم الطعام والملبس؟" نظر "كانينج" إلى أعلى ثم رفع يديه فى حركة من اليأس قائلاً: "قل لى أنت يا "مارتش"! أظهر لى الطريقة، لقد قدحت زناد فكرى فى هذا الأمر. لم أكن رجلاً غنياً عندما أتيت إلى هنا، فقد نفد كل ما لدى من مال كنت قد ادخرته، بل أصبحت مديوناً لأشترى تلك الأرض من مسز "كروفت" وأدفع ثمن تلك

الحيوانات التى تراها، حتى تكون هنا حيوانات مكان تلك التى سُرقت من المزرعة. والآن أجد نفسى من المحظوظين إذا تركت ذلك المكان دون أية خسائر مادية بالنسبة لى. هذا إذا لم تصبنى أية حمى أو تم قتلى على يد أحد المتمردين. كيف سأتمكن إذاً من توفير طعام وملبس لـ ١٦٧ شخصاً فى هذه المزرعة. أنا لا أعتقد أن لديك مالاً خاصاً يمكن أن تسحبه لتعطينى إياه".

تذكرت ولكنى لم أقل له إنه منذ عشر سنوات كان لدى المال والثروة من عملى فى التجارة وبيع البضائع، ولم أحبذ أن أقص عليه تاريخ رحلتى فى العمل من الغنى إلى الفقر ورغم هذا فإن كلام "كانينج" صحيح وسليم، فهناك رجال أغنياء فى "كونكورد" و"بوسطن" و"نيويورك" حيث يمكن أن نطلب منهم المساعدة.

– "الخبز والسمك مستر "كانينج" هذا ما نحتاجه".

– "أعتقد أنك تؤمن بالمعجزات مستر "مارتش"، فإن هذه هى دعوتك حقاً. "نعم مستر "كانينج" وأنا أنوى أن أغيرك من الناحية الدينية. هل يمكننى استخدام حصانك فى الغد؟"

"إذا كان الحصان "استر" سيساعدك على تحقيق معجزة، فبكل سرور يمكنك أن تستخدمه ولكن، هل يمكننى أن أسألك ماذا تنوى أن تفعل به؟

ذهبنا داخل الحجرة الأخرى لنتناول وجبة العشاء، وفى أثناء العشاء الذى كان جميلاً أكثر مما

توقعت؛ حيث إن الطباخ تمكن من طهى الفاصوليا دون استخدام دهن الخنزير، وأيضاً لأن أثناء العشاء بدأت أن أجد سبباً يجعلنى أكتشف أن مستر "كانينج" ليس رجلاً سيئاً بالدرجة التى كنت أتصورها، وبدأت أشرح له فكرتى موضحاً بعض الخطوط العريضة له.

وفى نهاية حديثى هز "كانينج" رأسه وهو يبتسم قائلاً: "إنها حقاً معجزة إذا نجحت فى تحقيقها مستر "مارتش". وأنا أتمنى لك كل النجاح". نهضنا ثم ذهب هو إلى ورديات التفتيش الليلية، وأنا ذهبت إلى فراشى ومكثت طيلة الليل متيقظاً أفكر فى تفاصيل عمل اليوم التالى التى ستكون معظمها كتابة كثير من الرسائل إلى الأثرياء من الرجال لأطلب منهم إرسال معونة لنا، وتذكرت فيما أنا أتخيل مضمون تلك الرسائل أيام كانت تبعث إلىّ مثل هذه الرسائل لأتبرع من مالى الخاص للمحتاجين والفقراء، ومن هناك سافرت أفكارى بعيداً فى المراحل الأولى عندما كنت أمتلك المال الكافى إلى وضعى الحالى، حيث أعانى الفقر لدرجة أن بناتى يعملن نظير القليل من المال ولا واحدة منهن تعاتبنى فى ذلك، إنى أعلم هذا جيداً، ولكنه لشىء صعب عندما يكون رجل قد تحطم فيما قبل بنفس الفكرة التى تحييه الآن، وفى هذه الليلة عندما كنت أتقلب فى فراشى يقظاً لم أجد مفراً من أن ألقى اللوم على نفسى فيما حدث لى من انهيار مادى.

الفصل السادس

الخبز والمأوى

إذا قدر لأحد أن يفقد ثروته ستكون لديه القدرة على مواجهة الموقف إذا كان فقيراً قبل أن يحصل على تلك الثروة؛ حيث إن الفقر يتطلب قدرة على مواجهته، ومن حسن حظى أنى تعلمت الحرف اليدوية قبل أن أتعلم قراءة أو فهم كتاب صعب أو التفاوض على عقد.

ففى بداية حياتى الزوجية كنا نعيش فى بيت فى كونكورد أسسته بنفسى، وكنا نعيش حياة يملؤها الرضا والسرور ولا يعوزنا شىء على الإطلاق، كانت مهمتى هى توفير حرية التفكير الكاملة لزوجتى حتى تستطيع القيام بأداء أحب عملين إلى قلبها وهما تعليم بناتنا الصغيرات ومشاركتها فى القضايا الأخرى مثل قضية محو الأفكار والمفاهيم الخاطئة التى تسود مجتمعنا عن المرأة، ولم يكن هناك أية مشكلة فى إيجاد شخص للقيام بالأعمال المنزلية، ولم يمض عام على قدوم ابنتنا الكبرى "مج" الشقراء حتى لحقت بها "جوزفين" ذات الشعر الأسود الغامق والتى كانت صورة طبق الأصل من والدتها.

ترك والد زوجتى "مارميه" منزله ليقيم معنا أحضر معه مدبرة منزله التى قد قضت معه فترة طويلة من العمر، كانت تدعى "هنا ميولت".

كانت "هنا" امرأة ذات شخصية قوية وصاحبة أفكار عادية أولية عن تصور كيف يكون المنزل، فقد تخيلت أن بيتنا سيكون هادئاً وجميلاً ومرتباً وفى بدء الأمر رأت "هنا" الطباخ الذى كنت قد أحضرته لزوجتى ليساعدها فى طهى الطعام والخادم الخصوصى والمربية المسئولة عن الأطفال التى وظفتها لتساعد زوجتى فى تربية الأطفال والإشراف عليهم، رأت "هنا" كل هؤلاء الخدم واعتبرتهم مغتصبين لحقها، لملكتها ولكنها كانت سعيدة؛ لأن هناك المزيد من الوقت لتهتم وترعى والد زوجتى، كما كان هناك وقت كاف لزوجتى لتقوم بإنها الأشياء العملية.

فى كثير من الأحيان كنت أعود للمنزل لأجد "جوزفين" ابنتى الثانية وهى تلعب فى المزود الخاص بها وتتحرك على أنغام موسيقى "بيتهوفن" -التى لم تكن على الإطلاق مناسبة للأطفال -أو تتدحرج فى الحديقة بشقاوة مع أختها "مج"، كنت أتذكر مقابلتى الأولى مع زوجتى وحديثنا الخاص عن حرية المرأة فى التعليم وبناء الشخصية، الذى دار ذلك الحديث فى منزل أخيها "القس دانيال داى"، كنت أداعبها وأقول لها إذا كانت قد قررت من ستكون من بين بناتها الكاتبة؟ ومن الفنانة؟ وبعد شهور من زواجنا قررت أن

أدخل الجمال فى حياتنا اليومية، كان منزلنا الذى اشتريته ضخمًا جداً ولكنه ليس مبهجاً فقمت بعمل بعض التعديلات به حيث قمت بإزالة بعض الأشياء من الأثاث العتيق والتقليدى الذى أحضره لنا والد زوجتى كهدية لزواجنا واستبدلتها بأشياء أكثر جمالاً وأناقة فغيرت حجرتين من غرف المعيشة التقليدية لتصبحا ردهة واسعة كبيرة تدخلها الشمس حتى فى أيام الغيوم والمطر ووضعت مائدة جميلة من خشب شجر الدردار فى غرفة السفرة، وكانت هناك مجموعة من الأرائك المغطاة بالحرير الفرنسى زينت جمال الردهة وكذلك وضعت خطة رائعة وطموحة لحديقتنا فمن الفرحة والبهجة أن تكمل جمال الطبيعة بإضافة شىء لذلك الجمال أفضل من أن نستخدمه فقط لإنتاج الوقود من الغاز والعلف، فقمت بتوسيع إسطبل الخيول وأضفت حلقة كبيرة حتى تتمكن بناتنا من تعلم ركوب الخيل فى أقرب فرصة، وبدأت فى زرع أشجار من الفاكهة فى الحديقة مثل شجر التفاح والبرقوق والكمثرى وحيث إن منزلنا يقف على نهاية منحدر استفدت من ذلك بأن زرعت مستويات مختلفة من النبات على ذلك المنحدر، وتركت بعض القراريط خالية تماماً من الزرع كموطن للطيور وبعض الحيوانات المتوحشة وكذلك الحشرات التى تقوم بعملية التلقيح للنبات، واستغللت القراريط الخالية الأخرى بأن جعلتها تبدو وكأنها منطقة كلاسيكية؛ حيث قمت بزراعة بعض الورود بها، وبعد

أن نسقت الحديقة وأضفت عليها هذه التعديلات والإصلاحات لتضيف عليها جمالاً وبريقاً قمت بتحويل سلم تحت سطح المنزل إلى منزل صغير للقساوسة يشبه تلك المنازل التى كانت فى العصور الوسطى وعندما اكتمل بناؤها أحضرت "مارميه" إلى أعلى السطح لترى هذه الحجرة التى كانت تشبه تلك الأماكن الصغيرة الموجودة بمحطات السكة الحديد؛ حيث يمكن للهاربين أن يرتاحوا قليلاً بها فى آمان وسلام لعدة أيام، كانت سعادتها بتلك الغرفة العلوية سعادة لا توصف، بل تفوق فرحتها بكل التغييرات والإصلاحات التى حدثت.

قضينا أنا وزوجتى "مارميه" السنوات الأولى من زواجنا فى سعادة غامرة، وكنا نحاول أن نستفيد من كل شئ حولنا فكانت تصحبنى دائماً إلى الطرق الخفية والشوارع الداخلية فى كونكورد التى كانت تذهب إليها فى طفولتها فقد كانت حريصة على أن تجعلنى أتعرف أكثر على مكانى الجديد أى تلك البلدة الجديدة كونكورد. وفى المقابل كنت أقوم أنا بتعليمها أشياء جديدة تلائم مكانها الجديد - أى مكانها كزوجة وأم - فكنت حريصاً دائماً أن أجعلها تفهم أن ما كان يبدو عليها من هفوات وهى آنسة لا يصح أن يصدر منها الآن وهى زوجة وأم وقد كنا أحياناً نتخبط من وقت لآخر فى مسيرة حياتنا الزوجية، لكننا كنا ننمو فى حبنا تجاه بعضنا البعض وتجاه الآخرين هؤلاء الذين كانوا جيراننا وكنا نحن نعد أنفسنا من المحظوظين أن يكون لدينا مثل هؤلاء الأصدقاء.

لم يكن "والدو آمرسون" شخصية بعيدة ومعزولة كما كنت أتصور عندما قابلته لأول مرة، فقد أصبح مهتماً بأفكارى ومعجباً بها خاصة تلك التى كانت تتعلق بالوقت الذى نعيشه وقبل مضى وقت طويل كان من الغريب ألا نمضى معاً معظم الوقت حيث كنا نلتقى كثيراً وتدور مناقشات كثيرة فى شتى الموضوعات. كانت "مارميه" سعيدة حيث إن مستر "أمرسون" أصبح أكثر صراحة ولباقة فى حديثه، وكان يتحدث دائماً بوضوح غير عادى عن موضوع تحرير المرأة، ولكنى أعتقد أن عائلة "الثوروس" كان لهم أثر ودور فى التغيير الذى طرأ على أفكار ومعتقدات مستر "أمرسون" الخاصة بتحرير المرأة وكذلك آراؤه السياسية خاصة "هنرى" وصداقته الغريبة بزوجة مستر "أمرسون". إن زوجة "والدو" كانت الشخصية الوحيدة التى لم يكن "هنرى" متحفظاً أو غريباً فى سلوكه معها، وكان يحب أطفالها حباً كبيراً كما لو كانوا أطفاله، وكان يحب ويهتم أيضاً ببناتى وبمجرد أن بدءوا يتحدثون اختار أن يكون معلمهم فى أمور الحياة الطبيعية وأصبح صديقاً حميماً للأسرة، كان يأخذ "مج" و"جو" ليصحبهما فى الغابات ليتعرفا على الحياة بداخلها.

لقد تساءلت كثيراً كيف يكون رجل تصرفه غريب مع الكبار الذين فى مثل سنه يكون لطيفاً وحنوناً وصبوراً مع الأطفال، وفى يوم من الأيام حضر واقترح على بناتى أن يصطحبهن لى نزهة لجمع وقطف

التوت من على الشجر وأردت أن أذهب معهم لهذه النزهة رغم أنى كنت متعباً للغاية فى ذلك اليوم حيث لم أتمكن من أخذ قسط من النوم. كان "هنرى" هو سيد هذه الرحلة فقد كان يعلم جيداً أماكن متنوعة لأنواع مختلفة من التوت وبذلك نجحت بناتى فى جمع الكثير من التوت، وقد أضاعت "جو" معظم ما جمعته من التوت عندما قامت بهز جذع الشجرة ثم وقعت وأوقعت معها كل محتويات السلة، التى كانت تحملها فسقط كل التوت الذى جمعته فجلست على الأرض تصرخ بقوة وبعصبية شديدة مثل صراخ وحوش الغابة لدرجة أنها أفزعت الطيور التى كانت على الشجر حولها فطارت بعيداً من قوة الصوت، كان من الواضح أن "جو" قد ورثت حدة وعصبية والدتها وكانت "مارميه" ترفض أن تتخذ موقفاً إيجابياً تجاه عصبية "جو" وحدة طبعها قائلة إن الأيام سوف تقهر تلك الحدة قريباً عندما تكبر وتتعامل مع العالم الخارجى وكنت أنا وزوجتى نختلف فى هذا الموضوع ونتناقش فيه بصورة جافة ونتبادل الكلام الحاد فى حديثنا عنه وكنت سعيداً أن "مارميه" لم تكن معنا فى هذه الرحلة فقمت بتوبيخ "جو" بشدة وطلبت منها أن تتحكم فى أعصابها ولكنها فقدت السيطرة حتى أن أختها "مج" حاولت بلطف شديد أن تعطيها من التوت الذى كان معها ولكنها رفضت بشدة أن تأخذ من التوت الخاص "بمج" فهى ترى أنه ليس من الممكن أن تستبدل التوت الذى فقدته بأى توت آخر.

سجد "هنرى" على ركبتيه قائلاً لجو وهو يضع ذراعه حول ذراعيها الصغيرة:

"عزيزتى الصغيرة "جو" أن الطبيعة هى التى جعلتك تقعين هنا وتفقدين التوت الذى قمت بجمعه لأن الطبيعة تريد الأطفال الصغار أن يقعوا هنا ويضعوا بذور التوت للمحصول القادم وعندما نأتى هنا العام القادم سنجد عدداً كبيراً جداً من الشجيرات الصغيرة عليها التوت الذى وقع هنا وسنقول إن "جو" هى التى زرعته هنا". وبعد أن سمعت "جو" هذا الكلام وقف ثغرها الصغير المرتعش عن الصراخ ونظرت إليه وهى تبتسم ابتسامة بها سعادة وكبرياء.

وفى أحد الأيام قالت لى "مارميه": أن هناك طفلاً ثالثاً سوف ينضم إلى أسرتنا وكنت فى قمة السعادة عند سماع هذا الخبر الجميل ولكن بعد مضى شهر تقريباً، كان والد "مارميه" قد فارق الحياة، وارتاح كثيراً من معاناته من مرضه. وقد حزنت زوجتى كثيراً على فراقه، ويبدو أن "إليزابث" طفلتى الثالثة حضرت إلى العالم كهدية من السماء لتعزيتنا.

كانت "مارميه" قبل أن تتزوج وتصبح أماً، حادة الطبع تجاه بعض القضايا السياسية والاجتماعية ولكنها أصبحت أكثر حدة وعصبية بعد أن أصبحت أماً فى يوم ما وجدتها تحمل طفلتنا "بث" وكانت "جو" نائمة على رجليها و"مج" كانت تسبح بخيالها تحت قدميها تلعب متخيلة أنها تقوم بإعداد حفلة شاى، كان

مشهداً رائعاً للأمومة الهادئة، ولكن وجه زوجتى كان مبللاً بالدموع فسألتها عن سبب بكائها معتقداً أنها تشعر بتعب وإعياء نتيجة أعبائها الجديدة وحزنها على فراق والدها ولكنها فقالت لى:

"لا أنا أبكى لأنى أفكر فى تلك العبدة الأم، فكيف أنا أجلس هنا أستمتع بأمومتى وفى أحد الأماكن البعيدة فى هذه البلد توجد الأم التى تم أخذ طفلها من بين يديها".

إن زوجتى التى كانت تتسم بالعاطفية الشديدة كانت لديها القدرة أن تشعر بداخلها بما يشعر به الآخرون، فأحياناً كثيرة تكون قاسية على نفسها وعلى طبيعتها فكانت دائماً تقول عن نفسها أن لديها حنانًا مروعًا تجاه معاناة البشر". وفى أحيان أخرى كانت تستخدم قوة تلك العاطفة فى الأعمال الجيدة والحسنة، ولكنها كانت دائماً تشعر أن تلك الأعمال لا تكفى، وأحياناً كثيرة كانت تفقد أعصابها مثلما حدث من قبل مع مستر "أمرسون" وكان هذا يضايقنى بشدة حيث إن فقدانها لأعصابها كان بمثابة السحابة الوحيدة التى تعكر صفو حياتنا. لم أكن أغضب إذا كنت أنا المقصود أحياناً من الهجوم أو أحد أقاربنا أو أصدقائنا المقربين.

كان لى زوجة عم، لم تكن زوجتى تجد فى شخصيتها ما يجذبها إليها، ولكن من أجلى كانت تعاملها بلطف ومودة وقد طلبت منها ذلك نظراً لأن عمى كان مريضاً جداً فى ذلك الشتاء وكان يمر

بمـراحل مـرضه الأخيـرة وكنت أشعـر وقتذاك أنه لن يكون مـعنـا فى الـربيع القـادم ولم يكن لـديه أطـفـال، وكان يحب أطفالنا بشدة وشديد الإعجاب "بجو" فقد كانت "جو" -التى ستصبح فى اعتقادى يوماً ما كاتبة -شديدة الولع بالكتب وقد كان عمى لديه مكتبة ضخمة مليئة بالكتب؛ كان يمنح "جو" حرية كاملة فى أن تلعب بكتبه فكانت تبنى الكبارى ومحطات السكة الحديد بالكتب ما تراه بخيالها وأحياناً كانت تلك الكتب التى تستخدمها فى اللعب من المجلدات النادرة جداً وعندما تتعب من اللعب كانت تجلس على رجليه فيحضر لها مجلداً مليئاً بالصور، كان مشهداً ممتعاً للغاية أن أرى "جو" بشعرها الغامق واضعة رأسها بجانب رقبته تنظر إلى المجلد باهتمام شديد وهو يقلب كل صفحة.

وفى أحد الأيام - كان يوم أحد - فقدت "مارميه" زوجتى أعصابها فأشارت إلىّ أننا يجب أن نحضر فى ذلك اليوم فى المساء محاضرة سوف يلقيها "جون براون" الذى كان يزور كونكورد فى ذلك الوقت لأول مرة، كانت زوجة عمى صارمة فى آرائها فقد أشارت أنها تجد آراء مستر "براون" متطرفة وأنها لن تفكر يوماً فى أن تحضر محاضرة له، ولم تكن المرأة الوحيدة من بين سكان كونكورد التى تؤمن بهذا، فقد كان معظم سكان كونكورد لديهم نفس الآراء تجاه "جون براون" وكانت الشائعات تطلق عن "جون براون" بأنه ينام بخنجر فى فمه ومسدس تحت رأسه بدلاً

من الوسادة حيث إنه كان ينادى دائماً بحرية العبيد وقد أبدت زوجة عمى رأيها حين قالت وهى تخاطب زوجتى: "أنى أتصور دائماً أن العبودية موضوع يحتاج إلى صلاة أكثر ما يحتاج إلى صورة من صور المظاهرة أو الاحتجاج". كانت تقول هذا وهى تنظر إلى زوجتى من بين النظارة التى كانت ترتديها وأكملت قائلة: يحتاج هذا الموضوع إلى صلاة فى صمت".

لم تستطع "مارميه" أن تتحكم فى أعصابها فأسرعت تقول وصوتها ينم عن غضب عارم: "ليس لديك الرغبة فى أن تأتى لسماع محاضرة لذلك الشخص السيئ السمعة الذى حضر إلى كونكورد"! أخذ فنجان الشاى يهتز فى يدى وأخذت ملامح وجه زوجة عمى تتغير حيث أضيقت عيناها، وضعت أصبعى على شفتى - كإشارة اتفقت عليها مع زوجتى لكى تتحكم فى أعصابها - حيث إن "مارميه" كانت قد انفجرت فى موقف ما من قبل وبعدها شعرت بذنب شديد، فاتفقت معى على أنه إذا واجهت ذلك الموقف ثانية فلابد أن أساعدها كى تتحكم فى أعصابها فاتفقنا على أن يكون هناك بينى وبينها إشارة معينة كى تفهم منها أنه ينبغى أن تتوقف عما تقوله وتلتزم الصمت، وبرغم أنها فى هذه المرة قد نظرت إلىّ بصورة مباشرة ورأت وفهمت إشارتى إلا أنها تجاهلتها وأكملت تقول لها: "أنت غير قادرة على تقدير الجدل الأخلاقى". كان كلامها يوحى بالعداء الشديد تجاه زوجة عمى وطريقتها فى الحديث بمثابة

هجوم وتحدٍ لرأيها إزاء "جون براون"، إنى لا أتذكر كل ما قالته زوجتى فى ذلك الوقت لأن طبيعتى الخاصة تتجاهل المواقف غير اللائقة ولكنى أتذكر أن زوجتى لم تترك فرصة للطرف الآخر بأن يرد على سلسلة الاتهامات التى واجهتها بها. فى هذه الأوقات تمنيت أن أعيش وسط عواصف رعدية أفضل من أن أتحمل ثورات زوجتى الغاضبة، إن زوجة عمى التى بطبيعتها هادئة للغاية أصبح وجهها قرمزى اللون حيث إنها لم تعتد أن يتحدث إليها أحد بهذه الطريقة المفزعة والغريبة.

أما عمى الذى كانت لديه خبرة بالحياة أكثر منى فى مواجهة تلك المواقف، فقد وضع يده على صدره وانزلقت "جو" من على رجليه ونظرت إليه نظرة قلق ودهشة فقال: "إننى أشعر أنى ليس على ما يرام". ونهض واقفاً، كانت وقفته غير ثابتة. "هل تسمحين لى بالاستئذان؟" كان وجهه رمادى اللون وشعرت بغضب شديد تجاه زوجتى وشعرت أن انفجارها هذا قد يزيد من تعبه ومرضه. مد عمى يده إلىَ يد زوجته التى ترتعش من شدة الغضب وقال لها: "هل تسمحين لى يا عزيزتى، أنا أحتاج مساعدتك". أعطت زوجة عمى ذراعها ليستند إليها رغم أنها كانت لا تريد أن تنسحب من هذه المناقشة الحادة، ذلك لأن انسحابها هذا كان عكس طبيعتها فهى من الشخصيات القوية التى لا تنسحب بسهولة من أية مناقشة ولكنها قامت بمساعدة عمى فى ترك الغرفة وسارا معاً بخطوات

غير ثابتة تاركين الغرفة حيث كان عمى غير قادر على الحركة والمشى كثيراً. ولم أنتظر أية خطوة آخرى من زوجتى فوضعت يدى على خصر زوجتى وسحبتها بعيداً عن هذا المكان وأنا أفكر أن المشى فى الخارج قليلاً قد يهدئها تماماً معتقداً أن جو الشتاء الخارجى قد يريح أعصابها، ولكن يبدو أنه كان لابد أن نمشى ذهاباً وإياباً إلى بوسطن حتى تستطيع زوجتى أن تهدأ وتسترد هدوء أعصابها.

وفى النهاية هدأت زوجتى وذهبنا معاً إلى قاعة المدينة لنستمع إلى هذا المتحدث المفرق فى الآراء بين الناس، كان هناك أكثر من مائة مواطن مجتمعين، ومما لاشك فيه أنهم جميعاً مهتمون بهذا الشخص مثلى أنا وزوجتى فى أن يروا ذلك الذى كثيراً ما قرأنا عنه. كان ضوء القاعة غير كافٍ وكانت هناك بعض المصابيح المضاءة التى كانت تلقى ظلالاً على وجه "براون"، كانت ملامحه عنيفة بعض الشىء، كان يمشى فى اتجاه المنبر، كان رجلاً يبدو على طبعه أنه ممن ينتمون إلى الجيل القديم وفى اعتقادى أنه يتعمد ترك ذلك الانطباع على كل من يراه؛ حيث إنه كان يرتدى عند وصوله القاعة، قبعة سوداء من الفرو، علمت بعدها أنه كان لا يهتم بمظهره مطلقاً فقد كانت هذه القبعة مصنوعة من الفرو الذى قام صبيانه باصطياده وبناته بحياكتها وأن هذه القبعة نتاج ظروفه المادية الحرجة، كان يلف حول جسمه معطفاً مصنوعاً من الصوف العسكرى، الذى يصنعون منه ملابس الضباط

والعساكر، يظهر كتفين مربعتين وذراعين قويتين نتيجة عـمل دام سـنـوات فى زراعـة الأرض وأعـمـال أخـرى تحـتـاج لجـهـد بـدنى كـان ضـروريـاً أن يـحـقق ذاته وأن يحقق قيمة لعشيرته داخل طبيعة وجو قرية مثل قرية أدبروندداكس، التى كانت تتميز بطبيعتها القاسية.

يبدو أنه يقترب من الخمسينيات، لكن كانت لديه طاقة الشباب، أنفه كبيرة ومدببة مثل منقار الطير. عـيـنـاه مـثل عـيـنى الـنـسـر وشـعـره فـضـى يـظـهـر عـلى الجانبين مصففًا راجعًا إلى الخلف ومن نقطة صغيرة على حاجب عريض تبدو عليه خطوط واضحة.

كان "براون" يعرف جمهوره معرفة جيدة وقد بدأ خطابه بالحديث عن تاريخ هذه المدينة، فهو يشعر دائماً بالفخر عندما يتحدث عنها، وقد تحدث عن العدالة الرائعة التى تمت هنا عام ١٧٧٦ لم يتحدث فقط عن تلك العدالة بل عن النتيجة المحتومة التى وصلت إليها هذه المدينة وقد استمر جدله فى خطوات سهلة ليؤكد أن الحرب ضد العبودية لابد منها وأنها ستكون النهاية المحتومة لتلك القضية. وأخـذ يـقـول: "دعـونى أقـول لـكم إن أهـم وثـيـقـتـين مقدستين لبنى البشر هما الكتاب المقدس وإعلان الاستقلال. إنه من الأفضل أن يلقى حتفه جيل بأكمله من الرجال والسيدات والأطفال بموت عنيف وقاس أفضل من انـتـهـاك كـلـمـة واحـدة من كلام هـاتـين الـوثـيـقـتـين الـمـقـدسـتـين فى هـذا الـبـلـد". وقـد صـاح الحضور فى تهليل شديد، ولكننى لم أشعر بأى نوع

من السعادة أو التهليل تجاه حديثه؛ حيث إننى لست مستعداً لأن أضحى بجيل كامل من النساء والأطفال، نظرت إلى زوجتى فوجدت فى عينيها نظرة توحى بالاتفاق على ما يقوله رغم أنى تخيلت أنها ستكون غير راضية على ما يقوله. فها هو مثلها تماماً فى الأفكار، والطباع؛ يؤمن بمثل مبادئها ومفاهيمها.

رفع صوته بحدة قائلاً" إنه لا يشك لحظة فى أنه لكى تنتهى العبودية لابد وأن نتقبل ليس فقط فكرة الموت العنيف، لكن القتل العنيف أيضاً وعندها جرى الدم سريعاً فى وجهى، إننى دائماً لا أثق فى هؤلاء الذين يتخذون قرارات سريعة ويبنون أفكاراً ومفاهيم تعتمد على الحقائق المطلقة وليس بها جدل أو مصدر للشك.

لا أعتقد أنى كنت أشعر بالغيرة من "براون" حيث كنت أجد نظرة الموافقة فى عينى زوجتى الجميلة وبرغم هذا لم أشعر بالارتياح عندما تركنا القاعة بعد سماع المحاضرة حيث تمت دعوتنا لحضور حفل استقبال على شرف مستر "براون" عن طريق مدرس بناتى بالمدرسة مستر "سان بورن". إن عائلتى "الأمرسون" و"الثورو" كانا سيحضران ذلك الحفل، هذا ما أكده مستر "سان بورن"، وافقت "مارميه" دون أن تنتظر حتى أى رد بالموافقة منى وعندها شعرت بالكآبة تخترق أعماقى تتسلل داخلى مثل الضباب الندى.

وصلنا إلى منزل "سان بورن" قبل آن يصل مستر "براون" وعندماً وصل كان يبدو غير مرتاح لتلك الدعوة. ففى ظنى أنه غير معتاد على الأماكن المغلقة ذات الفرش الأنيق وقد عرّفه "سان بورن" بالمدعوين الذين لم يكن قد قابلهم من قبل، حتى وصل إلينا ولاحظت أن خيوط أكمام معطفه منسلة -وعندما مددت يدى لتحيته كانت يداه جافتين وأظافره غير نظيفة من الداخل.

أخذت زوجتى "مارميه" تتحدث معه بطلاقة وحيوية شديدة وتناقشه حول مشروعه القادم الخاص بالعبيد، الذى سيشترك معه ممول غنى سيتبرع بجزء كبير من المال لنجاح هذا المشروع؛ حيث ينوى مستر "براون" أن يجعل من العبيد السود ملاكاً للأراضى الزراعية ومشاركين فى الأمور السياسية الخاصة بالبلد، أى لابد وأن يكون لهم صوت ودور فعال فى المجتمع، وقدم قام "براون" وأتباعه بالتأكد من أن الأراضى التى سيملكونها للسود ليست تحت حوزة ملاك من الجنس الأبيض حتى لا يقوموا من هم من الجنس الأبيض بادعاءات كاذبة فيما بعد.

كان "براون" يتحدث إليها بلطف شديد مجيباً عن كل أسئلتها، لكن حديثه ازداد حماساً وإثارة عندما سألته إذا كان هذا المشروع سيكون بمثابة مساعدة لهم للفرار إلى كندا؛ حيث إن الحدود بيننا وبين كندا ليست بعيدة وحيث إنه يجب على مجتمع أسود أن

يعرض فرصًا أفضل لهؤلاء العبيد السود ليختبئوا بداخله ولا يشعر من هم خارج الحدود بهم.

قد اخترقت أعين "براون" زوجتى عندما حكى لها عن محاولة للفرار لاثنين من العبيد، وكان هناك من يحاول اصطيادهم فاضطرا أن يطلقا عليه النيران، قال هذا محدثاً زوجتى بقليل من البرود فأخذت شفتا زوجتى تبتعدان عن بعضهما البعض حيث نطق بجملته الأخيرة، وبدت على وجهها ملامح غريبة، فلقد لمس "براون" الجزء الداخلى لزوجتى الذى كثيراً ما أردت أن أقضى عليه وأخفيه تماماً، هذا الجزء الذى يعبر عن طبيعة غجرية لا تتقيد بأصول أو قوانين محددة.

لقد حيته زوجتى على ما يقوم به من أعمال متمنية له المزيد من النجاح فى المستقبل "إنى بوسعى القيام بمزيد من الأعمال إذا أتيحت لى الوسائل ولكنى محاصر دائماً بالديون والقضايا".

لقد سمعت شيئاً عن تاريخ عمل "براون"، كان سيئ الحظ فى بعض المحاولات الجيدة، التى كان يحاول من خلالها أن يبيع الصوف الأمريكى للطواحين الإنجليزية، ولكنى لم أعلم أن عليه الكثير من الديون التى لابد وأن يسددها، ولم أعلم أيضاً بتلك المشكلات القانونية التى تحيطه من كل الجوانب. وقد التفتت إلىّ زوجتى ورأيت السؤال فى عينيها فقد رأيت هذه النظرة من قبل عندما تلقيها على بناتى فيشعرن بالقلق والارتباك وشعرت فى تلك اللحظة بأنى طفل

أريد أن أرضيها فقط، أدركت فى لحظتها أنى أشعر بالغيرة من "براون" حيث كانت تراه بطلاً من أبطال الأساطير، تمنيت أن ترانى كذلك ولكننى لا أملك مثل هذه القدرات بأن أقوم بمحاولات فرار كتلك التى حكى عنها وأطلق النيران على من يحاول الإمساك بأى من العبيد وحتى فى عظاتى، فإن أفضل عظة يمكن أن يكون بها من الحماس لا تقارن بعظات "براون" التى تشعر بها وكأنها ملطخة بدماء الأبطال والشهداء.

ولكن إذا كنت لا أستطيع أن أحوز إعجاب زوجتى فلابد أن يكون لدى الوسائل للحصول على هذا الإعجاب والتقدير، لقد قمت أخيراً بتجريد نفسى من كل الأرباح الصناعية؛ حيث إن العمل فى المصنع آخذ فى التدهور وكان ذلك واضحاً لى فقد وصلت إلى أننى لا أستطيع أن أكسب أو أربح شيئاً من ذلك العمل الشاق فى المصنع بعدما استطعت أن أفهم أن عائد استثماراتى سيتأثر بحالة المصنع المتدهورة ولهذا قمت ببيع نصيبى فى المصنع عند أول فرصة سنحت لى، وكان عندى ما يكفينى من رأس المال فى انتظار أن أستثمره جيداً.

برغم أننى لم أخبر أحداً عن هذا المال حيث كان دائماً يجول بخاطرى أن أقوم يوماً ما بتأسيس مجتمع يكون مثل جنة الله على الأرض حيث يكون بناتى قد كبرن، ويكون هذا المكان مناسباً لهن تماماً، يجتمع فيه طبقة العلماء والمثقفون ويعيشون مع الطبيعة دون

استغلالها، ولكن هذا حلم المستقبل ولهذا ينبغى آلا يعوق استخدام القليل منه فى الوقت الحالى.

"إذا كان لديك بعض الوقت غداً لزيارتى مستر "براون" فستكون هناك فرصة لمناقشة ذلك أكثر" ابتسمت "مارميه" عندما سمعت هذا، وكانت ابتسامتها تستحق التضحية بأى جزء من المبلغ يطلبه منى "براون".

لقد حضر "براون" فى صباح اليوم التالى وكان شخصاً مختلفاً غير الذى رأيناه بالأمس وهو يحاضر المئات من المواطنين. إن "براون" وهو يحمل الدفتر الخاص بجمع التبرعات يختلف اختلافاً كاملاً وغريباً عن "براون" الذى يحمل السيف. كان يبدو عليه التواضع وغاية الحرج من هذه الزيارة التى وجد نفسه مضطراً للقيام بها، حاولت أن أجعله على سجيته، فهو يبحث عن الثروة لأسباب كثيرة وكبيرة، للقيام بدعم عائلته الكبيرة وخوض صراع صعب ضد العبودية. وعدم امتلاكه ثروة طائلة من المال فى ظنى هو نتيجة لسوء حظه وقد رأيت فى عينيه تاريخاً حافلاً بالكفاح المرير والشاق والمجهودات الضائعة، فقد عمل جيداً وكافح ولكنه فشل، لم أستطع لومه على فشله فهو لم يأت إلىّ طالباً التبرع للأعمال الخيرية أو طالباً الإحسان، لكنه أتى إلىّ طالباً جزءاً من المال لاستثماره فى شراء أرض لتكون أيضاً استثماراً فيما يمكن أن نطلق عليه الحرية الإنسانية. كانت لديه خطة جديدة إذا نجحت ستريحه كثيراً من أعبائه ومن ديونه

وستموله للقيام بمشروع خاص لتوسيع السكة الحديد ومترو الأنفاق. لقد أسرتنى رؤيته وخطته التى تخدم بلده من حيث الاهتمام بالأراضى الزراعية وتخدم الأفراد الذين هم فى حاجة إلى الحرية والتحرر من العبودية.

إن العمل الذى سيمول هذا المشروع كان يبدو جيداً ومعرفة "براون" بالأراضى والزراعية والماشية كانت معرفة جيدة، أحضر معه خرائطه وأخذ يشرح ويوضح لى بعض الأراضى الموجودة بولاية أوهايو والتى قفز سعر القيراط فيها من ١١ دولارًا إلى ٧٠٠ دولار. إن الأرض التى يريد شراءها قد ارتفعت فى سعرها أيضاً وأشار بأنه إذا كان خاطئًا فى حساباته وأن المكسب لن يكون ضخماً كما حسبه؛ فإن رأسمالى سيكون مضموناً فى الأرض ذاتها، وعندما علم بموافقتى على هذا المشروع، فقد تغير حاله تماماً وأصبح أكثر رقة ونعومة حيث إنه شعر براحة نفسية شديدة لعلمه أن هناك شخصاً يريد أن يساعده مادياً لتحقيق أهدافه. ومن سعادته مد يده إلىّ ليحيينى وكانت تحيته حماسية ويده قوية. أخذت أدق الجرس لزوجتى "مارميه" لتحضر لنا الشاى فجاءت لتقدم لنا الشاى. كانت لحظة رائعة وموفقة حيث إنها دخلت الحجرة فى الوقت الذى كان "براون" يقول فيه: "لابد أن تعلم مستر "مارتش" أن رجلاً واحداً مثلك طيب القلب ذا عقل راجح وفكر مستنير يساوى عشرين ألف رجل من الشخصيات الضعيفة". وأردت أنا أن

أضيف بعض الإضافات التى قد تسعد زوجتى فأخذت أقول: "إن التقدير ليس لى مستر "براون". فالشاعر الألمانى "هاين" يقول: "نحن لا نمتلك الأفكار وإنما الأفكار هى التى تمتلكنا وتقودنا إلى المسرح لنحارب مثل المقاتلين البواسل سواء كسبنا المعركة أم خسرناها". تأثر "براون" بهذا الكلام الطنان فكان من الواضح أن "براون" لا يعلم شيئاً عن الشعراء الألمان حيث لا يسعه الوقت لقراءة الذين وصفت قصائدهم كثيراً رجالاً تتطابق سماتهم مع شخصيته إلى حد بعيد. أنه ليس لديه الوقت الكافى للقراءة على الإطلاق فيما عدا قراءة الكتاب المقدس، الذى يحفظه عن ظهر قلب والذى كما لاحظت من خلال معرفتى به وحديثى معه أنه يعتمد عليه كمرشد عسكرى وليس كمرشد روحانى.

لمدة عام سمحت لنفسى أن يكون لى دور فى حياته المادية وتلبية احتياجاته المادية التى كانت لا تنتهى، ولكننى كنت دائماً أوافقه على أى شىء يقوله أو يطلبه، وكنت حتى أوافق على ما تقوله لى زوجتى التى كان دائماً رأيها هو صدى رأى "براون".

إن المبلغ المبدئى الذى قد طلبه منى كان مبلغاً ضخماً وفى الشهور اللاحقة أخذ يكتب لى طالباً المزيد من المال لسد احتياجات المشروع، فإن البلدة التى ستقام على أرضنا تحتاج إلى فندق، وتحتاج إلى مستودع ومخزن وتم بناء هذه المبانى، وكانت تبدو ضخمة وسط الأرض الزراعية الخالية ولكن البلدة

نفسها والقناة المزعومة التى قال إنه سوف يتم حفرها كانت مجرد أحلام وبطريقة ما كانت بداخلى شكوك تجاه "براون" وكان دائماً يساورنى القلق بشأن المال الذى كنت أعطيه إياه بينما يؤكد هو لى أن المزيد من الاستثمار سيضمن لنا عائدًا ضخماً، كنت أفكر جيداً فى كل عرض، وكنت رغم شكوكى تجاهه أوافق على ما يطلبه من مال حيث إنى كنت قد وصلت معه إلى نقطة اللاعودة.

إن الشىء الذى كنت لا أعلمه حتى فى وقت متأخر هو أننى لم أكن الشخص الوحيد، الذى كان يقوم بتمويله فقد كان هناك آخرون يقومون بتمويله حيث أخذ ينفق كل هذا المال فيما يسمى بالتسليح أو الجيش السرى الذى لم يكن هدفه تحرير العبيد ومساعدتهم على الفرار إلى الخارج، وإنما كانت أهم أهدافه القيام بعملية عصيان مسلح وانقلاب عسكرى.

لا أعتقد أنه كان يرى نفسه مخادعاً يخدع هؤلاء الذين يريدون مساعدته بالتبرع بجزء من أموالهم، كان يؤمن بشدة -بل أخذ يقنع نفسه -بأنه سيحقق أرباحاً طائلة تغطى كل ما أنفقه، عندما حفرت القناة فى مكان آخر وتم بيع الأرض كان ذلك بمثابة نهاية لكل أموالى، أخذت آخر جزء من المال المتبقى معى لأسدد ديونه لهؤلاء الذين كان مديوناً لهم بكثير من المال لقد أردت أن أسدد ديونه حتى لا أراه فى السجن خاسراً قضيته. "ولكن هل هذا معناه أن نخسر كل

رأس مالنا؟" سألت "مارميه" هذا السؤال فى اليوم الذى أخبرتها فيه بخسارتنا المادية الفادحة وبحالة وضعنا المالى الميئوس منها. كانت تقف بجانب نافذة الردهة مستديرة فى نصف استدارة وهى تضع يدها على بطنها المنتفخة؛ حيث إنها كانت حاملاً فى طفلتنا الرابعة عندما وصلتنى أخبار انهيار رأس مالى وثروتى التى كافحت سنين طويلة من أجل تكوينها. مشيت تجاهها وقبلتها وأمسكت يدها، لم أستطع أن أقول لها أننى فعلت كل هذا من أجل إرضائها فذلك سيكون قاسياً عليها أن تسمعه وعلى أية حال لم يكن هذا صحيحًا تماماً حيث إنه لو كان "براون" قد استغلها فهو قد استغلنى أيضاً، أخذت أقول لها: "إنه يعطى نفسه كاملة" وضعت رأسى بجانب وجهها وهمست فى أذنها قائلاً: "إنه يخاطر بحياته بينما أخاطر أنا بمالى فقط". وقفنا فى صمت فترة من الوقت وشعرت بعد ذلك بجسمها يرتعد، كنت أعلم أنها تبكى فقلت: "إن الغربان تطعم الأنبياء". فأدارت وجهها وابتسمت ابتسامة خفيفة قائلة: "أحقاً يفعلون؟ أتمنى إذاً أن يشير إلى ذلك أحد على الطريق إلى كونكورد".

مسحت دموعها بقبلاتى ولم نتحدث فى هذا الموضوع ثانية.

ما الذى يحتاجه المرء مادياً؟ الخبز والمأوى وقليل من الثياب كانت لدينا الثياب حتى أننا قمنا ببيع الزائد منها من القطن والحرير والصوف. فالإنسان يمكنه ارتداء معطفين فقط. وكنت سعيداً عندما

تخليت عن جزء كبير من ثيابى باهظة الثمن وأبقيت فقط الملابس البسيطة والمتواضعة وبفضل معلوماتى عن الزراعة تمكنت من إيجاد عمل بها وبهذا لا يكون هناك أية مشكلة فى مسألة توفير لقمة العيش، أما بالنسبة للمأوى فكان لدينا منزلنا الكبير ولكننا كنا مضطرين للاستغناء عن بعض الخدم حيث إننا لا نستطيع أن نوفر رواتبهم، وبناء عليه كانت هناك بعض التغييرات فيما عدا "هنا" الخادمة المخلصة التى رفضت أن تتركنا وأصرت على البقاء معنا بصرف النظر عن ضآلة الراتب التى كانت سوف تتقاضاه مقابل عملها معنا. قمنا أيضاً ببيع الخيول والعربة وفضلنا أن تكون معظم تحركاتنا مشياً على الأقدام أو مستخدمين العربات العامة للتنقل من مكان إلى آخر. قمنا ببيع أيضاً مائدة السفرة المصنوعة من خشب الدردار واستبدلناها بقطعة بسيطة قمت بتصميمها بنفسى وكذلك الأرائك الفرنسية نقلناها إلى البيوت الحديثة وكذلك أطقم الفضيات وأطباق البورسلين.

ولكن كل خسارة كانت تعوض بعبقرية "مارميه" وعملها الدءوب، فكلما قمنا ببيع لوحة فنية جميلة محببة إلى قلوبنا كانت "مارميه" تغطى مكانها الفارغ بفروع صفراء من شجر القيقب أو فروع من نبات "حريمه الجدى" ذات اللون الوردى، وقد استبدلنا طقم الأنتريه الذى كان من الحرير وقامت "مارميه" بعمل خدديات مطرزة بألوان جميلة لنضعها على الكراسى

البسيطة التى حلت محل ذلك الطقم ومن ثم فقد تم إنقاذنا من الكآبة الموحشة بفضل فن وتدبير زوجتى للأمور والأشياء، كانت حريصة على ألا تجعلنى أرى شعورها بالأسف الشديد تجاه ما حدث، كانت تقضى معظم الوقت فى الغناء أكثر مما كانت تفعل فى الماضى، وكان لديها الوقت لتلعب مع بناتنا وكان صوت ضحكاتهن جميلاً مع صراخ طفلتنا الرابعة "آنى" التى حضرت إلى عالمنا فى يوم من أيام الصيف الحارة.

لقد التزمنا الصمت فيما يخص ظروفنا المالية وهذا بسبب تحفظنا وأيضاً بسبب حماسنا تجاه "براون" الذى لم نشأ أن نعرضه إلى أية فضيحة عامة ولكن أصدقاءنا كانوا يلاحظون وصول العربات لنقل أثاثنا ومتعلقاتنا إلى أماكن أخرى وبرغم ماكنا نقتصده ونوفره من مال فإننى كنت متأخراً فى سداد ديونى، كنت موضوع حديث التجار فى الحانات وفى النهاية علمت كونكورد بحالتنا المالية المؤسفة ولكن كان هناك دائماً الأصدقاء المخلصون مثل عائلتى "الأمرسون" و"الثورو" فقد قاموا بمساعدتنا بمهارة ولباقة فائقة، كانا يدعوننا لنتناول العشاء معهم فى منزلهم وكانا يرسلان إلينا سلال من الطعام.

وقد كنت أكتب كل هذه الأحداث التى ألمت بنا أعتبرها ظلماً من الحياة، فإن الرجل الذى كان يوماً ما يتمتع بغناه وبماله أصبح فقيراً جداً أكثر من الشخص الذى كان يعانى من الفقر طوال حياته.

يأتى إلىّ أصحاب الديون وهم فى شدة الأسف والخجل من الموقف ليطالبوا بسداد القليل من مستحقاتهم المالية، كانوا يأتون إلىّ وكنت أقدم لهم الشاى والحديث الودى المهذب وحتى عندما كنت أجاوبهم قائلاً "ليس معى شىء على الإطلاق"، لم يتوقفوا عن التعامل معى باحترام شديد وتقدير لموقفى المادى الحرج.

لابد وأن يتعجب القارئ أننى لم أبدأ من جديد فى تكوين ثروة ثانية، فلابد أن تكون هناك بذرة لكى تكون هناك ثروة، وأنا لم أعد شاباً يمشى على قدميه حتى يصل إلى طرق فرجينيا الفرعية لكى يكسب بيضة واحدة.

ما كنت أحصل عليه مما كتب أو من عظاتى كان يتم صرفه قبل أن أحصل عليه كنت أصرفه فى سداد جزء من الديون وكذلك فى مساعدة الفقراء الذين كانوا يعانون من فقر أشد وطأة من الفقر الذى كنا نعانى منه أنا وأسرتى.

هذا بالإضافة إلى أننى بدأت أؤمن على مراحل كيف ينبغى أن يكون المرء فى هذه الحياة، حيث بدأت أدرك الآن أن واجب الإنسان يتمثل فى الاستغناء عن معظم الأشياء التى اعتاد أن يستهلكها بشدة فعلى سبيل المثال لو قضيت ساعات أطول فى استهلاك زيت يكلف الكثير فى استخراجه فبهذا أكون قد أهدرت دون فائدة حياة حيوان يتم ذبحه للقيام بهذا الغرض، وأيضاً أكون قد أهدرت وقتى مستيقظاً فى

حين أن صفاء الذهن يأتى من آخذ قسط كافٍ من النوم وهكذا الحال بالنسبة للأشياء التى نستهلكها عن طريق الأكل أو الشرب، فإن استهلاكى لشرب القهوة قد يفسد جسدى بالكامل فى حين أنه يمكن أن أغسل جسدى بشرب المياه الذى لا يكلف شيئاً.

لا أحد فى منزلنا يأكل اللحم ولكن الآن استغنينا أيضاً عن اللبن والجبن كى لا يحرم العجل من لبن أمه، وجدنا أنه بوضع حدود لاستهلاكنا الشخصى للمأكل والمشرب - حيث إننا كنا نكتفى بوجبتين فى اليوم - تستطيع سلة كاملة من الطعام أن توفره لنا، كانت بناتى تجدن متعة فى إعطاء هذه السلة لمجموعة من المهاجرين الألمان الذين كانوا يعانون من الفقر والجوع وكانت بناتى يجدن فى هذا العمل الكثير من السعادة والمتعة أكثر من متعة الأكل أو إشباع غريزة الجوع.

إن زوجة عمى بدلاً من أن تكون كريمة ومتفهمة لما أصابنا من كارثة حقيقية قامت بعرض مساعدة كانت تعلم جيداً أن هذه المساعدة لن تنال الإعجاب أو الترحيب. أما عمى فقد توفى معتقداً أنى أعيش حياة رغدة ومرفهة كما كنت وبالتالى لم يترك لنا ولو حتى جزء بسيط من المال يوفر لنا المأكل والمشرب على الأقل، لقد ترك بعض المال لبعض الأقارب فى سبيندل هيل وترك باقى ممتلكاته وأمواله لزوجته ذات اليدين المزينتين بالمجوهرات والتى تنعم وتعيش فى ثراء فاحش حتى قبل أن يترك لها ماله وممتلكاته.

عندما علمت بتدهور حالتى المادية حضرت إلى بيتنا دون سابق إعلان ودون أن ندعوها، وبدأت تسرد علىّ سلسلة من الإهانات التى لا يمكن أن يتخيلها أحد ولم تلحظ أن "مج" و"جو" كبرى بناتى كانتا حاضرتين فى غرفة المعيشة (ابنتى "بث" كانت تهرب إلى حجرتها عندما يأتى زائرون إلى بيتنا وطفلتنا الرضيعة "آنى" كانت نائمة فى ذلك الوقت). رأيت لون وجه "مارميه" يتغير ووضعت إصبعى على فمى - تلك الإشارة التى اتفقنا عليها حتى تتحكم زوجتى فى أعصابها - ورأيتها تومئ لى برأسها وبات الصراع على وجهها واضحاً وهى تحاول بشدة أن تتحكم فى نفسها.

بدأت زوجة عمى تتحدث عن الموضوع الذى جاءت من أجله ثم أخذت تلوح بيدها وتشاور إلى ابنتنا الكبرى "مج" قائلة: "أنا مستعدة أن آخذ "مج"، أعلنت هذا بوضوح شديد وهى تتنهد بصورة مبالغ فيها كإشارة على أنها ستقوم بذلك وهى مضطرة لمساعدتنا وأكملت قائلة: "سوف أتبناها وبهذا أكون قد خففت عنكم مسئولية وعبء فم عليكم إطعامه".

نظرت إلىّ زوجتى فوجدت تأثير هذا الكلام واضحاً جداً عليها ولن تجدى أية إشارة منى الآن لها فى أن تستمر فى تمالك أعصابها. أخذت يدى ترتفع حتى وصلت إلى شفتى كما يرفع رجل ذراعه ليزيح حملاً وقع على رأسه.

صاحت زوجتى قائلة: "عبء؟"، كيف تجروئين وتقولين إن ابنتى الحبيبة عبء؟" نهضت زوجتى من كرسيها فى سرعة شديدة وهى تقول هذا ومشت متوجهة إليها وكأنها سوف تلقنها درساً على ما قالته وينبغى القول بأن هذا الكلام قد ضايقنى أيضاً بشدة لكن لا أستطيع أن أترك زوجتى تتصرف بهذه الطريقة تجاه سيدة مسنة من الأقارب التى مهما فعلت أو مهما كان سلوكها فينبغى أن تحترم وبالتأكيد لن أسمح بمثل هذا السلوك أمام بناتى الصغيرات.

"بنات اذهبن بالخارج الآن والعبن" قلت هذا بصوت خافت ولكنه حازم كانت "مج" ترتعش من شدة الخوف وتركت الحجرة مسرعة أما "جو" فنهضت ببطء وكان حاجباها منخفضين إلى أسفل فوق عينيها الغامقتين ذات اللون البنى اللتين تلمعان ولكن ليس بالدموع وإنما بالغضب، كانت تنظر بحدة إلى زوجة عمى، كانت "جو" صورة طبق الأصل لوالدتها وإن جاز التعبير كانت وكأنها انعكاس لصورة والدتها فى المرآة، كان الغضب واضحاً على وجهها تماماً مثل الغضب الذى كان على وجه "مارميه"، كان وجه "جو" فى تلك اللحظة به ملامح وحشية تماماً مثل الملامح التى كانت على وجه والدتها.

إن آخر شىء كنت أريده هو أن ترى "جو" والدتها تسلك هذا السلوك أو أن ترانى الآن أقوم بالرد على تلك الإهانة الموجهة لنا. ولأول مرة أردت أن أؤكد وجودى فتحركت سريعاً تجاه زوجتى ووضعت ذراعى

حولها كما لو كانت واحدة من البنات فى موقف طفولى ولكنها لم تكن طفلة صغيرة بل امرأة، وامرأة قوية جداً، قامت بإزاحة ذراعى ووجهها به غضب شديد وبدأت فى دفعى بشدة عنها، وحقاً اعتقدت أنها سوف تضربنى وأخذت أضيق قبضة ذراعى اليمنى حولها ووضعت يدى اليسرى حول فمها مستخدماً أقصى قوة عندى ودفعتها تجاه الباب إلى الخارج وعندما تركتها تندفع نحو الباب التفتت لتواجهنى فرأيت فى رعب شديد وفزع آثار ضغط يدى على وجهها حيث تركت علامة حمراء على خدها.

وعندما حاولت أن تدفع بنفسها داخل الحجرة مرة ثانية لم يكن أمامى خيار سوى أن أغلق الباب بشدة فى وجهها الغاضب، أخذت تدق على الباب بقوة بقبضة يدها وهى فى حالة من الثورة والغضب. "اذهبى إلى الحديقة من فضلك يا عزيزتى وحاولى أن تتمالكى أعصابك" قلت لها محاولاً أن أكون هادئاً على قدر استطاعتى "سوف ألحق بك مباشرة".

جاوبتنى بغضب "لا تتعب نفسك"، سمعت خطواتها وسمعت صوت "هنا" الخادمة وهو يحدثها بهدوء ولطف فعرفت أنها فى أيدى أمينة، كانت لـ "هنا" خبرة طويلة فى إدارة تلك العصبية بحكمة شديدة.

وعندما استدرت لأواجه عينى زوجة عمى رأيت نظرة انتصار انتقامية، إن الإهانة التى أشعر بها فى

داخلى لحاجة زوجة عمى إلى اللباقة تحولت إلى غضب وثورة بداخلى فأخذت أقول لها: "إننا لا نتنازل عن بناتنا مقابل المال، سواء كنا نعيش حياة رغدة أو نحيا حياة فقيرة فسنعمل على بقاء هذه الأسرة فى تماسك وترابط وسنجد السعادة فى الحب الحقيقى الذى لن يعرفه البعض ولا يستطيع مال العالم أن يشتريه".

كانت شفتى زوجة عمى عاجزة عن الكلام فوقفت ومرت بجانبى وهى تجعل العصا الفضية التى كانت تمسك بها تدق على الأرض بثقل حيث لم يكن هناك سجاد يغطى الأرض بعد أن قمنا ببيع السجاد التركى، ووقفت عند الباب (ثم) استدارت لتقول "الحب؟ لِمَنْ لتلك المرأة ذات لسان الأفعى؟ أتمنى أن تسعد بها". لم أكن من النوع- كما قلت من قبل- الذى من يسهل استفزازه أو إثارة غضبه ولكن بعد هذا الحديث وجدت نفسى أبحث عن زجاجة النبيذ الفريد الذى أقدمه لضيوفى ولكن الشيفونيرة التى توضع بداخلها زجاجات النبيذ كانت قد تم بيعه فاستدعيت "هنا" لتخبرنى عن مكان المصفق الجديد.

"المصفق"؟ ضحكت "هنا" وأكملت "لقد قمنا ببيعه منذ أسبوعين". أعطتنى زجاجة بها القليل من سائل ما". أحسست بعدها ببعض القوة فذهبت لأبحث عن "مارميه".

وجدتها فى الحديقة واقفة على أرض مغطاة بالطمى تدمر آخر زوج من البوت الجميل الذى تقتنيه

ورأيت أنها مازالت غاضبة وأن العاصفة لم تهدأ بعد، لقد تعلمت قياس جهاز الأرصاد الخاص "بمارميه" وضغط الهواء الذى يتكون كسحابة سوداء والذى يزيح توهج طبيعتها الجميلة، وكان هناك أيضاً الرعد المزعج الناتج عن غضبها وأخيراً المطر الوحشى الثقيل الذى يأتى مريحاً بعد كل هذا -والذى يتمثل فى الدموع التى تنهمر من عينيها مثل شلالات المياه مصحوبة بوعود بالتغيير، ولكن الآن التغيير المظلم الذى على وجهها يدل على أننا فى مرحلة الرعد وعندما اقتربت منها أكدت لى ذلك برفع صوتها إلى أعلى قائلة:

"أنت تخنقنى! أنت تقهرنى! أنت تلقى عظات عن الحرية وأنت تستعبدنى بأدق الطرق. أليس لدى الحق فى التعبير عن رأيى، فى بيتى؟ فى وجه تلك الإهانة؟ أنت تسمى بناتنا "نساءك الصغيرات" إذاً فأنا أقل شأناً منهن يبدو أننى أصغرهن ولكنى سئمت من هذا وقد تعبت كثيراً، تعبت من قمع مشاعرى الحقيقية، تعبت من تدريس قلبى النظام كما لو كنت تلميذة وأنت مدير المدرسة، لن أسمح بأن أهان بهذه الطريقة".

"أنت السبب". قلت لها محاولاً أن أجعل صوتى عادياً رغم أن النبض كان يدق فى رأسى وليس قلبى، "أنت التى تهينين نفسك عندما لا تتمالكين أعصابك".

وعندما وقفت عن الحديث أخذت هى قطعة من الطمى وقذفتها نحوى، تذوقت القذارة ولم أتحرك لأمسح وجهى بل مكثت واقفاً والطمى يتساقط من

وجناتى وأدرت كفى نحوها كما لو كنت أتحدث إليها ثم مددت يدى، وأخذت فرعاً من شجرة وأعطيتها إياه قائلاً لها: "استمرى".

أخذت من يدى الفرع بقوة حتى أحدث صوتاً مثل صوت السياط ولكن فى الهواء، شعرت بلسعة لمست خدى ثم انفجر السحاب وجاءت الأمطار، جرت نحوى والدموع تتساقط من عينيها ولمست خدى الذى كان ينزف، أخذت أصابعها المغطاة بالطمى بين يدى وقبلتهما وكنت مضطراً إلى أن أستدير جانباً لأبصق قطعة من الطين لصقت بفمى، ضحكنا وقبلنا بعضنا وكما يحدث دائماً فإن حماس غضبها يتحول إلى حرارة مرحبة ملتهبة فيما بعد حيث إننا كنا مضطرين لأن نعود إلى المنزل بصورة هادئة حتى لا ترانا "هنا" والبنات ولا يلاحظون الحالة الفوضوية التى كنا عليها.

منذ ذلك اليوم، بدأ صراعها تجاه تمالك أعصابها يأخذ مساراً أكثر جدية.

يبدو أننى ضربت واحدة من بناتى". قالت هذا ذات يوم وهى متضايقة أن صراعها تجاه تلك القضية لم ينته فى شهر أو حتى فى عام وربما لا يكون قد انتهى بعد تماماً، ولكن منذ ذلك اليوم لم تعد العواصف تهددنا مرة ثانية.

محاولة التصالح مع زوجة عمى لم تتم فى أسبوع، وأيضاً وجدت أنه ليس لائقاً أن أكون على غير وفاق مع أحد أقاربى فى بلدة صغيرة مثل بلدتنا ولكن

زوجة عمى لم تقبل اعتذارها وظلت صامتة ولهذا لم أستطع أن أذهب إليها عندما كان ذلك ضرورياً عندما رهنت البيت الكبير وحتى عندما اضطررت لبيعه.

من حسن الحظ كانت عائلة "الأمرسون" تعرف أن هناك كوخاً بنى اللون صغيرًا، قريبًا من بيتهم معروضًا بإيجار رخيص ولكى أوفر ثمنه قمت بقطع الأخشاب، مقابل دولار فى اليوم الواحد وبتلك الطريقة استطعنا أن نبقى فى كونكورد الولاية المحببة إلى قلبنا، أخذت كل من "مج" و"جو" يبكيان بشدة وبحرارة فى اليوم الذى تركنا فيه المنزل الوحيد الذى يعرفانه ولكن "جو" وبسرعة مذهلة وجدت لنفسها المكان المناسب فى المنزل الصغير الجديد لتمارس هوايتها المفضلة الكتابة وباستخدام المهارات التى تعلمتها وأنا صبى فى سبيندل هيل والتى تقول بأنه يمكن أن نصنع كل شىء من كل ما نمتلكه، قمت ببناء مائدة صغيرة يمكن أن تستخدمها كمكتب لها وطلبت "مارميه" من "مج" أن تساعدها فى تغطية الجدران من الخارج بمجموعة من الورود ومن الداخل بستائر جميلة، وبدأت البنات فى مساعدتنا فى كل ما يحتاجه المنزل الجديد وبدأ إحساسهم بمأساة تركهم لمنزلهم القديم يتغير وأخذ شكلاً جديداً ومنظوراً جديداً ولم نر دموعهم ثانية منذ ذلك اليوم.

بعد فترة، أتت زوجة عمى لتزور أحد جيراننا مستر "جيمس لورانس" وهو رجل صاحب نفوذ ومال وقد صنع ثروته من التجارة فى الهند، كان رجلاً

منعزلاً تماماً ودائم السفر ولم تأت الفرصة لأن نتعرف عليه، ولكن زوجة عمى كانت تعرف زوجته واستمرت على إبقاء معرفة بسيطة معه بعد أن توفيت زوجته وأصبح أرمل وذات يوم وهى تغادر منزله بعد أن قامت بزيارته قابلت بمحض الصدفة ابنتنا "جو" وهى عائدة إلى المنزل وفى يدها كتاب كان عمر "جو" فى ذلك الوقت عشر سنوات، وأصبحت زوجة عمى بعد مرور تلك السنين أكثر ضعفاً وأصبح عرجها يمثل عائقاً لها فى القيام بأعمالها اليومية. وأعتقد أنها كانت وحيدة تماماً فى منزلها الكبير المغطى بالغبار وعلى أية حال فقد عرضت على "جو" وظيفة نظير أجر وهى أن تكون رفيقتها لفترة من النهار كل يوم. وبما أن "مج" كانت قد اشتغلت فى وظيفة مربية لتساعد فى مصاريف المنزل فإن "جو" كانت حريصة أن تجد طريقة تساهم بها فى أعباء المنزل، وبما أن "جو" كانت محبوبة بشدة من قبل جيراننا وعائلات البلدة فلا أحد كان يريد لأولاده مربية أكثر تلقائية وحرية انطلاق منهم، ولهذا السبب قبلت "جو" أن تعمل لدى زوجة عمى والمفاجأة أنه حدث بينهما انسجام وتناغم وكانت "جو" تقوم بإطلاق البهجة والحيوية على أيام العجوز المملة.

وبالإضافة إلى المال، كان من حق "جو" أن تستخدم وبحرية شديدة مكتبة عمى وبينما كانت تخلد زوجة عمى إلى النوم أو تكون مشغولة لوجود ضيوف بالمنزل، كانت "جو" تنتهز الفرصة لتقرأ، فقد أحبت

المكان وهى طفلة وقد صار لها هذا المكان الآن هو الجمال والسعادة بعينها ولو أننى احتفظت بثروتى لكنت قد أحضرت لها أفضل المدرسين فى هذا البلد أو حتى فى الخارج ولكن بدلاً من هذا كانت تتلقى التعليم بنفسها بمساعدتى أنا وزوجتى بتوجيهها وإرشادها . إن حجرة عمى التى كانت مليئة بالكتب، كانت تعد الجامعة التى تتلقى فيها العلم. أما "مج" كنت سأوفر لها رفاهية الحياة التى كانت تراها كل يوم فى بيوت الأثرياء. كانت الأخوات الكبرى للأطفال التى كانت ترعاهم من نفس عمرها، كانت ابنتى ترى فساتين الحفلات والسهرات وإكسسوار الشعر الذى لا يمكن أن تقتنيه، وكانت تستمع دائماً إلى أحاديثهم الجميلة الممتعة عن حفلاتهم الموسيقية التى كانوا يحضرونها ولا تستطيع هى الانضمام إليها، كان كل ذلك تجربة قاسية عليها؛ حيث إنها كانت فى عمر تستطيع فيه أن تفهم وتكّون تطلعات من طفولتها الرغدة التى عاشتها، وتستطيع أن تكّون صورة فى خيالها عن الحياة التى كان من الممكن أن تعيشها.

ولكن هل سيكون ذلك أفضل؟ لا أعتقد. فبدلاً من الكسل والكبرياء والعلم الذى يأتى عن طريق الآخرين تمكنت بناتى من اكتساب الطاقة والعمل والاستقلال. ففى أوقات صعبة مثل هذه الأوقات لا أستطيع القول إن ما يحدث لنا الآن هو سوء حظ.

الفصل السابع

مذابح التعليم

أوك لاندينج ٣٠مارس ١٨٦٢

عزيزتى:

أخيراً بدأ اليوم حلج محصول القطن، إن المنزل الذى يوضع فيه الكتان يشبه كونكورد عندما تمر بها عاصفة جليدية، الخيوط ملتفة بطريقة جميلة وموضوعة على بطانية ناعمة على الأرض، كنت مضطراً فى بعض الأحيان إلى التحدث بطريقة جافة لبعض الصبية الذين كانوا يهربون إلى تلك الحجرة ليلعبوا بالقطن الناعم ووجوههم تلمع ويبدون وكأنهم قطع من الفحم. فبالرغم من أن الأطفال يحبون اللعب بذلك القطن الناعم وخيوطه الملتفة كالدوامة إلا أن الكبار يجدون مشقة كبيرة فى حلج القطن خاصة الذين يقومون بعملية الإشراف؛ حيث يتغلغل غبار القطن داخل أنوفهم ثم إلى الرئتين ولذا كان الرجال يربطون قطعة قماش على وجوههم لكى يستطيعوا القيام بعملهم دون أن يصابوا بأى مرض من جراء ذلك العمل الشاق.

وبما إنه الآن قد انتهى جمع المحصول، فآمل أن يكون مستر "كانينج" قد ارتاح، فقد أثبت فى الفترة الأخيرة ليونة ومرونة فى الاستماع إلى بعض المقترحات والأفكار التى كان من شأنها تخفيف العبء الملقى على أكتاف العمال، لابد وأن أشكرك مقدماً على العمل الذى تقومين به فى تأمين تلك البضائع التى نحن فى حاجة شديدة إليها. إنى مدرك بقوتك على الإقناع وأتطلع كل يوم أن أرى مركباً يحمل ثمار مساعيك، لقد كتبت الآن إلى كل هؤلاء الذين يساعدوننى فى التمسك بعملى ببعض التقدير شارحاً لهم الوضع هنا بالتفصيل.

لقد اخترت "فصلى" الذى سأقوم بالتدريس فيه فى هذه الأثناء سيكون فى ذلك المبنى الذى كان من قبل المنزل الخاص حيث إنه خال الآن، فإحدى العربات الآن تقوم بتوصيل إحدى السيدات إلى المدينة وستبقى هناك لخدمتها، أما العربة الأخرى -كما أشار مستر "كانينج" -قد سرقت من هنا عن طريق هؤلاء الذين قاموا بنهب كل ممتلكات المزرعة من قبل ويبدو أن العربة التى حصلوا عليها قد أوصلتهم بسلام إلى المكان الذى يريدون أن يذهبوا إليه. قمت بتنظيف هذا المكان -الذى سيصبح فصلى -جيداً وقمت بتزيينه مع الأولاد بإحضار بعض الخضرة ونباتات الربيع حتى يصبح شكله جميلاً ولائقاً ليكون فصل مدرسة وقمت بكتابة أبيات الشعر المفضلة لدينا على لوحة من الخشب على باب الفصل، تقول الأبيات:

"سترتفع التلال عالياً وستجف البحار

إذا اختفى مذبح العلم من الأرض"

إن الأطفال والبالغين يبدون اشتياقهم الواضح للعلم والمعرفة فهم يسألوننى كل يوم عن موعد بداية الفصول الدراسية. إنه من الصعب أن يتخيل أحد كيف يمكن لأشخاص مثلهم مكثوا فترة طويلة من حياتهم فى جهل وأمية أن تكون لديهم مثل هذه الرغبة الشديدة فى التعلم وإتقان الكتابة والقراءة وبعض منهم - وهذا إلى حد ما صحيح - يشعرون بالسقوط والتحطم الناتج عن خضوعهم للعبودية حيث إنهم لا يعلمون شيئاً عن الحياة المدنية المتحضرة فأياديهم لم تلمس القلم والريشة وكل ما تعرفه هو الفأس وذراع المحراث وبذرة القطن. وهؤلاء الأشخاص ليسوا على الإطلاق أغبياء ولكنهم يخفون ذكاءهم تحت غطاء سميك من البلاهة الفارغة. ففى ظنى أن الحياة بالنسبة لهم كانت أسهل عن ذى قبل، إن الشخص الساذج يمثل قليلاً من التهديد ويوعد بالكثير، مستر "كانينج" يطلق عليهم ألفاظًا مثل "الأغبياء والكسالى" لكن ليس هناك دليل على غبائهم أو إهمالهم بل هناك دليل على ذكائهم فعلى سبيل المثال، يشكو دائماً مستر "كانينج" بل يستهزأ أحياناً من أنهم دائماً يفرون من عملهم اليومى فى حقول القطن ليذهبوا ويرعوا حقول الذرة وأنا أجد أن معهم حقًا فى هذا حيث إنهم يعلمون جيداً أنهم لن يحصلوا على أى أجر مقابل عملهم فى حقول القطن فكيف لا

يذهبون للعمل فى حقول الذرة التى ستوفر لهم ولعائلاتهم الطعام.

لقد تعودنا أن نحكم على عقل المرء من خلال قراءاته وتعليمه وثقافته ولكن هنا علمت وعرفت أن هناك مقاييس أخرى عديدة يمكن من خلالها أن نحكم على عقل المرء فرغم أنهم حرموا من التعليم وقراءة الكتب فإن لديهم مهارات أخرى، فذاكرتهم وقوة إبصارهم قوية جداً فعلى سبيل المثال، إذا كان هناك قارب بخارى فى نهر ما فيمكنهم بسهولة التعرف عليه من على بعد وقراءة الاسم من على جانبه قبل أن يقترب إلى الشاطئ. وعندما يقترب قارب جديد إلى الشاطئ، يبدءون فى التساؤل عن اسمه وينتبهون جيداً إلى شكله إلى درجة أنه بعد مضى عام كامل يتمكنون من التعرف على هذا القارب من بعد.

أتمنى أن أبدأ الفصول الدراسية بعد غد الذى سيوافق يوم الأحد وهو اليوم الذى سألقى فيه أيضاً أول عظة لى هنا، يمتلك السود بيتاً يسمى "بيت التسبيح" حيث يقومون بالصلاة فيه ويؤدون طقوسهم الروحية لله، لقد دعيت بعض الفرق من الجيش الذين يعسكرون فى هذه المنطقة لينضموا للصلاة معنا ولهذا أتمنى أن أستكمل عملى فى التبشير لهؤلاء الجنود والضباط من خلال تقدمى فى مهامى الجديدة مع تلك الطبقة الملونة، أرجو أن أكون جزءاً

من أفكارك إذا سمحت لى وأرسلى لى صلواتك وأمنياتك الطيبة..

تجولت فى فترة ما بعد الظهر إلى ضفة النهر، حتى نقطة معينة تعرّفت عليها مؤخراً حيث شجر الجميز الضخم الملقى على سطح الماء الراكد ذى اللون البنى، كان شجراً عجوزاً قديماً ويبدو أنه الجزء المتبقى من ضربة رعد حدثت فى الماضى وتسببت فى وقوعه على سطح المياه، كان جزء من جذع الشجرة أسود اللون وميتًا والجزء المتبقى صلبًا وشاحب اللون، كان هناك جزء ما فى الشجرة يلتقى فيه الجزء الميت بالخشب الحى فى منحن جميل ولكنه حزين وذلك الجزء من الممكن استخدامه كمكان مريح للجلوس، جلست هناك أتأمل وأفكر فى محتوى العظة التى سوف ألقيها يوم الأحد والتى قررت أن يكون مضمونها الآية التى تقول: "تمموا خلاصكم بخوف ورعدة لأن الله هو العامل فيكم إذا أردتم أن تعملوا من أجل المسرة".

وعندما كتبت بعض الصفحات التى بدت لى جيدة جمعتها وبدلاً من أن أذهب لأتناول وجبة العشاء غير المبهجة مع "كانينج" قررت أن أقوم بجولة فى موقع المعسكرات الخاص بفرق الكشافة بالقرب من "وتريانك" لأرى هل هناك إمكانية للحصول على أخبار منهم عن العالم الخارجى الأكثر رحابة وسعة من هذا المكان الذى نحن فيه بين الجنود والضباط والعبيد، فأنا مختلف عن "كانينج" الذى لو أتيحت له الفرصة

وكـان عـنـده وقت لـكى يـذهب فى نـزهـة مـا لـذهب ليتناول عشاءه فى المدينة ولكننى لا أحب أن أذهب إلى هنـاك. إن صـفـوف الجـيش المسـمى بـ "الـوحـدة" المعسكرين هنـاك كانـوا من النـوع العنيف الصلب. فأغلبهم كانوا إيرلنديين يخدمون فى صفوف الجيش بدون رغبة وبدون حماس للقضية التى يحاربون من أجلها ومشهورين بسلبهم ونهبهم لممتلكات المدنيين المجاورين لنا، كانوا يسرقون الدجاج أو الخنازير وإذا اعترض رجل ما وحاول الدفاع عن ممتلكاته كانت النتيجة الضرب أو ما هو أسوأ من الضرب، كانوا يقومون بإهانة السيدات بلا مبالاة ولا اهتمام بصراخهم وتوسلاتهم، فلا عجب إذاً حين يظهر أحد من سكان الشمال، أن يُعامل من سكان المدينة هنا بجفاء وبرود شديد من قبل زوجات وأمهات الجنود والضباط اللائى لا يرددن التحية إذا تمنى لهن أحدٌ يوماً سعيداً. وبما أنه ليس هناك ما يبشر بمستقبل مشرق لـ "وتريانك" فى إقامة مجتمع متحضر وراق، فقد كنت سعيداً وقانعاً بانتظار أى أخبار تأتى إلىّ، كان هناك عشرة أفراد فى فرقة الكشافة وعندما اقتربت منهم قاموا بتحيتى بابتهاج شديد وطلبوا منى الجلوس معهم، كانت هناك نار موقدة رأيت من بعد عليها برادًا به حبوب العسل الأسود لذيذة الطعم ذات اللون البنى جرى ريقى عندما قام أحد الجنود بغرف ما بداخل البراد فى فناجين من الصفيح وحملها ليقوم بتوزيعها على الجنود، وقام الرجال بتمرير برطمان

كبير مصنوع من الحجر ملىء بشراب كحولى من الذرة وقد تم تمرير البرطمان من يد إلى يد وعندما أتى البرطمان إلىّ، قمت بتمريره إلى من يجلس بجانبى دون أن أشرب منه وقد شرب الجنود أكثر من ثلثى البرطمان وسألتهم إذا كانوا قد تعرضوا لنوع من الهجوم، فأبلغونى أنهم منذ يومين كانوا فى معركة ضد مجموعة من المشاركين فى حرب العصابات وطاردوهم حتى وصلوا بالقرب من سلاح مدفعيتهم ومجرد أن أطلقوا عليهم النيران انسحب هؤلاء المتمردون تماماً من أمامهم.

"إن ذلك المخزن فى "وتريانك" قال أحد الجنود ذو لحية بيضاء وعيون شاحبة وأكمل: "إذا لم يكن هناك حرية لزوجات وأخوات اللصوص للذهاب إلى هناك وشراء كل المعونات التى يمكن أن يحملوها ودفع ثمنها من المال الذى يسرقه وينهبه رجالهن، فإننا قد تمكننا من إزاحة كل الغابات الموجودة فى وقت قصير".

سألته: "لماذا لا يمنع الجنرال المسئول عن المخزن القيام بهذه التجارة؟" ضحك الشاب ذو الوجه الشاحب بشدة لدرجة أن رذاذاً من الشراب الكحولى الذى كان فى فمه انطلق من فمه، وانضم إليه الآخرون فى الضحك وقال: "أيها القس إنك حقاً رجل برىء وطاهر القلب".

"إن صديقًا قديمًا وحميمًا للجنرال اشترى لنفسه جزءاً كبيراً هناك فى هذا المخزن". قال أحد الكشافة:

"وبناءً عليه لن يقوم الجنرال بمضايقة صديقه خاصة إذا كان ذلك المخزن يدر ربحاً يوازى ألف دولار فى اليوم".

"إنه ليس كذلك وليس هذا ما يحدث بالضبط هنا، " قال أحد الجنود وكان يكبرهم فى السن، يرتدى قبعة أرجعها بيده للوراء لتكشف عن شعر أشيب اللون وأخذ يقول: "إنه نفس الشيء يحدث فى شمال وجنوب النهر، إن القائد يعطى أوامر واضحة لقائد الحامية ووظيفته لن تهدد إذا ظل المخزن مفتوحاً لزوجات الضباط والجنود ويعطون لهذا مسمى شهامة أهل الجنوب ولكن النتيجة تكون أن المعونة التى يحصل عليها القائد تكون أكبر بكثير مما يحصلون عليه من عمل العبيد الشاق هنا. إذا كان ما قاله الرجال حقيقياً. ولم يكن لدى سبب محدد للشك فيه فهذه كارثة -ولذا صرت غاضباً جداً لسماع هذا لدرجة أنى وجدت صعوبة شديدة فى الهضم ولدرجة أنى لم ألحظ ما كان يحدث عند النار الموقدة حتى سمعت صرخة قادمة من طفل صغير حرقت النار يده وأصابعه حين أراد الاقتراب منها ولمسها، قمت مسرعاً وحملته وضممته إلىّ ووجدت أن كفه وأصابعه قد احترقت وظهرت آثار الحروق على جلده الناعم، التفت لأنال مساعدة أحد جنود الكشافة ولكننى وجدته غير مهتم تماماً لما حدث لذلك الطفل الصغير الذى ظل يصرخ من شدة الألم بينما أخذ الجندى يجمع وينشر الفحم المستخدم لإشعال النار.

"ماذا حدث؟"

"كنت فقط أمزح مع مجموعة أطفال العبيد الذين كانوا واقفين حول النار الموقدة مثل الكلاب الجائعة فقلت لهم اذهبوا وقوموا بتنظيف الوعاء". قال هذا وهو يهز كتفيه بأسلوب ينم عن اللامبالاة وعدم الاكتراث فهو لم يحذر الأطفال بأن ينتبهوا إلى سخونة البراد الحديدى الموضوع على الفحم لعدة ساعات، كانت تنهيدة الطفل وهو يبكى ويصرخ من شدة الألم تدعو للإشفاق، وكانت سخونة العسل الأسود تلسع كف يده الناعم.

قلت له بعنف: "أعطنى قربة الماء" وعندما لم يعطنى إياها على الفور، قمت بخطفها من يده وسكبت ماء بارداً على يد الطفل: "ألم تستطع أن تعطيه ملعقة ليستخدمها"؟

فحدق الجندى إليه قائلاً: هل تعتقد أنى سأترك طفلاً أسود يأكل من الملعقة التى أستخدمها؟"

مشيت غاضباً وأنا أحمل الطفل بين ذراعى وسمعت صوت الجندى خلفى وهو يقول أشياء بسخط شديد وسمعت ضحكات الجنود الساخرة.

عندما وصلت إلى البيت، بحثت بلا جدوى عن المراهم المسكنة والمخدرة للألم ولكنى لم أجد شيئاً أخذت ألعن الحاجة والمسافة التى بيننا وبينهم والأصدقاء الذين كنت معتقداً أنهم سوف يقدمون لهم المعونة، فى النهاية كل ما وجدته هو ماء بارد داخل

قارورة وقطعة من قماش الكتان ومن ثم غسلت يد الطفل بالماء البارد وربطت يده بقطعة القماش كانت قبضة يده نحيفة جداً تبدو وكأنها كرة صغيرة تخرج منها إبرة نحيفة، خرجت خارج البيت ليستنشق الهواء النقى ووضعته على ركبتى وسألته عن اسمه فأجاب بصوت خافت صغير "جيمس".

أطعمته من الطعام الذى كان معداً لى للعشاء وأكل "جيمس" من هذا الطعام وكأنه طعام شهى ولذيذ، مكثت ممسكاً به وغنيت له تلك الأغنيات التى كانت بناتى يحببن سماعها حتى خمد الألم ووقع فى سبات عميق بين ذراعى لم يكن ثقيلاً بالمرة وضعت خدى على رأسه الناعم، كان شعره طويلاً مجعداً تجعيدات صغيرًا مشدودة وسميكة؛ حيث كان وهو نائم يشبه ملاكاً صغيرًا أسود اللون، أخذت ألعب بشعره المجعد وأنا أفكر فى بناتى وعائلتى وفى اشتياقى إليهن.

لابد وأن أكون قد وقعت فى سبات عميق أنا أيضاً لأن الظلام كان حالكاً عندما تحرك الطفل وهو نائم وأيقظنى وأنا فى حالة فزع. كان القمر فى حالة نصف اكتمال وكان يشع ضوءه على المكان بأكمله وقد فكرت فى أن يكون والدا الطفل يفتقدانه. وكنت متحمسًا عندما رأيتها، كانت واقفة فى الحديقة صامتة مثل الشجرة، كانت تحدق إلىّ وكان جلدها أسود اللون لدرجة أنى لم أستطع أن أحدد ملامحها، لم أكن أعرف كم من الوقت ظلت واقفة هناك. وقفت

وأنا أحمل الطفل بين ذراعى، كان وزنه أكثر قليلاً من لعبة للأطفال واتجهت نحوها بعض الخطوات، كانت فتاة طويلة صغيرة فى السن للدرجة التى يصعب فيها تصديق أنها أمه، لولا أننى كنت أعلم أن الحياة الجسدية لهؤلاء الناس تبدأ معهم قبل أن تنتهى مرحلة طفولتهم. مدت ذراعيها النحيفتين وأمسكت بالطفل، كانت تحتضنه مثلما يحتضن العصفور صغاره، ثم استدارت ومشت نحو النجيل، كانت قدماها الحافيتان تترك آثاراً خلفها بسبب الندى، عندما استيقظت فى اليوم التالى، وجدت قبعة مشغولة باليد معلقة على يد الباب، فقد كانت تلك القبعة كما أعتقد طريقتها فى التعبير عن شكرها عندما رأيتها مرة ثانية، كنت مرتدياً القبعة وقد أشرت إليها كعلامة بأنى أعلم أنها هى التى صنعتها من أجلى فابتسمت ابتسامة خفيفة وسريعة وكأنها حركة عصبية، كانت جالسة على الأرض داخل الفصل، كانت أخمص قدميها الحافيتين مفرودة على الأرض، تضع كل مفصل من ذراعيها على ركبتيها المنحنية، كانت هذه الطريقة فى الجلوس تبدو لى غير مريحة بالمرة، ولكن يبدو أن هذه طريقتها وطريقة الآخرين من العبيد السود فى الجلوس.

ارتفع حاجبها وهى تحاول مجتهدة رسم حرف الـ "م" بعصا على الأرض، كنت حريصاً على أن يتعلم كل تلاميذى فى بادئ الأمر كتابة أسمائهم، ولكنى كبداية فكرت أن أعلمهم كتابة اسمى.

كان اسم تلك الفتاة "زانة" وكان اسم ابنها الصغير "جيمس" كان يجلس بجوارها وكأنهما مشتركان فى نفس الضلوع، كانت الحجرة مزدحمة، وكانت هناك رائحة ذكية تشبه رائحة المسك ناتجة عن التحام أجسادهم ببعض وهم جالسون. كانت أيام الدروس الأولى بها كثير من الجهد المبذول، لم يكن لتلاميذى أدنى فكرة عن أنهم لابد وأن يجلسوا بهدوء وصمت وأن ينتبهوا جيداً ولفترة طويلة وأن يكفوا عن الضحك والثرثرة حين يشجعهم مزاجهم على ذلك. زارنا مستر "كانينج" فى ثانى يوم للدراسة زيارة قصيرة ثم سحب نفسه سريعاً دون أن ينتظر ويرى بنفسه أن هناك شيئاً يتم وينجز خلف تلك الفوضى الظاهرية، وقد عبرت عن إحباطى وخيبة أملى من تلك الزيارة القصيرة عندما رأيته فى مساء ذلك اليوم أثناء تناولنا لوجبة العشاء ولكنه همس بشىءٍ ما عن جمع القطن أى عن عمل لابد أن يقوم به هؤلاء ثم جعد وجهه قائلاً: "إنه قريب من نفس المكان التى تقوم بالتدريس فيه، أنا أتساءل كيف يمكنك أن تتحمل هذا".

قلت له: "إنها مجموعة كبيرة بالنسبة لهذا المكان الضيق". وبرغم أننى قسمت مدرستى إلى فترتين لكى أتواءم مع طبيعة عملهم فى الحقول، فمن النادر أن تجد أقل من خمسين شخصًا فى الحجرة. "حقاً أنا مندهش كيف يستطيع أن يأتى إلىّ كل هذا العدد رغم ما يقومون به من عمل شاق خارج بيوتهم لساعات طويلة بالإضافة إلى فصولهم الدراسية، فهم حقاً

يبذلون قصارى جهدهم حتى الذين منهم فى حالة متأخرة. أنا حقاً أجدهم كما يقول الشاعر: "صور لله مقطوعة على خشب الأبنوس".

ضحك "كانينج" قائلاً: "أتمنى ألا يكون الله قد وضع تلك الرائحة فى مكانة معينة! فإنى أجدهم فى منتهى النضوج وهم خارج بيوتهم، أنا حقاً لا أستطيع أن أقضى معهم ساعة كاملة منحشراً بينهم كما تفعل أنت".

كيف أشرح له؟ وإلى أى مدى يمكننى أن أتحدث مع رجل مثله؟ لقد أحببت تحمسهم الشديد للتعليم ومعنوياتهم المرتفعة حتى ولو كان الأمر سيأخذ بعض الوقت لممارسة الالتزام الذى أنشده، هذه هى المدرسة التى طالما اشتقت إليها وأنا بائع متجول، أخيراً سأجد حقلاً لاختبار نظرياتى فى التعليم، أن هدفى هو إيقاظ قلوبهم للأفكار الكامنة هناك، أفضل من أن أزرع حقائق فى ذاكرتهم، وبسبب ظروفهم، فقد كانت عقول البالغين منهم ملائمة لهذا المنهج تماماً مثل عقول الأطفال، كانت عقول سهل التأثير عليها، وإيصال المعلومات إليها عن طريق عاطفة القلب أكثر من التعامل مع العقل. إن الساعة الأولى من العمل كانت مخصصة لنقل الحروف ومعرفة أصواتها، تمكنا من إنجاز ذلك عن طريق الخربشة بالعصا فى الأرض الملوثة، وبالرغم من عدم وجود ورق ولم تكن هناك أى بوادر لاحتمال الحصول عليه، فقد عرضت عليهم صناعة الريش المستخدم فى الكتابة بأنفسهم وكذلك

الحبر الذى سوف يستخدمونه أثناء النهار عندما يحتاج الأمر لممارسة تلك المهارات.

ثم بعد ذلك كنا نقضى بعض الوقت لمناقشة بعض الكلمات ومعانيها الحقيقية وعندما أتطرق إلى هذا كنت دائماً أحاول أن أستفزهم ليعبروا بحرية أكثر وبفكر أعمق أى بطريقة أفضل مما التى تعودوا عليها، كنت أسألهم عن معنى كلمة "وديع" ثم أطلب منهم أن يفكروا فى شخص وديع يعرفونه وماصفاته وبعد أن نستوفى شرح كلمة "وداعة" بالكامل، أطلب منهم بأسلوب به نوع من الاستفزاز بأن يجدوا تعريفاً لكلمة "وحشى" وأيضاً بعض الأمثلة التى توضح السلوك المصاحب لهذه الكلمة.

وبهذه الطريقة أكون قد تركت لهم الفرصة للتفكير المتأمل فى موقفهم ثم أترك لهم الفرصة للحديث عن ذلك. كان عمل يتطلب المزيد منهم دائماً وبعد ذلك كنا نأخذ فترة راحة قصيرة حيث يجرى الأطفال بحرية خارج فصل المدرسة ويرتاح البالغون من ضغط التركيز الشديد، وقد حضر "كانينج" ذات مرة أثناء فترة الراحة كان يبدو عليه أنه غير سعيد وكأنه يقول لى إننى أضيع وقتى. وهدد بأن يقلل الساعات التى يسمح لهم فيها بالراحة من العمل فى الحقل، كنت مضطراً أن أذكره بأن هناك عقوبة من قبل الجيش إذا منع التعليم ولهذا اخترت أن أكون مسئولاً عن هذه المهمة، وكان هو مسانداً لى فى ذلك.

عندما اجتمعنا بعد فترة الراحة لنستأنف الدروس، أخذت أبعد تلاميذى عن المجالات المعنوية واقتربنا من مادة الجغرافيا عن طريق رسم خرائط لأماكن وبيوت العبيد، وعلمتهم أيضاً مادة الرياضيات عن طريق عد الذرة المخلوعة من الحقول وعد الذرة الباقية فيها أى التى لم تجمع بعد وكيفية حساب الفرق بينهما. بعضهم كان يستعصى عليه فهم أساسيات الحساب، فقد كانت هناك امرأة فى الستينيات من عمرها أشارت إلى أنها تتقن العد إلى رقم عشرة، وبدأت تظهر لى قدرتها فى العد "واحد ، اثنين، ثلاثة، خمسة، ثمانية، عشرة" أخذت أهنئها على ذلك ولكنى أشرت بأن لا تزال بعض الأرقام التى لم تشر إليها وأشرت إلى هذا باستخدام أصابعها، فأصيبت المرأة بإحباط شديد، ولم تأت ثانية إلى الفصل وعندما بحثت عنها ووجدتها وحاولت إقناعها بأن تصبر وتصمد فإذا بها تهز رأسها فى رفض شديد وحزن قائلة: "لقد فات الأوان يا سيدى فإنى أرى أن أترك مكانى لمن هم أصغر منى". ولم أفلح فى إقناعها أبداً.

ولكن كان هناك آخرون مثل "جس" وهو شاب قوى البنية يعمل سائقاً لدى مستر "كانينج"، أظهر "جس" قدرة هائلة فى الذكاء الفطرى وكان على درجة رائعة فى بذل المجهود والتعليم الذاتى رغم الظروف القاسية التى كان مجبراً أن يعيشها، إن قدرة "جس" السهلة فى تعلم الرياضيات كانت أكثر من رائعة، كنت

قادراً على أن أتجاوز صيغًا حسابية معه مثل أن نحسب النسبة المئوية المتزايدة فى قيمة القطن فى دورته الطبيعية من كونه بذرة إلى آن يكتمل نموه ويتم جمعه ويوضع فى أكياس كبيرة، فقط كنت أقدم له مجرد مفهوم حسابى محدد لأجد أنه مع قليل من الممارسة سيتمكن من الوصول إلى الإجابة الصحيحة لمسألة رياضية أكثر مما أستطيع أنا.

وجدت أيضاً شيئاً آخر، فقد لاحظت أن تلاميذى يعرفون القليل عن بلادهم وقد تم تشجيعهم على أن يفكروا فى ذلك بصورة أقل، كانوا يحبون مادة الجغرافيا، وكانت هذه المادة محرمة عليهم، لأنها كانت تشير إلى الطرق المتجهة شمالاً وكذلك كانت مرتبطة بالهاربين، ولكن كانت مادة التاريخ كصفحة بيضاء بالنسبة لهم، فى البداية فشلت محاولاتى لأن أجعل هذه المادة شيقة بالنسبة لهم أو حتى أن أجذب انتباههم إليها. حاولت أن أجعلهم يفهمون أنهم من الآن فصاعداً يجب أن يعتبروا أنفسهم جزءاً من القصة الأمريكية ولهذا ينبغى أن يتباهوا بماضى أمتهم، وعندما ذكرت أنى قادم من كونكورد بدأت أشعر ببعض الاهتمام منهم، فقد تبين لى وجود استجابة منهم حينما أتطرق فى حديثى إلى ما هو شخصى، لأنى عندما تحدثت عن مدينتى والأحداث الرائعة التى حدثت هناك والتى كان لها عظيم الأثر فى تقدم أمتنا تمكنت وقتها من جذب انتباههم لى، وفى النهاية، أعتقد أنهم بدءوا يحبون "وقت القصة"،

كما أطلقوا عليه أكثر من أى شىء آخر ولهذا كنت أجعل هذا الوقت دائماً فى نهاية الدرس، كانوا مثل المتفرجين الذين يريدون دائماً المزيد مما يشاهدونه وكانوا دائماً غير راغبين فى أن يجعلوا لأية قصة نهاية، كانت "سيلا" ترفع يدها طالبة سماع المزيد "قل لنا ماذا حدث بعد ذلك يا سيدى"، وكنت أجد صعوبة فى جعلهم يعودون إلى العمل فى الحقل والإحباط واضح على وجوههم.

كان لابد من وجود المزيد من المدرسين حتى يستفيد الجميع ويتعلم الجميع ومن أجل تحقيق نوع من العدالة ومن وقت لآخر كنت أشعر باشتياق شديد إلى طلب المساعدة، وعندما كنت أشعر بذلك، كنت أفكر فى زوجتى "مارميه" ولكن معظم الوقت ولابد أن أعترف بذلك كنت أتذكر "جريس" لأنه سيكون بمثابة تشجيع لتلاميذى أن يروا واحدة منهم ومثلهم تمكنت من التعليم ومن إجادة القراءة والكتابة، كان هذا مما لا شك فيه سيثير طموحهم. ولكن "جريس" كانت بعيدة عنى وصعب الوصول إليها، كانت مقيدة بمبادئها وأخلاقياتها السامية والراقية برجل عجوز شرير هو والدها الحقيقى. كنت أحفظ عدداً من أشعار "فريدريك دوجلاس" و "فيليزوتيلى" عن ظهر قلب وكنت أسعد جداً وأنا أرى أعينهم مفتوحة فى دهشة شديدة لما حققه هؤلاء، الذى كان واحد منهما عبدًا هاربًا والآخر إفريقيًا همجى المولد خُطف وتم تقييده بالحياة العبودية.

لا أعتقد أنى كنت يوماً متعباً جداً مثلما كنت فى تلك الأمسيات ولا حتى بعد نشوب الحرب. إن التدريس للسود يتطلب طاقة بدنية عالية جداً لأنه حيث ثبت لى أنه إذا لم أتحدث بدرجة عالية من الحيوية وبقدر من التمثيل المسرحى باستخدام الحركة والتعبير فلن أتمكن من جذب انتباههم، كنت أذهب إلى سريرى الذى يشبه الكيس أقضى الليلة أفكر بقوة فى دروس اليوم التالى، كنت أخلد للنوم وأحلم بالدروس، فقد وجدت العمل الذى ولدت من أجله، أن هذا الاعتقاد وليس التعب والإعياء أو الشعور بالإحباط لمحاولة تدريس عدد من العبيد ذوى مستويات مختلفة من الفهم والإدراك، هو ما كنت أود الكتابة عنه لزوجتى أكتب إليها كل ليلة بعض السطور عنه قبل أن يغلبنى النوم أكتب لها مثلاً:

كم من مرة تمنيت أن يكون معى نوع من التليسكوب الساحر حتى أراك أنت والبنات من بعد وأرى كيف حالكم وترون أنتم من وقت لآخر ماذا أفعل وترون نجاح مجهوداتى. فإذا كان باستطاعتكم هذا لكنتم لاحظتم الفرق بأنفسكم أن مرور فصل من فصول السنة أحدث تغييراً مدهشًا لهؤلاء الأشخاص الذين يستوطنون "أوك لاندينج".

إن تلاميذى الصغار والكبار قد تقدموا كثيراً فى تعلم الحروف الأبجدية، إنهم يفتحون عقولهم لى الآن ويمتلئون بالحماس عن ذى قبل، إن "جوشيا" الذى يعانى من كحة شديدة تحطم قلب من يسمعها أصبح

شخصاً يحب بشدة الكلام لدرجة أنه أصبح من الصعب أن أتخيل أنه نفس الصبى الذى استقبلنى صامتاً معظم الوقت عند وصولى هنا، لقد أصبح الآن متفتحاً أثناء الحديث حتى أنى كثيراً ما أضايقه وأذكره بذلك الوقت، فيقول لى إن الصمت كان ناتجاً من الخوف والحذر. ففى هذه المناطق يتعلمون منذ الصغر أن مجرد الحديث مع شخص من الجنس الأبيض يعد خطورة كبيرة، وحكى لى أنه ذات مرة كان عليه القيام بمشوار ما عندما رأى شخصاً أبيض فألقى عليه تحية الصباح فذهل ذلك الشخص وفتح فمه فى اندهاش شديد لجرأة العبد الأسود فى التحدث إليه".

توقفت عن الكتابة عند هذا الجزء وفكرت فى أن أقص عليها قصة "زانة" تلك الطالبة التى كانت ترفض أن تتحدث إلىّ بحرية، واعتقدت لفترة طويلة أن سبب صمتها هو شعورها بالخجل الذى ألغى قدرتها على المشاركة فى الفصل أو التحدث معى على انفراد. وعندما مرت الأيام والأسابيع واستمرت فى تقديم نفسها للتعلم فى كل فرصة تتاح لها، بدأت أتساءل وأخيراً ضغطت عليها فى الفصل لتشارك معنا فى الحديث فعلت هذا بلطف شديد وأنا أقول بأن أفكار كل تلميذ هى إضافة عالية القيمة لرحلتنا المشتركة فى التعليم ولكن لم آخذ منها كلمة واحدة وأبدى الآخرون شعوراً بعدم الراحة تجاه هذا الموقف.

وفى وقت لاحق وبعد مضى فترة من الوقت جاء إلىَّ "جس" الذى لم يكن تلميذاً نجيباً لى فقط بل كان بمثابة قائد للمجموعة التابع لها، وطلب التحدث معى على انفراد، وقال لى إن "زانة" لا تتحدث لأنها لا تستطيع الحديث، فهى عندما كانت فتاة صغيرة، كانت ضحية لعمل إجرامى من قبل اثنين من السكارى من الجنس الأبيض، أبدت اعتراضها تحرشا بها، فقام أحدهما بالإمساك بها وأخذ الثانى سكيناً صغيرة وفتح ثغرها وقطع لسانها. وعندما بدأ آل "الكروفت" فى البحث والتحرى عن مرتكب الجريمة الوحشية، أبلغوهم أنهم لا يمكن أن يحصلوا على تعويض لما حدث من "خسائر فى ممتلكاتهم" وذلك لأن العبد المعتدى عليه ليس فى إمكانه أن يدلى بأقواله بخصوص ذلك الاعتداء المزعوم.

لم أكتب عن هذا لزوجتى رغم أن "مارميه" لم تكن على دراية بدرجة الوحشية والهمجية التى يمكن أن يتعرض لها العبيد، لم أحبذ أن تتلوث أُذن نسائى الصغيرات بسماع تلك القصة، فبدلاً من الكتابة عن اللاإنسانية والوحشية قررت أن أصف لها العالم الطبيعى.

إن الربيع هنا ليس الربيع الذى نعرفه ذوبان الثلج والأرض الباردة المبللة الجامدة التى تصبح طميًا. هنا تنزل من السماء درجة حرارة مرتفعة فنستنشق ونتحرك كما لو كنا داخل إناء به حساء، وتجاوباً لذلك

فنمو النبات يخرج من الأرض بقوة لا تقاوم وعندما يتمنى الجسد أن يهدئ من سرعته ويعطى فرصة للكسل والخمول، فلابد وأن يسرع بهذا لأن التحدى هو أن تجعل العمل الشاق للإنسان مع نفس سرعة عمل الطبيعة أو تتسابق مع ما توفره الطبيعة من زوائد.

لم أكتب لها شيئاً مزعجاً أو مثيراً للأعصاب بل كتبت لها عن آمالى لمستقبل حصاد عظيم فى "أوك لانديلنج"؛ لموسم سنرى فيه النضوج فى المحاصيل الزراعية وكذلك فى الإنتاج البشرى. كنت محتاجاً لأصور ذلك الوقت الذى به نضوج ونمو كفترة واعدة أما بالنسبة لما كان متوقعًا حدوثه من سوء أحوال جوية أو هجوم على المحاصيل من الديدان أو الآفات الزراعية أو نشوب حرب، اخترت ألا أفكر وألا أكتب لها عنه فقد شعرت بأنه لا خيار أمامى سوى أن يكون لدى الثقة فى آمالى المتفائلة.

الفصل الثامن

أول زهرة

أوك لاندينج ١٠ مايو ١٨٦٢

عزيزتى:

كان هناك احتفال كبير اليوم، ففى جميع الأحوال هو يوم من الأيام التى لا تنسى حيث تم شحن القطن بسلام على متن سفينة متجهة إلى السوق، فلقد تم جمع القطن ووضعه عند مرسى السفينة منذ أسبوع ولكن وجود السفن المدفعية وعملها الدءوب المستمر عند النهر جعل من المستحيل لسفينة بخارية أن تتقدم نحو الشاطئ لتحمل ذلك القطن كله بعيداً، وكان كل يوم يمر نشعر بخوف شديد خشية أن يقوم بزيارتنا واحد من هؤلاء الأشرار الخارجين عن القانون، الذين سيسعدون عند رؤية مجهود شاق استمر شهوراً ملقى فى النهر. ولكن ها هى السفينة وصلت أخيراً ورحل القطن على متنها ونحن فى انتظار وصول سفينة الشحن التالية التى تدعى "مارى لو" وبداخلها ما وضعته لنا مساعيك الحميدة. كم كنت أتمنى أن تشاهدى أنت والمتبرعون الكرماء الآخرون وجوه الرجال والنساء وهى تضىء كالنور بالفرح والسعادة

وذهولهم برؤيتهم براميل العسل الأسود والملح والصابون والخيوط والأعشاب المجففة والكراريس والغزل القطنى والصوفى وخاصة صناديق الملابس الجيدة. إن وجهك كان سيحمر خجلاً إذا رأيت النساء وهن يجربن التنورات ويمشين بتباه مثل الطاووس كما لو كانت هذه الملابس ملابس باريسية. لقد كنت مسروراً عندما رأيت ذلك المخزون من العقاقير والأدوية فالموسم الحار أصبح ضاراً جداً وحمى الملاريا تمثل تهديداً مستمراً. إن لكل واحد منا أسبابه الخاصة للشعور بالسعادة والتعجب عندما تنزل الصناديق المشحونة من السفينة ويتم فتحها وتفريغها. لم أكتب إليها أن الوجه الوحيد الذى لم يبتسم ولم يشعر بالسعادة قط هو وجه مستر "كانينج" الذى كان واقفاً أثناء فتح الصناديق وتفريغها، وكان يبدو عليه الاكتئاب الشديد ولم أدر السبب وراء حالته المزاجية السيئة، وأخيراً اضطررت لسؤاله وأخذ يجيب على سؤالى وهو متضرر قائلاً: "إن هذا بذخ شديد أنتم بذلك لا تقدمون أية مساعدة للعبيد السود".

"ولكن إيثان" تعجبت (وقد أصبحنا نستخدم أسماءنا الأولى الآن، ليس من قبل المحبة ولكن بسبب علاقة المودة التى أصبحت بيننا نتيجة اشتراكنا ومواجهاتنا لنفس ظروف الزمان والمكان). "هل ستفرض عقوبة على ذلك، لقد شجعتنى على القيام بهذا العمل الخيرى".

"نعم .. ولكنى لم أتوقع أنك ستنجح لهذه الدرجة ..إن هؤلاء الناس يجب أن يتعلموا أنه كما

يُدفع لهم فينبغى عليهم أن يدفعوا هم أيضاً ليسدوا احتياجاتهم نعم نعم فقد فرضت عقوبتى الممثلة فى مجهود صغير مريح لهم - بما أننا لسنا فى وضع يسمح لنا بدفع أجورهم -ولكن هذا يفوق أى شىء يمكن أن أتخيله. لا أحد أعرفه فى "إيلينوا" يمكن أن يعطى بضائع جيدة الجودة مثل هذه وبمثل تلك الوفرة!- وللسود -وفى وقت حرب، عندما يكون البيض فى حاجة إلى ذلك"!

"إذاً لابد وأن توسع معارفك فى إيلينوا" جاوبته ومشيت بعيداً حتى لا أعطى فرصة لنفسى كى أشعر بالضيق. إن بعض تلاميذى خاصة البنات كانوا يريدون أن أبدى إعجابى بملابسهم الجديدة، فى الحقيقة كانت الملابس مصنوعة من قماش أبيض ناعم يمكن لأى رجل عامل أو امرأة عاملة أن يرتدوها ولكن كل قطعة قماش كانت موضوعة بحرص شديد وتم تصليح ما بها من عيوب قبل أن توضع فى صناديق وترسل إلى هنا، وبهذه الطريقة رأيت الاهتمام الطيب من قبل نسائى الصغيرات الأعزاء اللاتى كانت توجههن بل تقودهن دائماً والدتهن. من غيرها يمكن أن يأخذ فى الاعتبار مثل تلك التفاصيل الدقيقة؟.

إذا كان "إيثان كانينج" يعتقد أن مثل هذه المعونة البسيطة التى تسد احتياجات العبيد البسيطة سوف تجعلهم يتمردون فعليه أن يرى كيف استطاعوا أن يوفروا تلك البضائع التالفة من قميص أو زوج من

السراويل الممزقة حيث يبدلون ملابسهم القديمة بملابس جديدة حتى الأشياء الرثة القديمة المرقعة تم طيها وثنيها حتى يتم استخدامها فيما بعد كرقع صغيرة تدفئهم فى أيام البرد الشديد.

لقد نبهت "مارميه" أكثر من مرة إلى حب الإفريقى للأشياء اللامعة الملونة ولهذا اضطررنا لإقناع أكثر من امرأة تود التبرع بأحد الصناديق بأن الشال ليس الاختيار الأفضل لشخص يريد ألا يلمحه أحد. ولكن فى هذه المرة وفى تلك البضائع التى تم شحنها لنا أحضرت زوجتى عدداً من المناديل المصنوعة باليد والتى يبدو أنها صنعت من ملابس السهرات القديمة ذات الخامة الجيدة والنسيج الجيد والتى اعتقدت بأنها ستلاقى تقدير وإعجاب الجميع.

اخترت واحداً من هؤلاء "لزانة" التى كانت واقفة بعيداً بسبب خجلها المعتاد، كانت بجانب مجموعة من النساء يضحكن ويثرن ضجة كبيرة، اخترت قطعة قماش من الساتان مربعة ذات لون فيروزى وأخذتها معى إلى حيث كانت واقفة وقلت لها: "أعتقد أن هذا سيكون جميلاً عليك " أخذته وفى ثوان معدودة ربطته بطريقة جميلة ليكون عقدة على الرقبة وكان "جيمس" بجانبها كالمعتاد والآن يرى أمه بشكل أفضل ورفعته إلى أعلى ليرى أمه فى تلك الصورة الجميلة واستمتعت بسماع ضحكته العذبة وأخذ يصفق بيديه اللتين كانتا قد شفيتا تماماً فيما عدا علامة بيضاء كانت واضحة فى كف يده وأخذت يديه وأشرت بهما

إلى والدته التى أخذته بنفس ابتسامتها ذات الحركة العصبية واحتضنته باهتمامها ورعايتها المعتادة.

وقد وعد "كانينج" جميع العبيد السود بليلة واحدة ينطلقون فيها بحرية احتفالاً بشحن القطن وقد ظلوا يحتفلون طوال الليل وقد قامت مجموعة منهم باستخدام ما تبقى من القطن فى إشعال نار تضرم فى الهواء، كنت أرى دخان هذه النار يتصاعد نحو السماء من مكانى بالقرب من مخزن الخمور، كانت ليلة هادئة رغم صوت موسيقاهم الذى كان قادماً من منازلهم. ومن حيث كنت راقداً على سريرى المصنوع من بذر القطن كنت أستمع إلى غنائهم، كان هناك صوت رخيم ثم يأتى بعده صوت آخر ملئ بالحنين وقد أيقظ غناؤهم حنينى وشوقى وأحسست بالوحدة وشعرت بحزن شديد، وعندما بدأت أشعر بالنعاس كانوا مازالوا يغنون ويبدو أن صوت غنائهم قد اخترق أحلامى. فشعرت وأنا نائم أنه قد تم اصطيادى بمطاردين غير مرئيين وعندما أمسكوا بى فى حلمى استيقظت وقلبى يخفق بشدة والقطعة التى تشبه الكيس التى أستخدمها كوسادة كانت مبللة بدموع لا أتذكر أنى قد ذرفتها.

لقد تغيرت أمور كثيرة بعد شحن القطن. فبعد وصولى بأسبوع كنت كقس أشرف على جنازة واحدة فى الأسبوع ولكن فى الأسبوع الثانى من وصولى كانت هناك ثلاث جنائز من بينهم طفل حديث الولادة، تلك الفتاة التى قد رأيتها فى ذلك المنزل الذى كان به

العديد من الأطفال المرضى وكانت ترقد وتعانى من حمى لم أتوقع أن أرى نهاية مفاجئة لدورى فى الجنائز وفى حالات الوفاة التى حدثت حيث إنها أخذت فى ازدياد، خاصة عندما بدأت حرارة الجو ترتفع ولكن مع التحسن البسيط فى غذائهم الصحى الذى وفرته لهم البضائع والمعونات القادمة من المتبرعين وكذلك تناولهم لشاى الكاموميل، لقد كان لكل ذلك مفعول قوى لأجسام المرضى لدرجة أن بعض الحالات الخطيرة قد بدأت تشعر بتحسن وتسترد جزءاً من قوتها.

إن التغيير الأكبر بين طبقة العمال هو أنه بعد أن تمت مكافآتهم نتيجة للجهد الذى بذلوه، بدءوا فى الإقبال على أعمالهم برغبة وإرادة جديدة. كان العمل فى الحقل يشبه موكباً جليلاً وفخماً، كانت أدوات الرى فى المقدمة فهم يهيئون التربة على كل من الجانبين ليشكلوا متراساً طويلاً وعلى الرأس كانت هناك عربات تجرها حيوانات مثل البغال تتبع أدوات الرى وكانت "زانة" واحدة من هؤلاء اللاتى يقمن بزرع البذور، كانت تمشى خلف تلك العربات وهى تحمل كيساً كبيراً من البذور فى حجمها تماماً وترمى البذور بحرية فى ذلك الخندق الجديد خلف هؤلاء الذين يلقون البذور فى الخندق كان يتبعهم هؤلاء الذين يقومون بتسوية التربة وتمهيدها مغطين البذور بتربة طينية. وعندما انتهوا من إلقاء البذور فى الحقل الأخير، كانت الحقول التى تم زرعها من قبل قد غطت

الأرض الحمراء بضباب أخضر. إن معدل نمو الزرع كان يعد معجزة صغيرة لشخص خدم من قبل وزرع فى حقول الشمال الباردة المجدية.

كانت هناك معجزات صغيرة أخرى، فقد كان هناك شمعدان فضى استخدمناه بدلاً من البطاطس التى كنا نضع شمعة بداخلها أثناء العشاء، وجده "توماس" المسئول عن منحل عسل النحل أثناء أخذه واحدة من المنحل أنه لابد "أن شخصاً ما" قد قام بإخفائها بمهارة هناك داخل المنحل من هؤلاء المتمردين الذين كانوا يقومون بأعمال النهب والسلب ولابد وأن هذا الشخص قد نسى تماماً أنه أخفى هذا الشمعدان هناك. لقد شعرنا بعرفان شديد تجاه ذلك الحدث الذى ساعدنا أيضاً على تذكر بعض الأشياء والذكريات الماضية: مثل طقم العشاء البورسلين الذى قد يبدو أنه قد تم حراسته جيداً تحت عش الدجاج واثنين من أطقم السرفيس الفضى اللذين وجدا تحت معلف الخنازير.

وقد تعامل "كانينج" مع كل تلك الأمور بمرح وروح دعابة وقد أراحنى ذلك كثيراً فإن تلك البضائع التى وجدت ليست ملكاً له وقد تم إخفاؤها للحفاظ عليها من فترة طويلة قبل أن تصل إلى هنا. فبرغم كونه رجلاً قاسياً وغير كريم إلا أنه كان من داخله رجلا ذا عقل راجح وقد شاهد بنفسه وبامتنان المجهود الأمين الذى بذله العمال عندما ظهر نبات القطن.

فى خلال أسبوعين من زرع آخر بذرة، كانت سلاسل التلال مغطاة بالخضرة من النبات والزرع،

كان هناك المئات بل الألوف من النبات. إن بذرة القطن التى تعد لا قيمة لها، كانت متناثرة بسمك شديد أكثر من عشرين أو ثلاثين مرة وفى اعتقادى كان هذا أكثر من اللازم وتأتى بعد ذلك كيفية التخلص من النفايات وهو الجزء الذى يحتاج إلى مهارة فائقة بالنسبة للعمل اليدوى، فكان عمال الحقل الذين يشبهون الجرّاحين يتسلحون فقط بالمجارف الصلبة، كانوا يتحركون داخل الأيكات ويتوقفون كل قدمين ويختارون فقط منحدراً واحداً رقيقاً ثم يشقون المنحدرات الأخرى بعيداً وعند قدوم الليل كنا نرى صفوفاً من نبات القطن الصغير مصفوفة بعناية فائقة وممدودة على بعد بحيث يمكن للعين أن تراها.

إن عملية إزالة العشب الضار الآن أصبحت هى العمل اليومى فى الفترة الحالية وكل الأيادى تعمل الآن بجد شديدة وهمة للتخلص من الأعشاب والكروم والأزهار البرية الضارة التى تشكل خطراً يومياً على حياة النبات المفضل وتهدد وجوده. فبعد بضعة أسابيع من العمل الشاق بدأ القطن فى الظهور على القمة متفوقاً على منافسيه من أنواع النباتات الأخرى، وأخذ يشكل ظلاً ليؤمن نمو تلك النباتات. كل ما استطعنا فعله هو أن انتظرنا حلول شهر يوليو وظهور أول تفتح لزهرة القطن. إنى قلت "كل ما استطعنا فعله" ولكن بالطبع كانت هناك أعمال أخرى يجب الاهتمام بها مثل محاصيل الطعام التى دائماً نعطى اهتمامنا لها وتأتى فى المقدمة الذرة على سبيل المثال والتى تمنينا

أن يكون لدينا فائض منها لنقوم ببيعه. فلم يهمل أحد عمله وكان هناك كثير من التلاميذ الذين كانوا يأتون إلى فصلى وهم مجهدون ومتعبون جسدياً ولكنهم متحمسون روحياً.

كنت قلقاً بشأن "كانينج" الذى يقسو دائماً على نفسه كما كان يقسو على العمال، كان متعباً جداً ومجهداً وكانت رجله تؤلمه ويعرج بشدة يوماً بعد يوم حيث إنه يستعين الآن بعصا لتساعده على الحركة أسفل وأعلى الصفوف بين الحقول. كنت أعلم جيداً أنه ينتظر تقرير الوكيل التجارى عن القطن الذى كان قد تم بيعه. كان المحصول قليلاً مخيباً لتوقعاتنا، حيث فقد الكثير منه نتيجة لظروف الطقس السيئة وبعض الإهمال، كانت هناك قطع كبيرة من الأرض من الممكن أن نجنى منها ما يقرب من مائتى رطل من كتان القطن، ولكننا حصلنا فقط على ربع هذا الرقم ولكن الأسعار مازالت مرتفعة نتيجة لندرة المحصول وتأرجحت الحالة المزاجية "لكانينج" من الأمل إلى اليأس وهو يحسب ويعيد مراجعة حساب الدخل والأجور وطرح هذا كله مما سوف يحصل عليه تقديرياً. وعندما وصل فى النهاية للمبلغ المدفوع من قبل الوكيل التجارى، انسحب "كانينج" إلى الردهة ليقوم بعمل مراجعة حسابية حقيقية ودقيقة ليسجلها ثانية بدفتره وهو يحمل حقيبة بداخلها مال نقدى وتعبير شاحب على وجهه.

"إن مسز "كروفت" ستكون مضطرة لتقتصد فى بعض الأمور هذا العام". قال هذا بابتسامة جامدة لا

مرح فيها "فبعد أن أقوم بتوزيع الأجور على هؤلاء السود لن يتبقى لها سوى القليل جداً من المال أما أنا ..." فانسحب ولم يكمل حديثه وتبعته خارجاً حيث كان يعطى تعليمات للخادم "طولمى" ليدق الجرس ليحضر العمال للاجتماع بهم.

"مهما كانت الإحباطات التى تشعر بها". قلت هذا وأنا أحاول أن ألحق به فى الحديقة -وهو يعرج فى مشيته -وكان يمشى على طول خط السور الموازى للحقل، أكملت قائلاً: "أشعر بأنه لابد أن أذكرك أن هذا اليوم هو يوم غير عادى لهؤلاء الرجال والنساء. إنه سيكون شيئاً جميلاً لعلاقات مستقبلية إذا استطعت أن تبدو فى حالة سعيدة ومرحة وأنت تدفع لهم أجورهم حتى لو كان ذلك من أجل المحصول القادم وعلاقاتك معهم".

"إنك على حق بالفعل. لابد وأن أكون كذلك" فقد تمكننا من أن يكون لدينا أحد أكبر حقول القطن، ومد يده للأفق التى توعده بالمزيد وهو يقول: "إن كل آمالى ترقد هناك. هذا هو المحصول الذى سوف يقوم ببنائى أو يحطمنى". كان العبيد السود قادمين من مختلف الاتجاهات حاملين فى أيديهم أدوات الأعشاب الضارة. فالفتاة الصغيرة "سيلا" التى كانت تذكرنى دائماً بابنتى "آنى" - لكن على صورة غامقة فى اللون - جاءت مخترقة الصفوف وهى تبكى وعندما انضمت إلينا بشعرها المنكوش المجعد كانت تحمل فى يدها وردة رقيقة لونها كريمى "إن هذه لك يا سيدى". قالت

فجأة وبخجل وهى تعطى الوردة "لكانينج". "أول زهرة" ! ابتسم "كانينج" ابتسامة خفيفة ومد يده وطبطب بحنو على رأسها الصغير.

وعندما وصلنا جميعاً إلى منازلنا، كان هناك جمع محتشد يتحدثون بصوت منخفض فاستدعاهم "كانينج" ولدهشتى طلب منى أن أقوم بصلاة شكر. كانت هذه لفتة لم أتوقعها منه ، جاءت صلاتى من القلب وشعر الجميع بها من قلوبهم. وعلى الرغم من أن الحرية لم تكن آنذاك قانون تلك الأرض، فقد قلت، إن شعب "أوك لاندينج" على وشك أن يتذوق إحدى ثمار الحرية وصليت من أجل أن يكون يوم الحرية الكامل قريباً وصرخت الجموع "آمين" و"سبحوا الرب"! ثم قام "كانينج" ينادى العمال بالاسم وأعطى لكل واحد منهم أجره فقام كل رجل بتحريك رجله إلى الخلف وهو يأخذ النقود منه كعلامة للأدب والشكر وأخذت كل امرأة تنحنى باحترام وهى تأخذ أجرها من أيدى "كانينج". كان بعضهم يقبّل النقود وآخرون كانوا يرفعونها عالياً وآخرون أخذوا يرقصون فى فرح وفى نهاية توزيع المال، كانت الشمس تميل إلى الغروب.

كانت هناك حركة خفيفة بين الرجال وقام "جس" وهو أفضل تلاميذى، وهو أيضاً رجل ضخم ذو صوت رخيم يشب أنغام المزمار العميقة فقد أتى إلى الأمام ووقف أمام "كانينج" وأمامى، وكانت عيونه تنظر إلى الأرض وهو يقول: "إن الجمع طلب منى أن أقول إن هناك شيئاً ما نود أن نعطيه لك الآن".

وبدا على "كانينج" الارتباك. فابتسمت إلى "جس" ابتسامة بها تأكيد قائلاً له: هذا لطيف منكم ولكن ما هذا الشيء؟ فاستدار وأعطى علامة للجمع المحتشد فتفرق نصفهم وذهبوا إلى منازلهم ثم خرجوا وهم يجرون أكياساً ضخمة وسميكة يستخدمونها كمراتب. قام ابن "جس" بتنزيل أول كيس عند قدمى والده وأعطاه منجلاً واستخدم "جس" هذه الأداة فى قطع المرتبة عند الجزء الذى تم حياكته إلى نصفين فظهر أفضل أنواع القطن الذى أنتجته أرضنا وعند نهاية الصف أخذ الجميع يجر مراتب مماثلة للخارج من منازلهم الصغيرة.

قال جس"عندما تركتنا مسز كروفت". "وعندما علم المتمردون أنها أنهت توقيع أوراق الحماية الخاصة بالاتحاد، حضروا إلى هنا وأمرونا بأن نشعل النيران فى كل محصول القطن فى هذا المكان ولم يكن لدينا الاختيار فقمنا بحرق ما يقرب من مائة رزمة من القطن الخاص بمسز كروفت. وعندما كانوا غير منتبهين ولا ينظرون قمنا بإزالة ما بداخل مراتبنا من حشو ووضعنا مكانه أفضل ما جنينا من حصاد القطن فى اعتقادنا أننا نجحنا فى الاحتفاظ تقريباً بحوالى ست أو ثمانى رزم من القطن هنا، وحيث إنك كنت عادلاً معنا وفعلت ما وعدت فلقد قررنا أن نعطيك هذا المحصول.

لم أر من قبل وجه "كانينج" الصلب الضيق مليئاً بالمشاعر والعاطفة مثل هذه المرة، فقد خلع نظارته

فأدركت أنه كان يبكى لأحد السببين إما عرفاناً بالجميل أو شعوراً بالراحة ولكنى لم أعرف لأى منهما يبكى "كانينج".

"شكراً". تحدث أخيراً عندما بدأ يسترجع صوته. "شكراً لكم جميعاً"!

سيرفع حظر التجول الليلة يمكنكم أن تحتفلوا الليلة وتسهروا للوقت الذى تريدونه". ثم استدار "كانينج" ليرحل عندما صاح "جس" ثانية قائلاً: "إن الجمع يسألنى هل تريدون الانضمام إلينا للاحتفال" فنظرت إلى "كانينج". ولراحتى وسعادتى ابتسم "كانينج" ابتسامة خفيفة وأومأ برأسه. فأجبتهم أنا قائلاً بحماس شديد: "إنه لشرف لى أن أحضر احتفالكم".

لم أكن أدرى أن الليلة ستنقلنى عبر البحار إلى بعض الغابات فى غرب إفريقيا وتعود بى إلى الوراء حيث الوقت الذى هو أبعد من الماضى الخاص بى وأبعد من الوقت الذى بدأت أتقرب فيه إلى الله. إنى أعلم أن الذى رأيته وسمعته وشعرت به داخل جسدى كان مثيراً إلى أبعد الظن ومهما حاولت فلن أستطيع أن أنقل كمال الشىء فى كلمات.

فلقد أحضروا كراسى صغيرة لنجلس عليها، وعندما غربت الشمس وكانت السماء تتزين باللون الذهبى والقرمزى والأزرق، أشعلوا نيراناً واجتمعوا حولها فى دائرة واسعة وقام واحد منهم بإحضار زوج

من المكانس ويبدأ فى خبطهما ببعض فى إيقاع موسيقى سريع ولكنه معقد، فالتقطوا جميعهم هذا الإيقاع وبدءوا يحدثون أصواتاً بأقدامهم وبدءوا يرقصون داخل الدائرة، سمع فى البداية صوت "جس" ثم تبعه صوت الآخرين، كان صوته مرتفعاً يقود الصرخة ويجيب عليها الجمع بصوت عالٍ عميق، كانت حقاً صرخة ممزقة، بدائية لا تناغم فيها بعكس غنائهم العذب الجميل. كانت هناك جمل تتكرر فى كل مرة وبدأت الأيادى فى التصفيق على إيقاع موسيقى أسرع معاكس لحركات الأقدام ومعاكس أيضاً لخبط عصا المكانس السريع ولم أدر كيف استطاعوا جميعاً - الأطفال، المسنون والشباب كلهم أن يرقصون بنفس السرعة ونفس الوقت وباتحاد رائع، لم أستطع أيضاً أن أعرف كل الكلمات التى كانوا يصرخون بها ولكنى استطعت أن ألحق ببعض الكلمات مثل:

"بنفسى ... بنفسى ... الليلة ... أنت تعلم أنه علىّ أن أذهب ... إن العربة آتية ... يا إلهى ... أوه متى متى متى ... ".

كان هناك شىء ما عن ثقل وسرعة الإيقاع الموسيقى بدأت تعمل داخلى، تجعل من قلبى يخفق بسرعة أسرع. بدأت أتحمس وبدأت بالإثارة حتى أنى وجدت نفسى واقفاً وأتحرك سريعاً دون أن يأتى إلى ذهنى أنى سوف أتحرك أو أجرى نحوهم. أصبح عقلى خالياً تماماً من كل شىء ومن كل فكر، وبطريقة ما لم أعلم كيف وجدت نفسى فى الدائرة أتحرك

وأرقص وأصفق بيدى وأضم صوتى إلى صوت الآخرين حتى جف حلقى. ولم أكن أدرى كم من الوقت مضى وأنا بهذه الطريقة وفى هذه الحالة ولكن عندما تركت أخيراً الرقص كنت مبللاً بعرقى، وكانت عضلاتى متعبة وترتعش، نظرت إلى المكان الذى كان "كانينج" جالساً فيه ولكنى لم أجده فقد كان كرسيه خالياً، كان قد اختفى تماماً ولم أره فى أى مكان.

الفصل التاسع

حمى صهوة الفرس

استيقظت كالعادة على صوت جرس العمل ولكن فى هذا اليوم كان صوت وقعه قوياً على طبلة أذنى مثل الضربة وفتحت عينىَّ فكان ضوء الصباح يبدو شديداً حتى أن عينى لم تستطع تحمله. وعندما حاولت أن أستدير بعيداً عن الضوء وجدت عضلاتى تتألم من ذلك المجهود البسيط ولاحظت أننى لا أستطيع حتى تحريك كتفى.

شعرت بغباء شديد، فإن أعصاب وأوتار قس فى الأربعين من عمره لا تتحمل المرح الصاخب الذى استمر طوال الليل من قبل الأجسام القوية والأيادى القوية التى تعمل بالحقول. بدأت أستوعب الخسارة التى وقعت وشعرت بألم فى رأسى فظيع وعيناى أيضاً تؤلماننى بشدة وحلقى جاف مثل المبرد.

فاستجمعت قوتى وأمرت جسمى أن ينهض ولكن عندما حركت مفاصلى كانت مثل العظام المفتتة المجوفة بزجاج الأرض. وكنت أرتعش بالرغم من أنى عادة أستيقظ مبللاً بالعرق من شدة حرارة ليالى منتصف الصيف. ليس هناك شىء أستطيع أن أفعله

تجاه ذلك، فكرت بداخلى، وأنا أمسك الغطاء بأصابع متألمة. يجب أن أرتاح ولو قليلاً حتى أستطيع أن أستجمع قوتى..

مكثت راقداً حتى تحولت الرعشة إلى حمى وارتفعت درجة الحرارة بشدة حتى أصبحت أهلوس ولكن ماذا حدث لى بعد ذلك، سأكون مضطراً أن أستمع إلى ما سيسرده الآخرون عن ذلك بالتفصيل.

عندما علم "كانينج" بأنى لم أحضر الدرس فى الفصل أخذ يضحك معتقداً أنى نائم نتيجة تصرفى الغبى فى الليلة الماضية وجاء ليمزح ويسخر مما حدث لى، فقد كان على غير المعتاد سعيداً وروحه المعنوية كانت مرتفعة بعد أن راجع حساباته واكتشف أن القطن الجيد الزائد الذى حصل عليه الليلة الماضية سوف يغطى ديونه. فهو لن يضطر الآن إلى أن ينسحب من "أوك لانداينج" وهو مدمر مادياً بصرف النظر عما سيحققه المحصول من أرباح الآن. والآن أيضاً يمكنه النظر إلى المحصول الجديد باتزان ورباطة جأش، فمهما حدث فلن يضره شيء بل من الممكن أن يعود إلى وطنه "إيلينوا" كشاب ثرى. رأيت فيه للمرة الأولى صورة لنفسى فى شبابى وأنا بائع متجول أعود لوطنى من الجنوب منتصراً.

حضر إلى المخزن فى فترة الظهيرة وهو فى طريقه من الحقول إلى المنزل وفتح الباب بقوة وبقصد أن يتيح لشعاع الشمس أن يسقط على وجهى بالكامل وهو يحيينا تحية من القلب وعندما أظهر ضوء

الشمس حالتى، اختفت الابتسامة من على وجهه وجاء مسرعاً إلىّ، جلس بجانبى ووضع يده أعلى حاجبى ثم سحبها بسرعة كأن لحمى قد لسعه. "أحضروا مياه باردة" صرخ "كانينج" "إنها حمى! إن مستر "مارتش" مريض جداً".

أعطى "كانينج" تعليمات "لطولى" بأن يغسلنى وأمر بعض الأطفال بأن يستخدموا ببراعة بعض المراوح اليدوية لخفض درجة الحرارة ثم امتطى جواده وأخذ يجرى طوال الطريق إلى أن وصل إلى و"تربانك" وطلب أن يرى طبيب الوحدة وعندما قالوا له إن الطبيب غير موجود صرخ فى وجوه الضباط وطلب إحضار طبيب على الفور ليكون بجوارى ويرعانى قائلاً لهم إنى مازلت أحتفظ برتبة كابتن فى جيش الوحدة والطبيب بصفته طبيبًا بالجيش فهو مسئول عن رعايتى والاهتمام بى. ولكن من الواضح أنه ليس للطبيب وقت "لمحبى السود والعبيد" ولا لديه وقت أيضاً لتلك السلالة المضطهدة ولن يدخر وقتاً لهم وقد اقترح أنى قد أصبت بحمى الملاريا وهى أشهر أمراض الصيف لهذه المنطقة. وأعطى "لكانينج" زجاجة من زيت "التربنتينة" وأعطاه تعليمات بأن يعطينى إياه بجرعات قليلة. وعندما سأله "كانينج" إلى أى مدى سيعطينى من هذا الدواء. هز كتفه الطبيب قائلاً: "حتى يتحسن -أو يقتله الدواء". ثم استدار نحو الطبق الذى كان يأكل فيه.

من الواضح أن التأثير الوحيد لزيت "التربنتينة" هو أن يحدث قيئاً شديداً، كنت راقداً على السرير

أهزى وأئن لمدة يومين ولكن أثناء الليلة الثانية انكسرت الحمى، ونمت نوماً عميقاً عافياً، وعندما استيقظت فى صباح اليوم التالى، كانت الطفلة "سيلا" نائمة فى الركن. استيقظت بفزع ولكنها ابتسمت ابتسامة جميلة عندما جلست على فراش من القش، يبدو أن مجموعة من تلاميذى قد أتوا أثناء مرضى ليجلسوا بجوارى ويرعونى ويقوموا بتغطيتى عندما تنتابنى القشعريرة ويغسلونى بمياه البئر عندما ترتفع درجة حرارتى، عندما قمت من فراشى ورتبت غطائى، تناثرت حبيبات صغيرة مستديرة فى الأرض "إنها حبيبات الخردل" قالت "سيلا" بعيون متسعة مفتوحة: "لقد نثرتهم "زانة" عليك، كل ليلة، لتبعد عنك مفعول الساحرة". قالت ذلك وهى تخفى صوتها حتى أنها كادت أن تهمس قائلة "لقد انتظرت حتى رحل سيد "كانينج" لأن السيد لديه أفكار خاصة تجاه الساحرات". وقد أكد "جس" أن "كانينج" كان يقضى ساعات طويلة بجوارى، استقبلت هذه الأخبار- التى كانت دليلاً على اهتمام ومحبة "كانينج" لى - بدموع النقاهة وأنا أخجل من نفسى و"جس"

فى ذلك اليوم كنت سعيداً بشفائى، شعرت بحسن حظى وبأن هذه الحمى برغم شدتها كانت قصيرة. كان "جس" مضطراً أن يحملنى - حيث كنت ضعيفاً للغاية - لأجلس فى الظل على كرسى يشبه العربة الصغيرة. جلست هناك مستمتعاً بسعادة بسيطة وشعورى بأنى على ما يرام وبسعادة أن لدى الوقت لأكتب بعض السطور لعائلتى.

"لا ينبغى أن تعتقدى، يا حبيبتى الغالية، أن قلة خطاباتى معناه أنى لا أفكر فيكم كثيراً. فأنتم أمامى منذ الدقيقة الأولى عندما أستيقظ فى الصباح وفى الدقيقة الأخيرة عندما أخلد إلى النوم وعادة تكونين أنت أو واحدة من نسائى الصغيرات أو جميعكن تزورونني فى أحلامى. أنى أرتدى دائماً مجموعة القمصان التى صنعتها أيدى "مج" الحبيبة وفى كل مرة أرتدى فيها تلك القمصان أرى الأيدى البيضاء الجميلة التى قامت بحياكتها بجد وتعب، ولو باستطاعتى لقبلّت كل إصبع فى تلك الأيدى.

"هل سأصغر فى عينيك عندما أضع اللوم على قلة مراسلاتى ليس على أمر كبير خاص بالحرب أو بسياسة ما ولكن حقاً على عذر بسيط جداً؟"

إنى أتحدث عن الناموس الذى أصبح طاعوناً فظيعاً هنا حيث لا أستطيع أن أكتب شيئاً على الإطلاق فى المساء عندما يكون لدى الوقت الكافى لكتابة خطاب حيث كنت معتاداً دائماً أن أكتب فى المساء. حاولت أن أجلس تحت الشبكة التى وضعتها بدقة على عارضة خشبية حتى تحمينى من الناموس وأنا نائم، ولكن الشمعة التى تضىء مكانى فى الليل قد أحرقت الشبكة ولو كنتم هنا معى لكنتم ضحكتم وأنتم تروننى أرقص وأهتز خوفاً من النار محاولاً إطفاءها. يمكنك القول إن كلماتى إليك فى هذه المناسبة كلمات دافئة!

والآن وأنا مستمتع بضوء الصباح فى وقت راحتى، أريد أن أعطى لك فكرة عما أراه وأنا أسير

هنا بين الحقول. لقد نبت القطن وظهرت زهرته، إن الزهور الخجلى تتفتح فى الليل بلونها الأبيض الكريمى الذى قد يعكس لونها الحقيقى أو يعكس شعاع القمر، وتبدو الزهور جميلة جداً فى الصباح ولكن عند فترة الظهيرة تتأثر بشدة بحرارة الجو وفى اليوم التالى يصبح لونها خمرى اللون وفى الظهيرة يبدأ الزهر فى السقوط تاركاً الشذرة الصغيرة التى يطلقون عليها اسم "الشكل" تكبر وتزدهر حتى تكون مستعدة للقطف وقريباً جداً لابد وأن ننظم من جديد مجموعات القطف والتى كانت قد بذلت مجهودًا كبيراً فيما مضى فى قطف القطن، سوف تستعد من جديد لقطف المحصول الجديد ولكنهم الآن متعبون جداً لما بذلوه من مجهود، وليسوا على استعداد بأن يقوموا بمثل هذا العمل الشاق من جديد. وفوق كل هذا لدينا الكثير منهم مصابون بحمى الملاريا فهذا هو موسم هذه الحمى.

منذ أن شفيت لا أرى سبباً فى أن أزعجها بخبر أنى كنت من ضمن ضحايا حمى الملاريا وضمن من أصيبوا بها. وحقاً كنت أفكر هل أكتب إليهم آخر جملتين عندما شتت ذهنى صوت قعقعة فى السوق؟ رفعت يدى لألقى التحية على "كانينج" الذى أخذ العربة إلى "وتريانك" ليأتى ببعض المعونات الغذائية مثل القهوة (تقليد سيئ هذه القهوة) وبعض الخبز الجاف غير الطازج وقطعة من اللحم المخلل لاستهلاكه الشخصى وقد أشار إليه على أنه "ملح

الحصان" وقد اشتكى منه كثيراً ولكنه قال إنه لابد من أن يأكل منه حيث لا يوجد هنا غير الكثير من لحم الخنزير الذى لا يمكن أن يهضمه رجل من الشمال.

كانت معنويات "كانينج" مرتفعة عندما غادر المكان، كان سعيداً لتماثلى للشفاء ومتفائلاً إزاء الحياة بشكل عام. ولهذا فوجئت عندما رأيت وجهه حزيناً ومضطرباً عند عودته إلى هنا، أخذ يركل برجليه الأعشاب الضارة التى نمت بين الحصى.

فسألته .. "إيثان ماذا حدث؟"

خلع القفازين اللذين يستخدمهما أثناء ركوب الخيل وخبطهما بغضب على كفه قائلاً: "إنهم يقومون بإزالة القلعة من مكانها فى و"تريانك" وبحلول نهاية الشهر لن يكون هناك وجود لجيش الوحدة وسينحصر وجوده فى مجرد شركة أو مؤسسة لها قوتها المحدودة".

"ولكنك... هل أنت متأكد من ذلك؟ ربما أن هذا كله مجرد خداع لتضليل هؤلاء المتمردين الذين يريدون القيام بعملية الانقلاب العسكرى"؟

هز "كانينج" رأسه وأجاب قائلاً: "إنى متأكد تماماً".

"ولكن ما هذا الجنون؟ لقد كان هناك ما يكفى من سلاح الفرسان، فنحن لسنا المستأجرين الوحيدين فى هذه المنطقة. وعلى أى أساس تم اتخاذ هذا القرار؟"

وعلى أى أساس تعتقد أنت؟" قال هذا وهو يطقطق أصابعه وأكمل:

"إن هذا القرار تم اتخاذه على أساس أن هذه الحرب قد انتهت وأنهم قد خسروا هذه المعركة وذلك لأن جنرالات "لينكولن" غير أكفاء بالمرة لأن يقودوا جيشاً فى ميدان معركة!" ظهر "طولى" بجانبه وهو يحمل إبريقاً من الماء. أخذ "كانينج" الفنجان الذى قدمه "طولى" له بعصبية شديدة حيث انزلقت يد الفنجان من قبضته ووقع الفنجان على الطوب متحطماً تحت قدميه، التفت "كانينج" ليعاقب الرجل العجوز بعنف فنهضت بصعوبة شديدة من حيث أجلس ووقفت بينهما.

"إيثان،" قلت بلطف. "من فضلك حاول أن تتمالك نفسك إنى مدرك أن هذا يمثل إحباطاً بالنسبة لك..."

"إحباط! إنه تدمير شامل! كم من الوقت تعتقد سوف يمر قبل أن يأخذ هؤلاء المخالفون للنظام أو حتى هؤلاء التابعون لقوات التحالف كل بوصة من هذه البلد الغنية؟ إنى أؤكد لك أنهم سوف يعلمون جيداً كيف يقيّمونها حتى إذا لم يقيّمها حلفاؤنا..."

كان "طولى" ساجداً على ركبتيه يلتقط القطع المكسورة من الفنجان. كنت أرى يديه وهما ترتعشان استدرت إليه ورفعت يدىَّ على شفتى. إن آخر شىء نريده هو حدوث شغب أو هلع عام فى المقر الذى نحن فيه، وقد فهم "كانينج" ما أقصده "بالطبع"، قال

بسرعة "إن قوات جيش الوحدة تسيطر على النهر وأن قوات التحالف لن تجرؤ على مهاجمة ملكية مثل هذه، لديها الكثير من القوارب الحربية سواء كانت و"تريانك" محصنة أو غير محصنة".

قلت له بدفء شديد: "إذًا لا داعي للقلق " وقد نهض "طولى" وهو يرتجف من شدة الخوف وفى يديه قطع الخزف المكسورة تخشخش فى يديه وتوجه نحو البيت ولكن ليس قبل أن أرى وجهه وقد بدا عليه القلق.

"وبالطبع، فقد ذهبت لكى أرى "الكولونيل" الذى أشار بأننا يجب أن نضع ملاحظاً للعمال هنا ونقوم بتأجير بعض الأراضى فى "وتريانك" بالقرب من ثكنة الجنود ونأخذ احتياطنا بخصوص تحركات العدو قبل أن نتعرض لخطر زيارة قصيرة يومية من جانبهم".

قلت له: "إن المجازفة بشن غارة فى الليل وتأكدى من رجل مثل "زكا" الذى تقول إن لديه علاقة وخبرة بحرب العصابات يمكن أن يكون خياراً آمناً بالنسبة لملاحظ العمال..."

قاطع حديثى بغضب قائلاً: "إلى أى مدى تعتقد أن هؤلاء الناس يستطيعون العمل فى الزراعة وفى الحقول تحت إدارة واحد منهم؟ إلى أى مدى تعتقد أن تلك الحيوانات التى نستخدمها هنا سوف لا تضيع قبل أن يتم بيعها بمبلغ مربح أو أن الخنازير لن يتم ذبحها للأكل فتنتهى فى البطون الجائعة الجشعة؟ لا إنه من الغباء أن نترك هذا المكان ونرحل وأيضاً من

المجازفة أن نبقى. آما أنت فيمكنك آن تفعل ما تشاء. ربما يمكنك أن تستمر فى تعليم هؤلاء الناس من مسافة قريبة، ولكننى لا أستطيع أن أدير عملية الزراعة بهذه الطريقة.

"إيثان،" قلت بهدوء. "لا تعتقد أنى لا أرتبط بمحصولى مثل ما ترتبط أنت به. إنى أعمل من أجل الحصاد أيضاً. ألا تعرف ذلك؟ على أية حال، إذا كنت تعتقد أنى سوف أتركك هنا لتواجه الخطر بمفردك، فيبدو أنك لم تعرفنى جيداً فى هذه الشهور الأخيرة..."

ومرة أخرى خدعتنى عواطفى غير المستقرة المرتبطة بفترة النقاهة وتحشرج صوتى. وتغيرت ملامح وجه "كانينج" وأخذت تلين بعض الشىء وأعطى لى ذراعه. "يجب ألا تكون واقفاً"، قال "كانينج" وهو يأخذ بيدى ليعود بى إلى حيث كنت جالساً على الكرسى الهزاز: "هل أحضر "طولى" شيئاً لك لتأكله؟".

سأل "كانينج". ثم قال وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: لابد وأن تسترد قوتك. سوف أجعله يجلب لك شيئاً من معوناتنا الطازجة اللذيذة.

توجه إلى المنزل وسمعته وهو يعطى أوامر بأن ينزل كل شىء من على العربة. توجهت إلى مكتبى الصغير الذى أضعه دائماً على أرجلى ولكنى كنت مشتت الذهن جداً ولم أستطع أن أكمل خطابى بأية طريقة ذات معنى. "نهاية الشهر". قال كانينج: "أسبوعين. ولسوف نرى".

عدت إلى فصلى لمدة ساعة أو ساعتين فى اليوم التالى رغم أنى كنت مضطراً إلى أن أمتطى بغلاً عند ذهابى ورجوعى من الفصل وأن أجلس طوال مدة الدروس، كان تلاميذى سعداء برجوعى إليهم وحريصين بشدة على أن يبذلوا أقصى ما فى وسعهم. وفى نهاية الفصل ساعدنى "جس" على امتطاء البغل. واحد من الأطفال كان قد تلقى تعليمات بأن يمشى معى وأن يعيد البغل إلى مكانه فى الحقول عندما انتهى منه وأخذت مجموعة من الأطفال يتحاورون فيما بينهم على من سيكون له هذا الامتياز، ولكن "جس" أمرهم بأن يبتعدوا وأخذ هو اللجام لنفسه. وعندما بعدنا عن الآخرين، تحدث بصوت منخفض.

"أردت أن أسألك إذا كنت وسيد "كانينج" تريدان البقاء هنا...؟"

"بالطبع، يا "جس"، ولم لا؟"

فنظر إلىّ، وكانت عيناه الغامقتان محتقنتين بالدم. "أعتقد أنك تعلم لم لا؟"

لم أجب عليه وتهادينا فى السير وسيطرت علينا حرارة الجو الشديدة فى فترة الظهيرة مثل شىء حى يمكن أن تشعر به على بشرتك، دافئ ورطب مثل وحش ضخم يلهث من حولك. كان الجو كثيفاً لدرجة أنه يتطلب مجهوداً ضخماً منك لتستنشقه، فهو يرقد بسمك شديد فى الرئتين ولا يعطى أى إحساس بالانتعاش. كان طنين وأزيز الحشرات حولنا يملأ السكون بيننا. وعندما مكثت صامتاً ولم أتفوه بأية

كلمة، أخذ "جس" يتمتم وعيناه تنظر إلى الأرض ثم قال أخيراً" إذا حضر هؤلاء، سوف يقتلونكم، وهذه حقيقة".

"أحقاً ما تقول؟". "أعتقد أنك تبالغ فيما تقوله، أولاً: إن قوات جيش الوحدة فى "وتربانك" لن تنسحب تماماً. ثانياً: إن تواجد جيش الوحدة فى النهر تواجد قوى، وثالثاً: إن مستر "كانينج" وأنا لسنا مقاتلين -هل تعلم ماذا يعنى هذا؟".

"هذا يعنى أنك لا تحمل أية بندقية لتدافع بها عن نفسك".

"جس إن الجندى الذى يتبع قوات التحالف هو مقاتل صعب ويائس ولكنه ليس متوحشاً. هناك قواعد، حتى فى الحرب..."

توقف "جس" ونظر إلىّ نظرة أصبحت معتاداً عليها فى حياتى، تلك النظرة التى تحتوى على معنى التعاطف والسخط الشديدين فى آن واحد. "سيدى: إن الرجال هنا يختبئون فى الغابات ولديهم صفات المقاتلين ولا يتبعون أية قواعد وليس لديهم الحق فى أن يكونوا جنوداً فى الجيش، ولكن هؤلاء الرجال من هم فى الجهة الأخرى، ليسوا من هنا -فقد تم إرسالهم إلى هنا من ذلك المعسكر فى كامب "داروين بند" -فهم يتصفون بالخوف. أما بالنسبة لنا فنحن نعرف هؤلاء الرجال وهم يعرفوننا وسوف يقومون بإحراق محصول القطن ليثبتوا لنا أننا لسنا ولن نكون مزارعين ولكن هؤلاء الذين ليسوا من هنا، هناك

آقاويل بأنهم سوف يفرون من هنا قبل أن يتم بيعهم فى مكان ما.

لم أكن أعرف ما فى وسعى أن أقوله تجاه هذا كله ولم أعرف إذا كان هناك أساس سليم لتلك المخاوف أم لا، فلا أستطيع أن أشير إلى الناس بأن يتركوا مستر "كانينج" ويهربوا من هنا ولا أستطيع أيضاً أن أجبرهم على البقاء إذا كانوا على صواب فيما يعتقدون بأن هناك خطراً على حريتهم، فقد وصلنا إلى المنتزه واصطدم البغل بفرع شجرة "الآسى" وهو نبات عطرى ووقع علينا شلال صغير من زهور وردية صغيرة. تمكنت من النزول من فوق ظهر البغل بدون مساعدة وأعطيت اللجام إلى "جس".

عاد "جس" ليعيد البغل إلى مكانه فى الحقل، كانت الفروع الخشنة الساقطة على رأسه تبدو وكأنها إكليل من الزهور على رأسه. نظر خلفه ثم نظر إلىّ بحزن وقال: "لو كنت مكانك مستر "مارتش"، لكنت هربت من هنا وأخذت السيد الشاب معى".

كنت أنوى أن أتحدث مع "كانينج" فى هذا الموضوع فى أثناء تناولنا لوجبة العشاء ولكنه حضر وكان وجهه شاحباً يبدو عليه التعب والإعياء، وكان ممسكاً بصدره كأن هناك ألمًا به قال إنه ليس لديه شهية للأكل وذهب ليستلقى على السرير. تناولت عشائى الذى كان مكوناً من الذرة وبعض أوراق الأعشاب الخضراء التى كنت قد قطفتها لنفسى ثم ذهبت لأخلد إلى النوم وأنا مازلت منزعجاً من حديث "جس". بدأت فى عمل مشروع صغير فى تلك الليلة

حيث قمت بعمل نفق صغير مستخدماً أكوام بذور القطن المتناثرة على بلاط حجرة المخزن وأخذت أسندها بأكياس مليئة ببذور القطن. وفى النهاية تمكنت من عمل ما يشبه المأوى يكفى لأختبئ داخله أنا وممتلكاتى القليلة. وضعت إبريقاً مليئاً بالماء هناك وأخفيت طريق المدخل الصغير ببرميل عسل أسود فارغ ومن الداخل وضعت كيساً من بذور القطن أمامه بعض البذور ملقاة على الأرض لتخفى ذلك النفق تماماً فإذا أتى هؤلاء المشاركون فى حرب العصابات، فإنى أستطيع أن أختبئ فى هذا المكان.

عندما امتطيت البغل لأذهب إلى فصلى فى اليوم التالى، حضر إلىّ "كانينج"، الذى ينبغى أن يكون فى هذا الوقت فى الحقول، كان وجهه متعباً للغاية ويبدو وكأنه لم يأخذ قسطاً كافياً من النوم فى تلك الليلة. "سوف أذهب إلى وتريانك مرة ثانية". قال "كانينج". "يجب أن أحاول استئجار بعض الحراس -ربما أستطيع الحصول على بعض الخلاسين الذين كانوا يعملون فى المركز -فأنا لا أستطيع أن أجعل العبيد السود يفكرون فى الهرب.

"إيثان! لا يمكن أن تكون جاداً!"

نظر إلىّ بسخرية.

"فيما تفكر حقاً؟ أولاً": دعنى أذكرك بأنه ليس لديك الحق على الإطلاق فى أن تجبر هؤلاء الناس على البقاء باحتجازك إياهم. فأنك لست سيدهم حتى ولو كانوا يطلقون عليك هذا الاسم. ثانياً: إذا أردت أن

تثير ثورة عامة، فإن أفضل طريقة لذلك هى أن تظهر بأنك خائف جداً لما سيحدث وأنك أسرعت بتأجير وإحضار بعض الحراس. هل حقاً تعتقد أن اثنين أو ثلاثة من الخلاسين المسلحين ببعض الأسلحة البسيطة سيستطيعون إخماد ثورة لمائة شخص هنا، إذا أراد وأصر هؤلاء المائة على الفرار؟ لابد أنك أصبت بضربة شمس".

لم أتحدث إليه من قبل بهذه القسوة حتى ونحن فى قمة اختلافاتنا. نظر إلىّ واختفت عنجهيته تماماً.

"لم أفكر فى هذا الأمر بهذه الطريقة... أقصد أن أقول، إنى أفهم ما تقوله..." وفجأة بدا صغيراً جداً.

غيرت نبرة صوتى ووضعت يدى على كتفه" ما سوف يحدث سوف يحدث،" قلت له برفق. "وسنواجهه معاً".

مر شهر يوليو وكما توقعنا فقد حدث الانقلاب فى مقر "وتريانك" ولكن ظل الموقع هادئاً دون أن تصل إلينا أى تقارير تفيد بزيادة نشاط المشاركين فى حرب العصابات ويوماً بعد يوم كنا نقوم بأعمالنا المعتادة من تعليم العبيد والزراعة وحرث الأرض، ومحاولاً ألا أفكر فى موقفنا الضعيف، وفى الأسبوع الأول من شهر أغسطس أصبت مرة ثانية بتلك الحمى التى أصبت بها من قبل ومكثت راقداً لمدة ثلاثة أيام وعندما شفيت منها أدركت أنى ربما لن أكون بصحة جيدة ثانية، لأنه كان من الواضح أننى لم أصب بحمى النهر الشائعة ولكنها "حمى صهوة الفرس" وقد أطلقوا

عليها ذلك الاسم لآن فترة التمتع بصحة جيدة تكون فترة مؤقتة ما بين فترتى المرض. ولكن الاكتئاب لا يحتاج إلى شريك يائس. فإن إدراكى لحالتى الصحية الضعيفة جعلنى أفكر بأنه لابد من إعطاء المزيد من المجهودات فى الفصل وفى تعليم الدروس. وإذا كان يجب أن يكثف الوقت لسوء حالتى الصحية إذاً لابد أن يكون هناك المزيد من التعليم النافع لتلاميذى المتحمسين لنيل المزيد والمزيد من العلم. قمت بتشغيلهم فى تلك الفترة فى الفصل بشدة ولم يشتكوا بالمرة.

لم يهرب عبيد "داروين بند" ربما لأنهم كانوا خائفين من مشقات الطريق أكثر من خوفهم من المشاكل التى سوف يواجهونها إذا بقوا هنا، فقد كان العديد من الرجال والنساء من قبل لاجئين ويعلمون جيداً الصعوبات التى سوف يواجهونها إذا رحلوا من هنا، فقد مروا بتلك التجربة من قبل. ويعلمون جيداً الخطر الذى سيقابلونه والمساعدات الضئيلة التى سوف يجدونها خلف صفوف جيش الوحدة ويعلمون أيضاً سوء التنظيم داخل معسكرات البضائع المحظورة والقلق الذى سوف ينتظرهم هناك. أو ربما أصروا على البقاء؛ لأنهم أحبوا تجربة الحصول على أجور، ولا يرغبون فى ترك الربح والمكسب الذى سوف يحصلون عليه فى الحصاد المقبل أو ربما أحبوا أن يبقوا؛ لأنهم يثقون بنا ويؤمنون بقرارنا الصائب فى ألا يهربوا، فدائماً ما يكون هناك شعور بالحياة عندما

نعيش فصول السنة المختلفة مثل ما عشنا هذا الصيف حتى ونحن نتابع أعمالنا الروتينية ومهمتنا اليومية. كان هناك شعور يتملكنى بعدم الراحة، شعر به "كانينج" كذلك وأنى متأكد آن عمال الحقول شعروا به أيضاً.

لقد مر علىّ فصل آخر غير مريح حيث إن كل يوم ملوّث بشعور سيئ من الخوف لا يمكن مواجهته مباشرة وفى الوقت نفسه لا يمكن تجاهله.

الفصل العاشر

دق الأجراس

هل توجد كلمتان فى اللغة الإنجليزية متصلتان ومرتبطتان ببعضهما مثل كلمتى "الشجاعة" و"الجبن"؟ فأنا لا أعتقد أن هناك رجلاً حياً لا يتمنى أن يتصف بالشجاعة ويخشى أن يتهمه أحد بالجبن، واحدة تمثل أوج شخصيته الرجل والثانية تمثل حضيض شخصيته. ولكن بالنسبة لى فالاثنان يجلسان بجانب بعضهما البعض فى دائرة الحياة ولا يفصل بينهما (إلا أقل درجة من القوس).

من هو الرجل الشجاع -هل هو الذى لا يشعر بالخوف؟ وإذا كان كذلك؛ إذاً فالشجاعة ما هى إلا مصطلح مهذب لعقل خالٍ من العقلانية والخيال، إن الرجل الشجاع، البطل الحقيقى يرتعب من شدة الخوف ويعرق ويشعر بأن أمعاءه تتصارع معه وتريد أن تتخلى عنه ورغم هذا كله يمشى إلى الأمام ليقوم بواجبه الذى يهابه.

برغم ذلك فإننى لا أعتقد أن من البطولة أن نتقدم نحو ميادين نيران المعركة لمجرد خوفنا من أن نتهم بالجبن.

فأحياناً تتطلب الشجاعة الحقيقية نوعاً من التراخى: بمعنى أن يجلس المرء فى منزله إرضاءً لصوت الضمير الهادئ المشرف بينما تندلع الحرب.

ففى "كونكورد" وبسبب عملنا فى سكة حديد مترو الأنفاق تعرفنا على العديد من الأشخاص الذين ينطبق عليهم الوصف الأخير، وكان معظمهم من "طائفة الفرندز المسيحية" الذين يؤمنون بأن الله موجود داخل كل إنسان ولهذا لا يجب على أحد أن يستعبد أى رجل أو يقتل أى رجل حتى ولو كان ذلك بغرض تحرير العبيد.

فتلك الطائفة تتميز بسلامها وهدوئها اللذين ينبعان من جوهر العقيدة المسيحية.

وفى أكتوبر ١٨٥٩ ناصر "جون براون" تلك الطائفة وغيرها من الطوائف التى تندد بالعنف أو تستخدم القتل كوسيلة للتحرير. كان "براون" لديه ثلاثة من الأبناء من بين عشرين رجلاً الذين قادهم فى هجومه على مستودع الأسلحة الفيدرالى فى "هاربرز فارى" فى فرجينيا. فقد توقع أن العبيد الذين هم فى المنطقة المحيطة بهم سوف يشنون حملة انقلاب بمجرد أن يعلموا بهذا الهجوم. كان لديه أسلحة وآلاف من الدروع وعربات محملة بالبنادق والمسدسات -كل هذا كان فى انتظارهم.

وقد تعذبت عندما علمت بأن أول من قتل على يد رجال "براون" لم يكن واحداً من هؤلاء الذين يمتلكون العبيد ولكنه كان رجلاً أسود حرًا يدعى

"هايوارد شبرد" يعمل رئيساً لقسم الحقائب بالسكة الحديد كان "براون" يعتقد أن (نحله) - كان يستخدم النحل لوصف العبيد -سوف ينطلقون نحوه ولكن ما حدث هو أن قتل اثنان من أبنائه وعدد آخر من أتباعه وقد جرح وقبض عليه كأسير.

لقد عفوت عن "براون" وما فعله معى منذ فترة طويلة، فقد كان هو السبب المباشر فى ضياع ثروتى، ولكنى مرنت نفسى على النظر إلى تلك المرحلة دون أن أشعر بمرارة أو ألقى اللوم على أحد وإنما سامحت نفسى لأن ارتباطى البرىء "ببراون" قد ورطنى بطريقة أو بأخرى فى تلك الجرائم كان الوسيلة أو السبب فى تدنيس الروابط المقدسة لعائلتى.

علمت بسرعة أنى لست الوحيد الذى أشعر بهذا الحماس، فإن هناك رئيس مدرسة فى كونكورد يدعى "فرانك سانبورن" الصغير، قد شارك بدور كبير فى خطط "براون" أكثر مما تصورت، فقد كان "سانبورن" على وشك القيام برحلة - رحلة الصيد المدرسية السنوية - ولكن عندما ظهر فجأة هارب يلجأ إليه ويقرع بابه طالباً المعونة والمساعدة، سلّم هذا الهارب إلى "هنرى ثورو" وهرب من القرية وهو فى حالة من الذعر والخوف وهو يقول: هناك آلاف من الطرق الأخرى أفضل بكثير يمكن من خلالها الاستمرار فى النضال ضد العبودية أكثر من أن يعرض الفرد نفسه لخطر اعتقاله أو تسليمه إلى حكومة فرجينيا.

إن مساعدة "سانبورن" "لبراون" كانت فى الفترة الأخيرة أما مساعدتى أنا له فقد كانت منذ سنوات

مضت ورغم هذا فقد كنت أسير فى حياتى بحذر مثلما يفعل رجل وهو يسير على طول حافة المنحدر فى يوم ملىء بالضباب، لقد اشترى شخص ما بماله الخاص البنادق "لجون براون" وكان أهل الجنوب ينجمون ليعرفوا من هذا الشخص الذى قام بشراء البنادق له.

فى الأمسيات التى كنت أقضيها وسط عائلتى ونحن مجتمعون معاً فى الردهة، كان الخوف يحيط بى من كل جانب ولا يجعلنى أستمتع بالساعات الجميلة التى كنت أقضيها مع بناتى وأنا أنظر إليهن بسعادة بالغة عندما أراهن جميعهن مجتمعات وجالسات حولى، كنت أنظر إليهن برءوسهن الذهبية والبنية اللون وهن منكبات يقرأن كتاباً أو صحيفة. كان شعر ابنتى "جو" يتساقط على وجهها فى جدول، أما شعر "آنى" المجعد فقد كان مرتباً بعناية تدل على شخصيتها ومتساقطاً على كتفيها الصغيرتين، أما "بث" صغيرتى فكنت أراقبها فهى تتحدث بلطف ونعومة مع قططها الصغيرات، أما ابنتنا الكبرى "مج" وزوجتى "مارميه" فكانتا تعملان معاً شغل الإبرة، كنت أنظر إليهن جميعهن ثم أنظر بعيداً حيث كنت أشعر بهاجس الفراق. إن خيالى فى هذه الفترة لم يصل إلى الحقيقة التى تقول إننى مَنْ سيختار قطع كل هذه الروابط المقدسة ومن سيكون مسئولاً عن انفصال لا يعلم أحد منا أو يتنبأ متى ستكون نهايته.

إن آخرين فى نفس مأزقى وورطتى فعلوا أكثر من أن يغتاظوا فقط أو من مجرد شعورهم بالضيق

والغيظ، مثل الثرى "كويكر جريت سميث" الممول الأعظم والأكبر "لبراون" لفترة طويلة، فهو الذى رتب أن يقوم أصدقاؤه بوضعه فى مستشفى أمراض نفسية وعقلية ليكون بعيداً عن يد الفضوليين الجنوبيين.

لقد رحل "سانبورن" إلى كندا، وأخذ "فريدريك دوجلاس" السفينة إلى إنجلترا.

هل تصرف هؤلاء الرجال كجبناء؟ لماذا اعتقدت ذلك فى هذا الوقت؟ فلم أعتقد فى ذلك الوقت هذا؟ رغم أن "دوجلاس" كتب يعبر عما فعله بطريقة توحى عن عدم قبوله له يقول: "كنت معروفاً أننى دائم الهرب أكثر من النضال، وبالاختبار الذى تلقيته فى هاربزرفارى، علمت أنه وللأسف تنقصنى الشجاعة".

لو كان أهل الجنوب قد قتلوا "براون" فى شوارع هاربرا، وكانوا قد قاموا بشنقه سريعاً فى الأسبوع الذى تلى الغارة، فإننى مقتنع بأن اسمه سيظل مجرد اسم هامش فى التاريخ. فقد وصفوه بأنه مجنون تم تضليله، وكانت هذه الكلمات هى الكلمات الأولى الرقيقة التى قيلت عنه حتى فى بعض الصحف التى تم إلغاؤها بعد ذلك، ولكن "براون" استفاد بذكاء شديد وبمهارة فائقة من الأسابيع الأخيرة التى قضاها على الأرض، وعندما جاء الوقت الذى وصفه فيه مَنْ سيقوم بإعدامه، والسلوك الحسن الذى سلكه فى أسره، وخطابه الذى ألقاه فى المحكمة، والقبلة التى وضعها على حاجب الطفل الصغير العبد وهو

يمشى فى طريقه إلى المشنقة -كل هذا قد غير نظرة العالم إليه ورأيه فيه-.

عندما وصلتنا فى بادئ الأمر أخبار الغارة، انقسمت مدينتنا حول هذا الخبر مثلما تنقسم أمة على نفسها، إن "هنرى ثورو"، الوحيد من بيننا، الذى كان مستعداً بأن يدافع عن قضية "براون". فقد أصبح حقاً مهووساً بهذه القضية وأعلن أنه سيتحدث عنها فى مسرح المدينة. ولكننا جميعاً وحتى "والدو" أشرنا إليه بألا يفعل هذا ولكنه أجابنا إجابة موجزة قائلاً: "أنا لم أرسل إليكم طالباً النصيحة وإنما أن تذيعوا بأننى سوف أتحدث".

عندما رفض رجال المدينة الذين تم اختيارهم بأن يدقوا الجرس ليعلنوا عن بدء محاضرته قام "هنرى" بدق الجرس بنفسه، كان خطابه واحداً من أجمل الخطابات المؤثرة عاطفياً، ولم أسمع منه خطاباً بهذا الجمال من قبل حتى أنه طلب منه فيما بعد أن يلقى هذا الخطاب كثيراً فى أماكن مختلفة فى الأسابيع اللاحقة وفى كل مرة كان يلقى فيها هذا الخطاب كان يحرك الأرض من تحت جمهوره وهو يقول: "منذ ثمانى عشرة سنة صلب السيد المسيح؛ وفى هذا الصباح شنق كابتن "براون". إن هاتين الحادثتين هما نهايات سلسلة ولكن بدون حلقاتها" وكنت أفكر وأنا أسمع هذا الخطاب وأقول لنفسى إن السيد المسيح لم يقتل أحدًا ولم يحكم عليه بالموت لقتل أحد. ولكن عندما استدرت لأرى وجوه الحاضرين فى القاعة،

أدركت أن حرارة خطبة هنرى الملتهبة جذبت انتباه كل الحاضرين وجعلتهم يرحلون بعيداً بعقولهم إلى عالم آخر بعيد كل البعد عن المنطق، "إنه لم يعد "براون" العجوز بعد الآن، قال "هنرى" بوضوح للحاضرين. "لقد أصبح ملاكاً يسعى فى النور... "

وعندما جاء الوقت لنجتمع مرة ثانية فى قاعة المدينة، فى ذلك اليوم الذى تم فيه إعدام "براون"، كان لتحويله من رجل فقد عقله إلى شهيد تأثير كبير على الناس فلقد أصبح تحليل وتصور "هنرى" لشخصية "براون" تصوراً شائعاً ورؤية عامة للجميع.

إن رؤية أهل الجنوب لذلك الموضوع كانت مختلفة تماماً، فإذا فكر شخص ما من الشمال مثل "براون" أن يقتل أحداً من الجنس الأبيض سواء كان يمتلك العبيد أم لا، وتم تمجيده للقيام بهذا العمل، فهذا يعنى إعلان الحرب. إن أهل الجنوب قد بدءوا فى الذم والشكوى من معايشتهم لأهل الشمال الذين كانوا يعيشون بينهم بالفعل؛ وفى يوم ما أخذ واحد من عامة الشعب أحد هؤلاء الباعة المتجولين - كما كنت أنا فى يوم ما - وصرخ فى وجهه قائلاً: "إن محبى الزنوج من أهل الشمال يجب تلوينهم بنفس لون الزنوج" وأخذ يدهن ويطلى الشاب بلون أسود من "الزفت" وطرده خارج المدينة، وفى تلك الأثناء وجد بعض العبيد أن أسرهم أصبح مثل الحبل الذى يلتف حول رقابهم فأصبحوا يشعرون بأن ذلك الأسر يخنقهم؛ وفقد بعض الزنوج الأحرار حريتهم فى التحرك والانتقال من مكان إلى آخر.

كانت إحدى نتائج ذلك هو تأخر بعض "الأمتعة" التى كانت تصل إلى كونكورد عن طريق مترو أنفاق السكة الحديد، وبصراحة كنت مسروراً لذلك، فلم أكن مستعداً أن أضحى بشىء حيث كان ما يشغلنى فى ذلك الوقت هو القانون والدفاع عن تلك القضية.

ولكننى كنت أعلم جيداً أنه ليس ضرورياً أن أظهر مخاوفى لزوجتى "مارميه"، حيث إنها تضايقت بعض الشىء من الخسارة التى لحقت بذلك العمل الضئيل من أجل الحرية، فإن "الصف" الذى يتبعنا كان واحداً من نصف دستة صفوف يجرى من ميناء بوسطن، حيث يكون هناك مركبة للصيد أو للنزهة تعمل كوسيلة لنقل العبيد الهاربين، وأحياناً يجد المختبئون مكاناً بالسفينة للهروب إلى الشمال. إن منازل كثيرة بقريتنا كانت مثل المحطات ومن ثم يقوم بعض الرجال بدور المرشدين حيث يوصلون الأمتعة غرباً إلى ليومنستر و فيتشبرج، حيث تصل القطارات بالأمتعة إلى أصدقاء كثيرين فى كندا، كان كل ما هو مطلوب منا أن نقوم بإمداد هؤلاء الهاربين بليلة واحدة فقط من الطعام والمأوى والأمان فى الوقت الذى يتم فيه تنسيق وسيلة النقل، فى الأوقات العادية، يمكننا أن نرى اثنين أو ثلاثة من الأمتعة مرة كل شهر. وأصبح شيئاً طبيعياً لبناتى أن يرحبن بوجه أسود غريب على مائدتهن حيث كان يلجأ إليهن فى بعض الأحيان أحد هؤلاء الهاربين والذين كنت أحرص على إعطائهم عنوان منزل زوجتى وبناتى، فمنذ نعومة

أظافرهن قد تعلمن ضرورة الكياسة داخل المنزل والحذر والحرص خارجه، ففى مرة واحدة عندما كانت ابنتى "آنى" طفلة صغيرة وجدتها تتحدث خارج المنزل بتفاخر وتباه عن المخبأ القائم أعلى السلم فى منزلنا، وفى تلك الأمسية عندما كنا جميعنا مجتمعين فى الردهة لنقرأ، استبعدت جريدة الـ "سنبسر" وأخذت أقرأ لهن من كتاب "مقصورة العم توم"؛ أو "الحياة بين الوضعاء". وقبل أن نصل إلى منتصف الكتاب، كانت عينا صغيرتى قد امتلأت بدموع من الشفقة والعطف ولم أقل لها أى شىء أكثر من هذا عن أهمية أن تحترس فى كلامها.

فى اعتقادى أننا ساعدنا ثلاث فئات من الناس من أهمهم: الشباب من الرجال وبعض الأزواج، ولكن فقط فى مناسبتين كانت هناك امرأة تقوم بهذه الرحلة الخطرة بمفردها، إن كل هؤلاء بالنسبة لى هم الأكثر تأثيراً علىّ، فقد سبحت فى خيالى وأنا أفكر فى تلك المرأة التى تقوم بهذه الرحلة بمفردها وما يمكن أن تقابله من مخاطر وأهوال.

كانت هناك فتاة جاءت إلينا فى ليلة من ليالى يناير الباردة جداً وكانت هى أول من يسافر منذ غارة أكتوبر الماضى، كنا مجتمعين حول نار موقدة مسرورين بوجود مخزون وافر من الخشب لدينا وهو نتاج مجهوداتى فى الغابات فى فصل الخريف، وعندما سمعنا صوت أحد يحمل طقم فرس وصراخاً خارج نافذتنا، ذهبت كل الفتيات ليرين من القادم فى

تلك الليلة الباردة، وفى الحال تعرفنا على عربة صديقنا مستر "بينجهام" من ميناء بوسطن وخرجت كل واحدة من الفتيات لتقوم بعملها تجاه ذلك الزائر القادم فى الليل، أسرعت كل من "مج" و "بث" إلى المطبخ لتقوما بتسخين الخبز ولترى إذا كان هناك ما تبقى من التفاح المخبوز من العشاء. وصعدت "جو"، بطريقتها الصبيانية، المعتادة إلى فوق لتحضر الحجرة التى تستخدم للنوم فى السطح، أما "آنى" فأخذت على عاتقها مهمة أن تبقى معنا وتقوم بدور صاحبة المنزل المرحبة بضيوفها.

كان مستر "بينجهام" مغطى بالفراء حتى عينيه، ورفض أن يدخل إلى المنزل وهو يقول: إنه يرفض أن يترك الحصان بالخارج فى مثل هذا الجو الشديد البرودة، فخرجت إليه وذهبنا معاً إلى عربته وقمنا بجذب السترة القصيرة التى كانت تخفى وراءها شيئاً، وظهر شكل إنسان مغطى تماماً بالفراء، ظهر كشكل صبى ولكن "بينجهام" قدمه على أنه فتاة تدعى "فلورا" فأدركت أن ذلك الملبس الذى يوحى بأن ما وراءه صبى هو مجرد زى للتنكر. ولمحت بعينى أن تلك الفتاة لا ترتدى حذاء وإنما هناك قطع مرقعة مربوطة حول قدميها، فعرضت أن أحملها فوق كتفى لأمشى بها على ذلك الطريق الجليدى المؤدى إلى البيت. فنظرت إلىّ بعينها السوداوين الكبيرتين ثم نظرت بعيداً فى خجل، رأيتها ترتعش من شدة البرد فعرفت أن ذلك إشارة على موافقتها، فحملتها فوق كتفى وعاد مستر

"بينجهام" إلى مقعده فى عربته وعندما وصلنا إلى باب منزلنا كان يصيح من بعيد: "مع السلامة وحظ سعيد" كانت بالكاد كلماته تُسمع خلف أصوات عجلات العربة وهى تشق طريقها على ذلك الطريق الجليدى.

كان وزن تلك الفتاة "فلورا" أقل من ابنتى "آنى" على الرغم من أنها كانت فى نفس طول ابنتى "مج" وكان حكمى عليها عندما أجلستها بجانب المدفأة ونظرت إليها أنها فى نفس عمر "مج" أيضاً، كانت ترتدى معطف رجل ذا مقاس أكبر بكثير من مقاسها ويبدو أن "بينجهام" قد أعطاها إياه، كان المعطف مشدوداً على جسمها وحول خصرها حتى وهى تجلس بجانب المدفأة ولكنها رفعت يديها لتجذب قطعة مرقعة من قماش يشبه قماش الفرو متسخة قد استخدمتها لتخفى وجهها، فقد كان وجهها لا يبدو عليه على الإطلاق ملامح وجوه الصبيان وإنما كان وجه فتاة صغيرة وجميلة وذلك رغم شعرها المتجعد غير الممشط الذى يشبه شعر الصبيان، ورغم تعب الرحلة ومشقتها فإن وجهها كان وجهاً جميلاً ورقيقاً وكانت عيناها كبيرتين ومعبرتين.

وعندما كانت زوجتى "مارميه" تتحدث إليها بكلمات مرحبة هادئة ومطمئنة، أحضرت ابنتى "بث" فوطة مبللة دافئة لتغتسل وأعطتها "لفلورا" التى عندما رأت تلك الفوطة المبللة أصدرت صرخة غامرة بالفرح وأخذت تلك الفوطة ومررتها على وجهها

ويديها ورقبتها، ثم تناولت فنجاناً من شاى الكومو ميل الساخن وهى تلف يديها حول الفنجان الساخن لتدفئهما.

لقد لاحظت زوجتى "مارميه" حالة قدمىّ "فلورا" التى يرثى لها وهمست "لبث" بأن تحضر بقية الماء الساخن فى إناء عميق، وبدأت فى فك القطع المرقعة المتسخة المربوطة حول قدمى "فلورا" لترى المفاجأة؛ قطعة من اللحم ملتصقة بقطعة قماش سوداء، وهذه القطعة تم تقشيرها من قدم الفتاة، أطلقت زوجتى صرخة "يا عزيزتى إننى حقاً آسفة" لم يبد على "فلورا" أية رد فعل أو أية إشارة للألم، وضعت فنجان الشاى على المنضدة ومالت إلى الأمام لتستكمل فك الأربطة حول قدميها الحمراء التى كانت مصابة بالقرحة، ووضعت قدميها فى الماء الساخن وتحركت بألم وهى تضعهما فى الماء الساخن للحظة ثم رحبت بهدوء شديد بالطبق الذى قدمته إليها "مج" والذى كان به قطعة من الخبز والتفاح المخبوز.

لقد تعلمنا فيما مضى ألا نسأل مسافرى السكة الحديد وذلك لأسباب علمية وطبية، فإن هؤلاء الذين كانوا يأتون إلينا، كانوا يعانون الخوف والتعب كما كنت أتخيل دائماً كثيراً ما كانوا يشعرون بالحزن لما تركوه خلفهم -من عائلات، ربما.. أو أصدقاء.. وكل ما هو مألوف ومعروف لديهم، فإن الوطن هو الوطن حتى ولو كان ذلك الوطن محكومًا من جهة أخرى، وبالنسبة لهم ولأى شخص فإنه ليس من السهل ترك ذلك

المكان، الذى هو منزلهم كما أنهم يعلمون جيداً أن هروبهم هذا ليس نهائياً، وكانت زوجتى قد شرحت لى وقت زواجنا - أنه كلما علمنا أقل كان ذلك أفضل، حيث لا يكون لدينا فرص لخداع أحد ولو بالخطأ، وكم كان هذا مهماً حقاً، فبناتنا كن صغيرات، وهذه التفاصيل مثل الطريق أو اسم شخص ما أو مكان ما من الجائز أن تتفوه بها إحداهن دون قصد أو يطلقونها بصدق ودون قيود إذا ما سألهم أحد عنها.

استمرت زوجتى "مارميه" فى مخاطبة "فلورا" بكلمات مطمئنة وهى تقوم بدهن قدميها بمرهم بالنعناع وربطهما بضمادات نظيفة، وعندما أعطت قطع القماش المتسخة "لآنى" لتلقى بها بعيداً ثم تحرقها رجعت "آنى" إلى الوراء وأخذت يداها الصغيرتان البيضاوان ترتعشان وهى تضعهما خلف ظهرها، فنظرت إليها "مارميه" نظرة مرعبة، يمكن أن تثلج بحيرة وأخذ وجه "آنى" فى الاحمرار، وأخذت حزمة الأربطة المتسخة من يد والدتها بحذر شديد بعيداً عن فستانها النظيف غير المبقع إلى خارج الغرفة.

عندما انتهت "فلورا" من طعامها وشعرت بالدفء، أخذتها "مارميه" و "مج" إلى المطبخ حيث قامت "هنا" بتحضير حمام ساخن لها، ومن هناك ساعدوها على الصعود إلى السطح حيث الحجرة المعدة لها للنوم والتى جعلتها "جو" تبدو جميلة ومريحة للنفس ومضيئة حيث جهزتها "جو" بالشموع وعدد من الألحفة ومدفأة صغيرة للسرير.

وحيث إنى لم يكن لى دور محدد فى تلك الأدوار التى قامت بها نسائى فقد قررت أن أخلد للنوم، وعندما انضمت لى "مارميه"، كان يبدو على وجهها ملامح الألم، أغلقت الباب ووقفت وظهرها مضغوط على الباب وعيناها مغلقتان. وتنهدت بعمق شديد.

ماذا بك يا حبيبتى؟ أليست الفتاة مستريحة الآن؟

"راحة! أشك أنها تعلم حتى معنى هذه الكلمة"، ذهبت إلى السرير وألقت بنفسها عليه، وكانت أصابع يديها تمر بغضب على ذيل فستانها، مددت يدى واقتربت منها لأساعدها فى حمل ذلك الألم الذى بداخلها ولكنها بعدت يدى عنها بعيداً واستدارت لتواجهنى، كان هناك شىء فى وجهها -علامة تبدو كعلامات الغضب الذى كان يظهر على وجهها فى الماضى مثل ظل سحاب يمر على حقل مشمس، وأخذت تقول: "إن هذه الفتاة تحمل بداخلها طفلاً" قالت هذا بوضوح شديد وأكملت قائلة: "إنها لمعجزة أن الجنين مازال بداخلها حيث إن ظهرها عليه بالكامل علامات حديثة لـ..." وفى هذه النقطة خفت صوتها ووقفت عن الكلام ودفنت رأسها فى كتفى.

كانت رغبة "مارميه" شديدة فى أن تبقى "فلورا" طوال فترة حملها وحتى موعد الولادة، فلم ترغب "مارميه" فى أن تتركها بمفردها وأن تدعها تذهب - وهى فى تلك الحالة -لمستقبل مجهول فى بلد جديدة، رغم أن الترحيب بها بين السود الأحرار فى كندا كان

مضموناً إلا أن "مارميه" كانت قلقة عليها حيث إن هذا المجتمع الجديد الحر فى كندا لديه مصادر دخل قليلة. وقد اقتنعت بوجهة نظرها، فأهوائى الخاصة الأنانية، لم تمكننى من التفكير بموضوعية مثل زوجتى. كنت أعلم أن القانون الخاص بالعبد الهارب ينفذ بحذافيره على كل هارب حتى فى ماسوتشوستس وأنا لا أستطيع أن أبقى الفتاة معنا وبداخلها طفلها وأعرض حياتها وحياة مَنْ بداخلها للخطر اليومى أو احتمالية العودة إلى العبودية مرة أخرى. ومن ثم قررنا أن تمكث معنا لمدة أسبوعين فى أمان حتى تلتئم جراح قدميها وتقوم "مارميه" زوجتى بخدمة الأم الصغيرة بمهاراتها الفائقة كأم.

فى الأيام التى تلت تلك الفترة، حاولنا الالتزام الصارم بأعمالنا اليومية الروتينية حتى لا نلفت نظر أى شخص بأن هناك دوراً جديداً نقوم به فى المنزل وحتى لا نجذب أى انتباه غير مرغوب فيه، فكانت "مج" تذهب إلى عملها مع أطفال الملك وفى هذا الأسبوع لم أبد رأياً فى ذلك كما كنت أفعل من قبل عندما كنت أقول لها عن صعوبة "أن تلهث وراء أطفال مدللين طوال اليوم". وكذلك "جو" لم يكن لديها ما تقوله عن عمتها ونوباتها الهستيرية وكذلك "آنى" لم تصدر منها شكاوى كما كان يصدر من قبل عن زملاء مدرستها الذين يثيرون الغيظ.

كنت أرى "فلورا" قليلاً، ورغم كلماتى الهادئة والمطمئنة التى كنت أخاطبها بها إلا أنها كانت تبدو

فى خجل شديد منى إلى درجة الخوف ولم أفرض نفسى عليها مدركاً تماماً الأسباب العديدة التى يمكن أن تجعلها تربط الأشياء الشريرة السيئة بالرجال ذوى البشرة البيضاء الذين هم فى مثل عمرى، ولكن "مارميه" نبهتنى أن "فلورا" أيضاً تنسحب تماماً من التعامل مع أى شخص بصورة غير مفهومة.

كانت "بث" ابنتنا التى أشبهها دائماً بالفأر الصغير، هى النموذج الأمثل للخجل والتجسيد الحقيقى له، والغريب أنها هى التى استطاعت أن تأسر قلب "فلورا" بل وتقتحمه وتعرف الكثير من أسرارها الداخلية الدقيقة، إن روح "بث" الرقيقة وصحتها الضعيفة جعلتها لا تستطيع مواجهة العالم الخارجى ومن ثم لم تذهب "بث" يوماً إلى المدرسة أو إلى العمل، ولكنها ظلت بالمنزل تساعد "هنا" باجتهاد شديد فى الأعمال المنزلية، وتتلقن العلم منى ومن والدتها، لم تستطع "فلورا" أن تترك المنزل وتذهب لتستنشق الهواء فى الخارج خوفاً من أن يراها أحد - فلقد صارت هذه القضية فى غاية الأهمية، حتى فى "كونكورد"، فالغارة التى أثارها "براون" قد رفعت من درجة حرارة الناس وشعورهم تجاهها، وكانت القرية بمثابة محطة انتظار للمسافرين الهاربين ولسائقى الخيل الذين كانوا يقفون بهذه المحطة ويذهبون للحانات للشرب وتناول الوجبات الخفيفة وأخذ قسط من الراحة.

ولأن الجو ظل قارس البرودة، وكانت زائرتنا فى حاجة شديدة إلى الراحة فلم يكن صعباً على الإطلاق

أن تظل داخل المنزل ولكن ابنتنا الصغيرة "بث" التى تحب الطبيعة بمختلف فصولها كانت تخرج إلى الحدائق والمتنزهات يومياً للنزهة وتحضر معها من خيرات الطبيعة أشياء كثيرة ومختلفة من أنواع النبات والفاكهة وتضعها داخل حجرة "فلورا" الصغيرة لتذكرها بالعالم الخارجى.

أحياناً فى أثناء النهار، عندما كنت أمر بجانب الدرج، كنت أسمع صوتين رقيقين يتحدثان إلى بعضهما: كان صوت "بث" بالطبع مألوفاً بالنسبة لى وهمساتها مألوفة أيضاً ثم أسمع الصوت الآخر غير المألوف الذى يشبه أصوات أهل الجنوب وهو يجيب عليها، كنت أتوق لأعرف عما يتحدثان: فإن الفأر الذى ينتمى لى والذى يبلغ من العمر أحد عشر عاماً كان دائماً بداخل المنزل وحياته لم تتلوث مطلقاً بالعالم الخارجى، بينما الفتاة المسكينة الأخرى التى لا يزيد عمرها على الخامسة عشرة قد تعرضت إلى فساد العالم وانحلاله البائس، كنت قلقاً على براءة ابنتى وعلى صفاء ذهنها من أن يتأثرا بما تسمعه، ولكن تدخلى فى اتحادهما هذا، سيبدو غير لائق. كانت لدى ابنتى الصغيرة التى أطلق عليها أحياناً "آنسة الهدوء" روح تتسم بالعطاء والتضحية من أجل الآخرين وبالطبع فضيفتنا الفقيرة تحتاج بشدة إلى صديق.

وفى إحدى فترات الظهيرة وبعد مضى ثلاثة أيام على بقاء "فلورا" معنا بالمنزل، كنت فى غرفة مكتبى أقرأ باهتمام مخطوطاً جديداً كتبه "والدو" وكان قد

طلب منى أن يعرف رأيى الشخصى بعد قراءته وطلب أيضاً أن أكتب تعقيبى عليه، وبالكاد سمعت شخصاً يطرق الباب وعندما سمعت ذلك الطرق الخفيف ثانية رفعت رأسى: "نعم"؟

"أبى" قالت فأرى "هل يمكننى الدخول"؟

"بالطبع يا حبيبتى الصغيرة! قلت واضعاً أوراقى بجانبى ونهضت واقفاً، إن هذه المقاطعة ليست من طبيعة "بث" وحيث إنى لم أرد أن أجعلها تشعر بعدم الترحاب، تحركت تجاه الكرسى الذى بجانب المدفأة حيث لا يقف مكتبى كحاجز بيننا وأشرت إليها بأن تجلس على ركبتى.

كانت قبضة يدها الصغيرة خلف المريلة التى ترتديها ترتعش قليلاً بعصبية، أخذت يدها الصغيرة فى يدى وفردتها ثم قبلت أصابعها الصغيرة وابتسمت لها ابتسامة مُشجعة قائلاً: "ماذا بك يا عزيزتى"؟.

"حسناً إنى أعلم أننا لا نستهلك الجبن واللبن وذلك لأن هذا يعد ملكية خاصة للمواشى ولكننى أتساءل إذا كنت تعتقد بأن المواشى لا تمانع فى أن تمنح قليلاً من ألبانها "لفلورا" حيث إنها نحيفة جداً فهى تعمل منذ نعومة أظفارها فى مصنع فى "ريتشموند" -أوه! ووضعت يدها على فمها: "ليس من المفروض أن أقول هذا".

"لا تقلقى، يا حبيبتى، السر فى أمان معى استمرى".

نظرت إلىّ نظرة بها ثقة واطمئنان "إنى أعلم هذا، يا أبى" تجعد حاجبها الناعم وهى تقول هذا،

وآكملت قائلة: "دائماً كنت أظن أنك تعلم حتى ونحن نقرأ كتاب "مسز بيشرز"، أن العبيد - على الأقل - لديهم الهواء الطلق وضوء الشمس والأرض الدافئة ليعزيهم كل ذلك، لم أفكر مطلقاً فى المصانع الواقعة فى الجنوب أو أن هناك آناساً يمكن أن يتم حبسهم ويستعبدوا للعمل الشاق المجهد داخل المصانع مع الماكينات السيئة التى لا ينبعث منها شيء سوى ذلك الضجيج الذى تصفه لى فلورا..". ثم تدلت رأسها إلى أسفل وأعطيتها منديلاً لتمسح أنفها. ومددت يدى برقة على شعرها الناعم المفرق على الجانبين بجمال فى المنتصف. فأكملت حديثها قائلة: لقد مشت "فلورا" ستة أيام على قدميها قبل أن يمسكوا بها فى المرة الأولى وجذبوها بقوة لتعود، وقاموا بضربها بالكرباج واستمرت فى الهرب مرة ثانية بعد مرور أسبوعين، إنها فتاة شجاعة جداً يا أبى ومن الواضح أنه سيكون دائماً هناك العديد من الصعوبات أمامها لتواجهها بمفردها ولذلك تقول "هنا" إن هذه الفتاة فى حاجة إلى الطعام الجيد المكون من الألبان.."

حبيبتى، إنك على حق تماماً ومن الحكمة أيضاً أن تفكرى فى هذا الموضوع. عليك أن تقولى لـ "هنا" أن تفعل ما تشاء بما لدينا من خزين وتموين من الألبان فى الوقت الذى تمكث "فلورا" معنا فيه، فأى شيء تحتاجه الفتاة ونستطيع توفيره، سوف تحصل عليه".

نظرت إلىّ "بث" نظرة بها بريق ونزلت من على حجرىَ وهرعت مسرعة إلى المطبخ، وعندما غادرت

الحجرة نهضت من فوق الكرسى ومشيت قليلاً فى الحجرة أفكر فى تلك الذكريات التى كثيراً ما أردت قمعها ذكريات يوم حار، مزرعة صغيرة مظلمة وكرباج يضرب جسداً عارياً لشابة صغيرة، ذهبت إلى الشباك وحدقت فى الأشجار المظلمة الكئيبة التى يكسوها الثلج، وشعرت بغضب شديد مثل البركان ينفجر بداخلى، ودون أن أشعر وجدت نفسى أكسر الزجاج بقبضة يدى بقوة فتشقق داخل إطاره.

وحيث إننا كنا دائماً مضطرين أن نتابع عاداتنا واهتماماتنا العادية بصراحة لم أتمكن أنا وزوجتى "مارميه" إلا أن نلبى دعوات أصدقائنا للغداء أو للعشاء. ومن ثم ذهبنا مرة لتناول وجبة الغداء تكريماً "لناثنيال هوثورن"، الذى عاد مؤخراً لقريتنا بعد سنوات قضاها فى الخارج، دار نفس الكلام والصمت الذى يتسم بهما الحديث عن "جون براون" دائماً، أخذ يتحدث عن عمله الدائم وعن كبار السياسيين من أهل الجنوب القاطنين فى واشنطن وسعيهم وراء من يتآمرون من أنصار "براون"، كل هذا الحديث جعلنى أشعر بعدم الراحة خاصة عندما أبدى "هوثورن" رأيه فيما حدث لى فى الماضى من قبل "براون" وقال: "لم يشنق أحد من قبل فى منتهى العدل مثل هذا الرجل". نظرت إلىّ كل عين فى الحجرة كانوا متوقعين أن يسمعوا دفاعاً عن "براون" ولكننى مكثت صامتاً.

فى اعتقادى أن "مارميه" زوجتى شعرت بما أشعر به من شعور بعدم الراحة، وشكت من صداع خفيف

ألم بها وأصبحنا من أوائل من بادروا فى مغادرة حفل ذلك الغداء. وفيما نحن نسير متخذين الطريق الأقصر لمنزلنا مسكت بذراعها بشدة أكثر من العادة وتذكرت كل الأوقات التى مشينا بها فى هذا الطريق فى سنواتنا معاً وفكرت، بأنه كان من الصعب علىّ اجتياز هذه المرحلة دون مرافقتها لى وأنه لولا وجودها معى وبجانبى فى هذه المرحلة لما نجوت منها، وعندما وصلنا إلى بوابة منزلنا، رأيت علامات حذاء بوت ثقيل على الطريق، أسرعت إلى الباب وعندما فتحته، رأيت "هنا" ساجدة على يديها وركبتيها تمسح آثار الأقدام الموحلة التى كانت داخل المنزل.

"شكراً لك يارب، إننى سعيدة بعودتكم" قالت "هنا" إن هذه الفتاة فى حالة جيدة، واتجهت برأسها إلى الردهة حيث كانت ترقد "بث" على الأريكة وعلى وجهها ملامح التوتر والدموع تذرف من عينيها.

"ماذا حدث؟ صرخت "مارميه"، وهى تجرى لتسجد بجانبها وتلمس رأسها لترى إذا كانت هناك بوادر حمى.

"لقد جاء الشرطى يبحث عن فلورا" قالت "بث" وكان صوتها يرتعش "لم أكن هنا" قاطعتها "هنا" "لقد ذهبت إلى السوق وقد واجهت "بث" كل هذا بمفردها".

كانت عينا "بث" مليئتين بالدموع، أخذتها "مارميه" بين أحضانها وأحاطتها بذراعيها. "إنها

ليست غلطتك! لم يكن بيدك شيء يمكن أن تقومى به لتنقذيها..." "بلى ولكنها أنقذتها وهذا هو الشيء المذهل". قالت "هنا" وهى تنهض من الأرض بثقل وتقذف بالخرقة الموحلة فى الدلو". نظرت "هنا" إلى "بث" التى كانت تجلس الآن ورأسها على كتف "مارميه". "مَنْ كان يستطيع التخمين أن تكون لديها كل هذه الشجاعة! سأعد بعض المشروبات الساخنة لكم جميعاً، أظن أنكم جميعاً بحاجة إليها".

غادرت "هنا" المكان وطلبت "مارميه" بلطف أن تحكى "بث" ما حدث، وبصوت خافت بدأت "بث" تحكى لها عن كيف سمعت الطرق الثقيل على الباب.

"كنت ألعب أنا و"فلورا" بالقطط الصغيرة فوق فى حجرتى، ولكن حرصاً على أن تكون "فلورا" فى آمان، أسرعت "فلورا" إلى حجرتها بينما نزلت أنا لأرى من الطارق وبمجرد أن فتحت له الباب ألقى بنفسه إلى الداخل دون أن يقدم نفسه أو يقول شيئاً لدرجة أنه لم يعبأ بعدم وجودكم بالمنزل"، "كان صوته عالياً وغاضباً وقال إن لديه معلومات تفيد بأننا نخبئ فى منزلنا أحد العبيد الهاربين فقلت له إن هذه المعلومات ليست صحيحة".

"بث"! قلت اسمها بتعجب شديد، فلم أصدق أن هذا الفأر الصغير يمكن أن يتحدث إلى شخص غريب ويقوم بمواجهته بجرأة بل يدعى أمامه شيئاً باطلاً خاصة إذا كان هذا الشخص صاحب صوت عالٍ وضابط فى الوقت نفسه.

"لم يكن ما قلته كذباً أو شيئاً باطلاً يا آبى" قالت "بث" بهدوء شديد وكأنها تقرأ ما يدور بذهنى. "فقد قلت له إنى لم أر عبداً فى هذا البيت، وهذه حقيقة واضحة وبسيطة، ألم تقل لنا عدة مرات من قبل إنه ليس هناك عبيد فى عينى الله؟ فالله يرى كل شىء وإذا رأى أنه ليس هناك عبيد فى هذا البيت، فكيف يمكن أن يكون هناك عبيد؟"

تبادلنا أنا ووالدتها نظرة فوق رأسها ذى الشعر البنى، وشعرنا بالسعادة لوجود طفلة تمنحنا الشعور بالرضا مثل "بث".

كان الشرطى وقحاً جداً وقال إنه لابد أن يرى هذا بنفسه وبدأ يقفز فوق الدرج إلى أعلى ولكننى اعترضت طريقه وقلت له قبل أن يرى شيئاً لابد وأن أرى تصريحاً رسمياً بذلك. فتغير لون وجهه حيث إنه لم يكن لديه تصريح بتفتيش المنزل فغادر مسرعاً".

"بث"، قلت لها "إنكِ مدهشة".

إن الحقيقة المؤسفة أنه رغم أن الشرطى لن يتمكن من إيجاد حاكم أو قاضٍ فى كونكورد ليعطى له تصريحاً، فقد كان هناك العديد من الحكام والقضاة فى ماسوتشوستس الذين يناصرون القانون المسمى بـ "قانون العبد الهارب" وحيث إننى كنت راضياً عن حرفتى التى هى التجارة وفخوراً بها لم أشأ أن أجازف بحرية "فلورا" بأن أعرضها لاختبار تفتيش كامل من قبل الشرطة، ولهذا قدرت ضرورة أن تتركنا "فلورا"، وبسرعة أرسلت "هنا" لنتشاور مع أصدقائنا

وبمجرد أن حل الظلام، وصل "هنرى" ليأخذها بعيداً حيث يعيش "أدوين بيجلو"، الحداد والذى سيرتب لرحلتها المقبلة، كانت "جو" و "مج" فى عملهما ولم تتح لهما الفرصة لوداع "فلورا"، أما "بث" و "آنى" فكانتا تذرفان الدموع وكذلك والدتهما "مارميه" وشعرت أنا أيضاً بأنى سأبكى لرحيلها، أما "فلورا" فقد جفت الدموع فى عينيها ولكنها قبلّت "بث" قبل أن يأخذها "هنرى" بعيداً عن المنزل هناك فوق التل خلف منزلنا وعبر الطرق الخشبية التى تؤدى عبر طريق خاص إلى منزل الحداد.

بعد مرور عام، استلمنا خطاباً من سيدة كندية تعمل عندها "فلورا" وقد طلبت منها "فلورا" بنفسها أن تكتب لنا هذا الخطاب، أرادت أن تخبرنا فيه أنها رغم أن طفلها الذى كانت تحمله فى أحشائها لم يعش إلا أنها كانت تتمتع بصحة جيدة وعلى ما يرام، وأنه "رغم حزنها الطبيعى على مصير طفلها وقدره" كما كتبت السيدة الكندية فى خطابها "إلا أنها تحمل رؤية متفائلة للمستقبل وتضع ثقتها فى الله الذى كما تقول، لم يحررها من تلك العبودية التى كانت تعيشها فى مصر دون أن يكون لديه خطة لها ولمستقبلها، حيث إنه ترك العديد من العبيد الآخرين مقيدين بسلاسل العبودية، إنها فتاة ذكية وأنا أعلم أنه ليس من الضرورى أن أحكى لك عن شجاعتها وحزمها، إننى أقوم بتعليمها الآن حروف الهجاء فعليك أن تتوقع خطاباً تكتبه لك بيديها فى المستقبل".

وهـذا مـا حـدث فلقـد وصلنـا ذلك الخطـاب بعد يوم من تقديم "جفرسون ديفيز" باستقالته عن مقعده فى مجلس الشيوخ فى "الولايات المتحدة" التى لم تعد متحدة، فقرأت الخطاب ثم الجريدة بصوت عال لبناتى حيث كنا مجتمعين جميعاً فى الردهة، وكنت قبل رحيل "ديفيز" قد قرأت بأنه قال لزملائه فى مجلس الشيوخ "إنه لا يشعر بالعداء تجاه أى شخص وأنه يتمنى لهم جميعاً أن يكونوا دائماً بخير وبصحة جيدة، وطبقاً لمصدر بمجلس الشيوخ فقد أشار "ديفيز" بأنه سيقضى أمسيته فى الصلاة من أجل السلام".

نحن جميعاً نصلى من أجل السلام. ولكننى بداخلى وفى أعماقى كنت أنتظر دائماً نشوب حرب. فمثلما يمهد الشتاء ببرده الشديد الذى يتسم أحياناً بالكآبة لفصل الربيع، فقد كان من الواضح بالنسبة لى أن "جون براون" كان دائماً على حق ليس فى نبذه للرعب والإصابات التى تحل بالناس ولكن فى نبوءته بحتمية حدوث مذبحة دموية، فكيف يمكننا أن نتجاهل ذلك الشر الذى نراه يحدث بيننا لأبرياء مثل الفتاة ذات القدمين المدمرتين والظهر المجروح من إصابات الجلد والتى هربت من أيادى المستعبدين لترقد فى حجرة صغيرة وضيقة فوق درج منزلنا.

وفى بداية فصل الصيف وقعت الحرب فاحتشد الجنود الأشبال فى مكان يطلق عليه الـ "كاتل شو" وكان من المتوقع أن يتوجهوا إلى جنود قريتنا ومثل

بقية المواطنين مشينا معهم الطريق الوعر بأكمله جنوباً حتى نبهج نفوسهم كان كثير من الشباب يعرفوننى وصرخ واحد منهم قائلاً لى: "ألن تلقى علينا كلمة، مستر مارتش؟" وفى الحال أخذ الباقون يصرخون ووجدت نفسى أندفع تجاه حشد من الشباب أصحاب الوجوه الجريئة الذين ساعدونى لأصل إلى منبر غير ثابت من خشب شجر ساقط على الأرض، كانوا جميعهم ينظرون إلىّ وفى أعينهم حماس ولهفة شديدة، هؤلاء الشباب الذين سوف يعّرضون حياتهم للموت. وجدت نفسى أتساءل كم منهم سيتمكن من العودة سالماً إلينا؟ وقعت عيناى على شاب منهم ذى شعر ذهبى يشبه لون الرمال، كان وجهه شاحباً ويبدو عليه أنه شارد الذهن يفكر فى شىء ما بعمق شديد، تعرفت عليه إنه ابن إحدى عائلات أهل الشمال، وفيما أنا واثق ومتأكد أنه قد عانى الكثير من الصراع الداخلى وكلفه كثيراً أن يكون هنا، قلت:

"هل تعلمون أنه حتى هو الذى نطلق عليه ملك السلام قد قال يوماً لتلاميذه: "إن الذى ليس لديه سيف فليبع رداءه ويشترِ واحداً" والآن جاء هذا اليوم ، فنحن لم نطلب أن تتسلط علينا الحرب بشرها ولكن هذا ما حدث ولذا دعونا نتأمل اليوم لماذا نذهب إلى الحرب وما الذى نحارب من أجله".

ألا يقول الكتاب المقدس "إننا عن أنفسنا سنذهب مستعدين ومسلحين أمام بنى إسرائيل، حتى نعيدهم إلى مكانهم... فلن نعود إلى ديارنا حتى يرث بنو إسرائيل ميراثهم".

"فنحن نذهب إلى الحرب لأنه بداخل ذلك البلد المبارك أرض غير مقدسة، أرض أصبح فيها تعليم كلمة الله وتوصيلها للشعب يعد جريمة كبرى، نحن نذهب إلى الحرب لأن بداخل هذا البلد أرضًا تقبض وتعتقل كل هؤلاء الذين ربطهم الرب معاً، ونحن نذهب لأن بداخل هذا البلد أرضًا يمكن أن يطلق عليها، بل لابد أن يطلق عليها "أرض ملعونة" فلابد أن نتحرك ونخلع الشر من جذوره الكامنة هنا" وحتى وأنا أصرخ بتلك الكلمات شعرت بفراغهم الداخلى الذى يعانون منه، فكيف يمكن أن تؤثر تلك الكلمات فيهم وهم يفكرون فيما سيقومون به؟ إن القيام بالفعل هو المهم الآن وليست الكلمات.

توقفت لأمسح العرق من جبينى ونظرت إلى الرءوس المنحنية أمامى ورأيت رأس زوجتى "مارميه"، كانت رأسها مرفوعة إلى أعلى تنظر مباشرة إلىّ والدموع فى عينيها، فلقد سمعت الحقيقة تقال فى كلماتى وتعّرفت على النية التى بداخلى حتى قبل أن أعرفها بنفسى، مكثنا ننظر إلى بعضنا البعض للحظة طويلة، فقرأت السؤال الذى كان واضحاً على وجهها كما لو كانت قد صرخت به عالياً فأومأت لها برأسى.

قلت "سنذهب" عرفت هى قبل أن أعرف أنا أننى أقصد هذه الكلمة، فقد رفعت كفى يديها كعلامة للموافقة كما لو كانت تضع الرياح تحت جناحى ولهذا صرخت بصوت عالٍ:

"أنـــا أقـــول "نـــحن"، لأنه إذا أراد الجـــيش أن يصطحبنى معه، فأنا أعرض أن أذهب معكم"، فرفع

الشباب رءوسهم وصرخوا بصوت عالٍ فأسكتهم وأكملت قائلاً: "سنذهب ومعاً سنعود، بمشيئة الله، فى ذلك اليوم العظيم البراق، حتى يرث بنو إسرائيل ميراثهم، وذلك الميراث سيكون أمة واحدة حرة إلى الأبد".

نزلت من على المنبر وشققت طريقى بين الجموع وبين من كان موجودًا من الصحفيين إلى "مارميه"، كانت فخورة بى لدرجة أنها لم تتمكن من الكلام ولكنها أخذت يدى فقط وضمتها إليها، وكانت قبضة يدها قوية مثل قبضة الرجل.

عاملتنى القرية كما لو كنت بطلاً فى الأسابيع اللاحقة، فقد حل الخير والتبجيل إلى بيتنا من أهل "كونكورد"، جمعوا النقود وأعطونى إياها وكل واحد من أهل "كونكورد" كان يرغب فى تهنئتى، وإذا كان أحدهم قد شعر بأننى وقح لتفكيرى فى الانضمام لصفوف الجيش وأنا فى مثل عمرى فإنه لم يجرؤ أن يصارحنى بذلك فيما عدا زوجة عمى "مسز مارتش" التى صارحتنى بهذا بمنتهى الحرية والجرأة ووصفتنى بالغباء الشديد وبأننى أب غير مسئول وتنبأت بأننى بالقطع سوف أموت هناك وأترك عائلتى فى حالة يرثى لها، شكرتها على صراحتها وطلبت منها أن تصلى من أجلى وأن تباركنى فيما قررت القيام به.

وهذا ما حدث أسند قائد وحدة كونكورد مهمة خدمة كاهن بالجيش إلى قس آخر صاحب آراء متحفظة وأصولية أكثر منى، ولهذا لم أرحل مع شبابنا ولكننى كنت قد قررت فقلت إننى سوف أذهب كما

أننى لم أستطع التخلى عن المعونات المادية التى قُدمت لى ولهذا قام القس "داى" بترشيحى لوحدة حافلة بأبناء الأغراب من مدن أخرى مثل مدن الطواحين فانضممت إليهم فى ذلك الخريف وقمت بخدمتهم على أكمل وجه وبقدر استطاعتى وبرغم أن مدة هذه المهمة كانت قصيرة لكنها أحضرتنى هنا إلى خدمة شعب "أوك لاندينج".

والآن قد مر عام على انضمامى لصفوف الجيش وعلى العهد الذى أخذته على نفسى بالذهاب إلى الحرب وهأنا أستيقظ كل يوم وأتصبب عرقاً فى مخزن للحبوب فى "أوك لاندينج" لأرى نفسى فى حالة عدم استقرار وعدم اتزان فلا أدرى ماذا سوف يحدث بعد ذلك. فقد مرت شهور كثيرة وهناك الكثير من الأميال بينى وبين ذلك المكان الذى ألقيت فيه تلك الخطبة والتى قررت فيها حينذاك أن أذهب إلى الحرب، وفى يوم ما أود أن أعود.... إلى زوجتى، إلى بناتى وأيضاً إلى الرجل ذى الآراء والأخلاقيات اليقينية الذى كنته فى يومٍ ما؛ ذلك الرجل البرىء الذى كان يعلم جيداً وبثقة ما الذى كان عليه أن يفعله بالضبط.

الفصل الحادى عشر

القمر الأحمر

إن المشهد الذى دائماً أود العودة إليه عندما أريد أن أحجب الصور التى تأتى بعده، هو صورة جلباب أبيض ناصع ولامع به صفاء شديد لدرجة أنه يربك العينين. لقد قال عنا العبيد السود إننا غير محظوظين بالمرة حيث إنه كان فصل من فصول السنة غير المريحة. فالمحصول الذى قمنا بزراعته كان يقف بلا عيب فى الحقول، وكانوا قد نصحونا بأن نقوم بقطفه وقت ظهور ضوء القمر الأحمر المكتمل وقد أطلق عليه هذا الاسم نظراً للون الجرم السماوى، إنهم يريدون أن يرقصوا تحت هذا الضوء الأحمر أثناء القيام بقطف المحصول، ويظهر هذا اللون الأحمر للجرم السماوى والجو يحمل نسمات نهاية فصل الصيف. كنا مستعدين تماماً لجنى محصول وفير. وكان منشدو الحكايات يقفون فى نهايات الصفوف وكانت جميع الأكياس قد تم تصليحها ومعدة لعملية القطف وقد نظف مخزن الخمور ليستقبل المحصول الجديد، ولكننا لم نحضر أبداً هذا المحصول إلى ديارنا.

فقد حضروا قبل ظهور الضوء الأول الرفيع الخافت للقمر الأحمر فى الأفق، ففى الساعة الصامتة الهادئة قبل ظهور الفجر، تقدموا فى خطوات بطيئة وهادئة تجاه المنازل المخصصة للعبيد: مخترقين الحديقة، التى تقسم مخزن الخمور والطاحونة والمبانى حيث ينام كل من "كانينج" وأنا غافلين عما يحدث حولنا.

أظن أنه ولابد أننى سمعت شيئاً فى نومى ربما صهيل الحصان فى الظلام الحالك أو ربما خشخشة الركاب شىء ما قد سمعته على أى حال جعلنى أستيقظ من نومى وتسللت إلى أنفى رائحة قاذورات حصان، لم يكن هناك خيل فى أى أسطبل حولنا، ودون أن أفكر ماذا سأفعل نهضت من ذلك المكان الذى يشبه السرير الذى أنام عليه كل يوم واختبأت فى المكان الضيق الذى أختفى فيه، ففى كل مرة يحدث شىء مريب، كنت أحشر نفسى بين أكياس الحبوب التى تحيط بى من كل جانب.

بعد دقائق معدودة سمعت أصوات قطع الخشب المكسورة فى الحديقة وهى تحدث صوتاً وكأن أحداً يمر عليها أو من جانبها، وسمعت أصوات حذاء البوت تزيح ألواحاً من قطع الخشب، وكان هناك صوت ناعم يتخلل كيس الحبوب الذى أنام عليه وكأن أحداً يلمسه ويلمس مرتبتى.. اللعنة.

"السرير مازال دافئاً" قال صوت خافت: "اللعنة عليه لا يمكن أن يكون قد ذهب بعيداً". ومن خلال نفق الهواء الذى صنعته من أجل أن أتنفس، تمكنت من

رؤية نور بسيط خافت قادم من مصباح يحمله أحدهم يتأرجح ذهاباً وإياباً فيما هم يمشون داخل الغرفة يبحثون عنى.

"هناك لوح خشبى مفقود فى الخلف هنا"، قال صوت آخر من مؤخرة المخزن "لابد وأنه تسلل خارجاً من هنا" رقص الضوء مرة ثانية ثم اختفى، كان الظلام حالكاً فى المكان الذى أنا مختبئ به، كنت جالساً بطريقة مؤلمة، كانت ركبتى مرتفعة إلى صدرى وكانت يدى يتصبب منها العرق أمام وجهى ولكننى لا أراها.

سمعت صوت أقدام تجرى فى الخارج ثم سمعت صوت صراخ مرتفع ثم طلقة رصاص وصرخة.

كانوا يجرون شيئاً ما فى الحديقة، فقد وقفوا عند المخزن وقد سمعت أصوات صراخ وعويل ثم صوت "إيثان" يصرخ بغضب وبصوت عالٍ "لا".

كان الصوت الذى يجيبه صوتاً هادئاً وخافتاً وكأن به مودة ولطف وهو يقول:

"إنى آسف أن أقول لك إن هذا العرج المؤسف الذى تعانى منه سيكون فى حالة اسوأ بعد مرور هذه الليلة، من فضلك مستر "كانينج" أطلب القس "مارتش" وإلا فسأكون مضطراً أن أطلق النار على تلك الساق السليمة أيضاً. "اللعنة عليك" قال "إيثان" وهو يلهث.

كانت هناك طلقة أخرى ثم صرخة مليئة بالأسى والألم جعلتنى أشعر بانقباض بمعدتى وأشعر بالقىء، وبدأت بالفعل رائحة القىء الذى شعرت به تتسلل داخل المكان الضيق الذى أختبئ به. كنت أرتجف،

شعرت بأنى مضطر للخروج ومضطر لتسليم نفسى لهم ولكن الخوف مكث فى صدرى يزيد من شعورى بالاختناق ويفزعنى مثل سقوط صخرة، ولم أستطع التحرك من مكانى.

ومن خلال تدفق الدم الذى كان يتدفق مثل المحيط داخل جسدى، سمعت ذلك الصوت الخافت يقول له "من الممكن أن تقدم لنا معروفاً مستر "كانينج". فلا يمكن أن يكون قد ابتعد من هنا. سنمسك به داخل الغابات إذا لم نتمكن من الإمساك به هنا".

كان "إيثان" يبكى ويلهث وكأنه يصارع من أجل أن يتنفس، وهو شىء لم أستطع أن أسمعه. كان هناك صوت صرير سيف يخرج من جرابه، وصرخة أخرى، ثم صوت مكتوم.

"لقد أصيب بالإغماء" قال صوت آخر أجش".

"لا عليك أربطه بحصانه وأحضر العبد الأسود العجوز.

كانت هناك لحظة صمت قصيرة ثم صوت يقول: "ما اسم ذلك الصبى؟" "طولى. أيها الرائد". جاءت الإجابة هادئة وخافتة ومن صوت يدل على الاحترام ولم يكن صوت "طولى" ولكنه كان صوت زنجى أصغر هو "زكا".

"كنت دائماً مهتماً بذلك الاسم" قال الرائد: "كنا ذات مرة نمتلك عبداً بهذا الاسم .. "طولى"، الآن أيها الصبى، اسجد: ليس هنا، بل هناك.. نعم بالضبط

هكذا، بجانب زند الخشب، بجانب ذلك الجزء المقطوع. شكراً. "ثم قال الرائد بصوت مرتفع يشبه صرخة ملأت الحديقة بأكملها "مستر مارتش، أتمنى أن تسمعنى، لأننى أعلم أنك تحب العبيد السود وتتعاطف معهم. لدينا هنا واحد منهم اسمه "طولى" وللأسف سأكون مضطراً لقطع رأسه إذا لم تأت إلينا هنا الآن لترحب بضيوفك" ثم خفض صوته وتوجه مخاطباً رجاله قائلاً: "ليس لديهم أخلاق على الإطلاق، هؤلاء القادمون من الشمال". قال هذا وهو يضحك وضحك الباقون معه.

كنت أتصبب عرقاً وأرتعش، كان عقلى يعطى إشارات لجسمى بأن يتحرك ويخرج لينقذ الرجل العجوز ولكن أعصابى قد تحولت مثل الحساء.

ثم سمعت صوت "طولى" المتحشرج ويصرخ قائلاً: "سيد مارتش إذا كنت هناك ابق مكانك هل تسمعنى؟ فأنا لست صغيراً وأنا مستعد أن أرحل إلى الله......"

كان هناك صوت معدن وصوت مكتوم كما لو كانت حافة السيف قد اخترقت الخشب ثم صوت قوى مدوٍ هو صوت جسم "طولى" وهو يقرع الأرض، شعرت كما لو كانت قد صدمتنى قطعة ثلجية قوية واخترقت جسمى من الداخل، فإن شعورى بالجبن قد تسبب فى موت رجل مسن لا حول له ولا قوة، مكثت فى المكان الذى كنت أنا أختبئ فيه واضعاً رأسى بين أكياس الحبوب وأنا أبكى مثل الطفل.

"ليس لدينا وقت آخر لنلعب الاستغماية معاً". قال الرائد: "أنتم الثلاثة عليكم إحراق مخزن الخمور ومخزن الحبوب أما أنتم فعليكم إشعال النيران فى الحقول وعندما تنتهون من ذلك عليكم بالهجوم على منازل العبيد السود".

لابد وأنه امتطى جواده بعد ذلك لأن جواده قد أحدث صوتاً كما لو كان شخص يمتطيه ثم جرى بعيداً تجاه منازل العبيد السود.

سمعت صوت طقطقة ثم زئير شىء يبدو أنه قد تم إحراق مخزن الخمور. وهم قادمون الآن إلى مخزن الحبوب، شممت رائحة شمع البارافين القوية، كانوا يقومون برش الوقود من مصابيحهم على قطع الخشب الكبيرة، فإذا لم أخرج لهم فبالقطع سوف أحترق، أخيراً بدأت أطرافى المتحجرة تتحرك، كنت رجلاً بالمعنى الدقيق، فيما يبدو، فقط لكى أنقذ نفسى، وجدت طريقاً خلال الحبوب فزحفت على الأرض لأصل إلى ألواح الخشب التى كانت تستخدم لغلق الباب، ووجدها هؤلاء الضباط والجنود الذين ينتمون لحرب العصابات، ورفسوها بأرجلهم فعملوا بذلك ثقباً تمكنت من عصر جسمى مكثت مفروداً برهة من الوقت مستخدماً ركبتى ومرفق يدى الاثنتين وأنا أسير بهذه الطريقة على الأرض لأصل إلى مجموعة أخرى من ألواح الخشب كان قد تم نشرها، كانت النيران تضىء السماء وكان من الممكن أن يرونى بسهولة إذا استدار أحد منهم ناحيتى ولكن المبنى المشتعل بالنيران

كان يقف حاجزاً بيننا وكان اهتمامهم منصبًا عليه، وصلت إلى كومة ألواح الخشب. كانت يدى ترتعش وأنا أغير أماكنها ودخلت قطعة صغيرة جداً من ألواح الخشب فى إبهامى. أخيراً غيرت أماكن الألواح التى قد تم نشرها واستخدمتها كسور يحمينى منهم واختبأت خلفها، لم أستطع أن أنظر ومكننى اختبائى خلف تلك الألواح أن ألقى نظرة عامة على المكان بأكمله.

كانت الحديقة تضىء بشدة من جراء النيران المشتعلة فى كل من المبنيين الآن.

وفى ذلك الضوء القوى تمكنت من رؤية "كانينج"، كان مربوطاً بالحصان الذى يدعى "أستر"، وكانت رجلاه تتدليان من فوق الحصان بغرابة، كان هناك دم غامق اللون يسيل من جروح ركبتيه، بينما كانت رأسه راقدة على رقبة الحصان وشعر عنق الفرس مغطى كله بدم متجلط من رأس "كانينج". لقد قطعوا أذنيه، كان الحصان "أستر" خائفاً إلى درجة الرعب من تلك النيران المشتعلة ومن رائحة الدم وكانت عيناه ترقصان ولونهما أبيض، كان يحاول أن يلقى بذلك الحمل غير المرغوب فيه من فوق ظهره بعيداً.

جاء صبى صغير وأمسك بلجام الحصان وهو يحاول أن يتحكم بحصانه الخاص. كان صبياً نحيفاً ولكنه لم يكن قوياً، وعندما صاح "أستر" قُطع اللجام فى يد الصبى، فأخذ يسب ويلعن ونادى على الآخرين ممن كانوا معه، "لم يعد لدينا ما نفعله هنا، دعونا نحضر العبيد السود وننتهى من هذا المكان، ولكن لنرمِ

العبد المسن فى النار أولاً" يبدو أن الرجال الثلاثة الآخرين بوجوههم التى كانت عليها خطوط رفيعة، يتلقون الأوامر من ذلك الصبى، حمل اثنان منهم جسم "طولى" الضعيف أما الآخر فكان يلعن وهو يحمل رأس "طولى" المنفصلة عن الجسد. ألقوا بما يحملونه فى النيران كما لو كانوا يلقون قطعاً من الخشب فى النار لتزيد اشتعالها. أخذت أتلو بصوت خافت صلاة رحمة على روح "طولى".

ولكن لماذا سيستمع الله الآن لأية صلاة أتلوها؟ كان قلبى قطعة سوداء من البغض والكراهية للقائد ذى الصوت العذب الذى لم أره وللصبى النحيف القاسى وللرجال الثلاثة أصحاب الوجوه الجامدة ولكن الأكثر كان قلبى يحمل كراهية لنفسى.

مكثت مختبئاً خلف ألواح الخشب حتى اختفوا تماماً ثم أخذت أزحف واستلقيت على الأرض أحرك أصابعى وأنا أزحف على الأرض. لقد اختبأت فى مخبأ خاص وتركت رجلاً يعذب وآخر يقتل، لماذا فعلت هذا؟ لماذا جعلت الخوف يسيطر علىّ تماماً؟ لأنى أردت أن أعيش، ولكن ما الفائدة فى العيش إذا كان المرء يعيش ليتذكر هذه المأساة؟ ما الذى ستكون عليه حياتى بعد هذه الليلة؟ كيف سأواجه زوجتى وبناتى بهذا العار الملتصق بى؛ والذى سيظل كوصمة عار.

ببطء ومن خلال حزنى وشعورى بالاشمئزاز، نمى داخلى شعور بالجدوى. فأجبرت نفسى على التوقف عن الشعور بالغضب ونهضت لأمسح الاتساخ الذى

حل بى، كنت ساجداً على ركبتى، مسحت وجهى بيدى، كان الاتساخ على وجهى وتحت عينى، لابد وأن أقوم بشىء ما للتعويض عما فعلته فى الساعة الأخيرة حتى إذا كلفنى هذا حياتى، فهى لا تساوى شيئاً الآن على أية حال، نظرت إلى وضعى كنت مرتدياً قميصاً خفيفاً للنوم وسروالاً. وكنت حافى القدمين حذائى والجاكت قد اشتعلا فى النيران، كيف سأكون ذا جدوى بملابسى هذه لا أدرى؟ ولكننى كنت أعلم أنه لابد أن أتبع "كانينج" للنهاية حتى إذا كان هذا كل ما يمكن أن أفعله، إذا كانت هناك رحمة فى العالم، فلابد أن يكون هناك وقت للقيام بهذا العمل الرحيم.

بدأت الظلمة واضحة بعض الشىء وفى بداية الظلمة، فى ظهور الأفق رمادى اللون كلون الصدف، تحركت أخيراً، أخذت أجرى فى الحديقة متجهاً إلى المنزل وتوقفت، بالداخل لأرى إذا ما كان أحد مازال بداخله، كان المكان مظلماً وساكناً أخذت أجرى خلال غرفة السفرة، ملاحظاً أن هؤلاء كانوا بداخل ذلك المكان وبمهارة فائقة تمكنوا من أخذ وسرقة بعض الأشياء الغالية الثمن، فقد اختفى الشمعدان وكذلك الكمية القليلة من الخزف الصينى التى كانت متبقية، إن ثقتهم لما يستحق السرقة تنم عن خيانة ما خيانة "زكا". فكل هذه الشهور التى أعلن فيها إخلاصه ليبقى مع أبنائه.. لابد أن قسوة "كانينج" وغلاظته لم تجعل أى شىء يتمكن من تغيير ما شعر به "زكا" تجاه "كانينج".

ولكن "زكا" لم يكن يعلم شيئاً عن المكان الذى يخفى فيه دائماً ما يتركه "إيثان" من بعض أشيائه الشخصية، هناك فى الغرف العلوية تحت لوح خشب غير محكم من آلواح الأرضية الخشبية والتى اطلعت عليه مرة، قمت بفتح النافذة حتى يتسلل الضوء إلى الغرفة ثم تحسست الأرض لأجد ذلك اللوح الخشبى غير المحكم، فرفعته، كانت حافظة نقود جلدية، قال لى "كانينج" إنه يترك بها بعض النقود وعندما فتحتها وجدت بداخلها صورة لفتاة شابة ذات شعر غامق اللون فى مثل عمر ابنتى "مج". لم يتحدث عنها "كانينج" مطلقاً، قمت بتقريب الصورة إلى عينىَّ حتى أدقق النظر فيها ودرستها للحظات فلم أجد أى شبه بين الصورة "كانينج". فالفتاة فى الصورة جميلة، ذات وجه مستدير وشعر غامق اللون بينما كان "كانينج" أشقر اللون وذا شعر أشقر. فمن الممكن أن تكون محبوبة "كانينج" ويبدو أنه كان يسعى للزواج منها فى يوم ما وأخذ هذا التفكير يثير فى نفسى الحزن، أغلقت حافظة النقود هذه وحشرتها فى الجيب الداخلى لقميصى حيث كانت هناك الحافظة الجديدة التى بداخلها خصلات شعر بناتى.

حاولت أن أضع قدمى فى حذاء "كانينج" ولكن قدمى كانت أكبر من قدميه وباءت المحاولة بالفشل. ولكننى لم يكن لدى بديل آخر. فحملت البوت إلى المطبخ حيث وجدت عدداً من السكاكين التى لم تعد ذات جدوى الآن مخزونة هناك. وبأيد مرتجفةٍ حاولت

قطع مكان الأصابع فى الحذاء ثم وضعت رجلى بداخله. وكانت أصابعى عارية وكان الحذاء ضيقاً جداً وأخذ يؤلمنى بشدة، لكن أصابعى العارية كانت تلمس الأرض قليلاً وكان هذا أفضل من السير بدون حذاء.

أخذت أجرى، خارج الباب، عابراً الحديقة متجهاً إلى الحقول، كانت الحقول مشتعلة بالنيران، وبرغم صوت النيران المشتعلة وانفجاراتها، سمعت صراخاً قادماً من منازل العبيد السود، فتوجهت إلى صوت صراخهم عابراً حقول الذرة التى كانت تمتد عبر الطريق بأكمله وحتى المساكن الأولى للعبيد.

كانت الذرة يانعة ومرتفعة وقامت بتغطيتى تماماً وأنا أجرى.

رأيت الآن قوة هؤلاء الذين قاموا بمهاجمتنا، كانوا عشرين رجلاً تبدو عليهم الشجاعة والقوة. اثنان منهم كانوا من الزنوج؛ فى اعتقادى أنهم أولاد "زكا" وهذا يعنى أن الصبى الصغير الذى كان يحاول قيادة الحصان "أستر" كان ابن ملاحظ العمال السابق فى "أوك لاندينج"

ترك واحد من الزنوج حصانه خلف رجل مسن، حسن الملبس الذى اعتبرته رائد المجموعة وهو فى رتبة رائد بالفعل. كان يبدو عليهم أنهم يستشيرون بعضهم البعض بشأن مسألة ما، قام المتمردون بتشكيل كوردون من الخيل فى هيئة دائرة حول العبيد السود الذين اجتمعوا معاً فى الحديقة، كانوا أتباعنا

عددهم يقترب من الستين شخصاً وأعتقد أن شلة منهم قد تمكنت من الهرب.

كان مع هؤلاء المتمردين نحو دستتين من نساء العبيد ونحو أربعة أو خمسة رجال من العبيد مقيدين معاً بالحبال حول أعناقهم، سار واحد من المتمردين بحصانه تجاه البنت الصغيرة "سيلا" التى كانت تذكرنى دائماً بابنتى "آنى" وأخذ يمشى بحصانه خلف جدتها ثم قام بدفع الجدة بعيداً وقبض على مفصل "سيلا" ورفعها على حصانه وعندما صرخت الفتاة وحاولت أن تنزل من على الحصان ضربها بشدة وبعنف.

ومشى الآخرون بخيولهم فى منتصف الحشد وبدءوا فى خطف الأطفال، دفعوا الآباء جانباً متجاهلين صراخهم وتوسلاتهم وقام واحد منهم بالقبض على "جيمس"، رأيت الصبى يصرخ ويحاول أن يمسك بأمه، جرت "زنا" مسرعة إلى الأمام وبذراعيها المفتوحتين تحاول أن تلحق بابنها، ضربها واحد من المتمردين على وجهها بحافة بندقيته. فنهضت من الأرض والدم يسيل من أنفها وأسرعت نحوه ثانية. فى هذه المرة وجه طبنجته إلى رأس الطفل، فوقعت أمه على الأرض فى تراجع وهى ساجدة بركبتيها إلى الأرض الموحلة.

كان هذا كثيراً جداً لأتحمله، لم أكن أعرف ما فى وسعى أن أفعله لكن هذا الوقت علىّ أن أفعل شيئاً ما. تحركت إلى الأمام أفرق الذرة بذراعى، ولكن جاءت ضربة على مؤخرة ركبتىّ جعلتنى أكاد أقع، ويد

كبيرة وضعت على فمى وصوت يقول لى. "امكث هنا يا سيدى" كان صوت "جس" خلفى. "إن هذا ليس الوقت المناسب لنتحرك".

فى هذه اللحظة رفع الرائد صوته حتى غطى على صوت الصراخ وأزيز النيران العالى فى الحقول قائلاً: "أيها الرجال تحركوا سريعاً. فلدينا موعد نود أن نلتزم به". وتوجه إلى العبيد السود قائلاً: "لن نقوم بمشاجرة أخرى مع أى أحد هنا إذا توقفوا تماماً عن زراعة القطن للأعداء، أتمنى لكم يوماً سعيداً". قام برفع قبعته قليلاً ومررها على جسمه فى انحناء ساحر وتوجه بحصانه إلى الغابات، إن الصبى الذى كان يجذب "كانينج" وهو فاقد الوعى جرى خلفه وتبعه المتمردون الآخرون وهم يجرون العبيد المكبلين وستة من بغالنا. يمتطى "زكا" كما أرى واحداً منها، تساءلت متى بالتحديد قرر "زكا" أن يخوننا ويقوم ببيعنا للأعداء، ثم رأيت "زنا" وهى تجرى خلفهم، إن إحساسها واحتياجها بأن تكون مع ابنها كان أكثر من خوفها من الوقوع فى أسر العبودية.

رآها أحد المتمردين فقام بتنبيه الرائد، هز الرائد كتفيه بطريقة توحى باللامبالاة ثم قام أحدهم بدفع "زنا" إلى الأمام لتنضم إلى طابور العبيد المكبلين وتسلسل من رقبتها.

وعندما اختفوا داخل غابات شجر السرو، قبض "جس" على يدى وأخذنا نمشى مسرعين خلفهم ملتزمين فى سيرنا بصفوف الذرة، كان فى يده سكين

حـادة يقطع بهـا الأشـيـاء الـصـلبـة بعض الـشـىء، كانت السكين معلقة خلف ظهره، "إذا استطعنا أن نتبعهم حتى قدوم الليل"، قال هذا ونحن نتقدم مسرعين نحوهم" فربما وهم نائمون يمكن أن تتاح لنا الفرصة لكى نحررهم جميعاً". كانت خطة "جس" أفضل من أى خطة أخرى يمكن أن أفكر فيها، ومن ثم قمنا بالسير خلفهم داخل أشجار السرو.

الفصل الثانى عشر

رجل طيب

مرت الساعات التالية دون بذل الكثير من الجهد. كان حذاء البوت الذى أرتديه يؤلم قدمى، وتتخبط بنا أغصان الشجر التى كنا نقابلها فى الطريق وتضرب فى جسدى حتى قطعت القميص الخفيف الذى كنت أرتديه وخدشت الجلد الذى تحته، وفى خلال ساعات كنت أشعر بدوار من نقص الطعام أشعر بظمأ شديد ولكننا تحاملنا على أنفسنا كان "جس" يسير أمامى ويبدو أنه لا يشعر بأى ألم أو تعب وكنت أنا أسير بصعوبة شديدة خلفه. إن الشىء الوحيد الذى أنقذنى هو أن هؤلاء المشاركين فى حرب العصابات كانوا يسيرون بخطى بطيئة غير قادرين أن يجروا الأسرى بسرعة ورغم أننا كنا فى بعض الأحيان بالقرب منهم بدرجة تسمح لنا أن نسمع صراخهم وتهديداتهم للأسرى إلا أنه فى بعض الأحيان كانوا يضطرون للتوقف عن السير، فكنت أنا "وجس" حريصين بألا نلفت انتباههم، بأن نقف بعيداً قليلاً عن مكان توقفهم. وفى أثناء فترات الراحة تلك القصيرة، كنت أرقد على الأرض ألهث من شدة التعب

والإعياء أرغم نفسى أن أبقى فى حالة وعى وأن أجد القوت اللازم لكى أستمر وعندما اقترينا من جدول مياه صغير، دفنت رأسى داخل المياه التى بداخلها الطمى وأخذت أشرب بقوة من شدة العطش رغم أن المياه لم تكن صالحة تماماً للشرب.

لا أعتقد أننى كنت فى يومٍ ما حريصاً على أن أرى غروب الشمس مثلما كنت حريصاً فى ذلك اليوم. توقف المشاركون فى حرب العصابات عن السير ومكثنا نحن فى الخلف فى البداية مختبئين تحت نبات السرخس، وغير قادرين أن نتنفس جيداً حتى لا يسمع أحد صوتنا، وفى ذلك الوقت مر بجانبنا واحد منهم يبحث عن خشب لإشعال النيران، وضع "جس" فمه بالقرب من أذنى وهمس قائلاً "وضعت اثنين من البرطمانات الكبيرة التى تستخدم فى إشعال النيران بالقرب من المنحدر الخاص بمقصورتى حيث يمكن للمتمردين أن يجدوها. كنت أصلى بشدة أن يكونوا قد حصلوا عليها". مرت ساعة ثم اثنتان، كان هناك صوت عالٍ قادم من المعسكر، ويبدو أن هؤلاء المشاركين فى حرب العصابات قد وجدوا بالفعل مصابيح "جس" المستخدمة فى إشعال النيران أو يبدو أنهم أحضروا معهم مصابيح، وتحت غطاء الظلمة والأصوات العالية استطعنا أن ننسحب للأمام حيث يمكننا أن نرى كيف نظم المتمردون وقوفهم، فقد ربطوا العبيد السود من أياديهم وأقدامهم الآن فيما عدا "زنا" التى جعلوها تراقب النيران التى أشعلوها

للطهى، كانوا يعلمون جيداً آنها لن تستطيع الفرار وابنها فى الأسر، كان "جيمس" مربوطاً هو الآخر بالحبال مثله مثل الآخرين. لقد ربطوهم كل ثلاثة أو أربعة مع بعضهم وربطوا كل مجموعة بشجرة.

أما "إيثان" فلم يربطوه لأنه لن يتمكن من الجرى فى أى مكان مرة أخرى، فلم أدر لماذا يتعبون أنفسهم بأن يحضروه فى هذا الطريق الشاق بينما كان الحل الأيسر أن يقتلوه. أخذوه من فوق حصانه وربطوه حول فرع خشب ساقط من شجرة. لم أستطع أن أعرف ما كان واعياً لما يحدث له أو فاقد الوعى ولكن بعد فترة رأيت "زنا" تأخذ مغرفة بها شىء مثل الحساء وتقدمها إليه، كان ينحنى برأسه، حاولت أن تعطيه السائل بالملعقة فى فمه، ولكننى لم أستطع أن أرى إذا كانت قد نجحت فى هذا أم لا؟ وعندما كنت أراقب هذا المشهد، رأيت أحد أبناء "زكا" شاب طويل فى سن التاسعة عشرة أو العشرين من عمره اقترب من "زنا" ليقول لها شيئاً". فأدارت وجهها بعيداً وبصقت على الأرض المتسخة، جذب الشاب سيفه وضغط على حافته المدببة على خدها ثم جذبها من شعرها بقوة وهى تزحف على الأرض بقدميها، صرخ "جيمس" وهو مربوط مع مجموعته حول الشجرة ولكن "ماى" العبدة السوداء المربوطة بجانبه جذبته إليها مستخدمة يديها اللتين كانتا مربوطتين عند المقبض وأدارت وجهه عند صدرها بحيث لا يتمكن أن يرى أمه وهى تقاوم أو يسمع الأصوات غير الآدمية التى تصدرها.

دفع الشاب بـ "زنا" إلى الطريق الملىء بالأوتاد ووقف ليتحدث مع أخيه الذى كان يقف يراقب مع الجندى الأبيض الذى تخلص من "طولى": "ابقى لى بعضاً من هذا، كاتو" قال أخوه ذلك بفرح وسعادة وهو يعطيه مصباحاً. وقام الجندى الأبيض بحركة خليعة وغير لائقة" وهو يقول: أتمنى أن أعلم صديقتى حتى تصل إلى مستوى الفاسقات السود الملونين مثل لون الفحم" لم أسمع رد "كاتو" وهو يمر بجانب أخيه ويدفع "زنا" داخل الغابات، كان ضوء المصباح واضحاً داخل الغابات ولكنه ذهب بعيداً بين الأشجار الكثيفة، شعرت بـ"جس" ويتنفسه القوى بجانبى "يجب أن نساعدها" همست له ولكنه هز رأسه قائلاً: "إذا فعلنا هذا الآن فسيقضون علينا جميعاً" وأضاف "وكذلك "زنا وابنها" ولكننى كنت بالفعل ساندت جريمة من قبل ولا أستطيع الآن أن أبقى هنا ولا أفعل شيئاً، وهناك فتاة تنتهك بين أشجار الغابات، باستخدام ركبتى ومرفقى يدى بدأت أحرر نفسى للخلف بعيداً عن مكاننا بين الأغصان المتساقطة، شعر "جس" بما أنوى فعله فدفعنى بقوة شديدة بكتفه القوية إلى الأرض "إنى أعنى ما أقول يا سيدى" وأضاف قائلاً: "إذا أردت أن تساعدها، عليك أن تلتزم الهدوء الآن، إذا فسدنا هذا العمل فسوف يقومون ببيعها فى مكان ما ستتعرض فيه لأكثر مما تتعرض إليه الآن فى ليلة كهذه".

"إذاً ماذا سنفعل"؟ فأجاب بسرعة:

"انتظر" قال هذا "انتظر واجعل ذلك المصباح

يقوم بنصف العمل لنا. فقد قمت بوضع شيء ما بداخله ليس له علاقة بسائل الذرة الذى يوضع فيه دائماً".

جاءت أصوات عالية وضحكات من المعسكر، وكان الحديث يدور عن المال: كم سيدفعون تجار "تكساس" فى اليوم التالى لهذا أو ذاك من العبيد السود؟ ثم كان هذا الحديث المعتاد وهو تشبيه البشر بالماشية. كان أحد الرجال يطلق نكتة غير مهذبة عندما توقف فى منتصف الجملة التى كان يقولها ولعن وهو يضغط يده على بطنه، وجرى مسرعاً نحو الغابات وانحنى على الأرض، بينما أخذ الآخرون يضحكون وهم يشيرون إليه وأخذوا ينادون بصوت عال قائلين: "إن ما يفعله أحقر مما يفعله الشخص الآخر" فجأة وبهدوء شديد، قفز "جس" من مكانه وهو يخلع السكين المربوطة بظهره "أمكث مكانك يا سيدى إن هذا الرجل لى. عليك أن تأتى بالآخر"، مر "جس" بجانبى مثل الظل الذى يعبر الأرض وهو لا يحدث أى صوت رغم أنه ضخم البنية، مرت الدقائق وأنا فى مكانى محاولاً أن أنصت جيداً فى اتجاهه ولكننى لم أستطع أن أسمع شيئاً من جراء الأصوات والأحاديث العالية القادمة من المعسكر وأصوات أشجار الغابات العالية التى تحدث صوتاً نتيجة اهتزاز الأغصان وصرير الليل ونقيق الضفادع.

وفى غضون دقائق قليلة، عاد "جس" وهو يحمل سكينه الكبيرة مغطى بالدماء وكانت معه بندقية مما

يحملها هؤلاء المتمردون، وطبنجة، وسيف ذلك الرجل. كانت يدى ترتعش وهو يعطينى تلك الأسلحة، لقد أتيت إلى هنا متمنياً أن أحرر هؤلاء العبيد السود، فأنا قس ولست بقاتل، يمكن أن أستخدم السيف لأقطع به الحبال المربوطة، أرجعت له الطبنجة فى الظلام، رأيت بياض عينيه يراقبنى وتخيلت نظرة الاحتقار التى مما لا شك فيه قد بادرنى بها. ولكن اللحظة لم تدم طويلاً حيث جرى مسرعاً رجل آخر داخل الشجيرات وهو يئن ويسب ويلعن من الألم الذى يشعر به فى بطنه.

هرع "جس" وراءه وعاد مرة ثانية فى خلال بضع دقائق يحمل الأسلحة "لن تتاح لنا فرصة مثل هذه مرة أخرى" همس قائلاً: "سوف يلاحظ شخص ما مع مرور الوقت أن لا أحد يعود إليهم من الغابات سيفتقدونهم وسوف يكون هناك الكثير ليفعلوه حتى يجدوهم ثم الشىء الأكبر الذى لابد من فعله". ولكن للحظة على الأقل كانت الضوضاء الصادرة من المعسكر تشتت أفكار معظم الرجال، فقد حولوا حديثهم إلى "كانينج" وماذا سيقدم كإثبات ليكون جديراً به قال واحد منهم: "لابد وأن يكون هناك قطعة جيدة من المال جديدة يقدمها لنا لشعوره بالأسف" كان من الواضح، فى الوقت الحاضر، أن "الميجور" عنده المعلومات التى تفيد بأنه قادم من عائلة ثرية من الشمال، وكانت خطتهم هى تقديم حياته فدية.

يبدو أن "كانينج"، الذى استعاد وعيه، كان يسمع حديثهم هذا. "لقد ارتكبتم خطأ فادحاً أيها السادة" قال "كانينج" أسكت الجميع بعضهم البعض والتزموا الصمت محاولين أن يسمعوا ما لديه: "هل تعتقدون أنى سأحضر إلى هذا المكان القذر مخاطراً بحياتى وأعمل مثل عبيد الأرض إذا كنت بالفعل رجلاً ثرياً؟ كل ما لدى فى الشمال هو مجموعة من الديون المالية لبعض الناس ولذا لا يهتم أحد هناك بحياتى".

تمنيت بأن أكون قريباً من "كانينج" لأضع يدى على فمه وأخرسه، يبدو أنه كان يقر باعترافه بارتكاب جريمة كبرى، فبمهارة فائقة كان "كانينج" يقدم تصريحاً بوفاته.

"ماذا لو كان يقول الحقيقة؟ سأل أحدهم "الميجور". "فلماذا نزعج أنفسنا بأن نسحبه معنا؟ يبدو أنه من الأفضل أن نطلق عليه النيران الآن وننتهى منه، ثم بعد أن ننتهى من بيع العبيد السود يمكن أن نعطى لأنفسنا إجازة". وقف "الميجور" وتقدم نحو "كانينج" ومر بيده على الزرع الذى كان بجانبه "هل تقول الحقيقة؟ أما أنها كذبة أخرى من أكاذيب أهل الشمال؟". أخذ طبنجته "تحدث، أم أبدأ أنا فى استمتاعى بإطلاق النار عليك".

كانت رأس "كانينج" مغطاة بالدم ولكنه كان جافاً، أدار رأسه بعيداً عن ضوء النار الموقدة فلم أستطع أن أقرأ التعبير الذى كان على وجهه.

"أنا لا أكذب".

إذاً للأسف، فإن ذلك الجندى الطيب الذى هناك على حق، فنحن مكبلون ومضغوطون بكثير من الأحداث ولا نستطيع أن نحمله معنا" . وأخذ طبنجته. وكان هذا عندما قفزت من مكانى، فى هذه المرة هارباً من قبضة "جس" متجاهلاً لعنته التى أطلقها. أوقعت بالسيف على الأرض وهرعت خارج الأشجار.

"انتظرا" صرخت وأنا أتخبط لأجد مكانى بين الحشد الذى كان واقفاً من هؤلاء المتمردين. "إنه يكذب ! إنه لديه خطيبته ! فسوف تدفع لحياته".

"مارتش"! صرخ "كانينج"، وكان صوته يحمل مزيجاً من الألم والدهشة، إن المتمردين الذين تمكنوا من البقاء فى الغابات لأشهر عديدة كانوا واقفين جميعاً وبنادقهم مستعدة لإطلاق النيران حتى وهم فى شدة التعب وفى حالة مجهدة "قبض علىّ اثنان منهم قبضة قوية قبل أن أنهى كلامى.

"إذاً، مستر مارتش، لقد قررت أن تنضم لفريقنا فى النهاية"، قال "الميجور": "يا لها من مفاجأة غير متوقعة!" لقد أشار بيديه فأطاح بى الرجال الذين قبضوا علىّ إلى الأمام.

"قل لهم يا إيثان! قل لهم اسم الفتاة، قل لهم من أجل الرحمة، وحافظ على حياتك!".

"رحمة؟" ضحك "إيثان" وتحولت ضحكته إلى نوبة من الكحة" أشك أنهم يعلمون ماذا تعنى هذه الكلمة" تحرك بألم ليريح الضغط الذى كان على ركبتيه المبعثرة، "ولكنى أستطيع أن أقول لهم اسمها، تدعى

"مارجريت جيمسون" وستجدون اسمها على حجر فى مدافن "الأليجن"، لقد توفيت منذ عام فى شهر مايو الماضى بالسل، قبل أن نتزوج بستة أسابيع". أدار رأسه ونظر إلى "الميجور" أطلق علىّ النار، عليك اللعنة، وانتهى من ذلك الموضوع، لقد جعلتنى عاجزًا ومفلسًا وليس هناك روح فى أرض الله الطيبة تهتم إذا ما كنت أعيش أو أموت." وبدأ يبكى.

حك "الميجور" رأسه بحافة الطبنجة وأدار رأسه نحو الرجال الذين كانوا ممسكين بى "اربطوا هذا الرجل" ثم قال "سأفكر فيما سوف أفعله مع هذين الرجلين فى الصباح".

ربطونى بشدة حول شجرة بالقرب من "كانينج"، وعلى مسافة قريبة من العبيد السود، ألقى واحد من العبيد السود بكمية من خبز الذرة إلىّ واستخدمت قبضتى يدى الاثنتين لأدفع بذلك الخبز تجاه فمى، فإننى لم أذق الطعام طوال اليوم وقد أيقظت قطعة الخبز هذه شهيتى الهائجة. كان "جيمس" يصرخ يطلب أمه ولكن "ماى" هدأته بصوت ناعم وقالت له أن يلتزم الهدوء وأنها ستعود على الفور، اهتاج الطفل فترة ولكنه كان متعباً جداً فاستسلم للنوم على حجر "ماى".

ظل "إيثان" يصرخ بصوت خافت من شدة الألم ولكن واحداً من الحراس ألقى برجليه تجاهه بقرف وقال "اخرس".

"إيثان" همست له "إنى أعتذر لك".

أصبح صوت الحشرات واضحاً فى سكون الليل.

"إنى أعلم".

كنت أشعر بصلابة الشجرة خلفى من خلال ملابسى المقطوعة، وأشعر بألم شديد، كان جسمى كله يؤلمنى، أشعر بحرارة، تمنيت ألا يكونوا قد قيدونى هكذا بالقرب من النيران فقد كان العرق يتساقط على رقبتى وكان قميصى مبللاً. اتجه رجل آخر نحو الغابات وكان يتمتم قائلاً: "لابد وأن تكون العاهرة السوداء قد أنهت مهمتها".

كنت أظن أنه لن يمد وقت طويل قبل أن يلاحظ أحد اختفاء عدد كبير من الوجوه حول المعسكر ويقومون بإطلاق صفارة الإنذار، كنت أتمنى أن يكون لـ "جس" خطة لمواجهة هذه اللحظة. لم يكن لدى أية خطة لهذا الموقف، بدأت تصدر أصواتًا غريبة من المعسكر خاصة من هؤلاء المتمردين الذين لم يكن لديهم واجب حراسة، ظل أخوه "كاتو" واقفاً يحرس مع ثلاثة آخرين، كان يقف مستنداً إلى شجرة فى الجانب الآخر من النار الموقدة فظلت أراقبه من خلال دخان النار، وفجأة لاحظ أننى أراقبه فنظر إلىّ بحدة.

تصاعد ضباب أبيض صاعد من الأرض الرطبة وكنت أشعر بحرارة شديدة فى ذلك الوقت ولكن عندما خبت النار الموقدة، أخذ قميصى المبلل بالعرق يشعرنى بالبرودة. كنت مرهقاً جداً وبدأت أشعر بالحمى المألوفة وآلامها تخترق جسدى ومفاصلى، ويبدو أننى فقدت الوعى برهة من الوقت ربما لدقيقة

أو لساعة من الزمن لست متأكداً تماماً ولا أستطيع أن أجزم بالقول، انكسر غصن من الشجرة ووقع داخل النار الموقدة فجفلت من صوت النيران مستيقظاً، أشعر كأننى أرجع إلى الوراء بظهرى، كان الضباب كثيفاً جداً. ويتحرك فوق الأرض مثل دخان بارد. وبعد الضباب رأيت شعاعاً طفيفاً من القمر الأحمر بدأ فى الصعود ورأيت أن "كاتو" أخذ مكان أخيه فى الحراسة، بدأت أتحرك بقوة فى شكل مستدير وأنا مربوط بقوة لأرى من مازال مستيقظاً فسببت لى حركتى ألمًا فظيعًا فى رأسى، كانت الأشجار تتموج فتحجب الرؤية فأغلقت عينىَّ ثم بدأت أشعر أن العالم كله يدور من حولى. فتحت عينىَّ وحاولت أن أركز فى شىء واحد ساكن، ولكننى لم أستطع التركيز لكنى اضطررت لذلك، كان هناك شىء مهم ينبغى علىّ فعله وهو أن أرى.. لو أستطيع أن أتذكر هذا الشىء.. آه أن أقوم بعد الرجال، انتظرت أن يختفى الضباب تماماً ويكشف عن الجزء الأكبر من موقع المعسكر.. آه لو توقفت الأشجار عن تلك الحركة المملة، وقع أحد الحراس من شدة التعب وهو واقف فى فترة حراسته - على كعبيه بجانب الشجرة التى كان واقفًا أمامها، كانت رأسه على ركبتيه ويبدو أنه كان نائماً كنت أريد أن أنام أنا أيضاً، كانت رأسى تؤلمنى. بدأت فى العد ولكن الأرقام اختلطت على بعضها، حاولت أن أغلق الألم الذى كان برأسى وأغلقت عينىَّ محاولاً بشدة أن أرتب أفكارى، عشرون

من الرجال من المفترض حولنا، اثنان لقيا حتفهما على يد "جس" بالتأكيد، وربما ثلاثة أو أربعة. بدأت أتساءل، إذا استطاع "جس" أن يقتل الكثير منهم وهو يحاول أن يلتقطهم فرادى.. إذاً ما تبقى هو فقط ستة عشر رجلاً ولم أحسب أخاه "كاتو".

فى تلك اللحظة بدأت أشعر بأن الأربطة الملتفة حولى بدأت تضيق جداً فجأة ثم وقعت لم ألتفت برأسى ولكن من زاوية عينى رأيت "زنا" وفى يدها سيف تتحرك لتقطع حبال العبيد الآخرين المكبلين وحيث إننى كنت مشوش الذهن إلا أننى أدركت أن الفرص التى أمامنا مازالت قليلة وحتى إذا استطاع "جس" أن يكون قد تعامل مع كل الرجال المفقودين فمازال يبقى خمسة عشر عسكرياً من ذوى القوة والصلابة، ولكن إذا استطاع "جس" أن يحصل على أسلحة ويعطيها لأتباعنا ..... سمعت صوتاً من بعيد يبدو أنه صوت غصن شجرة يتساقط وينكسر بالقرب من قدمى، كان صوته مثل طلقة الرصاص، التفت "كاتو" تجاه مصدر الصوت ولكنه تلقى ضربة من كرة، خرج على إثرها جزء من جمجمته وأخذ يميل "كاتو" إلى الأمام وتبع ذلك أصوات عالية وأجساد وطلقات نارية وصرخات. قفزت كنت أشعر بأطرافى مثل قضبان من الرصاص، اتجهت تجاه النار الموقدة وأخذت غصناً مشتعلاً بالنار وأخذت أجرى وأنا أحمل ذلك الغصن المشتعل، وكانت هناك فى الجو شرارات مشتعلة على شكل دائرة يفيض منها ضوء، بريق

ووميض، لم أستطع أن أحدد ملامح أى شخص فى ذلك الضباب الكثيف. اتجهت حيث كان "جيمس" مقيداً بالحبال ولكنه لم يكن هناك. "زنا"، بالطبع، كانت قد أخذته، رأيتها وهى تجرى والصبى يجرى خلفها وهو معلق بملابسها و"ماى" تجرى خلفهما ومن خلال الضباب الخفيف رأيت أحد الرجال على وشك قذفهما "بالنبلة"؟ حاولت أن أجرى، لأضع نفسى بينهما، ولكن قبل أن أتحرك خطوة واحدة، أطلق الجندى النيران وسقطت "ماى" على الأرض ووجهها للأمام وذراعاها كانتا تتحركان كما لو كانت تسبح، كان الرجل يستعد لضرب شخص آخر "بالنبلة"، ولكننى أطلقت عليه النيران من الجنب محدثاً جرحاً بجمجمته، سقط السلاح من يده وهجم علىّ وسقطنا نحن - الاثنين - على الأرض ورقد فوقى ثم رفع قبضة يده وصفعنى بضربة على وجهى آلمتنى بشدة فى أنفى. تذوقت طعم الدم فى نهاية حلقى، خطف حجراً صغيراً من بين الأغصان الميتة ليضربنى بها على وجهى فاستدرت بسرعة بوجهى إلى الجانب الآخر ثم سقط الحجر من يده ولكنه لم يجرح صدرى بل وقع بعيداً عنه، أخذ يخربش بأصابعه عند رقبته، كان هناك سيف حول رقبته، كانت "سيلا" واقفة خلفه فمها مفتوح كما لو كانت ستعوى، فقد وضعت السيف حول رقبته فمال إلى الأمام وهو يرفس برجله ولكننى دفعته من أمامى ونهضت على قدمىّ قابضاً على يد "سيلا" التى كانت ترتعش محاولاً أن أجذبها إلى

الخلف حيث الأشجار. ولكنها كانت ترفس بشدة كما لو كانت طفلة مشاكسة تقاوم أباها، رقدت على الأرض ووضعت يدها الصغيرة على السيف وعندما لم تستطع أن تحصل عليه وضعت قدمها الحافية على كتف الرجل وجذبت بقوة، كانت حافة المعدن على عظمة من عظامه ثم لحق هذا نزيف من الدماء ثم تلتها ضربة أخرى من حافة معدن السيف على ذات العظمة ثم تبعها نزيف لا يتوقف من الدماء، رفعت "سيلا" إلى فوق رغم أن ذراعى كانتا فى منتهى الضعف مثل الخيط الرفيع إلا أننى حاولت أن أجرى بها متجهاً إلى الأشجار.

ولكننى كنت أجرى فى الطريق الخطأ، كنت أجرى وأنا لا أعرف أنه الطريق المؤدى مباشرة إلى "الميجور" الذى كان قد ظهر من بين الدخان المتصاعد على بعد أقدام بسيطة وكان يحمل بندقية وجهها إلينا، كنت متوقعاً أن أتلقى النيران وطلقات الرصاص منه فأدرت جسدى لأحمى الطفلة. ولكنه لعننا وضغط على الزناد ولم تصبنا الطلقة، ومن بين رأيت "كانينج" خلال الضباب مستلقياً تحت أقدام "الميجور" فقد جذب نفسه بالقوة المتبقية له بضعة أقدام حيث كان يقف "الميجور" وضرب كعب الرجل بحجر صغير ولكن "الميجور" رفسه بقدمه وضرب رأسه المغطاة بالدم الجاف بحذائه، ثم أمسك مسدسه وانحنى وأطلق النار مباشرة على وجه "كانينج".

صرخت: "إيثان" فوجه "الميجور" مسدسه نحوى، رميت بـ "سيلا" بعيداً عنى وشعرت بضربة قوية مثل

ضربة قبضة اليد فى جانبى ثم صوت انفجار عنيف.
هذا شىء غريب كنت أفكر وأنا أسقط على ركبتى،
كان الصوت متأخراً جداً... لقد انحنيت للأمام ووجهى
لأسفل على بعد بوصات قليلة من الفحم المشتعل.
كنت أحدق فى اللون الأحمر البرتقالى القادم من
الفحم المشتعل أراقبه، وهو يشتعل أكثر داخل الخشب
الأسود، كنت أفكر وأقول لنفسى: إن هذا آخر شىء
سأراه، كانت هناك صرخات عالية مدوية، كانت
عالية، ثم هادئة، ثم عالية، ثم صمت تام.

كنت مستلقياً على الأرض فى ضوء الصباح
القوى، لم أستطع أن أرفع رأسى، كنت أشم رائحة
الدخان ومن خلال الدخان رأيت أجساداً رأيت جسد
"كاتو" وآخر من المتمردين ورأيت جثة "إيثان" وكانت
"ماى" غارقة فى بحر من الدماء، وكانت "سيلا"
الصغيرة ترقد بجانبها رافعة ركبتيها إلى أعلى كما لو
كانت نائمة، غير أن أحشاءها كانت مفتوحة وما
بداخلها كان بالخارج يرقد بجانبها مثل كومة لامعة
اللون، وفوق كل جثة كانت تطير مجموعة هائلة من
الذباب الأزرق والأخضر اللون، كانت هناك موجة
رمادية اللون تحلق فى الأفق، لم أستطع أن أتابعها
بعينىّ، كانت الموجة تتموج فوقى ثم تركتها ولم أستطع
أن ألاحقها.

الظلام - اتحرك اهتز للأمام وللخلف، كانت
الأرض كما لو كانت تصعد إلىّ ثم تعود إلى مكانها
الطبيعى، الأغصان الميتة . يدى تلمس شيئاً خشناً

بجانبى.. الألم يحطم كل جزء فى جسدى فقدت الوعى مرة ثانية.

الليل .. لا أستطيع التحرك مطلقاً، لمحت ضوء نار موقدة، حاولت أن أرفع رأسى. كانت الدنيا تدور من حولى.. الظلام .. اهتز ثانية ممر من الحشيش .. ظلال أشجار.. رائحة النهر ذى الطمى الذكية.. ضوء النهار أخيراً سكون.. تحتى أوراق الشجر وفوقى مجموعة غير واضحة المعالم من الأغصان، ركزت عينى على ورقة شجر واحدة أورقت قبل أوانها كانت ذهبية وقرمزية اللون. سيكون هذا كله هنا حتى لو أننى غير موجود لأراه، سوف تراه "مارميه" وكذلك نسائى الصغيرات، أعتقد أن هذا هو معنى النعمة.. النعمة.

الليل .. نار ارتعش من البرودة

"برد"

خرجت هذه الكلمة منى بصوت لا أستطيع التعرف عليه.. إنه صوتى .. كانت آنفى محتقنة بالدم الجاف، أسرعت "زنا" إلى جوارى ووضعت يدها الخشنة على حاجبى، كان وجهها شاحب اللون ومتسخاً، وقفت وجذبت القماش الذى كان يغطى ظهر البغل المقيد بحبل ليظل واقفاً، قامت "زنا" بلف ذلك القماش حولى، كانت رائحته رائحة عرق ورائحة أسطبل خيول.

فى ليلة أخرى أو ربما فى الليلة ذاتها، رائحة ذرة مشوية، استدارت "زنا" من أمام النار الموقدة وهى

تحمل مقلاة صغيرة، وضعت الذرة بإصبعها فى فمى، حاولت أن أبلع ولكن ما أعطته لى حرق حلقى ومكث هناك، أعطتنى مياهاً يبدو أنها كانت مقذوفة من مقذوفات البراكين.

"أين الآخرون"؟ كان صوتى محشرجاً.

نظرت إلى أسفل وهزت رأسها

"جيمس"؟

ترقرقت الدموع فى عينيها ونزلت على وجنتيها المتسختين، أخذت تحل الزر الذى كان مربوطاً بحرص على رسغها وأخرجت حلقات من الشعر المتجعد، وضعتها على وجهها وبدأت تصرخ وتئن، مددت يدى إليها ولكن جسمى كان يؤلمنى بشدة، وكنت أشعر بثقل شديد فى ذراعى، ألقت برأسها على حجرى، وضعت يدى التى كانت ترتعش على الإيشارب الفيروزى الذى كانت تضعه على رأسها وتغطى به شعرها، تذكرت ضحكة ابنها السعيدة فى اليوم الأول لميلاده، لمست خصلات الشعر التى كانت تقبض عليها بيدها بقوة، كان جزء كبير منها مثل جلدها فكيف ستستطيع تحمل هذه الخسارة على قمة أشياء أخرى قد خسرتها أيضاً؟ أغلقت عينى وعندما فتحتهما كان الصباح، قد أشرق على الدنيا، لقد ظلت تبكى على حجرى حتى غلبها النوم، عندما حاولت أن أستدير، استيقظت وجلست، وضعت يديها على عينيها ونهضت بصعوبة، كانت خصلات شعر "جيمس" مازالت فى يدها. كانت على وشك أن تضعها ثانية فى كمها عندما توقفت وأخذت خصلة صغيرة ووضعتها فى

كف يدى وهى تضغط عليه، رفعت كف يدى إلى شفتى وقبلت خصلة الشعر.

وفيما بعد، سألتها عن "جس" فمدت يديها وهى تشير إلى رسغيها الاثنين بطريقة تعنى القيود.

"والآخرون"؟

أشارت ثانية بما يعنى القيود.

"أنت الوحيدة التى استطعت الهرب"؟

أومأت برأسها وكانت عيناها مرقرقتين بالدموع

ورجعت أنت ووجدتينى؟ زنا أنا ...."

هزت رأسها بحدة ووضعت يدها على فمى وذهبت لتحملنى على البغل، كنت أراقبها من خلال الحرارة القادمة من النار الموقدة عندما ارتفعت الحمى ثانية وأخذتنى بعيداً.

عندما استيقظت ثانية كنت مستلقياً على ظهرى، أصبحت حركة الاهتزاز التى كنت أشعر بها أقل بكثير وكأننى طفل فى المهد. كانت هناك رائحة قوية مثل رائحة الصابون فى أنفى، بطانية رمادية اللون صلبة بعض الشىء ملفوفة حولى بشدة وعندما ركزت عينىَّ، رأيت كتلة من الشاش، كان هناك شباك عليه ستارة وخلفه سماء ساطعة اللون، وجمرات سوداء تتصاعد إلى فوق تلحق بلون السماء الأزرق الجميل، كان هناك صوت شىء يشبه صوت محرك، وكان الضوء يؤذى عينىَّ فأغلقتهما وعندما فتحتهما ثانية رأيت أمامى قماشًا أسود اللون وسمعت صوتاً جميلاً "كليك كلاك" مثل قطع من الرخام تتخبط فى بعضها.

ثم رأيت بعد ذلك ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق، وجه امرأة - وجه امرأة أبيض، يلفه خمار الراهبات - كان هذا الوجه يحدق فىّ.

قالت "الآن يجب أن تستريح". حاولت أن أرفع رأسى ولكنها أرجعت رأسى إلى الوراء برفق على - ما لم أكن أتوقعه أيضاً - وسادة "لا تحاول أن تتحدث، لقد كنت مريضاً جداً. وأنت مازلت مريضاً".

"لقد أصيبت بطلقة نار".

لقد أصابتك الطلقة إصابة خفيفة رقيقة، ولكننا تمكنا من مراعاة ذلك فقد شفيت من تلك الإصابة، إنها الحمى التى تتعبك الآن".

كيف ... كيف أتيت إلى هنا؟ وأين أنا؟ ومن أنت؟

ابتسمت لم تكن امرأة صغيرة فى العمر، كان وجهها مليئاً بالتجاعيد إلى درجة النفور، ولكن بالنسبة لى كانت تشبه الملاك.

"أنت فى المستشفى على سطح سفينة تدعى "الردروفر"، وأنا الأخت مارى أدلا، نحن طاقم التمريض، راهبات الصليب المقدس، نحن نأخذك بسفينتنا إلى الشمال، أنت فى أمان الآن.

"أمان؟ كنت أفكر أننى لن أكون فى آمان أبداً ولكننى كلَ ما قلته هو "كيف؟"

قالت بلطف "ش ش. أسئلة كثيرة".. وأخذت كف يدى فى يدها الرقيقة، لتقيس النبض، كانت حبات السبحة البنية اللون التى تدلى من حزام خصرها تتخبط فى بعضها محدثة صوتاً جميلاً وهى تتحرك

لتضبط الوسادة، "قال الرجال: إن فتاة ملونة صامتة أحضرتك إلى الخطوط الفيدرالية، لقد اعتقد الحراس أنها "عبدة" لك وأنك سيدها فرفضوا أن يأخذوك ويحضروك إلى هنا فى البداية ولكنها أصرت على أن يحضروك إلى هنا حتى وهم يصوبون البندقية نحوها، كانت مصممة أن تجعلهم يتفهمون الأمر. قالوا إنها خلعت الإيشارب فى البداية والتقطت عصا محترقة من النار التى قاموا بإشعالها وكتبت هذا عليه. لقد احتفظنا بها لك".

كانت رؤيتى مهتزة وكانت علامات الفحم المكتوبة على الإيشارب الفيروزى غير واضحة على الإطلاق، لكننى حاولت أن أقرأ ما هو مكتوب على القماش الفيروزى المصنوع من الساتان المتسخ.

"كابتن مارتش

واعظ صغير فى العمر

لقد أتى من مكان يدعى كونكورد

وهو رجل طيب".

بكيت عندما قرأت تلك السطور مما نتج عنه إصابتى بكحة عنيفة، انحنت الراهبة علىّ وهى تمر بالسبحة الطويلة، وأخرجت من جيب خمارها قطعة قماش أبيض ووضعتها تحت ذقنى، فقذفت من فمى بلغماً دموياً بكميات كبيرة، وكان آخر شىء رأيته هو وجه الراهبة التى كانت تنظر إلىّ باهتمام شديد ثم استدارت لتنادى على الطبيب المختص.

الجزء الثانى

"قرأت "جو" بصوت عالٍ به نبرة خوف

"مسز مارتش":

إن زوجك مريض جداً.. يجب أن تأتى فوراً

س. هيل

مستشفى بلانك، واشنطن

لويزا ماى الكوت، "نساء صغيرات"

الفصل الثالث عشر

مستشفى بلانك

لقد قلت له أن يذهب لم أبك على فراقنا لقد قلت إننى أبذل ما فى وسعى للبلد الذى أحبه ولم أذرف الدمع إلى أن رحل ولكننى ذرفت الدمع وأنا بمفردى، لقد قلت للفتيات لا حق لنا فى أن نشكو عندما يبذل كل واحد منا واجبه ففى النهاية سوف نكون جميعاً سعداء بما قمنا به. كانت تلك كلمات .. مجرد كلمات فارغة فى ذلك الوقت وهى فارغة أيضاً الآن، فأى سعادة إذا احتضر هنا فى ذلك المكان الكئيب؟ وأى سعادة إذا تماثل للشفاء؟

إن المكان هنا هادئ الآن، خاصة عند انتهاء الأعمال الروتينية اليومية. تدق الثوانى وصوت نقاط المياه مسموعة وهى تسقط على جروح المصابين وتخفف من آلامهم، وهناك الضوء الأصفر لمصباح الغاز الذى من خلاله أنظر بتمعن إلى وجهه -حيث لا يوجد هناك شىء آخر أفعله هنا سوى هذا - النظر إلى وجه زوجى! أدرس هذا الوجه وأتساءل أين ذهب هذا الوجه الذى طالما أحببته. الوجه الذى كان لا يخفى عمره الحقيقى، عندما رأيته أول مرة على منبر

أخى فى الكنيسة، وكان هذا الوجه يشع ناراً. فكرت وقتها أنه من النادر أن تسمع مثل هذه الكلمات المليئة بالحماس تصدر من وجه رقيق ولطيف، كان يبدو مثل الملاك الذى يرسمه الفنانون الإيطاليون -شعره ذهبى، ولون جلده لون الذهب البرونزى، كان مليئاً بالحيوية والشباب والوقار فى آن واحد، كان تعبيرات وجهه تدل على طبيعة عاطفية، تنم عن البراءة والخبرة فى آن واحد، وكل تلك السنوات فيما بعد، وآنا أراقبه يذهب إلى الحرب وهو فى عمر سخيف - التاسعة والثلاثون - وكان رغم هذا يبدو صغيراً بالنسبة لى، عندما لمحته يبتسم ويلوح بيده للصحافة من نوافذ سيارة الجيش التى كانت تغادر المكان. كنت أظن أن هناك جنوداً شباباً حوله كان عمرهم أصغر منه ولكنهم يبدون أكبر منه عمراً.

كان من الحماقة أن أتركه يذهب إلى ميدان المعركة. وكان ظلماً منه أن يطلب ذلك منى، وعلى الرغم من ذلك غير مسموح أن أدلى بهذا، فهذا أكثر الأشياء القائمة المحظورة التى يجب ألا تتحدث عنها المرأة، إن تضحية مثل هذه التى قام بها يطلق عليها العالم عملاً نبيلاً لكن هذا العالم لن يساعدنى فى أن أقوم بجمع ما حطمته وكسرته الحرب.

العمة "مارتش" هى الشخص الوحيد الذى تجرأ ونطق بالحقيقة، عندما استلمت خطابها الملفوف حوله المال الذى اضطررت أن أطلبه منها لأقوم بهذه الرحلة، قرأت الخطاب وحرقته، رأيت عيون "هنا"

تنظر إلىّ وأنا آجمع الخطاب مثل الكرة وألقى به فى المدفأة ليحترق مع نيران المدفأة، لقد ظننت أنى غاضبة من العمة "مارتش"، ولكن الحقيقة أننى كنت غاضبة من نفسى، حيث لم تكن لدى الشجاعة لكى أقف فى مواجهة ذلك الصراخ الذى ينادى بالحرب وأقول لا. ليست بهذه الطريقة .. لا يمكن أن نصحح الظلم بالظلم. لا يمكن أن نشوه صورة الله ونقول بأنه يريد أن يقتل الشباب بعضهما البعض، فهل ما أراه هنا يعتبر طريقاً إلى الله؟ هناك الحلفاء يرقدون فى هذا المستشفى، كما يقولون؛ إذاً فهناك أخيراً اتحاد، ولايات متحدة من الألم، هل أراد الله لصبى المدينة ذات الطاحونة الذى يرقد فى العنبر الآخر بأن يطلق عليه الرصاص، أم هل أراد الله للصبى المزارع الذى يرقد بجانبه أن يتلقى طعنة سيف حادة فى أمعائه؟- إن ذلك الشاب البائس لم يكن لديه ذات يومٍ عبد؟.

ولكننى لم أتفوه بهذا الكلام العام الماضى عندما كان ذلك الكلام مهماً، كان من السهل فى ذلك الوقت بأن أقنع ضميرى أو ضمير أى شخص بأن الحرب ستنتهى فى تسعين يوماً كما قال الرئيس، وأن أصرح بأن الثمن المدفوع بالدم سيبرر الخير الذى سوف نحصل عليه بالتأكيد. وذلك لندفع الاضطهاد القاسى من على الرقاب، إن تسعين يوماً من الحرب بدا وكأنه ثمن عادل. يا له من حساب فاسد؟! مازلت أؤمن أن إزاحة بقعة العبودية تستحق بعض المعاناة -ولكن معاناة من ؟ إذا كان أجدادنا جعلوا العالم غير صالح

للعيش به هل يجب على أطفالنا أن يدفعوا حياتهم لإصلاحه؟.

عندما رأيته واقفاً على جذع الشجرة فى أرض المرعى وحوله وجوه الشباب المتحمسة، كنت أعلم وهو يتحدث إليهم أنه كان يظن أنه ليس من العدل آن يلقى العبء كله على هذا الجيل البرىء لكى يتحمله بمفرده، رأيت نظرة الحب لهؤلاء الأولاد فى عينيه ورأيت أيضاً أن اللحظة تحمله بعيداً، رفعت ذراعى إليه أرجوه بألا يقول الكلمات التى كنت أعرف أنها تتكون بداخل عقله، نظر إلىّ بتمعن، ورأى دموعى وتجاهلها وفعل كما أراد أن يفعل ثم جاء دورى لكى أتظاهر بأننى مسرورة بما فعله بطلى الذى هو زوجى. وعندما نزل من حيث كان واقفاً وأتى إلىّ، لم أستطع أن أتحدث إليه فى شىء، أخذت يده وغرزت أظافرى فى لحمها كنت أريد أن أجرحه لما يسببه لى من ألم.

لست وحدى التى أعانى من هذا. لقد جعلته يفعل بى ما يفعله الرجال بالنساء: يذهب لمجد زائل وفارغ ويتركنا خلفه نجمع ما تركه من حطام ومخلفات .. المدن المحطمة .. مخازن الحبوب المحترقة .. الحيوانات البريئة المجروحة .. أجسام الأولاد المدمرة الذين نحملهم بداخلنا والرجال الذين نرقد بجانبهم.

يا له من إهدار ومضيعة لكل شىء! أجلس هنا، وأنظر إليه وأشعر كما لو كان هناك المئات من السيدات يجلسن بجانبى، زوجة المزارع المتمردة، المرأة الريفية البسيطة، والأم الفدائية التى تقول لابنها -

"يجب أن تعود مع درعك أو فوقه"، تبكى تلك الأم لأنه من المتوقع أن تبكى، ثم تنحنى على جسم ابنها المحطم وتتحول الكلمات إلى تراب داخل حلقها.

أشكر الله أن لدى فتيات فقط وليس لدى صبيان، كيف كنت سأتحمل إذا كانت "مج" -على سبيل المثال -جندياً فى السادسة عشرة من عمره وتلك الحرب الممتدة لسنوات حتى تصبح "جو" فى العمر المناسب للانضمام للمعركة ولا تزال المعركة مستمرة؟ يجب الآن أن أخفى كل ما يدور فى عقلى عليهن وأن أريهن وجهاً قوياً وحاداً وأن أوفر عليهن الإحساس باليأس وألا أدعهم يرون أو يشعرن بشىء تجاه والدهن واختياراته، ما الذى تبقى فيه؟ الذى بقى الآن هو أن الحرب والمرضى عملوا على إظهار الكيمياء القديمة البشعة؟ يمكننى أن أرى التغيير الذى طرأ عليه حتى قبل أن أسمع دمدمة هذيانه، عندما وجهونى إليه اليوم فى فترة الظهيرة، اعتقدت أنهم أرسلونى للسرير الخطأ، حقيقة لم أستطع التعرف عليه، فكل السنوات التى قضيناها معاً، حتى السنوات الصعبة التى تخطيناها، لم ترسم على وجهه إلا علامات جميلة. إن علامات الضحك التى كانت مرسومة عند زوايا عينيه كانت تعمل على ظهور قوسين عميقين لابتسامته، ولكن الشهور التى فصلتنا وأبعدتنا عن بعضنا حفرت له وجهاً مختلفاً تماماً.

هل سأراه يبتسم مرة أخرى؟

شعرت بيد على كتفى وأدركت أننى قد همست بالفكرة الأخيرة التى طرقت إلى ذهنى بصوت عالٍ.

مسز "مارتش" "لا تعذبى نفسك بتلك الأسئلة الكئيبة"، إن التعب هو الذى يبعث إليك بها، إنك متعبة جداً، ألن نذهب لنبحث عن غرفتك"؟ ثم استدرت، وكان هو بجانبى حيث كان يرقد كل ساعة منذ وصولى بعد أن أرسلوا إلىّ ذلك التلغراف البشع، كنت أرى أنه أيضاً شاحب اللون ويبدو عليه الإرهاق من رحلتنا السريعة التى قمنا بها ومجهوداته التى بذلها منذ وصولنا وكان عيناه البنيتان اللون مليئتين بالاهتمام والقلق علينا.

"لا أريد أن أتركه..."

"ليس هناك ما بوسعك أن تفعليه هنا، فهناك الممرضة التى تشرف عليه أثناء الليل. لقد تحدثت معها. وعلى أية حال هى تقول، بأنهم يطلبون من كل الزائرين أن يتركوا المكان فى التاسعة مساء عندما يطفئون مصابيح الغاز".

"دعينا نجلس على الأقل حتى الميعاد المتاح، فلقد قرب الميعاد". رفعت اليد التى كانت ترقد ضعيفة على الغطاء الذى كان يغطى جسده ووضعتها على خدى، سمعت صوت العكازات على الأرض حيث كان المرضى يعودون إلى أسرتهم وكانت الممرضة المسئولة عن الإشراف أثناء الليل تستعد لتعلن عن ميعاد النوم.

أخذ مستر "بروك" نفساً عميقاً مثل التنهيدة، مسكين مستر "بروك" للأسف إن جارى الطبيب مستر "لورانس" قد كلفهِ بمسئولية صعبة وهو يشعر بواجبه تجاه تلك المسئولية، فقد أشار إلىّ أثناء رحلتنا بأنه

ينوى الانضمام للمعركة والجيش فوراً حيث إن واجباته والتزاماته كمدرس تنتهى الخريف القادم عندما يذهب "لورى" إلى الجامعة أردت أن أقول لا! اخدم بلدك كما تخدمها الآن بتعليم وتهذيب العقول الصغيرة وليس بتفتيت وتشتيت الأجسام الصغيرة. ولكننى للمرة الثانية، لم أتحدث، كانت تنقصنى الشجاعة كما حدث من قبل، ليس من السهل عليه أن يرى ما يراه هنا، الصبيان المحطمة على الأسرة، كيف لا يتخيل نفسه معهم؟ ورغم هذا، هو فى الثامنة والعشرين من عمره، وكانت لديه خبرة طويلة فى أن يشق طريقه فى العالم. كان رجلاً قوياً وصامتاً معظم الوقت يفكر كثيراً ويتحدث قليلاً.

مسز "مارتش".. من الحكمة أن ننطلق الآن، إن العاصمة والأماكن المجاورة لها مشهورة بأنها ينقصها النظام مع الأسف وأن منطقة "جورج تاون" بصفة خاصة لديها سمعة سيئة. لقد بلغنى أن أماكن احتساء الخمر تغلق فى الساعة التاسعة والنصف وذلك طبقاً للأوامر والتعليمات الموجهة إليها، وهناك شائعات تشير إلى أنه يمكن حدوث وظهور سلوكيات غير لائقة فى ذلك الوقت فى الشوارع. أود أن أوصلك بأمان وسلام إلى غرفتك".

ماذا كان يمكننى أن أقول؟ لقد بدا الشاب متعباً وقلقاً. ومن ثم نظرت نظرة أخيرة طويلة على زوجى ووضعت يدى على جبهته المحمومة، متمنية أن أنقل إليها الحنان والحب وليس بركان الغضب الذى كنت أشعر به.

وفيما أنا واقفة، أحاطت بى موجة من التعب والضعف لدرجة أننى كنت سعيدة بيد مستر "بروك" القوية الثابتة الموضوعة على كتفى، فى الحقيقة، أتمنى ألا أقوم ثانية برحلة مثل التى أحضرتنا إلى هنا، تقول "مج" دائماً أن شهر نوفمبر هو أسوأ شهر فى السنة وأعتقد أنه من الآن فصاعداً سوف أوافقها الرأى، إن ذلك الصباح الكئيب الذى حضر فيه مستر "بروك" ليصحبنى فى هذه الرحلة -هل كان منذ يومين أو ثلاثة؟- بعد ليلة بلا نوم مليئة بالتوتر والقلق، لم أجد فيها الراحة ولكننى مكثت أمشى فى المنزل وأنا أنظر إلى نسائى الصغيرات وهن نائمات - رأس "جو" على الوسادة -كانت تشبه الصبيان وهى ترقد بجانب "مج" التى صارت فجأة كامرأة، انتبهت لوهلة أنه إذا وجدت "مج" الرجل المناسب الذى سوف ترقد بجانبه هل سيكون لديها الأب الذى سوف يسلمها له؟

فى الحجرة المجاورة كان كل من "بث" وآمى" تبدوان مثل الأطفال النائمين، فهما مثل الأطفال الصغار، الذى من الصعب أن تتركهم أمهم، حتى مع خادمة عاقلة مثل "هنا" وجارنا الطيب الذى سوف يراقبهن، كل هذه الأفكار كانت تتخبط فى عقلى مع الخوف السائد بداخلى على ما سأستقبله من أخبار هنا، وحتى عندما أرقد على السرير لا أستطيع أن أغلق عينىَّ. فبدلاً من هذا، جلست، أشعلت المصباح، وقمت بتصليح جورب حتى سمعت "هنا" العزيزة تجهز

قطاراً ساخناً، قبل ظهور الفجر، بالكاد استطعت أن أتناوله.

ظلت عيناى تؤلماننى بشدة وأنا أحاول أن أودع بناتى، ولدهشتى كانوا فى منتهى الشجاعة: فلم تبك واحدة منهن وأرسلن جميعهن رسائل حب إلى والدهن وهن يعلمن جيداً أننى قد أصل متأخرة إلى فراشه لأسلمه تلك الرسائل منهن. كنت بالكاد أعرف أين أخطو الخطوة ونحن فى طريقنا من العربة التى تجرها الخيول إلى السيارة التى ستنقلنا إلى السفينة عابرين بين أطفال يبكون ووجوه النساء تعبر عن الحزن والكآبة ورجال يدخنون ويبصقون، كنت سعيدة عندما وصلت إلى السفينة فى "نيو لندن" وخلف ستار مضجعى فى السفينة، استطعت أخيراً أن أطلق العنان لدموعى.

فى الصباح، كانت عيناى لونهما أحمر ومتعبتين، وصلنا إلى مستودع قذر فى "نيو جيرسى"، ووجدنا سيارتنا وسط عربات الخيول وحمالين يقسمون كثيراً، مررنا بهم عابرين منازل "فيلادلفيا" متجهين إلى امتداد "بليتمور" الظالم، وفيما نحن فى طريقنا لأن نترك المدينة، كان هناك أكثر من خفير على امتداد خطوط السكة الحديد فشعرت أن الحرب قادمة مثل العاصفة.

فى كل مكان، جيوش .. عربات .. عربات ذخيرة .. خيام .. خيام، الكثير من الخيام -مدن شاحبة - منازل من القماش البارد غير المبهج لجيشنا، كانت تعطى للريف شكلاً أبيض مثل قطع الجليد.

كانت تمطر فى الظهيرة، عندما وصلنا أخيراً إلى واشنطن كان هناك هواء بارد قادم من السحب المزدحمة فوقنا التى تبدو وكأنها قد اقتربت لأسفل من مبنى البرلمان غير المنتهى مثل غطاء علبة ليست محكمة، طالبت بأن نتوجه مباشرة إلى المستشفى، لأنه إذا كانت الأخبار سيئة فأود أن أسمعها بسرعة، لقد حصل مستر "بروك" على معلومات عن كيفية الوصول إلى المكان الذى كان من قبل فندق، قبل حدوث الكوارث المتعددة على "ماناس" وعلى شبه الجزيرة، إن حطام السفينة الغارقة التابعة لجيشنا قد وصل إلى كليات المدينة وكنائسها، حتى أنهم يدعون أنه وصل إلى المسافة بين مجالس الوزراء الفضوليين فى مكتب "باتنت". كان من حسن الحظ أن مستر "بروك" يسأل ويتحرى فى كل التفاصيل الدقيقة، بدا على أول سائق عربة أجرة أنه لص أو مجرم، وكان مصمماً أنه سيوصلنا إلى المكان الذى نقصده لأن هذا المكان فى طريقه وكان من الممكن أن أصدقه لولا أن مستر "بروك" أخذ يسأله بذكاء بعض الأسئلة وعلم أن المكان الذى يقصده هو فى الجانب الآخر من المدينة، وعندما قام مستر "بروك" بتوبيخه متهماً إياه بتضليلنا عن قصد، أخذ الرجل صاحب عربة الأجرة يقسم ويقول كيف يمكن له أن يعرف طريق كل المستشفيات، حيث إنه كل يوم يقام مستشفى جديد فى مكان ما جديد، وأن ارتباكه هذا كان محض صدفة.

وجدنا أخيراً عربة أجرة، كان صاحبها متجهاً إلى نفس الاتجاه الذى نقصده، وأشار مستر "بروك"

بإصبعه إلى منزل السيد الرئيس حيث كانت هناك الكثير من العربات التى تجرها الخيول واقفة أمام منزله على طول الطريق الذى أصبح نهراً من الوحل. كل ما استطعت أن ألاحظه هو فساد ذلك المكان: كانت الخنازير تتجول فى الشوارع والخيول الميتة ملقاة على جانب الطريق، حتى الخيول التى مازالت على قيد الحياة كانت تبدو وكأنها نصف ميتة، يبدو أن رؤساء الفرق المسئولين عن تلك الخيول مهملون. وكان هناك العديد من العبيد السود فى كل مكان.

فى كونكورد، نحن معتادون أن نرى واحداً أو اثنين من العبيد الملونين فى لباس مهندم، ويسلكون سلوكيات لائقة. ولكن داخل واشنطن فيضانًا من بقايا العبودية، يستوطنون بها بطريقة محظورة لمجرد أن يحافظوا على وجودهم، شعرت بشفقة تجاه صغار العبيد الذين كانوا يجرون فى الشوارع يبحثون عن حرفة غير مرتدين أحذية البوت فى مكان يحرص فيه حتى الشخص المعدم على إنفاق القليل من القروش ليتأكد أن حذاءه البوت سليم ليستطيع أن يمشى به فى ذلك العالم من الطمى.

كل ما يأتى من المستنقع، غير منتهى وقابل للسقوط ولذلك تبدو المدينة كالأطلال. مررنا بالمسلة التى بنيت لتكريم رئيس الأمة، كانت واقفة مثل قلم رصاص مكسور، ولايوجد حتى ثلث من المبنى، وتحتها كانت تتناثر كومات من الأحجار هنا وهناك ينمو من حولها الحشيش من كل جانب. أما المبانى القليلة

المنتهية البناء فكانت تقف فى مواجهة بعضها وكأنها أشكال من مجد ضائع مثل "اللبتيس ماجنا"(*) دون نقطة الخلفية الزرقاء لسماء البحر الأبيض المتوسط.

لقد بدا لى أنه إذا لم تعد ثروات تلك الحرب، فربما يكون مقدر لهذه المدينة ألا تكون أكثر من ذلك: أطلال غارقة فى مستنقعات، تسطع فى لحظة تفاؤل عندما يحلم البعض ويؤمن بأنك تستطيع أن تبنى أمة على أفكار مثل الحرية والمساواة.

إن هذه الأفكار التى تبعث اليأس إلى النفس أفزعتنى فى اللحظة التى صاح فيها صاحب عربة الأجرة "فندق بلانك"! وأنزلنى مستر "بروك" أمام مبنى ضخم وكبير، أمامه علم مرفوع يتطاير: هناك العديد من الرجال واقفون أمام المبنى فى الزى الرسمى. تركت "مستر بروك" يتعامل مع حقيبتى السوداء الثقيلة القديمة، وأرغمت قدمىَّ للصعود على الدرج. لمس الحارس قبعته كطريقة للتحية ولكن بطريقة رسمية جداً، لابد وأنه رأى الكثير من السيدات مثلى، زوجات سوف يسمعن عن أنفسهن أنهن أصبحن أرامل، يصعدن هذا السلم ليتلقين أخبارهن.

ولد أسود عبد -ألن تكون هناك نهاية لمثل هؤلاء الناس؟ فتح الباب، كان ما بالداخل أشياء نتنة وعفنة -كرنب مغلى وأوان للاستخدام داخل الغرفة، أجسام

(*) اسم مكان.

عفنة ومتسخة ومليئة بالعرق -شراب مخمر بشع ازداد سوءاً بسبب حرارة الجو التى تشبه حرارة جو "بومباى". رأيت أنهم قد أغلقوا النوافذ الطويلة بالمسامير حيث لا يدخل الهواء مطلقاً داخل الغرفة، امرأة نحيفة سوداء اللون، منظمة ومهندمة، على الأقل يبدو شكلها مطمئناً، غير النساء اللاتى يسلكن سلوكاً غير لائق، اللاتى لمحتهن فى الشارع، مرت هذه المرأة من أمامى حاملة صينية بها بعض الأدوات.

قلت لها: "من فضلك"، استدارت ونظرت إلىّ باهتمام ذكى "أين يمكننى أن أجد الطبيب الجراح هيل؟".

"هل يمكن أن تتبعينى، إننى فى طريقى إليه" كان صوتها جميلاً جداً -منخفضاً وعذباً وكان الواضح من لهجتها أنها قادمة من الجنوب، ولكنها كانت تبدو سيدة متعلمة أرستقراطية، تتبعت خطواتها السريعة متجنبة الصالة الصاخبة المليئة بدلاء الفحم والسيدات اللاتى يغسلن الملابس ويكويهن ولون بشرتهن مثل لون الفحم والمرضى الذين فى فترة النقاهة، ويعرجون قليلاً ويحملون برادات الشاى المحملة بالبخار، ومدنيون منهكون، مثلى، يبحثون عن أحبائهم. مررنا بجانب دولاب كبير ملىء بصفوف من نقالات الجيش ووجوه من الشمع. نظر إلىّ أحدهم بعيون محمومة زجاجية وقال: "شارلوت.. هل أتيت لى أخيراً؟" حاولت أن أتحكم فى الرعشة التى أصابتنى وهززت رأسى محاولة أن أرد على تأمله الجاد والحاد لى بابتسامة ضعيفة.

وفى نهاية الصالة التى كنا نسير فيها كان هناك بابان كبيران يؤديان إلى غرفة مزينة بداخلها شكل الكورنيش على الحائط يتدلى منها أكثر من شمعدان واحد، وكانت هناك يافطة عند باب الدخول مكتوب عليها "غرفة الحفلات"، بدا المكتوب عليها وكأنه نكتة سخيفة لأن ما بداخل الغرفة وعلى ساحة الرقص اللامعة كان يرقد ضحايا الحفلة والذين ربما لن يستطيعوا الرقص ثانية، كان بداخل الغرفة ما يقرب من أربعين سريراً، كانت الأسرة جميلة مثل أسرة الفنادق بدلاً من النقالات المتواضعة، بعضها كان مشغولاً والبعض الآخر شاغراً، من هناك مجموعة من الجنود قد وصلوا مؤخراً، ولاتزال أجسامهن متسخة بالدم والطمى، كانوا ملقين بعيداً فى انتظار الطبيب الجراح المختص. كانت على وجوههم علامات الهزيمة، مثل الصحفى الذى يذيع خبر خطأ فاضحًا عن حرب ما، اقتربت الممرضة السوداء اللون من أحد الجنود ذى شعر فضى ووضعت الأدوات وأخذت وعاء معدنياً لتستلم بعض الشظايا التى أخرجها الطبيب من كتف المريض، أدارت رأسها إلى حيث كانت واقفة وقالت شيئاً ما إلى الطبيب بصوت منخفض ثم أشارت إلىّ لأتقدم إلى الأمام. وصلت إليها وأنا أسير بخطى غير راغبة أشعر بأننى أتدخل بين الجراح وبين ذلك المريض المصاب الذى كانت كتفه عريانة والألم واضحاً على وجهه.

"الطبيب هيل"؟ قلت هذه الجملة وشفتاى ترتعشان، "لقد استلمت التلغراف الذى أرسلته

وحضرت مسرعة؟ زوجى، كابتن مارتش... أتمنى أن أكون قد أتيت فى الوقت المناسب؟".

إن رأس الممرضة التى كان عليه الغطاء الأبيض ظهرت فجأة والصورة حادة أمامى، نظرت الىّ باهتمام بالغ وجاد، لم ينظر الجراح إلىّ وإنما كانت عيناه على الجرح: "مارتش"؟ همس: "مارتش"؟.

"القس"، قاطعته الممرضة "لقد وصل الأسبوع الماضى على "الرد روفر"، كان الجراح ينظر إلى الجرح باهتمام وقد أخرج شظية أخرى سقطت محدثة صوتاً داخل الوعاء المعدنى.

"أوه ... مارتش". إنه على قيد الحياة، أو كان عندما كنت أقوم بدورتى هذا الصباح. ولكن حالته، كما كتبت إليك، خطرة وحرجة جداً، ستأخذك الممرضة "كليمنت" إليه بمجرد أن تنتهى من هذا الرجل".

"من فضلك" "لا تزعج نفسك، إذا قلت لى أين هو فيمكننى أن أصل إليه بنفسى. إن هؤلاء الرجال لديهم احتياجات أكثر منى ....".

ظلت الممرضة تنظر إلىّ، قرأت الشفقة فى وجهها وشيئاً آخر لم أدركه لأننى كنت متعبة جداً..

"ستجدينه فى قسم الحميات بالطابق الثانى، على يمين الدرج، "قالت" إن سريره هو السرير الرابع على شمال الباب". سكتت عن الكلام وكأنها تريد أن تضيف شيئاً .." هل هناك أحد معك؟".

قلت: "نعم" "معى مرافق، يحضر الحقائب".

قالت: "أنصحك بأن تنتظرى هذا المرافق"، "للأسف سوف تجدين زوجك قد تغير كثيراً".

لو كنت متمالكة نفسى أكثر، لكنت قد تعجبت من هذه الملحوظة، ولكن فى هذه اللحظة، كل الذى كنت أريده هو أن أتمسك بإشاراتها ووصفها فى عقلى المزدحم لأصل إلى زوجى.

"شكراً" قلت هذا وانسحبت، وجدت "مستر بروك" على الفور، كان يسير فى الصالة الطويلة مسرعاً باحثاً عنى فى كل قسم، رفعت يدى إليه فكان بجانبى فى الحال. أعطانى ذراعه وصعدنا الدرج.

لولا أن الممرضة أعطتنى الاتجاهات المؤدية لسرير زوجى لكنت لما عرفت أن الشخص المدمر تماماً الذى يحتل ذلك السرير هو زوجى، كانت وجنتاه تبدوان وقد انغمستا للداخل مثل رأس الموت، وأنفه الجميل محطم تماماً وذراعه التى كانت على الغطاء تبدو وكأنها بلا لحم تماماً -مجرد عظام مغطاة بالجلد، يبدو أنه فقد نصف وزنه. وكانت هناك قروح فى زوايا فمه.

عندما غادر المنزل فى الماضى، كان شعره ذهبياً لامعاً وقد ظهرت عليه خصلات فضية هنا وهناك، الآن، ما تبقى له من شعر كان رمادياً تماماً ويبدو جيداً أنه فقد الكثير منه، عندما حاولت أن أزيل بحرص شعره من على جبهته الساخنة، خرجت خصلة

من شعره فى يدى، كان جلده قد احترق وبريقه البرونزى الطبيعى الناتج من التعرض للشمس قد حل محله لون أصفر فيما عدا الجلد الذى كان تحت عينيه كان ذا لون أحمر،' أمسكت بيده فى قبضة يدى وشعرت بالعظام، كانت عظام يده لينة مثل عظام العصفور، كنت أشعر بليونتها وهى فى قبضة يدى، لم أستطع أن أتمالك نفسى فى تلك اللحظة، فاستسلمت لبكاء عنيف.

مكث معى "مستر بروك" خلال العاصفة، ولكن عندما تمالكت نفسى سألنى إذا كان من الممكن أن يتركنى ليرسل تلغرافاً مختصراً ليطمئن بناتى بوصولنا بالسلامة وليطمئنهن بأن والدهن مازال على قيد الحياة وليخبرهن عن مكان إقامتنا الجديد هنا، ومن ثم كنت بمفردى عندما أصابه الهذيان، كان يرتعش وكانت يده تتحرك بقوة على الغطاء ورأسه تتخبط من جنب إلى جنب على الوسادة وفى لحظة، كان يصرخ بشدة وهو يدعو شخصاً يدعى "سيلاس" ويقول له مراراً وتكراراً إنه أسف على ما حدث، كان صوته جافاً ويبدو أن الحديث يؤلمه، ولكن لاحقاً، كانت هناك أسماء مختلفة، مجموعة كبيرة منهم كان يتلوها مثلما تتلى التراتيل الكاثوليكية فى الكنائس. سمعته يقول "طوملى" ثم شيئاً مثل "جيمى" وبعد ذلك ربما "سوزانا" طوال .. الوقت كان يردد كل هذه الأسماء بمنتهى الحماس وطوال الوقت يطلب السماح والغفران.

كانت هناك أشياء عديدة مزعجة فى ذلك المكان، رغم أننى لم أكن أريد أن أسمع كل ما يقوله، ولكننى كنت أعلم أنه لابد وأن أستمع إلى ما يردده وأحاول الربط بين ما يهذى به وبين ما يمكن أن يكون حقيقة، لفترة ظل يقول أسماءً وجملاً غير مترابطة ببعضها ثم بدا من هذيانه أنه أصبح فى منتصف معركة، يشجع زملاءه فى لحظة، محاولاً أن يعيدهم فى لحظة أخرى، يخفض رأسه، ممسكاً بذراعى وكأنه سيبعدنى عن سيول من حلقات النار التى فى خياله والتى سوف تلحق بنا.

لم أر ممرضة فى قسم الحميات ولكن عندما بدأ يصرخ بصوت عال، أسرعت امرأة سمينة ذات وجه شاحب وعينين صغيرتين إلى جواره، ودون أن تقول شيئاً لى وضعت ذراعها السمين خلف كتفيه ورفعته إلى فوق، لقد صاح متألماً وبدا أن قوتها قد سببت له بعض الآلام، أطلقت صرخة صغيرة فنظرت إلىّ باحتقار. وفتحت شفتيه المقروحة ووضعت ملعقة من خليط ما فى فمه.

"ماذا تعطيه"؟

"صبغة الأفيون"، أجابت بطريقة فظة. "لا مكان للضجيج هنا. إن مرضى الحميات يجب أن تتوفر لهم الراحة والهدوء".

"ما الأدوية الأخرى التى يتناولها"؟

"عليكى أن تسألى الطبيب هيل فى ذلك"، قالت هذا وهى تسير بعيداً "لقد أحضرت معى بعض

الزجاجات من النبيذ القديم الجيد وبعض الليمون وقدر من مياه الأرز المطبوخ. ربما يمكننى أن ....".

قاطعتنى: "كل هذا جيد جداً". "ولكنك لن تعطيه شيئاً حتى تتحدثى مع الطبيب المختص".

"ومتى سيكون هذا"؟

"عندما يصل إلى هنا"! قالت هذا بطريقة لاذعة. "فى حالة إذا كنت لم تلاحظى، هناك أكثر من مريض فى هذه المستشفى". قالت هذه الجملة وأدارت ظهرها عنى تماماً.

كنت مرهقة جداً وأعصابى فى حالة ليست جيدة حتى أن الدموع ترقرقت فى عينىَّ حاولت أن أقنع نفسى بأن الممرضة محملة بالأعباء ولا تقصد أن تكون غير لطيفة، ولكننى أعتقد إذا لم تكن حالتى منهكة هكذا لكنت قد تبعتها وأعطيتها جرعة من عقارها المر بدلاً من هذا، جلست هناك وراقبته، أثناء ما كان يأخذه ذلك الدواء الذى هو صبغة الأفيون إلى مكان بعيد تمنيت أن يكون بعيداً تماماً عن الأحلام المفزعة والكوابيس التى تلاحقه وتطارده، ظللت جالسة بمفردى بجانب زوجى حتى أتى مستر "بروك" ليأخذنى بعيداً عن تلك المستشفى.

ريح ثلجية عنيفة صدمتنا عندما خرجنا ولكننى كنت تواقة إليها بشغف بعد هواء المستشفى المنفر، أخذ "مستر بروك" يعتذر عن عدم جودة المكان الذى اختاره لنقيم فيه وحقيقة الأمر التى تعلن بأننا لابد أن نذهب إلى هذا المكان سيراً على الأقدام. أشرت إليه

بأننى لن أسمح بأى حال من الأحوال أن ينفق من النقود التى أعطاها إياه مستر "لورانس" لتلبية احتياجاتى هنا ، فقد كان الرجل المسن كريماً معى للغاية، كانت معى النقود التى طلبتها من العمة "مارتش"، وخمسة وعشرون دولاراً التى أحضرتها "جو" العزيزة عن طريق حلق شعرها التى ضحت به وتقاضت مبلغاً من المال عوضاً عنه ولا أدرى إلى متى سيكفينى ذلك المبلغ المتواضع؟ ونتيجة لتصميمى على أن اقتصد فى مصروفاتى كان مستر "بروك" حريصاً على أن يبحث عن مكان غير مكلف وبسيط وفى متناول مصروفاتى والمال الذى فى حوزتى أخيراً قال إنه وجد لنا مكاناً للنوم فى مسكن خاص، "مكان فقير، ولكننى متأكد أنه محترم، وليس بعيداً عن المستشفى". فى هذه اللحظة فكرت.. أن أى مكان مستور يمكننى فيه أن أغلق عينىَّ سيكون بالنسبة لى كافياً جداً.

إن المدينة، كما شرح مستر "بروك" كانت ممتلئة بهؤلاء الذين يحاولون أن يكسبوا مادياً من المعسكر الضخم المسلح الذى تحولت إليه المدينة، يبدو أن الحرب قد أفرزت طبقات مختلفة من البشر، لقد امتلأت مساكن الإقامة بمراسلى الصحف والمصورين من الجرائد المختلفة لكل ولاية، وازدحم المكان بالضباط الذين معهم إذن بالغياب أو لديهم عطلة رسمية والحانوتية الذين يقومون بغسل الموتى، ورؤساء الفرق وبائعى المشروبات الكحولية، وبعض المحتالين والنصابين، وبرغم أن مستر "بروك" لم يذكر لى هذا

أو أنه تعمد أن يمتنع عن ذكره فإننا وعلى بعد مسافة صغيرة من باب المستشفى تقابلنا مع أعضاء أكبر طبقة من مستفيدى الحرب وهم جيش النساء من المجدولينيات.

كانت هناك اثنتان من الفتيات تنتظران تحت ظلال الليل تتمنيان أن تتريحا مادياً من هؤلاء الرجال الذين هم فى فترة النقاهة، تحت المكياج المرعب الذى كان يغطى وجهيهما، كانتا فى مثل عمر "مج" و "جو" وليس أكبر منهما. كان لحمهما الصغير عارياً بفساتينهما القصيرة، وكان لون جلدهن أزرق من شدة البرد. "مساكين هؤلاء الصغار" همست بصوت خافت، وأحمر وجه مستر "بروك"، ولم يقل شيئاً، أدرت وجهى بعيداً عنه وعن شعوره بالحرج، وأخذت أحملق فى "البوتوماك" حيث كان القمر يشع ضوءه على سفينة بخارية بيضاء المشهد يبدو وكأنه كعكة زفاف بيضاء تسطع عليها الأضواء، لم أستطع أن أجزم إذا كانت هذه سفينة طبية أم ناقلة مؤن للجيش، دخلنا فى زقاق يؤدى إلى قناة ضيقة، فى استقبالنا رائحة أفظع من الرائحة العفنة التى كانت داخل المستشفى، كانت القناة محاطة على الصفين بصفوف من المنازل الصغيرة التى يبدو أن أصحابها كانوا يستخدمون القناة كصرف صحى لكل نتاج فاسد سواء كان آدمياً أو حيوانياً. وعندما مررنا ببائع السمك وجدناه يلقى بمقلاة بداخلها نفايات دموية فى الضباب، لم يتوقف مستر "بروك" عن اعتذاراته، كما قلت، ولكن بدأ قلبى يتوقف عن النبض عندما وقف أمام أحد منازل القناة

على أحد الصفين، كان كوخاً ضيقاً مكوناً من طابقين من الطوب الأحمر.

فتحت الباب لنا امرأة شاحبة ذات وجه طويل ذى زاوية، كانت مرتدية فستاناً بسيطاً، ومحتشماً أسود اللون يشير إلى أنها أرملة، كانت تحمل على وجهها القدر الذى كنت أخاف منه. قدمنى مستر "بروك" إلى مسز "جيمسون"، التى قامت بتحيتى بصوت خافت ممل وأدخلتنى إلى المنزل، لم يكن بداخل المنزل الصغير صالة؛ وإنما توجهنا مباشرة إلى حجرة صغيرة خالية كانت من قبل تحمل اسم "الردهة"، ولكنها الآن تحولت إلى حجرة نوم مكونة من سريرين يفصل بينهما شىء مثل الشاشة التى أوضحت أن واحداً من الأسرة مشغول وعليه شخص ما. "مستر بروك" سيشارك مستر "بولاند"، الذى يعمل ناسخاً فى الخزانة هذه الحجرة، وأنت "مسز مارتش" ستشاركينى غرفتى فى الطابق العلوى، هناك حمام فى نهاية الردهة، إذا أردت أن تستخدميه قبل أن تصعدى.

لم أذق الطعام طوال اليوم سوى فنجان من الحساء، ولم تكن لدى الشهية ولكن "مستر بروك" أحضر بعض من المحار ورغيفاً من الخبز، وقد صمم أن آكلها، رغم أننى كنت مضطرة أن أتناول هذه الوجبة بجانب النار الموقدة فى الحجرة على كرسى السلم الخلفى، كان على سطح النار براد وأوان ساخنة، قامت مسز "جيمسون" بإحضار وعاء كبير من المياه الساخنة لأستخدمها فى حمامى، فذهبت إلى ذلك المكان الصغير وأغلقت الباب، كنت بمفردى فى

لحظة خصوصية وحيدة، انطلقت فيها تنهدات رثائى على ما وصلت إليه.

كم كانت ستكون حياتى مختلفة إذا لم نفقد ثروتنا تماماً! لم ألق اللوم على زوجى أبداً لأنه أنفق كل ثروته على مشاريع "براون": ليس من حقى أن أفعل هذا، إن ذلك المال هو ماله الخاص وهو نتاج أعماله وأشغاله واستثماراته، والقضية بالنسبة لنا كانت قضية مهمة ولكن ما آلمنى بشدة أنه حتى لم يستشرنى فى هذا الشأن وقد أثر هذا الموضوع علىّ تأثيراً بالغاً وكانت له عواقب وخيمة علينا جميعاً، حاولت أن أتحمل الإهانات الصغيرة والمعاملات الحقيرة التى تلقيتها بسبب الفقر، حتى فى اعتناق - كما فعل هو - فضائل الحياة البسيطة، ولكن كلما كان ينعزل فى غرفة مكتبه ليتأمل فى الروحانيات، كنت أقضى الوقت أفكر فى الديون التى علينا وأحتقر نفسى لطلب المال من هنا وهناك؛ كنت أقضى أياماً جائعة ليأكل هو والبنات.. أوه، كان ينسق الحدائق ليضع الطعام على مائدتنا، وكان يقطع الخشب للآخرين عندما كان يخلو تماماً ذلك الموضع الذى نخزن بداخله اللحم، وما هو المديح الذى كان يجنيه: "أورفيوس يحرث الأرض". كانت تلك تحية مستر "آمرسون" له (لم يفكر أحد فى أن يلصق بى هذه الماركة برغم أنى كنت أجتهد فى القيام بمئات الأعمال الضرورية لتحفظنا جميعاً وتبقينا أحياء).

لقد تعودت على هذا الوضع فى كونكورد، حيث كنا نتلقى مساعدات أصدقائنا وكان اسم عائلتنا فى

تصاعد مستمر، ولكننى أرى أنه من الصعب جداً أن أكون فقيرة هنا، وأنا مجهولة، ومتشردة، وبدون أصدقاء، فيما عدا مستر "بروك" وبينما أنا جالسة هنا فى ذلك الحمام الصغير، وتلاحقنى روائح أكثر فظاعة، كانت تراودنى الفكرة بأنه إذا توفى زوجى، سأكون مضطرة، أن أرحل من هذا المكان، كنت أتمنى ألا أفكر فى هذا، إن الإجهاد والإرهاق كانا عذراً لى لكى لا أفكر فى ذلك الأمر.

غسلت وجهى وذراعى فى دفء المياه المرحبة بى وعدت إلى الكوخ، كان الناسخ الذى يرقد بجانب مستر "بروك" يغط فى نومه مثل الوحش فأشفقت على مستر "بروك" وصعدت الدرج إلى حيث سريرى الضيق الحديدى، الذى كانت فوقه مرتبة فى سمك الحصير الذى تغطى به الأرضيات، على الأقل قد لاحظت جيداً وبامتنان أن الغطاء نظيف. بالكاد كانت عندى القوة لأن أخلع ملابسى، وعندما كنت على وشك أن أضع رأسى على الوسادة سمعت صرخة قادمة من أسفل.

"هاى ى ى ى -اقفل"!

كان صوت المراكبى، يحاول أن يغلق المركب، أدركت بيأس أن هذه الصرخات تؤكد أنه الليل.

سواء انطلقت هذه الصرخات طوال الليل أم لا، بالكاد تكونت الفكرة قبل أن أقع فى سبات عميق، .. لن يستطيع أى صوت على الأرض أن يوقظنى.

الفصل الرابع عشر

الاتحـــاد

لن أقـول إنـنـى اسـتـيـقـظت وأنـا أشـعـر بـراحـة وانـتعـاش ولكن عندمـا فتحت عينىَّ على ضوء النهار الـرمـادى الـلـون كـنت أكـثـر قـوة عن الـوقت الـذى أغلقتهما، إن النوم راحة كبيرة وعلاج جيد للروح وبينما كنت أتطلع إلى محتويات الحجرة الصغيرة الكئيبة، استطعت أن أجد بعض المميزات فى الأشياء التى كانت تنقصها، وكأنها أصبحت عادة فكرية أن أبدأ كل يوم بهذه الطريقة فى التفكير. لقد مرنت نفسى على أن أفعل هذا منذ أن تحولت ثروتنا أمامنا إلى تراب وفقدناها. وساعدنى ذلك كثيراً وأنا أنظر إلى النوافذ المكسورة داخل الحجرة وأقول فى نفسى إن هذا يوفر لنا على الأقل تهوية صحية. أو إلى المرآة غير الواضحة، التى كانت فى الحجرة، والتى كانت صغيرة جداً فى حجم اليد ولقد سعدت لهذا حتى لا أرى الحقيقة المفزعة لمظهرى المجهد والمرهق، إن سريرى غير المريح يؤكد إننى قضيت كل ساعة متاحة لى باستفادة أثناء اليقظة.

نهضت فوجدت صاحبة المنزل وزملائى الآخرين المقيمين قد نهضوا من نومهم وعلى وشك البدء فى

عملهم، وجدت رسالة قد تركها لى مستر "بروك" يقول فيها إنه ذهب مبكراً ليقوم ببعض الأعمال التى كلفه بها مستر "لورانس"، وأكد أنه ربما ينجزها فى ساعة أو اثنتين. وقد طلب منى أن أنتظره ولكننى لم أستطع انتظاره، كانت رغبتى ملحة فى أن أعرف كيف قضى زوجى ليلته الماضية، كتبت رسالة لمستر "بروك" أعتذر فيها عن عدم استطاعتى انتظاره، وضعت فى سلة كبيرة بعض النبيذ وبعض العصائر المقوية التى أحضرتها معى وتوجهت إلى المستشفى.

كان علىّ أن أختار طريقاً حذراً حتى أستطيع السير فوق أكوام فضلات البغال التى كانت تغطى الممر، كان الجو بردأ ولكن ليس البرد الذى يؤدى إلى سقوط الثلج. تمنيت أن تثلج واشتقت أن يكون هناك عاصفة ثلجية مثل التى عندنا فى مدينتنا، ستتحسن كثير من مظاهر هذه المدينة المليئة بالطمى والتراب إذا سقط الثلج وغطى المكان بأكمله بطبقة بيضاء نظيفة.

لم أفكر فى أن أسأل إذا كان المستشفى قد وضع مواعيد لزيارات الصباح وفيما أنا أقترب من الحارس الواقف عند مدخل المستشفى تساءلت ربما أقابل بالرفض وربما كان علىّ الانتظار حتى يحين الوقت المسموح به للزيارة، ولكن ينبغى ألاَّ أقلق: فممرات المستشفى كلها مفتوحة لجميع الزوار وموظفو المستشفى يحملون الصوانى المملوءة بالخبز واللحم والحساء ويجب عليهم أن يمروا بجانب كل المدنيين

ويواجهوا سلوكياتهم بعضهم متحمس ومتلهف وهم عادة الأقارب وبعضهم الآخر مرضى المجتمعات الراقية الذين يشعرون بأهميتهم وبعضهم الآخر يبدو عليهم أنهم ليس لديهم عمل سوى أن يضايقوا ويزعجوا الجرحى بكل الأسئلة الوقحة والمبتذلة.

صعدت الدرج وقلبى ينبض فى سرعة مرعبة أتساءل فى أية حالة سوف أجد زوجى؟ بعض الناس الفضوليين لا يهتمون ولا يزعجون أنفسهم بالسؤال والصعود إلى هؤلاء الذين هم فى قسم الحميات، فكرت أن قسم الجروح أكثر إثارة بالنسبة لهم. كان القسم الذى يرقد به زوجى مهجوراً تماماً فيما عدا المرضى، تنفست الصعداء عندما رأيته، كان يرقد فى حالة من الفوضى، غطاء السرير مبلل بالإفرازات الخضراء الناتجة عن مرضه وتحت سريره وعاء بداخله حساء لم يلمس بالطبع وبارد عليه طبقة سميكة من الدهن فوق السطح، لا عجب فى أنه فى غاية النحافة، فإذا لم يزعج أحد نفسه بأن يطعمه فى حالته تلك الخطرة والتى يتعرض خلالها لنوبات من الهذيان، فلابد أن يعانى من سوء تغذية أو بمعنى آخر فهو لا يذوق الطعام ألبتة، لم تكن هناك ممرضات أو مجموعة من الممرضين على الإطلاق فى ذلك القسم.

كان من الواضح أنه إذا كان ولابد أن يكون هناك شخص يهتم بزوجى فى هذه المستشفى فيجب أن يكون هذا الشخص هو أنا وعلىّ أن أفعل هذا بنفسى، خلعت معطفى والقلنسوة ورفعت أكمام فستانى،

وتحدثت بنعومة إليه وأنا أقوم بترتيب فراشه من حول ذراعه الرفيعة وفيما أنا أرفع ملاءات السرير والقميص الذى يرتديه، كان جسمه يرقد عرياناً أمامى، لم أر جسم زوجى منذ أكثر من عام ولا بمثل هذه الطريقة التى لا خصوصية فيها، فى وضح النهار، كانت حالة جسمه يرثى لها، فصدره لا لحم به، تذكرت تلك الذراع التى حملتنى يوماً منذ سنوات على شاطئ البحيرة ذات رائحة الأناناس وكيف أن قوتها وامتلاءها بالعضلات نتيجة العمل البدنى الذى كان يقوم به فى شبابه قد أدهشتنى وأثارتنى وفى وقتها لم أكن أعلم شيئاً عن ظروف نشأته، فتوقعت أن أجد أيدى ناعمة لقارئ أو كاتب ثرى ولكن يديه كانت ذات لمسة عنيفة لرجل عامل، والآن ها هو يرقد وقد أضاع صحته ولا يمكن أن يتعرف عليه أحد ضعيف البنية جداً لدرجة لا تمكنه من أن يحضن أحداً.

أدركت فى ذلك الوقت أنه ليس لدى أدنى فكرة عن أين أجد الفراش النظيف، والمياه الدافئة، وقطع الإسفنج أو أى من الأشياء الضرورية لراحته، فقمت بجذب الغطاء الذى سقط تماماً من على الفراش ولم يعد يغطى جسمه المتعب، ثم جمعت الحزمة التى أتيت بها وأخذت الطبق ذا الحساء البارد فى اليد الأخرى وذهبت أبحث عن المساعدة.

ولسوء الحظ، كان أول شخص قابلته الممرضة ذات العيون التى تشبه الخرز التى قابلتها ليلة أمس وتبادلنا ذلك الحوار الحاد فى عنبر زوجى، رأتنى

قادمة فوقفت فى طريقى وذراعيها على مؤخرتها المتسعة.

"إذا سمحت هل من الممكن أن توجهينى إلى ......"

وقبل أن أنهى جملتى، بدأت خطبتها: من أنا التى أقوم بإزعاج لوائح وروتين المستشفى وأضع احتياجاتى واهتماماتى فوق الحالات الحرجة الأخرى..

طويت شفتىَّ بقوة وحاولت أن أتماسك وألا أدع أعصابى تفلت منى وأنا أتذكر كل هذه السنوات التى حاول فيها ذلك الرجل نصف الميت أن يعلمنى كيف أتحكم فى غضبى، جعلتها تنهى مقطوعتها وبعد أن انتهت طلبت منها مرة ثانية بأدب أين يمكننى أن أجد بعض المعونة، ضغطت على فمها وطلبت منى أن أنتظر .... "ربما بضع ساعات، حتى يتم التعامل مع الحالات الخطرة".

الحالات الخطرة!، انفجرت، "إن زوجى تقريباً يعيش فى قبره وذلك بفضل إهمالك! من فضلك قولى لى أين أجد البياضات - الآن!"

"لن أسمح لك أن تتحدثى معى بهذه الطريقة!" ورفعت صوتها "أيها المرض! صرخت. "سوف أطردك إلى الشارع!".

فى كل الأوقات بل وفى أوقات عديدة، كنت أضطر إلى محاربة طبيعتى العصبية وقد نجحت فى أوقات كثيرة فى إخماد ثورة الغضب، التى كانت تهاجمنى أحياناً، ولكن فى ذلك الممر الفوضوى الساخن بدأت ثورة الغضب التى بداخلى فى

الاشتعال، سمعت صوتاً يلح فى رأسى وشعرت بضغط فى صدرى، مثل الفيضانات، وقبل أن أعرف أنى فعلت هذا، كان وعاء الحساء يرتفع فى يدى كما لو أن قوة ما غير طبيعية تقوم برفعه، ثم وجدت أن محتوياته ذات اللون الأصفر الرمادى تجرى على وجه الممرضة السمين "نظفى نفسك بهذه"! صرخت وأنا ألقى إليها الملاءات المغطاة باللون الأخضر" ثم قولى لى كيف يمكن للإنسان أن يقضى بضع ساعات فى تلك القذارة"! "أيها الممرض"! أصابتها حالة هستيريا. "ساعدنى ! لقد تم الاعتداء علىّ"! لا أدرى ماذا كان سيحدث إذا كان لم يظهر فى هذه اللحظة رجل يمشى متباهياً فى الممر فى الحقيقة كان شاباً ولكن الشاب الذى أتى كان شابًا شاحب اللون يقضى فترة النقاهة وكل خطوة يخطوها تجعله يشعر بألم.

وعندما سألنى بلطف أن أذهب معه، تركت كل ذلك وتبعته بوداعة. "للأسف علىّ أن أحضر الكاب"، "لقد تركته...".

لا عليك يا سيدتى، فلن أجعلك تخرجين للشارع لا تقلقى" نزلنا الدرج وقادنى إلى مكان يلتقى به الخدم أيام كان ذلك المبنى فندقاً. كان هناك براد فوق الموقد فأخذ يصب لى فنجاناً من الشاى مصنوع من قشر الليمون وأوراق التوت.

"اشربى هذا وستشعرين بتحسن بعد لحظة ؟" قال الرجل بلطف "نريد أن تبتعدى عن الممرضة "فلين" قليلاً. هذا كل ما فى الأمر. سوف تنتهى فترة عملها

بعد بضع دقائق. كلنا نعلم أنها الإرهاب بعينه، كل هذا الكلام الذى تقوله بأنها تهتم بالمصابين والجرحى.... الحقيقة أنها لا تهتم بأحد على الإطلاق، فهى تتجول فى المكان تطلب من هؤلاء الذين هم فى فترة النقاهة الكثير من الأعمال، وبعضنا لا يستطيع أن ينهض من فراشه" مزج الخليط الذى بداخل الفنجان وأعطاه لى "الحقيقة، أن كثيراً من الناس فى هذا المكان سيشعرون بسعادة بالغة عندما يعلمون بما فعلت. فهى تستحق ذلك".

أشار الممرض العسكرى المصاب فى فخذه أثناء حملة شبه الجزيرة أن أبقى صامتة وأنه سيعود إلىّ فور ما تنتهى الممرضة "فلين" من فترة عملها "لا تقلقى بشأن القس "مارتش" مدام، سوف أحضر شخصاً ليراعيه أو سأفعل هذا بنفسى إذا اضطررت لذلك".

ذهب الرجل الطيب بعيداً وشعرت بالراحة التى تنتج عن أنها عمل خير. فهو بالتأكيد بلسم الروح. وبالطبع بعد ذلك بدأت أندم على ثورة غضبى وعلى انفجارى وتمنيت ألا يعلم مستر "بروك" بهذا الأمر، وبأننى دائماً لا يمكن أن أستجيب لرأيه الصائب الطيب وفيما أنا أبدأ فى القلق والسير ذهاباً وإياباً فى تلك الغرفة الصغيرة، سمعت طرقة خفيفة على الباب.

"أدخل"! قلت متوقعة أن يكون الطارق هو الممرض ولكن بدلاً منه رأيت رجلاً فى منتصف العمر يرتدى الزى الأسود للقساوسة، فتح الباب وقال:

"استأذنك الدخول مسز "مارتش"؟

"نعم"؟ قلت وأنا أشعر بثقل ذنب يقع علىّ لأننى فى هذه اللحظة كنت متأكدة بأن قس المستشفى قد أتى ليوبخنى على ما فعلته، كما كان يفعل دائماً زوجى بعد ثورات غضبى مسمعاً إياى محاضرة من التوبيخ والإهانات على سلوك امرأة فاضلة، زوجة، وأم.

"آسف على اقتحامى لخلوتك يا سيدتى ولكن لدى بعض متعلقات زوجك. أعطتها لى واحدة من الممرضات التى كانت قد تأخرت فى نقل المرضى من "ردروفر" أن مثل تلك المتعلقات يمكن أن تختفى فى ذلك المكان، وحينئذ يمكننا أن نلقى اللوم على بعض الشخصيات المهمة من السود المتواجدين فى مكان مثل المغسلة ولكننا لا نريد أن نضيف ابتلاءات على القارة الإفريقية السوداء". ورمقنى بنظرة جادة وماكرة وابتسامة غبية، من الواضح أن الرجل كان يحاول أن يختلق نكتة جعلت وجهى مثل الحجر لأرسل له رسالة بعدم موافقتى على ما يقوله.

بلع ريقه واستطرد قائلاً: "عندما سمعت أنك أتيت إلى هنا قلت لنفسى لابد وأن تحصلى على تلك المتعلقات". كان معه رزمة صغيرة ملفوفة بورق بنى اللون فى يده أعطاها لى. فأخذتها وشكرته.

كان يستدير ليذهب ولكننى أوقفته "أيها القس"؟

"نعم يا سيدتى"؟

أيمكن أن تقول لى شيئاً عن حالة زوجى، وكيف تم نقله إلى المستشفى بعد أن ترك تلك السفينة؟

وذلك لأن آخر خطاب أرسله لى لم يكن به أية إشارة بأنه مريض أو أن هناك خطراً ما".

كان لذلك القس وجه طيب بالنسبة لمهنته، كان سريع التأثر وسريع التأقلم على عاطفة اللحظة. أنزل فمه إلى أسفل معبراً عن الشفقة.

"إنها دائماً نفس الحالة للأسف. الأخبار السيئة تأتى إلى أقرب الأقرباء فجأة لأن هؤلاء الذين يحبونهم يحاولون دائماً أن يخفوا عنهم الحقائق المؤلمة والصعبة، من الواضح أن زوجك كان مريضاً منذ فترة كان يعانى ضعفاً جسمانياً شديداً قبل أن يتعرض لمرضه الحالى العصيب ويبدو أنه كانت هناك مناوشة ما ولكن ليس عندى معلومات أو تفاصيل عنها، كل ما أعرفه وصل إلىّ من الممرضة، ينبغى أن تتحدثى إليها بنفسك، وذلك لأنها تحدثت عن حالة زوجك مع الراهبات اللاتى يقمن بالتمريض فى "الرد روفر".

سوف أفعل هذا، شكراً على لطفك وطيبة قلبك ولكن إذا سمحت، من هى التى يمكننى أن أتحدث إليها؟ كان قلبى يخفق بسرعة، كنت خائفة أن يذكر اسم "فلين".

"اسمها كليمنت، أعتقد هذا"، قال القس. "امرأة سوداء من فرجينيا - كانت عبدة، كما يقولون، رغم أنه لا يمكن أن تعرفى هذا من طريقة حديثها، هى دائماً موجودة فى أقسام الجراحة، تساعد دكتور "هيل". أمر رائع حقاً. يبدو أنه يفضلها عن بقية الممرضات .. ربما يجد أن العبدة تطيعه أكثر".

بالطبع كنت سأعلق تعليقاً لاذعاً على مثل هذه الملاحظات الواردة على لسان قس، ولكن كل قدرتى على القتال والثورة كانت قد رحلت عنى وكنت شاكرة لذوق الرجل وسلوكه المهذب "شكراً لك أيها القس. سوف أبحث عنها فوراً".

أخذت أحملق فى الرزمة الصغيرة التى كانت فى حجرى. عندما رحل، ترك زوجى "كونكورد" مصطحباً معه صندوق ثياب مليئاً بالملابس والكتب والكراريس وأوراق أغان للرجال، أشياء ضرورية للعيش داخل المعسكر، مذكراته، المكتب الصغير الذى يضعه على حجره ويستخدمه ليكتب عليه والذى أعطيناه أنا وبناتى له كهدية لرحلته. فى الشهور التى غاب فيها، كنت أنا وبناتى نقوم بأعمال حياكة وتطريز لا نهاية لها وبدون أن نشعر بالتعب والإعياء محاولين أن نملأ مخازن ملابسه، قمت بفك الرباط المربوط حول الرزمة وأنا مندهشة كم هى صغيرة هذه الرزمة!

فتحت الورقة محدثة صوتاً خافتاً، كان بداخلها حافظة ورق جلدية، وقطعة مربعة من قماش سيئ ومحفظة صغيرة من الحرير من هذه الأشياء الثلاثة، تمكنت من التعرف على المحفظة المصنوعة من الحرير، أغلقت يدى عليها وأنا أفكر كيف أن محتوياتها قد كانت تعنى الكثير بالنسبة له بحيث إنه جعلها قريبة منه كل ذلك الوقت ثم وضعتها فى الجزء الأعلى من ثوبى، فتحت الحافظة الجلدية، كانت هناك بعض الأوراق المالية تعجبت أنه لم يسرقها أحد وخلف

الأموال كانت هناك حافة قطعة معدنية لشيء يشبه الصورة سحبتها للخارج فلم أتعرف على الفتاة المرسومة عليها حيث لم يكتب لى زوجى أبداً عن نساء بيض قد تعرف عليهن، أن معرفة هويتها أثارت فىَّ شعوراً بالارتباك والحيرة.

كنت أشعر بالارتباك أيضاً لدهشتى لماذا يقوم أحد بالاحتفاظ بقطعة قماش مربعة متسخة، وكنت على وشك أن أحرقها عندما لاحظت أن حوافيها غير منتظمة حتى "جو" لا تستطيع أن تقوم بحياكة مثل هذه الحوافى، فعقلها دائماً مشغول بالحبكة الروائية لقصتها الأخيرة التى تكتبها فى الوقت الحالى، بحيث إن جميع الملاءات والمناديل التى تقوم بحياكتها لديها ما يشبه المحار المروحى المتعرج فى نهايتها أى عند الحوافى، كنت دائماً أعلق على تطريزها الذى يشبه ذلك التطريز الذى كان سائداً فى القرن الثامن عشر، قمت بتليين القطعة المربعة الفيروزية اللون على ركبتى وابتسمت، كانت بالتأكيد واحدة من الإيشاريات التى صنعتها للعبيد السود منذ بضعة أشهر عندما قام بعض الأثرياء بإرسال مجموعة من فساتين الحفلات القديمة، يا لها من رحلة طويلة قامت بها تلك القماشة المربعة القديمة! ثم القطعة وبدأ اللغز يزداد صعوبة، حيث أدركت أن العلامات السوداء التى عليها لم تكن بقعاً ولكن بقايا بعض الكلمات المكتوبة عليها بالفحم. قلبت قطعة القماش من وجهها وظهرها وحاولت بشدة أن أعرف ما كان مكتوباً عليها ولكننى

فشلت فى فك الشفرة المحفورة عليها وبعد فترة ليست طويلة، جاء الممرض الطيب الذى كان يدعى "سيفس وايت" ليأخذنى "أن عدوتك قد تركت الميدان"، هذا ما قاله وهو يفتح الباب ويدخل الغرفة، كانت لديه ابتسامة جميلة جداً رغم أن واحدة من أسنانه الأمامية كانت مكسورة لنصفين كان هناك تعبير مرسوم على فمه وعينيه يدل على المعاناة والألم، وفيما نحن نسير خلال الفوضى القادمة من الأقسام الأخرى التى فى الدور الأسفل، سألته عن سبب جرحه وعندما بدأ فى الإجابة تمنيت لو لم أسأله.

"لقد قاموا بإخراج الرصاصة تماماً، قال: "كنت محظوظاً لأنها لم تصب العظمة لم أنزف فى حياتى بهذه الكثرة، ولكنها مزقت العضلة تماماً، كنت على وشك أن أشفى تماماً من هذا الجرح منذ أسبوع أو أكثر ولكنهم طلبوا منى أن أحمل رجلاً كبيراً ثقيلاً لا يستطيع أن يسير. كان الجرح لم يلتئم بعد فانفتح فقاموا بوضع قطعة كبيرة من الخبز الرطب عليها ويبدو أن هذا قد منع من النزيف مرة أخرى 00وقالوا إن هذا العلاج جيد رغم أن هناك رائحة كريهة تصدر منه.

إن كلماته التى كانت ممزوجة بالفوضى التى حولى من كل جانب القادمة من الأقسام المختلفة جعلتنى أشعر بالإغماء، ولكن هذا هو الضعف بعينه، إذا كان هو قد تحمل ألمه، ألا أستطيع أنا على الأقل أن أستمع إلى هذا الألم؟! حاولت أن أتمالك أعصابى.

قلت لمستر "وايت" ألا يزعج نفسه بصعود الدرج وتمنيت له الشفاء العاجل واستدرت لأصعد إلى قسم الحميات.

يا له من تغيير جلبته ساعة واحدة وجيزة! لقد وجدت فراش زوجى مغطى بملاءات بيضاء مثل الثلج وكانت الأغطية مشدودة، وكانت رأسه وكتفاه مرفوعين إلى فوق على وسائد كبيرة ومنتفخة حيث يمكن له أن يتنفس الآن دون أن تصدر عن صدره خشخشة، كانت الممرضة الطويلة السوداء منحنية عليه بقلق. فى ظنى أنها "كليمنت"، إنه من حسن حظى أن أجدها الآن! هكذا اعتقدت، يمكننى أن أسألها ما الذى تعرفه عن تاريخ مرض زوجى وعن حالته الصحية، عندما اقتربت منهما أكثر، وجدت أنها كانت تطعمه بعض الحساء.

كان ظهرها لى. كنت على وشك أن أتحدث، لأشكرها على اهتمامها الطيب، عندما وجدتها تضع الملعقة فى الوعاء الفارغ، وترفع يدها لترد بها خصلة من شعره الشاحب إلى الوراء، أرجعت الخصلة إلى الوراء وثبتتها ثم تركت يدها قليلاً على رأسه، ثم حركت ظهر أصابعها ببطء على خده، وإبهامها يسافر بخفة على شفته السفلى.

لا يمكن أن يكون هذا، لا بد أننى مخطئة، إن هذه هى حركة المحبوبة وليست حركة من تقوم بالتمريض أى ليست حركة ممرضة، نظرت بتمعن وقلت لنفسى بأن أوقف خيالاتى. ولكن عندما فتحت

عينىَّ، رأيت مشهداً أكثر دهشة، كان يرفع يده المتعبة النحيفة ويلمس يدها السوداء ويضعها على فمه ثم جاء صوته، كان خافتاً مثل الهمسة "شكراً لك يا عزيزتى جريس". لم أعرف كيف أتصرف، جزء منى كان سعيداً بعودته إلى وعيه، كنت أريد أن أجرى وأحضنه بين ذراعى وأقبله، وجزء آخر منى كان يريد أن يهرب من الحجرة المبنى، المدينة الذكرى ذكرى هذا الموقف الحميم، قبل أن أفعل أى شىء، دخل مستر "بروك" الحجرة مسرعاً بصرخة تنم عن الفرحة والسعادة، "لقد قابلت الطبيب فى الممر وقال إن مستر "مارتش" قد استعاد وعيه! وقد حدث هذا كما أرى! كم هو رائع أن أجدك فى تحسن! لقد استجاب الله لصلواتنا!".

رجعت "جريس كليمنت" خطوة إلى الوراء من الفراش بحركة سريعة وراقية لا تدل على الإطلاق بالشعور بالارتباك، تظاهرت بأنها مشغولة بأخذ صينية الحساء وقطع الخبز ومشت بهدوء بعيداً عنهم.

ابتسامته، عندما تعرف علىّ هى نفس ابتسامته، برغم علامات التغيير التى كانت على وجهه، مد يده المرتعشة - ليست اليد التى لمست يدها - وأخذ يدى بها.

لقد تمرنت آلاف المرات على هذه اللحظة، أثناء الليالى الوحيدة والأيام التى كنت أتوق إليه فى فترة غيابه، لقد كنت دائماً أفكر أن مجرد رؤيتى له حياً هو

كل ما أتمناه فى هذه الدنيا، لقد تخيلت لمسة يده والبكاء الذى يصاحب الفرحة.

لقد كانت هناك حقاً دموعى ودموعه أيضاً، ولكن كيف كان لى أن أتنبأ بأن الدموع التى ذرفتها عند لقائنا لن تكون فقط دموع فرح؟!

الفصل الخامس عشر

نهـــر النيران

كان يشعر بضعف شديد، ولم يكن يستطيع التحدث، حتى أن محاولته لنطق بعض الكلمات كانت تتعبه جداً فانتابته حالات من السعال المؤلم، قلت له ألاَّ يحاول الكلام وأن يلزم الصمت تماماً ولكنه نظر إلىّ بعيونه اللامعة المحمومة وهمس قائلاً "هناك الكثير مما يجب قوله أقوله....".

قلت له: سيكون لدينا الوقت الكافى فيما بعد - "حياة بطولها، لنتحدث، عندما تتحسن صحتك".

"مجرد رؤيتى لك تشعرنى بتحسن ...." قال هذا بصوت متحشرج ثم انتابته من جديد حالة من السعال. تركنا مستر "بروك" بمفردنا بطريقته اللبقة، قائلاً إنه سيتوجه مباشرة ليرسل برقية حيث ينبغى ألاَّ تنتظر البنات دقيقة واحدة أكثر من هذا ليعلمن الأخبار السارة، جاءت ممرضة أخرى، ليست "كليمنت" أو "فلين"، ولكنها تبدو امرأة عاقلة فى مثل عمرى، حضرت لتباشر علاجه والعقاقير التى يتناولها، ورداً على أسئلتى أجابت بأنه يأخذ علاجاً بصورة مكثفة .. يتناول دواء من الكالوميل .. أعطته لى لأفهم أنه دواء

قوى مصنوع من الزئبق والكينين، وهى مادة شديدة المرارة، وهاتان المادتان أساسيتان لعلاج الحمى والالتهاب الرئوى، وكذلك صبغة الأفيون "التى تمنحه الراحة وتساعد على تماسك الأمعاء".

جلست معه، ألاحظ كيف يعمل الدواء سريعاً فى جسمه الذى كان ينزف بشدة، كانت جفونه مغلقة وكان هناك غضب شديد بداخلى.. هناك أشياء يجب أن أعرفها، كنت مدركة أنه لابد وأن أتدرب وأمارس القدرة على التحمل، ولكن فيما أنا أراقبه وهو يتغيب ثانية عن الوعى، طرأ لى أنه ربما لن تتاح لى الفرصة مرة أخرى. وأنا لا أستطيع أن أحيا بدون معرفة الحقيقة.

اقتربت منه وهمست فى أذنه قائلة: "تلك الممرضة، "جريس كليمنت".. هناك شىء ما بينكما، أليس كذلك؟"

تحركت عيناه ولكنهما ظلتا مغلقتين "شىء ......" كرر الكلمات، كانت كلماته غير واضحة، كان علىّ أن أقترب أكثر، بحيث أصبحت بضع بوصات بالقرب من وجهه "وقت طويل ....." فجأة، تفتحت عيناه بالكامل، أخذ يحدق فىّ ومن خلالى، ثم ذهبت عيناه بعيداً بحيث إنى كنت أنظر إلى ظلام فارغ وشاسع. همس قائلاً: "حبى".

أغلقت عيناه مرة أخرى، لم يكن هناك شىء أكثر من هذا لقد سحبه الدواء بعيداً. حركته ثم بعنف سمعت أسنانه تتحرك بسهولة جداً داخل لثته الملتهبة

بلطف وتصدر صوتاً فى رأسه، مدركة لما فعلت، أرجعت يدى إلى الوراء ووضعتهما خلفى مثل طفل مذنب، وقفت.. كنت متماسكة بقوة وبشدة وكانت أعصابى مشدودة بحيث إن عضلات رقبتى وكتفى كانت تؤلمنى. سرت ذهاباً وإياباً فى العنبر ثم جلست وأخذت المحفظة الصغيرة المصنوعة من الحرير. إن مجرد لمسة من شعر بناتى سوف تهدئ روحى المنزعجة، تعرفت على الخصلة الأولى وهى خصلة من شعرى ثم وقعت خصلة من شعر "آمى" الذهبى فى يدى ثم خصلة شعر "بث" و "مج" و "جو" العزيزة البنت ذات القلب الكريم التى لا تمتلك الآن أية خصلة فى شعرها غير التى فى يدى الآن - ابتسمت ولكن اختفت الابتسامة من شفتى، لأن خصلة أخرى وقعت من المحفظة فى يدى: خصلة مشدودة سوداء مثل الليل، شعر زنجى أسود شعرها.

أنا لست بريئة، أعلم كيف يمكن أن يقع الناس فى الغواية، فالخيانة الزوجية خطيئة مشتركة لدى الناس. ألم ألاحظ، لسنوات ومن خلال علاقة حميمة كيف أن "هنرى ثورو" و"ليديان أمرسون" تعذبا برغبتهما الشديدة فى بعضهما البعض؟ حتى أفضل واحد منا يمكن أن يقع فى الخطيئة، أعلم كل هذا. ولهذا السبب يجب أن أعلم حقيقة موقفى. ماذا كان يقصد بـ "حبى"؟ هل كان يخاطبنى؟ أم كان يقصد، وهذا ما أخشاه، إنها هى حبه؟ هناك شخصان فقط فى هذا العالم يمكنهما أن يرشدانى وبما أن واحداً

منهما لا يستطيع أن يفعل هذا، يجب أن ألجأ إلى الآخر، بصرف النظر عن صعوبة الموقف والمواجهة.

ولكن وكما يحدث دائماً عندما يبدأ أحد فى البحث عن شخص للأهمية، ولم أتمكن من إيجاد "جريس كليمنت" لقد مررت بأقسام الجراحة ثم صعدت ثانية إلى أقسام الحميات ولكن لم يرها أحد ولا أحد يعلم أين هى، وفى النهاية لجأت إلى "سيفس وايت" الذى وجدته يحمل ما تبقى من الضمادات من أقسام الجراحة.

شرحت له بأن القس طلب منى أن أتحدث إلى الممرضة "كليمنت" حيث إنها كانت ضمن الفريق الذى أحضر زوجى من مستشفى السفينة، نظر إلىّ من خلال ما كان يحمله وهز رأسه .." الممرضات البيض، الآن، يمكننى أن أقول لك أين يمكن أن تجديهن" نظر إلىّ وابتسم لى من ثغره ذى السنة الأمامية المكسورة "إن الغرف التى ينمن فيها هناك تحت سطح المستشفى ولكننى متأكد تماماً أنه ليس هناك واحدة منهن فوق ولا أعلم بالضبط مكان تلك الغرف.... يمكنك أن تسألى المسئولين عن المغسلة فهم يعرفون جيداً المكان.

مشى معى مستر "وايت" فى الصالة الطويلة وأشار لى إلى مكان المغسلة، كانت المغسلة فى حديقة جرداء فى مؤخرة المستشفى وتعلن عن نفسها بكميات البخار التى تخرج منها إلى الهواء البارد، لم أحضر معى معطفى ولهذا كنت أشعر برعشة وأنا أعبر

الحديقة حتى ألحقت بى الحرارة القادمة من المغسلة وأنا أخطو داخلها، الشيء الذى لم أفكر فيه هو أن أجد نفسى فى منزل للأموات، من الواضح أن غسل أجساد هؤلاء الجنود التى انتهت معاركهم مع الحياة تماماً كان ضمن واجبات المسئولات، كانت أول غرفة للمغسلة لهذا الغرض، كانت هناك جثة واحدة لجندى راقد دون ملابس، لاحظت أن رجليه قد تم قطعها قبل أن أبعد عينىّ عنه وقد غطته سيدة سوداء اللون بقطعة من القماش وضعتها على جسده الذى أصبح صغيراً، وهى تنظف بحذر الغرز التى فشلت أن تبقيه حياً. كانت هناك جثتان مغطاتان فى انتظار أن تعيرهم انتباهها، كانت تشدو بصوتها وهى تعمل وقد أدهشنى ذلك حتى أدركت أن ما كانت تقف تشدو به تراتيل كنسية، كان صوتها قوياً وعميقاً؛ فى سحب البخار الذى كان يخرج من المكان الذى خلفها، كانت تبدو كما لو كانت ملاكاً أسود ضخمًا يصعد بالرجل إلى السماء، تقف بالقرب من المائدة مجموعة من التوابيت تنتظر أن يتم شحنها، نظرت إلىّ وابتسمت لى وسألتنى عن حالى، فى الحقيقة كانت حالتى سيئة جداً ولم أستطع أن أقف هناك وأنظر إلى جثث الموتى التى كانت بدون غطاء، تمنيت لها يوماً سعيداً ومشيت وأنا أرفع تنورتى إلى أعلى - حيث كانت الأرض مبللة - إلى الغرفة التى خلفها .. كان بها العديد من النساء منكبات على مناضد الغسيل والمكاوى وأطفالهن يلعبون فى الأرض نظرت إلىّ تلك النساء بفضول شديد وسألت عن رئيستهن. فجاوبت إحداهن وتبدو

أكبرهن وهى تقف معتدلة. "هى التى هناك" "إن هذه المرأة ليست مثلنا نحن" كانت المرأة التى تمسك المكواة تنظر إليها وضحكت الاثنتان "إنى أعمل هنا منذ أن كان هذا المكان فندقاً أما الباقون فهم هنا منذ أيام، نحن نعيش تحت سطح المستشفى، ولكنهم يحتاجون الغرف للممرضات البيض الآن، ولهذا فنحن ننام فى غرفة الغليان ولكن تلك الفتاة .. انظرى إلى هناك التى تغضن أنفها." ضغطت المرأة السوداء أنفها المتسع الأسود وأمالته تجاه الهواء محدثة بذلك مرحاً عاماً صاخباً.

"ليس جيداً بما يكفى يا سيدتى لا عليك فهى قادمة من الجانب الآخر من النهر حيث كانت من العبيد، فأعطاها الطبيب مكاناً خاصاً فى منزله الكبير، وهو قلعة قديمة حمراء اللون تقع فوق التل هناك وهى مكان جميل جداً ومن نظرة ذلك الرجل إليها، نعتقد أنه لا يجعلها تنام فى المكان الذى ينام فيه الخدم، هذا إذا كان يتركها تنام على الإطلاق" انفجرت بقية النساء فى الضحك.

شعرت بأن وجهى قد تغير لونه، ما أخلاق هذه المرأة التى تورط معها زوجى؟ كنت أرتعش من شدة الغضب وأنا أرجع إلى قسم الحميات وآخذ معطفى وغطاء الرأس واتجهت لأعرف مكان بيت ذلك الطبيب وأجده.

تحول الرذاذ الذى كان فى الجو إلى مطر، كانت أوراق الشجر الساقطة مبللة بمياه المطر، وكانت

تضايقنى وأنا أسير بكل قوتى إلى ذلك التل، كنت بالكاد أسير حيث كنت أتزحلق وأنزلق بسبب تلك الأوراق التى كانت تدخل بين تجويفات حذائى البوت، لقد بللت المياه غطاء رأسى حتى أننى لم أستطع أن أرى الطريق الذى أسير فيه، قمت بقطعه وقد نفد صبرى وأكملت السير ورأسى بدون غطاء غير مكترثة بآداب المجتمع، فأنا لم أكترث بأن أرفع شعرى بالدبابيس الصغيرة وأنا قادمة اليوم إلى المستشفى وقد وقع شعرى الآن على كتفى.

وعندما وصلت إلى قمة التل وصعدت الدرج إلى المكان الذى استنتجت أن يكون قلعة الطبيب، كنت مبللة تماماً.

فتح لى الباب خادم أسود يرتدى زى الخدم، وكان مندهشاً للغاية من مظهرى لدرجة أنه تراجع خطوة للوراء، لم يترك سلوكى أى انطباع أفضل من مظهرى.

قلت بغضب شديد. "أرغب فى مقابلة الممرضة كليمنت"!

كان خادماً جيداً فلم يبد عليه أى رد فعل على جملتى هذه التى قلتها بغضب سوى حركة صغيرة ملتوية لشفتيه "لحظة واحدة" قال هذه الجملة وأغلق الباب فى وجهى.

وعندما فتح الباب ثانية، كانت تنظر إلىّ امرأة ذات شعر فضى وصغيرة فى الحجم، كانت ترتدى فستاناً من حرير الماهوجنى ذا ذيل مطرز بتطريز

خفيف قالت المرأة "يا إلهى" "أنت مبللة تماماً! تفضلى بالدخول وابتعدى عن المطر".

ماركام، من فضلك إليك مسز – أنا آسفة، ما اسمك؟

قلت لها "مارتش"..

"من فضلك خذ معطف مسز "مارتش" المبلل وأحضر لها الروب من الغرفة الصينية. وأطلب من "هستر" أن" تحضر الشاى".

قال العبد الأسود: "حسناً جداً، مسز هيل"، وأمسك بمعطفى المبلل الذى كانت تنزل منه قطرات من الماء على الأرض، كما لو كان هناك شىء يجرح كرامته وهو ممسك به.

"تفضلى هنا، مسز مارتش، وادفئى نفسك".

كانت الردهة جميلة جدًا.. الأغطية التى على الأثاث من قماش القطيفة والمدفأة من الرخام، وقفت هناك أمام النار الساخنة اللذيذة وأنا أبلل السجاد النبيذى اللون بالماء الذى كان يتساقط منى.

انتظرت مسز "هيل" حتى وصل الرداء وأخذته دون رغبة، وجاء "هستر" وأحضر الشاى على مائدة من الرخام المطلى ليست مرتفعة ، ثم نظرت إلىّ بعيونها الخضراء اللون نظرة جادة وسألتنى بحزم ولكن بلطف: "هل يمكنك أن تقولى لى مسز "مارتش"، ما سر زيارتك المفاجئة والغريبة"؟

وضعت فنجان الشاى وأخذت أحملق فى يدى التى كانتا زرقاء اللون وترتعشان من البرد. "إنّ زوجى

مريض جداً، لقد استلمنا تلغرافاً من دكتور "هيل" لكى أحضر إلى واشنطن، وقد وصلت أمس. اليوم، قال لى القس إن الممرضة "كليمنت" تعلم تاريخ حالة زوجى الصحية، وأنا حريصة أن أعرفها، هذا هو الموضوع بأكمله".

نظرت إلى أعلى، كانت عيناها الخضراوان تنظران إلىّ بثبات شديد "ولم تعتقدى أنه كان من الأفضل أن تنتظرى الممرضة "كليمنت"، التى تعمل مع زوجى من ست عشرة إلى ثمانى عشرة ساعة يومياً حتى تصل المستشفى غداً للعمل؟ اضطررت إلى اقتحام خصوصيتها وتتدخلى فى أوقات راحتها"؟

شعرت بوخز كلماتها كما تشعر به فتاة مدرسية كسرت لوائح مدرستها، كان صوتى منخفضاً، وهو يجيبها. "إن حالة زوجى خطيرة جداً، يجب علىّ أن أعلم الحقيقة حيث يمكننى أن أساعده بصورة أفضل".

"أعتقد أنه أنت مسز "مارتش" التى تخفى الحقيقة إن "جريس كليمنت" تعمل مع زوجى وتسكن هنا فى هذا المنزل منذ نصف عام واليوم، ولأول مرة تركت واجباتها فى ساعة مبكرة وهى تقول إنها متعبة، وأنت تصلين إلى هنا الآن....."

سافرت عيناها من رأسى المبللة حتى حذائى البوت المشبع بالماء "لن أزعجها إلا إذا تكلمت بصراحة ووضوح أكثر معى".

نظرت أسفل إلى حذائى البوت الذى كان متسخاً ومغطى بالطمى. وكانت هناك قطعة من ورق الشجر معلقة عند النعل الشمال. أما النعل اليمين فقد كان به ثقب ودخلت المياه حتى بللت جوربى، إن مسز "هيل" لن تتحدث معى، لهذا كنت أتمنى ألاَّ تفصح ملابسى بوضوح وبصرخة عالية عن "الفقر".

شعرت بالغضب يتملكنى من جديد، كيف يمكن لزوجى أن يضعنى فى مثل هذا الموقف المهين؟ رفعت رأسى، ولكن الكلمات الحادة اختفت من شفتى، لقد حضرت "جريس كليمنت" دون أن تحدث صوتاً، كانت واقفة بالمدخل مرتدية زى الممرضات البسيط الذى كان لونه رمادياً مثل لون اليمام الرمادى كان الزى من الصوف وكان شعرها مشدوداً برباط أبيض ويداها ممسكتين ببعضها بهدوء أمامها.

"لا عليك يا إميلى" إننى مستعدة لاستقبال مسز "مارتش"، استدارت الرأس الفضية إليها بحدة فرأيت شعرها المرفوع بطريقة "الشينيون" مربوطاً بقطعة من الألماس.

"من فضلك يا إميلى، لا توجد مشكلة فى ذلك".

"لك ما قلت، ولكن ......"

"حقاً إنه من الأفضل كذلك، أود أن أريح عقل مسز "مارتش".

"حسناً"، يا عزيزتى. ولكن اطلبينى إذا احتجت لشىء".

كانتا تتحدثان مع بعضهما مثل اثنتين متساويتين فى كل شىء، مثل أختين.

لم تكن هذه طريقة امرأة راقية تتعامل مع عشيقة زوجها، احمر وجهى من شدة الخجل، ليس من الممكن أن أستمع إلى نميمة ماكرة حاقدة من نساء بيض يقمن بأعمال الغسيل، ولكن كانت لدى الرغبة فى أن أسمع وأصدق ذلك من نساء من ذوات اللون الأسود.

وقفت مسز "هيل" وانسحبت، وفى طريقها للخارج أخذت يد "جريس" فى يدها وضغطت عليها "جريس"، التى كانت أطول منها بكثير، انحنت للأمام وقبلت خد المرأة الأكبر سناً.

أخذت مكان مسز "هيل" على الأريكة وصبت الشاى فى الفنجان الذى أحضره "هستر" لمسز "هيل"، ولكن لم تستخدمه مسز "هيل" كان ظهرها مستقيماً مثل مدك البندقية، وكانت حركاتها راقية وبطيئة وكأن هذه الغرفة هى غرفة جلوسها أو أن هذا الطقم هو طقم الشاى الصينى الخاص بها، أخذت رشفة من الشاى، ووضعت الفنجان على المائدة وضمت يديها على حجرها، الآن النظرة الحادة التى قد تعرضت لها كانت قادمة من عيون لونها عسلى يميل إلى الذهبى.

"مسز مارتش"، إنى أعرف زوجك منذ أن كان فى الثامنة عشرة من عمره"، تلقيت كلماتها مثل ضربة قبضة اليد، كنت مضطرة لأن أحفر أظافرى فى الكرسى لأجعل نفسى معتدلة فى جلوسى قالت "سوف أحكى لك الموضوع كله".. بدأت بقصتها وهى

فى منزل "الكليمنت"، ثم ختمتها بالتفاصيل عمَّا ما حدث بينها وبين بائع كنكتيكت" المتجول، ثم حكت بالتفاصيل عن اتحادهما مرة ثانية بعد معركة الجرف العالى.

عندما كانت "مج" طفلة صغيرة أهدى إليها أحد الأشخاص ذات مرة هدية كانت منظار التشاكيل اللونية الملىء بقطع من الزجاج الملون، لفترة طويلة، هذه اللعبة هى لعبتها المفضلة، كانت تحب الطريقة التى يدور بها المنظار صانعاً بذلك أشكالاً مختلفة من القطع الزجاجية الملونة، كنت أشعر وأنا أجلس هناك أن "جِرَيس كليمنت" قد مزقت حياتى الزوجية تماماً حتى أصبحت مثل قطع الزجاج المتناثرة، وكانت كل جملة تقولها تقلب وتفرز القطع المتناثرة إلى شىء لا أستطيع فهمه.

كيف كذب علىّ! كنت أشعر بالفخر عندما قرأت كلماته من "هاربرز فارى؟"، وهو يحكى لى عن الإلهام الذى ألهمه بأن يترك وحدته ويذهب إلى الجنوب ليقوم بالتدريس لهذه الفرق المحظورة، الآن أدركت حقيقة الأمر المؤلمة، لقد تم الإمساك به على يد ضابط زميل له فى وضع ما مع هذه المرأة وتم طرده وتهديده بفضيحة مدمرة، شعرت بالدم يضرب فى رأسى، تمسكت بسنوات من النظام والجدية لأتماسك وأتمالك نفسى وصوتها الرخيم مستمر فى الحديث.

"وبعد شهرين، عندما مات أبى، فعلت مثلما شجعنى زوجك أن أفعل.. كتبت إلى العقيد، ورشحنى بدوره إلى الطبيب الجراح "هيل" كان موقفاً موفقاً

جداً بالنسبة لى، لقد علمنى دكتور "هيل" الكثير، أما مسز "هيل" فهى أطيب مما توقعت، لقد أصبحوا عائلتى، وفى المقابل، أفعل ما أستطيع فعله لأخفف أعباء دكتور "هيل" الكثيرة، ومنذ ثلاثة أشهر مضت، منحنى دكتور "هيل" مهمة مقابلة سفن المستشفى واختيار المرضى الذين يجب نقلهم إلى مستشفى "بلانك" ليمكثوا تحت رعايته، وهكذا كنت فى مرسى السفن فى الليلة التى وصلت فيها سفينة زوجك "الردروفر".

وصفت المشهد لى ومرة أخرى لم تترك شيئاً لم تذكره، كانت السفينة مليئة فوق طاقتها المسموح بها، لقد كان بداخلها عدد كبير من المرضى المحروقين الذين أصيبوا بالحرق عندما اصطدمت غرفة البخار داخل السفينة بصخرة، كان الرجال يرقدون على متن السفينة، حتى على الدرج، والممرات، ثم تم نقلهم خارج السفينة بواسطة النقالات المشدودة وتم وضعهم على رصيف السفينة، كانت تعمل مستخدمة ضوء بطارية، تتحرك بحرص شديد بين الأعداد الضخمة من الرجال الراقدين، يبتسمون لها، ويبدو وكأنهم سلع للبيع وكانت تشعر وهى تمر بينهم بأنها مراقبة بمئات من العيون القلقة التى تطلب المساعدة "كانوا خائفين من أن يدوس عليهم أحد، لأنهم كان يداس عليهم فى أثناء المعركة من الجنود الذين يجرون على أجسامهم وهم راقدون لا حول لهم ولا قوة فى ساحة القتال، كانوا يخافون من أحذية البوت فى الظلام.

كان اهتمامها منصبًا على الحالات الجراحية ولكن ذات مرة لاحظت إحدى الممرضات من "الرد روفر" "جريس" وهى تعمل بجدية ولاحظت كفاءتها فى العمل، سألتها أن تأخذ بعض الملحوظات عن حالة للحمى، حالة قس بذل الكثير من المجهودات فى الجيش ومحبوب من قبل الجميع وحكت الراهبة "لجريس" قصة إحدى السيدات العبيد السود التى كانت لا تستطيع الكلام وصامتة تماماً لكنها عملت على إحضاره داخل صفوف الاتحاد، وحكت لها عن الكلمات غير الواضحة التى كانت على الإيشارب الفيروزى وفجأة اشتعلت النار فى عقلى، هل كانت تلك العبدة الصامتة حبيبته أيضاً؟ فعلى أى شىء ستهتم بأن تقطع كل الأميال الخطرة لتأتى به إلى بر الأمان.

يبدو أن "جريس كليمنت" لا تعلم أن كلماتها تعذبنى فى داخلى حيث أكملت حديثها بهدوء شديد، لقد كتبت الراهبة عبارة "كابتن مارتش من كونكورد" وحياكتها فى قميصه وعندما قرأت "جريس" الاسم، عرفته: إنى أؤكد لك أنى لم أكن أتمكن من التعرف عليه لو لم يكن هناك اسمه المكتوب على قميصه خاصة فى ذلك الضوء غير الواضح القادم من البطارية حيث قد طرأ عليه الكثير من التغيير".

"لقد تأكدت أنه تم نقله فى عربات الإسعاف الخاصة لنا وعندما أردت أن أمر لأطمئن عليه وهو فى المستشفى فى الليل، كان يهذى، انحنيت لأعيد

ترتيب وسادته وناديته باسمه - فاستعاد وعيه - مثلما يحدث أحياناً ويعودون إلى الوعى - وقد تعرف علىّ - فقد ظن أننا رجعنا إلى مشتل مستر "كليمنت" وأننى أحضر له القهوة مثلما كنت أفعل فى الصباح بعد هزيمة الجرف العالى.

"قضيت الليلة معه، بمجرد أن انتهيت من الحالات الجراحية، لقد تحدث كثيراً كان معظم حديثه هذياناً ولكنه حكى لى عن أشياء .. أشياء صعبة .. عن معركة الجرف العالى.... عن أمور أخرى لم يقصها لى فى ذلك الوقت، لقد عاتب نفسه لموت جندى يدعى "ستون" يبدو أن الجندى لم يكن يستطيع السباحة وكان يساعده فى العبور عبر النهر قال إنه رفسه بعيداً فى وسط دوامة، لينقذ حياته وراقب الولد وهو يحتضر غير أنه كان من الممكن أن يساعده وينقذه.

وفى اليوم التالى، كان قد فقد كل ما يتذكره عنى. لقد اعتقد أنى عبدة سوداء أخرى، ربما تلك التى أنقذت حياته، أخذ يبكى ويطلب المغفرة لموت طفل، ولبعض حالات وفاة أخرى، كان من الممكن فى ظنه أن يمنعها من الحدوث، وعاتب نفسه أيضاً لبعض الأسرى الذين عادوا إلى العبودية مرة أخرى" تنهدت ونظرت إلى يديها التى كانت مازالت ممسكة ببعضها على حجرها "إنى أقول لك كل هذا ليس لأننى أريد أن أزيد الأعباء عليك ولكن إذا أردت أن تساعديه، فإنى أعتقد أنه لابد وأن تعرفى ما الذى يزعج قلبه،

لقد تم قذفه ورميه فى نهر من النيران مسز "مارتش" ولذا فأنا أخشى أنه ليس هناك شىء كثير متبق من الرجل الذى نعرفه".

كنت متحكمة فى أعصابى حتى هذه النقطة، ممتصة بالمجهود الذى أبذله فى محاولة دمج ما تقصه بالأجزاء الصغيرة التى كنت أظن أنى أعرفها من خطاباته - خطاباته المثيرة للشفقة وغير الصادقة! ولكن ما قالته "من الرجل الذى نعرفه" أثارت نشوتى، كيف تجرؤ أن تضم نفسها إلىّ فى علاقتى مع زوجى!

وقفت أسير قليلاً، كل تلك الصراحة الزائفة هى لا شىء سوى أحاديث زائفة، لقد سألته عنها وقال "حبى" إنى أعلم الآن أنه عندما قال تلك الكلمات لم يكن يقصدنى أنا.

انفجرت قائلة "إنه يحبك".

"إنك مخطئة ، مسز مارتش" ووقفت بحيث أصبحنا نواجه بعضنا وجهاً لوجه، كانت نظرتها لى وكأنها تقول لى إنى مخطئة بشأن توقيت اليوم "إنه لا يحبنى" استدارت واتجهت نحو النافذة المشبع تنظر إلى الشارع المشبع بالمطر.

كان هناك وعاء بداخله نبات منزلى على مائدة ملمعة بالقرب من عتبة النافذة، وبدون وعى أخذت ترتب المجموعة التى بداخل الوعاء، إنه ربما يحب فكرة ما منى .. إفريقيا المتحررة، إننى أمثل بعض الأمور بالنسبة له، ماض يمكن أن يعيد تكوينه من جديد إذا استطاع، وأمل المستقبل الذى يشتاق إليه".

استدارت لتنظر إلىّ "هل أنا مخطئة أن أشك فى أنه يعيش من أجل بعض الأفكار، وأنه بنى عالمه الخاص الكامل منها وأنه أنت المتبقية لتتعاملى مع أمور الحياة العملية؟

إن معرفتها له بهذه الدقة قد زادت من شعورى بالحيرة والشك، كان تماسكها مربكاً ومزعجاً من هى؟ خادمة منزل مولودة نتيجة شهوة غير لائقة، تحدثنى عن حقيقة زواجى؟

"لقد كنتم حبيبين! يجب أن تعترفى بذلك! وإلا لماذا سيحتفظ بخصلة من شعرك" - وهنا تحشرج صوتى، جذبت الحقيبة الصغيرة المصنوعة من الحرير ومزقتها بأصابع وحشية، وأوقعت الخصلة على قمة المائدة المصنوعة من الرخام، تغيرت ملامح وجهها ونظرت إلىّ، ثم استرخى وجهها العبوس. جلست ثانية على الأريكة وبدأت فى فك الإيشارب الذى كان يغطى شعرها.

تخيلته يراقبها وهى تفعل هذا، يراقبها على ضوء شمعة، وهى تعرى جسدها له.

قلت"لا تفعلى هذا".

ولكنها فعلت، وقع الإيشارب الأبيض من على حاجبها فاحمر وجهى، إن الشعر الذى تحت الإيشارب كان أسود اللون وسميكاً ولكنه وقع فى انسياب تام، على شكل أمواج ثقيلة - لا يشبه على الإطلاق الخصلة المشدودة التى كانت على المائدة.

مررت يدها على شعرها الساقط كما لو كانت تلمسه للمرة الأولى.

"إنى ورثت شعر والدى، أتفهمى هذا".

"إذاً من ......؟"

أخذت الخصلة ومررتها بين أصابعها الطويلة "من يمكنه القول؟ ولكن أظن أنه شعر طفل، هل ترين نهايات أطراف الشعر؟ إنها ناعمة وجميلة، تبدو وكأنها خصلة يمكن أن يحصل عليها أحد من أول حلاقة شعر لطفل.

مرت دقائق قليلة قبل أن أستطيع الوثوق بأن صوتى قادر على الكلام:

"لا أدرى ماذا أقول".

"لا تقولى شيئاً"، مالت برأسها على تلك الرقبة الرفيعة، أول مرة لجانب واحد، ثم الجانب الآخر، كانت عيناها مغلقتين وهى تفعل ذلك، وأخذت نفساً عميقاً كما لو كانت تفرج عن توتر داخلى، كانت تلك أول علامة أعطتها تدل على أن تلك المحادثة قد كلفتها شيئاً، وأن تماسكها هذا الذى بدت عليه والذى ارتدته بسهولة كان بمثابة رداء ارتدته بصعوبة. نهضت واقفة.

"إنهم يجففون معطفك فى المطبخ، سأرى إذا كانوا قد انتهوا من ذلك، يبدو أن المطر قد قل الآن، سأحضر المزيد من الشاى وربما سيتوقف المطر تماماً أثناء تناولنا الشاى".

"من فضلك لا لقد مكثت هنا فترة طويلة".

لا إطلاقاً. إننى سعيدة جداً بأنك أتيت إلى هنا.. أنا لا أظن أن كثيراً من النساء سيفعلن هذا".

خرجت من الغرفة فالتفت نحو نيران المدفأة، آحاول أن أخزن بعض الدفء القادم من النار الموقدة للبرد الذى سأقابله عندما أعود للمستشفى وأنا أسير هناك على هذا التل، فبالرغم من كلماتها، فقد شعرت بالحزن والغباء وأيضاً بالإهانة لما ظننته ذلك الصباح، كان هناك الكثير الذى لا أعرفه، الكثير من الأمور التى لم ير زوجى أنه من اللائق أن يشاركنى فيها.

عندما عادت، كان شعرها مرفوعاً مرة ثانية ولكن بقماش جديد، وعندما انحنت بالقرب منى لتضع براد الشاى، شممت رائحة قوية من النشا ومكواة ساخنة، وبينما أرتشف رشفة من الشاى وأنا متحمسة لإنهاء هذه المقابلة، سألتنى أين أقيم، جاويت بأسلوب متحضر، محاولة أن أخفف من حدة وصعوبة موقفى، لكنها كانت تعرف "جورج تاون" وتلك القناة، فانكمش حاجباها.. شعرت بسخرية كانت من الممكن أن تبعث إلىّ الضحك فى أوقات أخرى.. عبدة سابقة تشفق على صعوباتى ومآزقى. لم تدعنى أرحل حتى وقف المطر تماماً ثم مشت معى خارج الباب الأمامى حتى الشارع، وقالت بأنها سوف تطمئن علىّ فى المستشفى عندما تعود لاحقاً فى فترة الظهيرة.

وبينما أسير على هذا التل بعد أن اخترت طريقاً ممهداً لكى أسير عليه، علمت بأنه يمكننى أن أغفر لزوجى ضعفه تجاه هذه المرأة، فهل يمكن لرجلٍ - وحيد وبعيد عن منزله، ومتلهف عاطفياً - ألاّ ينجذب إلى "جريس كليمنت"؟

ولكننى لا أعلم إذا كان من الممكن أن أغفر له سنوات الصمت وتلك الخطابات المليئة بالأكاذيب.

الفصل السادس عشر

إعادة البناء

لم يستيقظ من النوم ثانية فى ذلك اليوم رغم انتهاء مفعول صبغة الأفيون، وبرغم أن حدة حمته قد قلت قليلاً.

جاءت "جريس كليمنت"، كما وعدت، أخذت يده لتشعر بنبضه، وأحست بصدره، وعندما انتهت، كان قلقها واضحاً على وجهها "روحه مثل شمعة يتأرجح ضوؤها بين الانطفاء والإضاءة" قالت "فى رأيى أن العذابات التى يعانى منها فى عقله تؤثر كثيراً فى جسده وتمنعه من الشفاء، رأيت حالات مثل هذه ورأيت عكسها، عندما يريد العقل، يمكن للمريض أحياناً أن يعيد نفسه من حافة القبر ولكن عندما يكون العقل مضطرباً مثل عقله..." خفمت من وطأة كلماتها "إن نبضه ضعيف، صدره .. ليس ما أسمعه بعد خشخشة الموت بعد، ولكن ما يشبهها".

لن أقول إن هذا لم يغضب قلبى ولم أشعر بالغيرة وأنا أراقبها تلمسه وترعاه بمهارات أفتقدها أنا. ولكن حتى وأنا أشعر بالغيرة، كنت أعلم أن ذلك الشعور ليس صحيحاً وحاولت أن أخمد ذلك الشعور

بأن أسألها بتواضع شديد عن رأيها الشخصى فى تلك الحالة.

قامت بتسوية الغطاء ورفعت يديه بحيث تكونان موضوعتين على الملاءات البيضاء. وكانت يداه شاحبتين اللون". إذا - عندما - يعود إلى وعيه، أرى أنه لابد أن تجدى الطريقة لتتحدثى إليه حيث سيقلل شعوره بالذنب تجاه الماضى، لابد وأن يهتم بالحياة - المستقبل - الذى ينتظره، أعتقد أنه لديك بنات"؟

قلت "أربع بنات"؟.

"تحدثى معه عنهن، ذكريه باحتياجاتهن، بواجبه تلك الفتاة - أو المرأة - أياً كانت- التى أنقذت حياته: كانت محقة فى صراعها بأن تثبت بما كتبته من كلمات: أنه رجل طيب. ولكننى أعتقد أنه لا يرى نفسه كهذا، سيقع كل ذلك عليك بأن تقنعيه بأنه كذلك، إذا أردت أن يعيش".

بعد أن ذهبت لتقوم بتأدية مهامها الأخرى، كنت أفكر فى كلماتها. كانت هناك حكمة فى كلامها، ولكن لن يكون سهلاً أن أفعل ما طلبته.. كأم دائماً أطلب من بناتى أن يسامحن بعضهن البعض "لا تدعن الشمس تغرب على غضبكم"، كنت أعلمهم ذلك، عندما تقوم الأشياء البسيطة وخلافات الطفولة بالتفرقة بينهن .. الآن، سيكون اختبارى، لابد وأن أتبع عظاتى، لقد خذلنى فى العديد من الأمور، لم يوفر لى الحياة المادية التى كنت أتوقعها ولكننى تأقلمت على ذلك منذ زمن بعيد، لم يأخذ رأى فى الذهاب إلى الحرب،

ولكننى تظاهرت بالقبول والشعور بالرضا والسلام، لقد خاننى على المستوى الشخصى والعميق فى كتمانه لمشاعر خاصة تجاه امرأة أخرى، وبرغم أننى تفهمت كيف حدث هذا إلا أننى مازلت أشعر بالجرح، إن الآخرين يعلمون الحقيقة عن زواجى التى أخفاها هو عنى.

بطريقة ما، يجب علىّ أن أفرغ الغضب والشعور بالإهانة اللذين أحملهما فى صدرى وأضعهما بعيداً، فى عمق صندوق خيالى، وأخزنهما فى مكان ما على رف عال فى قلبى حتى يمكن أن أتعامل معهما فى وقت لاحق، لم أكن واثقة إذا كانت لدى القدرة النفسية لكى أفعل هذا حتى لمجرد أن أنقذه.

كم أنه من السهل أن تمنح قطعة صغيرة من المشورة الحكيمة وكم من الصعب أن تنفذ تلك المشورة، قبل أن أرحل من المنزل، نصحت بناتى بأن يقللن من حدة توترهن وقلقهن على والدهن" يجب أن تتحلين بالأمل وتشغلن وقتكن بالعمل" هذا ما قلته، إذاً، هذه النصيحة يبدو أنها صالحة لأم الأوز مثلما هى صالحة لفراخ الأوز، ومن ثم ففى الساعات التالية، حاولت أن أجد بعض الراحة بأن أجعل نفسى مفيدة لبعض الرجال الآخرين الذين كانوا فى القسم، كتبت لهم خطاباتهم وقمت بتسوية وسادتهم أو أحضرت لهم الماء النظيف، كانوا متأثرين جداً وشاكرين لتلك الاهتمامات الصغيرة قيامى بتلك الأعمال أمدنى ببعض التشتيت اللازم بعيداً عن قلقى ورفع قليلاً من معنوياتى.

انضم إلىّ مستر "بروك" فى فترة الظهيرة وقال إنه سيترك كتيب صلوات المساء بالقرب من السرير إذا أردت أن آخذ فترة راحة، حيث إنه لم يكن هناك أية علامات تشير إلى أنه سيعود إلى وعيه، لبيت دعوته فلقد أتعبتنى ضغوط اليوم. وعندما وصلت إلى الكوخ، كان مستر "بولاند" قد عاد من عمله، وكانت هناك نار موقدة فى المدفأة، كان يجلس بجانبها، منهمكاً فى قراءة الجريدة، كان هناك كرسى واحد هو الذى يجلس عليه، وبما أنه لم يقدم كرسيه لكى أجلس عليه، صعدت فوق لكى أجلس على سريرى، كنت أرغب فى أن أكتب خطاباً إلى بناتى قبل أن أستلقى لآخذ راحة، لقد تركت ذلك الموضوع حتى الآن لمستر "بروك" فقد كان هو الذى يرسل التفاصيل لبناتى عن موقفنا، أخذت أبحث عن أدوات الكتابة الخاصة بى ولكننى وجدت نفسى أرتعش من البرد، فى العادة أتحمل البرد جيداً ولكن كانت هناك برودة شديدة فى تلك الغرفة الخالية من المدفأة. دخلت عاصفة ثلجية وجدت طريقها إلى الغرفة عن طريق النافذة المكسورة، ومن ثم عدت إلى أسفل - نار حقيرة أفضل من عدم وجود النيران على الإطلاق - وأخذت أفرغ محتويات الصندوق الصغير الذى كان معى لأجلس عليه، ووجهت انتباهى لأدوات الكتابة، وبدأت فى كتابة تحياتى فى بداية الخطاب.

ولكن لم يكن من السهل أن أستمر فى الكتابة، ليس فقط بسبب التشتيت الذى يحدثه مستر "بولاند"

بصوته حيث كان دائماً يحاول تنظيف حلقه، كان الشاب يعانى من زكام شديد فيتوقف عن القراءة كل ثلاث أو أربع دقائق، يغلق جريدته، ويبدأ فى مجهود مؤلم ليخرج البلغم من حلقه، حاولت بكل جهدى أن أحجب عنى ذلك الصوت غير اللائق وأن أقوم بالتركيز فيما أرغب فى نقله إلى بناتى.

ولكن ما الذى أرغب فى نقله إليهن؟ إن أخبارى كئيبة ولا بهجة فيها.

ماذا يمكن أن أقوله عن حالة والدهن؟ إن التحسن الظاهرى الحالى ما هو إلا وهم وأنه مازال فى حالة خطرة وحرجة للغاية، وماذا عن نفسى؟ هل سأحكى بالتفصيل عن أن الساعات التى أقضيها لا تسمح بعد ذلك للقيام ببعض القراءة ولو لوقت قصير: هل سأقص عليهن أننى ألقيت بالحساء على إحدى الممرضات اليوم صباحاً وأمضيت الساعات الأخرى أستجوب ممرضة أخرى عن سر خاص بوالدهن فى الماضى، هل سأخبرهن بأننى مقيمة فى مكان بائس كئيب وأننى جالسة بالقرب من رجل غريب على معطفه بقع من البيض؟

لقد جف الحبر على الريشة التى أمسكها وأنا أبحث عن أسلوب به جزء من الحقيقة والرقة حتى لا يكون قاسياً على متلقيه، ومن هنا أدركت أن هذه هى الورطة والمحنة ذاتها التى واجهها هو، يوم بشع يلحق بيوم آخر، فى المعسكر أو فى ساحة القتال: كان يكتب الأكاذيب ولا يكتب الحقائق، لأنه كان يشعر بالخجل،

نعم فى بعض الأحيان، ولكن فى أحياناً أخرى، لأنه كان يريد أن يوفر علىّ الحزن الذى يمكن أن يصيبنى إذا حكى لى كل شىء بالتفصيل، كيف أنه تعب كثيراً فى كتابة تلك الخطابات، يحرم نفسه من كل مشاعر الرضا التى تأتى عندما يتخلص الإنسان من الأعباء التى يحملها بقلبه، ويراقب كل إحساس يقصده ويسرده حتى استمر فى أن أنظر إليه فى أحسن حال وأنا أتحمل غيابه وموقفه ذلك، وكنت مستعدة أن أدينه لما حدث، ربما هو عمل يومى يدل على الحب.

جلست هناك حتى خفت الضوء وانتهى مستر "بولاند" من قراءته للجريدة وقام بثنيها ثم ألقى بها بعيداً، كنت مدركة أنه يحملق فىّ، وفى ريشتى الجافة وفى الصفحات البيضاء. وعندما أخذت أحملق فيه فى المقابل، نظر بعيداً، وهو يشعر بالإحراج، وجدت نفسى مضطرة للحديث معه.

مستر بولاند "هل أنت هنا فى العاصمة منذ فترة"؟

"منذ فترة طويلة، مسز مارتش. سأكمل عاماً فى يناير المقبل".

"ولكن بالتأكيد تقدم المدينة الكثير من المتع والمباهج لرجل عاذب مثلك"؟

"أنا لست بعازب. زوجتى وابنى يقيمان مع والدى فى مزرعتهم فى "الدلاوار" وأنا افتقدهم بشدة وبحزن، إن المرتب الذى أحصل عليه كناسخ لا يؤهلنى إلى أن أحضرهم إلى هنا. لا مسز "مارتش" بعيداً عن

المحاضرة التى نتلقاها فى الـ "سميثونيان" فليس هنا إلا القليل لنستمتع به، إذا قمت بوضعه بجانب السعادة الداخلية التى يمكن أن يمتلكها أحد.

لقد وقعت كلمات مستر "بولاند" فى تلك الغرفة الصغيرة الكئيبة دون أن تتلقى أية إجابة منى. حتى محاولتى لتبادل الحديث العادى بين الأغراب لم تحقق نجاحاً. بطريقة ما، إن التفكير فى ذلك الرجل الذى أُبعد أيضاً عن أسرته، كان آخر عبء يلقى على روحى المكتئبة ووجدت نفسى لا أستطيع الاستمرار فى الحديث، أى حياة هذه التى تتاح للمرء إذا سمحت الأسرة لنفسها أن تتمزق .. بالحرب .. بالظروف الضرورية أو بزلزلة القلب وضرب الثقة؟ كنت أعلم وقتها أنه مهما كلفنى هذا، علىّ أن أعود بزوجى إلى المنزل، وحيث إن عواطفى اشتدت فجأة فلم يكن باستطاعتى أن أجاوب على مستر "بولاند" بالتأكيد ليس عندى أى تحفظات لأجيب عليه بكلمات مهذبة تكون بمثابة تعزية لطيفة له، ولكننى قمت بثنى الخطاب الذى حاولت أن أكتبه، واعتذرت، ثم انسحبت من الغرفة وصعدت إلى فوق لأضع رأسى المتعبة على وسادة، سحبت معطفى حولى وكذلك الغطاء الخفيف وارتديت قفازاً لأدفئ يدىَّ المثلجة.

غلبنى النوم برغم أنى لم أكن أرغب فى النوم، وعندما استيقظت كان قد اشتد الظلام والأصوات القادمة من الشارع تشير بأن الوقت متأخر من الليل، أسرعت للنزول إلى أسفل وأنا فى شدة التحمس لكى

أعود للمستشفى، ولكن مستر "بروك" كان ينتظرنى بجانب النار الموقدة فى المدفأة.

قال بلطف شديد "لا تزعجى نفسك". "لقد مكثت هناك حتى انطفأت الأنوار وتلك الممرضة السوداء اللون ذات الكفاءة كانت تطعمه بالملعقة بعضاً من ماء الأرز بعصير الليمون الذى تركتينه له وأيضاً قليلاً من حساء اللحم".

تغير لون وجهى قليلاً عندما ذكر "جريس"، وأنزعجت مرة أخرى لفكرة اهتمامها به، ولكننى أعرف زوجى جيداً فهو لن يشكرها إذا علم أنها تطعمه لحم حيوان. ابتسمت وأنا أفكر أن مثل هذا الموقف يمكن أن يوقظه لدرجة القيام بثورة وهو فى كامل وعيه وإدراكه، وذلك لأنه كان حريصاً دائماً أن يظل نباتياً ولا يأكل إلا الطعام النباتى طوال فترة حياته كلها. ولكننى لن أثير أى احتجاج، فهو يحتاج إلى القوة وإذا كان "الدواء" هو اللحم وسيساعده على أن يكون بصحة جيدة، فلابد أن يتناول ذلك الدواء المر هو مَنْ مثله.

وقد أحضر لى مستر "بروك" بلطف شديد فطيرة، كان قد احتفظ بها ساخنة بجانب النار، أكلتها شاكرة، برغم أنه ظل واقفاً حتى أجلس أنا على الصندوق، وقد أحضرت مسز "جيمسون" كرسياً صغيراً يستخدم فى المطبخ لتجلس عليه، كانت ترفو جورباً قصيراً.

سلمنى مستر "بروك" خطابين واحد منهما بداخل ظرف رفيع عليه خط غير مألوف بالنسبة لى

صغير ودقيق، وكانت هناك رزمة كبيرة وسميكة من منزلى هى خطابات بناتى. فتحت هذه الرزمة بحماس شديد، كان بداخلها رسائل عاجلة مبهجة من كل واحدة من بناتى الأربع، وكذلك بعض الكلمات المطمئنة من "هنا" والاثنان من عائلة "لورانس" كنت مضطرة أن أمسك هذه الرزمة وأقربها من النار لأرى الكلمات المكتوبة وأحاول أن أفك رموز خطوط بناتى غير الواضحة - خاصة خط "جو" الفوضوى والملطخ بالحبر، قرأت برقياتهن مرة واحدة وبسرعة ثم مرة ثانية محتفظة بكل كلمة مطمئنة، وأطلعت مستر "بروك" على بعض محتويات الرزمة فقد كان مهتماً جداً بما كتبته "مج" ثم توجهنا إلى الطرف الآخر وسحبت منه ورقة برائحة اللافندر.

"عزيزتى مسز مارتش".

لقد أفادتنا مس "كليمنت" بتفاصيل موقفك.

إنه لمن دواعى سرورى أنا ودكتور "هيل" إذا وافقت على

استضافتك فى منزلنا للوقت الذى ترغبين فيه

سنعتبر العرض مقبولاً ، وسأبعث بعربة

تحضرك وتحضر أمتعتك فى الثامنة صباحاً.

نحن فى انتظار وصولك

محبة دائماً،

إميلى أ. هيل.

لقد أحمر وجهى من ذلك العرض الطيب من شخصية غريبة عنى تماماً. إن هذا كان دليلاً آخر

على ذوق وطيبة قلب جريس كليمنت"، لأنها قد سعت لتحقيق هذه الدعوة لى، كان مستر "بروك" ينظر إلىّ وفى عينيه أسئلة عن محتويات ذلك الخطاب ولكنه كان مهذباً للغاية ولم يسألنى عن محتويات ذلك الخطاب، كنت أشتاق كثيراً أن أقبل العرض وأن أعيش فى مكان هادئ ومحترم بعيداً عن ذلك الكوخ الكئيب والذى يخلو من الخصوصية.

ولكن كيف سأفعل هذا وأترك مستر "بروك" بمفرده؟

قال أخيراً "لم أعلم أنك تعرفين أحداً هنا فى المدينة".

"معارف قابلتهم اليوم فقط مؤخراً" لم أرغب فى سرد كل شىء فى تلك الغرفة المزدحمة للأسف مستر "بروك" علىّ أن أطلب منك شيئاً...."

قاطعنى بلطف "أعتقد أنه حان الوقت لكى تنادينى "جون".

"جون هل يمكن أن أطلب منك أن تأتى معى إلى البوستة؟ يجب أن أرسل رداً لذلك الخطاب، وللأسف يجب أن أرسله الليلة".

"بالطبع سأحضر معك" قال هذا وهو يحضر معطفه بسرعة ويساعدنى فى ارتداء معطفى.

وبمجرد أن خرجنا إلى الجو البارد، قال: "يمكن أن أرسل لك الرد بكل سرور ولكننى أردت أن أتحدث معك بخصوصية. لقد استلمت أنا أيضاً خطاباً اليوم

من مستر "لورانس" إنه مندهش جداً عندما قلت له عن مكان إقامتنا، هو معجب بشدة بقوة تحملك لكنه أصر أن نغير مكان إقامتنا ونذهب إلى فندق "ويلارد" فقد قال إنه بما أننى أمثل مصالحه، فلابد أن أقدم نفسى بصورة جيدة لمعارفه وأنك لا تكرميه على الإطلاق كما قال هو "بإصرارك على أن نظهر كما لو كنا اثنين من الشحاذين" - اغفرى لى ولكنك تعلمين كيف يتحدث دائماً بصورة مباشرة لا أعرف كيف أحقق رغبته، من فضلك قولى لى ماذا سيكون جوابى له؟"

شعرت بالعرفان تجاه مستر "لورانس" ذلك الرجل المسن الطيب وبالراحة لأننى سأرفض طلبه برقى دون أن أتسبب فى الضغط على "جون بروك" "قل له شكراً، فلن يكون من الضرورى أن يتعب نفسه أكثر من هذا من أجلى. لقد استلمت تواً عرضاً غير متوقع لغرفة فى منزل مريح ومناسب جداً فى "جورج تاون" إذا ذهبت أنت إلى "ويلارد" ستكون لدى حرية تامة فى أن أقبل ذلك العرض ومن ثم لن أكون محتاجة إلى أن أرسل إليهم رداً الآن.

"كنت سترفضين العرض من أجلى؟ إنك سيدة طيبة للغاية".

"ليس هناك أية مشكلة فى ذلك".

سلمّ علىّ ثم مشى بمفرده، استدارت وذهبت إلى سريرى الصغير للمرة الأخيرة.

وصلت العربة فى الصباح كما وعدت "إميلى هيل" وكانت تنتظرنى فى آخر منحدر التل حيث تتقابل الطرق، كان مستر "بروك" يحمل أمتعتى ودفعت لمسز "جميسون" وتمنيت لها أن تكون دائماً بخير وعلى ما يرام، كان وجه المرأة شاحباً ويبدو عليه التوتر فى الصباح الباكر، رأيتها توقع على الفواتير وتشعر بالضيق لأن رحيلنا سيحرمها من دخل من الواضح أنها تحتاجه، جذبت محفظتى التى كنت أحتفظ بداخلها ببعض النقود ووضعت بعضاً منها دون أن أقوم بعدها فى يدها وأنا أضغط عليها.

كانت الرحلة بالعربة قصيرة وكنت سعيدة بها لأن الطريق كان كله فوق التل، كان فى انتظارى على البوابة الخادم الأسود "ماركام".

قام بإنزالى من العربة بطريقة راقية، قابلتنى مسز "هيل" على الباب. كانت فى طريقها للخروج. ترتدى عباءة لونها جملى وحذاء بوت من جلد العجل وقلنسوة على الرأس من الريش المقلم.

"إنى آسفة حقاً مسز "مارتش" لأننى لا أستطيع أن أمكث معك لأرى أن كل شىء سيكون ملائماً لك وأن الإقامة ستناسبك ولكنه اليوم هو اليوم الذى أذهب فيه لمساعدة الجنود وأنا لا أرغب فى أن أجعل السائق ينتظر، عليك أن تعتبرى هذا المنزل منزلك، سيسعدنى كثيراً إذا تناولت عشاءك معى: أريد أن أسمع المزيد عن عملك فى سكة الحديد لمترو الأنفاق - لقد ذكرت "ميس كليمنت" تاريخ عائلتك الطويل فى

هـذا الـشـأن - ولـكـننـى لا أنـتـظـر آن تحـكى لى عن كل هـذا وأنتِ مضـطـرة. إذا أردت الـبـقـاء فى المسـتـشفى فـإنى أتفهم ذلك وسيـرسل لك الـطـبـاخ شيئاً لتـأكليه، إننـا نتبـع هنـا فى المنـزل "مواعيـد الأطبـاء" التى غيـر المنتظمة كالعادة، لذا عليك أن تشعرى بحرية فى أن تطلبى أى شىء فى أى وقت، لقد قلت لـ "ماركام" أن يضعك فى الحجرة الصينية، لا تترددى إخباره هو أو "هـسـتـر" عـنـدمـا تحـتـاجـين إلى شىء - أى شىء على الإطلاق - يجعلك أكثر راحة" وضعت يدها المرتدية القفاز على كتفى وأعطتنى نظرة طيبة" أتمنى أن تجدى مستر "مارتش" فى تحسن اليوم".

حـاولت أن أعـبـر عن شـكـرى لـلـطـفـهـا ولـكـنـهـا قـاطـعـتـنـى "لا عـلـى الإطلاق، يـا عـزيـزتى. إن الـذى سمعته من ميس "كليمنت"، أنه رجل عظيم جداً وأنتما تستحقان كل تقدير وكل اهتمام، وأعتقد أنك كنت ستفعلين معى نفس الشىء. إذا سمحت لى بأن أقول ذلك"

عندما أغلق "ماركام" الباب وتركنى بمفردى فى الغرفة الصينية، ربما كنت سأفعل نفسى الشىء معك ذات مرة، ولكن مرت فترة طويلة ولم أمر بتجربة كرم ضيافة هائل مثل هذه التجربة، كانت الحجرة جميلة، كان الضوء ينسكب من نافذتين طويلتين على سرير مغطى بغطاء أحمر ومطرز بتطريز من الحرير، كانت هناك زهور يانعة مقطوفة موضوعة فى زهرية تفوح منها رائحة ياسمين توحى بفصل الربيع البعيد، كرسى

مشغول بالصدف ومكتب بأرجل مزينة بالحفر. وعلى ظهر كرسى آخر كان هناك الروب الدافئ الذى أعطونى إياه فى الزيارة السابقة، شعرت بأننى أسقط على هذا السرير الناعم وأنعم برفاهية حريره وأشعر وكأننى سأنام لمدة أسبوع، ولكن بدلاً من ذلك، وضعت بعض الأشياء على الكرسى الكبير وأسرعت إلى المستشفى.

كان من الواضح أن "ميس كليمنت" قد استخدمت كل موارد عائلة "الهيل".

وجدت الممرضة "فلين" فى وقت الخدمة وعندما وصلت إلى قمة الدرج رأيتها تترك القسم، كنت أنوى أن أبتعد عنها حتى لا ترانى وتمر ولكنها رمقتنى بعينها حيث إن عينيها دائماً تراقبان كل شىء، تعّرفت علىّ على الفور وثبتت حاجبيها ثم وقفت بالقرب منى. وأومأت برأسها: "لقد طلب منى دكتور "هيل" أن أبلغه عند قدومك" قالت هذا بصوت فظ ولكن به قليل من الخوف "سأبلغه بأنك هنا".

كان من الواضح أنها تباشر زوجى ولأن سريره كان مرتباً، وكان هناك مرهم أخضر اللون فوق القرح التى حول فمه، وضعت يدى على جبينه فوجدت درجة حرارة الحمى مرتفعة قليلاً.

حضر الدكتور "هيل" وحيانى بطريقة راقية واعتذر عن طريقته الجافة فى مقابلتنا الأولى "إننى لست صغيراً كما كنت، مسز "مارتش"، وأنا أعانى من الاحتفاظ بالحالات الطبية بصورة واضحة فى ذهنى

إن الحالات الجراحية - الآن هى موضوع آخر. سكين مرشوقة داخل رجل، هل تتذكرين، ولكن حمى أو إسهالا هما مثل بعضهما، ألا ترين ذلك؟

لم أكن أعلم ماذا أقول ولهذا التزمت الصمت، كان الطبيب "هيل" رجلاً قصيراً ولكنه رقيق فى منتصف الستينيات من عمره، وكان صوته ناعماً ويبدو من صوته أنه من أصول جنوبية. لم يدهشنى ذلك لأنه حتى نشوب الحرب بل بعد ذلك كانت "واشنطن" تعتبر مدينة جنوبية أكثر مما تعتبر مدينة شمالية، ولكن مسز "هيل" كانت يبدو عليها أنها قادمة من الشمال ولا أدرى كيف تقابلا هما الاثنان.

لم يكن لدى فكرة إذا كان دكتور "هيل" قد أزعج نفسه كثيراً عندما قام بالكشف على زوجى عندما وصل أول مرة إلى المستشفى، لم أعتقد هذا فهناك الكثير من الالتزامات التى ينبغى أن ينجزها فى أقسام الجراحة مقارنة بقسم الحميات، ولكنه الآن يقوم بكشف دقيق وشامل على زوجى: يستمع إلى كل بوصة فى صدره، يضع يديه على بطنه، يرفع جفونه ويفتح فمه وينظر بداخله، كان من الصعب أن تشاهد ذلك؛ ومن المستحيل أن تلتفت بعيداً. وعندما انتهى دكتور "هيل" من الكشف عليه، أسرعت ألبس زوجى قميصاً لأغطى جسمه العارى الذابل وأعيده إلى خصوصيته، أعطى دكتور "هيل" اهتمامه لبعض الملحوظات التى أعطتها له "جريس كليمنت" هز رأسه وقال "طبقاً لهذه الملحوظات فقد تحركت أمعاء زوجك

ثمانى عشرة مرة فى آخر ثلاثين دقيقة، وهذا يتعارض مع أى أمل فى الشفاء، إن الكالوميل الذى هو كلوريد زئبقى - قضى على الحمى وانخفضت درجة الحرارة ولكنه مسهل قوى، وصبغة الأفيون لا تمسك أمعاءه بالدرجة الكافية. اقترح أن نجرب إبطال تناوله مثل هذه العقاقير ونبقى على دواء الكويين وحده ولنر كيف ستكون حالته وذلك إذا تأكدت من أنه سيتناول فقط السوائل - ماء شعير ماء أرز حساء كل ساعة دون توقف، سنراقب حالته ونرى إذا كان من الممكن أن نوقف الشد والجذب هنا.

"هل - هل سيشفى؟"

هز رأسه "لا يمكننى القول .. إن سنه ضده.. إن أجسام الشباب أكثر مرونة وتتحمل الكثير من التعب بالأمل، مسز "مارتش" هذا كل ما يمكننا القيام به".

لقد قال.. الأمل لهذا كان عندى أمل تمنيت كثيراً لدرجة أن الأمل بدأ يأخذ شكل جسدى، أفكارى وأمنياتى كانت تمد يدها نحوه وتلف نفسها حوله مثلما التف جسدى باشتياق شديد حوله عندما كان كل منا صغيراً، أردت أن أزرع روحى الحية بداخل روحه الضعيفة والمستنزفة، وأن أخلع جذور الذكريات التى تزعج نومه وأن أبذر مكانها رؤية لكل لحظة جميلة قضيناها معاً، لهذا جلست بجانب سريره، طوال اليوم، وفى المساء كنت أهمس فى أذنيه بذكريات الأيام المشرقة والتفاح المتساقط وضحكة البنت والعقول العظيمة التى كانت تتألف بالأفكار الجديدة.

استغرق حدوث نتيجة مغايرة للحمى التى أصابته يومين، وفى صباح اليوم الثالث انتصر الأمل. واستيقظ للعالم، أخذ يدى وأمسك بها ولم يرد أن يتركها حتى عندما طلبت منه أن يتركها حتى أستطيع مساعدته فى تناول بعض من "القستر" - أول طعام صلب سيأكله منذ أسابيع، فى نهاية هذا اليوم، استطاع أن يجلس، ولكن لابد وأن يستند إلى شىء، وفى نهاية اليوم التالى كان بإمكانه أن يقف لحظات، وفى نهاية الأسبوع، كان باستطاعته المشى، وهو يستند إلى كتف الممرض، إلى دورة المياه، تحدثنا فى ذلك الوقت عن كل ما حدث له .. وحاولت أن أجعله يدير وجهه بعيداً عن رماد مساعيه ومجهوداته التى بذلها فى قضيته وأن ينظر إلى بريق الأمل الذى مازال يلمع، هنا وهناك، للقضية العظيمة التى حارب من أجلها، كان يبدو عليه فى بعض الأحيان أنه يستمع جيداً لما أقول وفى أحيان أخرى كان يبدو عليه التعب فكنت أتركه وأنا أفكر فى أنه سيكون هناك المزيد من الوقت لتتحسن معنوياته عندما يستمر جسده فى الشفاء.

فى ذلك الوقت بدأ الجو يتغير، وفى صباح يوم الأحد مشيت إلى الكنيسة مع عائلة الـ "هيل" وميس "كليمنت" من خلال رقائق متساقطة ومدينة تبدو لى جميلة، وفى صباح الأيام التالية، كنت أستيقظ فى حجرتى الدافئة وأنظر إلى عالم نظيف ومتلألئ. يبدو أن كل شىء فى حياتى وكأنه قد صنع من جديد وسيعاد إلىّ.

كنت مستعدة أخيراً إلى أن أكتب بعض الأخبار السعيدة إلى بناتى واستلمت ردهن عن طريق برقيات مرحة ساخرة وأغان تبهج العاجز.

جلست بجوار سريره، أقرأ من آخر رزمة رسائل خطية، لقد وضعت "جو" "قصيدة" بالداخل وعلى حد قولها "شىء صغير سخيف" وقد أعطتها اسم "أغنية غسالة الصابون ورغوته" تحكى فيها عن صراعها لتتعلم الفنون المنزلية، التى قرأتها له:

وأنا قلت ببهجة

الرأس لتفكر .. القلب ليشعر

ولكن اليد لتعمل بها.!

"أترى؟" لقد مضت "جو" المنقلبة رأساً على عقب تنهد قائلاً "كم أفتقدهم!.

قلت بتفاؤل "ستراهم قريباً جداً" الآن خاصة وقد أصبحت احتياجاته قليلة، أصبحت أحضر سلة بداخلها بعض الأشياء لأقوم بتطريزها وحياكتها، بجانب سريره، كنت أقوم بتصليح بعض الملابس لهؤلاء الذين يعيشون فترة النقاهة، أنحنيت لأسفل لأضع الخطابات بعيداً وأخذت قميصاً به ثقب كنت أتفحصه لأرى مدى عمق الثقب ولم أنظر إلى فوق حتى سمعته يستنشق أنفاسه وهو يبكى.

قلت "لماذا! ماذا حدث"؟ وأنا أضع القميص بعيداً عنى ثم اقتربت منه لأضع يدى على خده.

قال "لا أستطيع أن أعود إلى المنزل .. إليهن".

"ليس بعد".

قلت بلطف "بالطبع" لقد ذكر دكتور "هيل" أننا لا نستطيع أن نجعلك تغادر المستشفى ومازالت العواصف الثلجية مستمرة، ولكنه ذكر أن هناك فرصة إذا توقفت تلك العواصف، من الممكن أن تكون معنا بالمنزل فى عيد الميلاد.

هز رأسه قائلاً "لا .. لا أستطيع أن أعود فلم يؤذن لى بإنهاء خدمتى فى الجيش".

"ولكن هذا مجرد إجراء قانونى - لقد ذكر دكتور "هيل" أنه يمكن أن يتم ذلك فى خلال يوم أو يومين".

"إننى لست مستعداً أن أطلب إذناً بالتوقف عن الخدمة".

"ماذا تقول؟ هل مازلت تهزى"؟

بمجرد أن نطقت بهذه الكلمات تمنيت ألاَّ أكون قد قلتها لأننى لم أرغب أن أجعله يتذكر العذابات القاسية لتلك الساعات.

"إن عملى، قال وهو يهمس" لم ينته بعد، إن كل مجهودات السنة الماضية، كل تلك المجهودات قد أتت بثمار عفنة، لقد قتل الكثير من الأبرياء بسببى، لقد عاد الكثير إلى العبودية، لا أستطيع أن أعود إلى المنزل - للراحة والسلام - حتى أقوم بإصلاح الخسائر التى تسببت فيها".

قلت، "وكيف"، كان صوتى قد أصبح بارداً، تقترح أن تفعل ذلك؟ عندما بدأت تلك المهمة الرسمية التى هى خدمتك بالجيش كانت منذ عام مضى، كنت فى

ذلك الوقت فى عمر لا يسمح بتلك المغامرة، الآن أنت فى عمر لا يسمح، وأيضاً محطم تماماً، من تعتقد يمكن آن تساعده؟ أنت، الذى لا يستطيع أن يذهب إلى دورة المياه دون مساعدة.

ظهر الألم على وجهه فقمت بعض لسانى، لقد كان محتاجاً إلى أن أكون متفهمة ولست غاضبة.

قلت بلطف. "لم يذهب كل ما فعلته دون فائدة". "إن التعليم الذى أعطيته لكثيرين، لا يمكن أن يلمسه أحد إن الحروف الأبجدية التى علمتها لتلك الفتاة - قلت إن اسمها "زنا" - أنقذت حياتك، إذا لم تكن قد علمتها جيداً، لكنت الآن فى عداد الموتى، كيف تشك فى قيمة كل ما فعلته.

حرك يده بضعف، وكأنه يريد أن يغفل الجهد الذى بذله طوال أشهر "ماذا تفيد الأحرف الأبجدية لامرأة فقدت طفلها الوحيد؟ أو لرجل فقد حريته"؟

أنت لم تقتل ذلك الطفل، فقد قتله جندى، أما بالنسبة للعبيد الأسرى فإن الحرب مستمرة بدونك، وأنت تعلم هذا، هناك الآخرون الذين يمكن أن يكون لمجهوداتهم علاقة ما بتحرير هؤلاء الناس - كلهم - منهم أصدقاؤك. إن الكبرياء هو الذى يجعلك تفكر هكذا، هو الذى يجعلك تشعر وكأنك شخص لا يمكن الاستغناء عنه.

قال "الكبرياء"؟ وهو يبتسم بضعف "كيف تتهميننى بالكبرياء؟

لم يبق لى شىء من الكبرياء، إنى أحتقر نفسى لم – لم أتصرف بشجاعة فى معظم الأحيان، تركت جرحى ورائى فى معركة الجرف العالى. لقد تركت "سلاس ستون" فى النهر..

قاطعته .. لأنه بمجرد أن يبدأ عقله فى تذكر تلك الأمور يبدأ فى السرد دون توقف مثل الشلال الصغير: إن البكاء يؤدى إلى نوبات من السعال الذى يسبب له الألم ويجعله يفقد شهيته إلى الطعام الذى يمنحه القوة.

"لابد أن تتوقف عن هذا .. فكر فى بناتك وكيف أن قلبهن قد فرح لمجرد التفكير بأنك ستعود إليهن..".

" كيف أفكر فى العودة إليهن، دون أن أفكر فى هؤلاء الذين لن يعودوا إلى منازلهم مطلقاً.؟ هؤلاء الجرحى الذين تركتهم يصرخون .. «ستون» الشاب الذى كان يغرق؟ لن يعودوا إلى منازلهم، لأننى لم أكن شجاعاً بالدرجة الكافية".

"شجاعاً بالدرجة الكافية! ما مدى الشجاعة التى تريدها لترضى نفسك؟ لقد قلت الكبرياء والكبرياء هو أن تتحدث هكذا، لأنه لا يكفيك أن يقال عنك شجاعاً، أوه لا .. لابد أن تكون "تيتان" لابد أن تحمل كل الجرحى بعيداً عن ميدان المعركة، ينبغى ألاَّ تحاول فقط إنقاذ رجل ما بل لابد أن تنجح فى ذلك وعندما لا تستطيع، تحمل الرماد أكواماً على رأسك كأن اللوم يقع كله عليك ولا لوم يقع على الجنرالات الذين دفعوك إلى تلك المعركة أو إلى حاملى النقالات الذين

فروا بحياتهم، أو إلى هلع "ستون"، أو إلى حقيقة أنه لم يتعب نفسه ليتعلم السباحة، ولا تلق اللوم على الرجل الذى أطلق عليه النار... أنت لم تقتل "سيلاس ستون" أو طفل "زنا" لقد قتلتهما الحرب لابد أن تتقبل هذا.

"ولكننى كان من الممكن أن أنقذهما .. كان هناك رجل يدعى "جس" أعطانى بندقية فرددها له مرة ثانية، أعطيت لمبادئى اهتماماً أكبر من أن أهتم بحياتهم، وكانت النتيجة، أنهم أصبحوا عبيداً مرة ثانية أو لقوا حتفهم.

"أنت لست الله .. أنت لا تقرر النتيجة أو تحددها.. النتيجة ليست هى الموضوع الذى نتحدث عنه.

"إذاً ما الموضوع؟" كان صوته جافاً مثل خشخشة ناعمة.. مثل نسمة هواء تمر عبر أوراق شجرة ميتة.

"الموضوع هو المجهود، إنك كنت تؤمن بما آمنت به – ما آمنت به بإخلاص من بينها الوصية التى تقول" لا تقتل" – فقد نفذت تلك الوصية، إنك تؤمن وتنفذ، وأن تكون هناك أحداث تساعدك على كل هذا – أؤكد لك أن هذا من الصعب أن يتحمله أحد، ولكن أن تؤمن ولا تفعل ما تؤمن به، أو أنك تعمل بطريقة لا تتماشى مع ما بداخل روحك وأفكارك – كيف لا يمكنك أن تفهم هذا؟ إذا كنت قد آمنت بتلك المبادئ ولم تعمل بها كنت تستحق التوبيخ". حتى وبعد أن قلت كل هذا، كنت أعلم أنه إذا وقفت ثانية فى ساحة عرض الماشية

وسمعته يعد بأن يذهب إلى الحرب، كنت سألتزم الهدوء والصمت مرة ثانية حتى وأنا أعلم جيداً الأيام البشعة التى ستأتى بعد ذلك لأنه أن تطلب منه أن يفعل عكس ذلك كأنك تطلب منه أن يكون رجلاً مختلفاً، وكنت أعلم أنى أحب هذا الرجل، ذلك الرجل الحاكم المدمر، المتقلب.

أغلق عينيه وعقد حاجبيه، أصبح تنفسه صعباً من آثار المحادثة التى دارت بيننا. ذهبت لأبحث عن قطعة قماش .. أحضرتها وغمستها فى المياه لأغسل جبهته التى كانت مليئة بالعرق .. استسلم لى للحظة أو اثنتين ثم قام بدفع يدى بعيداً وقال:

"اتركينى الآن" .." إننى أحتاج أن أنام"

قلت "نعم" محاولة أن أدرب صوتى بطريقة ما بحيث لا تظهر عليه نبرة الألم والارتباك؟ "نعم، سيكون ذلك أفضل".

انحنيت لأسفل وقبلت حاجبيه. لم يفتح عينيه ولم يستجب بأية طريقة.

قمت بجمع متعلقاتى ومشيت تجاه باب الخروج من القسم، وقبل أن أمر عبر الباب. التفت خلفى، كانت عيناه مفتوحتين باتساعهما وهو يحدق فى السقف، ولم يرنى وأنا أرحل.

الفصل السابع عشر

حالة «جريس»

ظلت عيناى مغلقتين حتى ظننت أنها رحلت، كنت أرقد هناك أستمع إلى صوت كعب حذائها على الأرضية الخشبية حتى عم الصمت التام، ولكننى اخطأت وفتحتها سريعاً. وقفت والتفتت إلىّ وهى عند الباب. فرأتنى مستيقظاً. شعرت بنظرتها المنزعجة جداً، لكننى لم أدر رأسى. ولم أستطع أن أتحدث فى هذا الموضوع مرة ثانية، لم تكن هناك أية وسيلة لكى أجعلها تفهم ما كنت أقوله لها.

كنت أرقد هناك، لا أستطيع النوم معطياً بذلك فرصة للأشباح أن تأتى إلىّ، معرضاً نفسى لعذابات رؤيتهم وهمساتهم المليئة بالاتهامات، وعندما غلبنى الإرهاق، تركتهم يسكنون أحلامى، كان ذلك أقل شىء يمكننى أن أفعله.

اعتدت أن أستيقظ وأجدها بجانبى، مستعدة بالأقمشة الدافئة ووعاء من حساء الخضراوات، كانت تلاطفنى لكى تطعمنى إياه، ولكنها لم تكن هناك فى ذلك الصباح، وكنت مسروراً لذلك، كيف يمكننى أن أشرح لها أن كل محاولاتها الطيبة كانت عذاباً لى؟ أن

أقمشتها الدافئة التى كانت تحضرها معها كانت تؤلمنى ووجبتها من الخضار كانت تتحشرج فى حلقى مثل الزجاج؟ لأننى لم أرغب فى أن أكون نظيفاً ومشبعاً بالطعام بينما هناك آخرون يرقدون يعانون شدة البرد والجوع والقذارة.

مر الصباح، كنت بمفردى تماماً وشعرت بنوع من الرحمة التى عكرها بعض الاهتمام من قبل بعض الممرضات، كان "جون بروك" جالساً فى مكانه المعتاد عندما فتحت عينىّ وكنت مسروراً لرؤيته لأنه على الأقل لن يقول لى إن ما فعلته فى الحرب هو كل ما كان فى وسعى أن أفعله.

قام "جون بروك" بتحيتى تحية الصباح بأسلوب راق وسألنى إذا كنت أحتاج شيئاً. هززت رأسى ووقتها فقط لاحظت أن ملامحه توحى بعمر أكبر من عمره وأن عينيه ذات اللون الداكن غائرتان وجادتان. كانت فى يده ورقة ملفوفة. ظل يقلبها بعصبية "هل هناك شىء تود أن تقوله لى، يا "جون"؟

"سيدى، أنا .. أنا لا أرغب فى إلقاء عبء عليك، ولكن للأسف هناك بعض الأخبار غير السارة، إن "لورى" - تلميذى - أرسل تلغرافاً أمس فى فترة ما بعد الظهيرة، يبدو أن "بث" الصغيرة قد أصيبت بالحمى القرمزية منذ أيام وقد طلبت "مسز ميلوت" من البنات إخفاء هذا الخبر عن مسز "مارتش"، لأنها تعلم أنها مشغولة معك هنا، ولكن "تيدى" - مستر "لورى"، أصبح قلقاً جداً وأقنع جده بأن مسز "مارتش"

لابد وأن تعلم بمرض الطفلة الصغيرة باختصار لقد عادت مسز "مارتش" إلى المنزل الليلة الماضية، ويجب أن تكون هناك فى الساعات المبكرة من صباح غد، لقد تركت لك رسالة، وقد قالت إنها مجرد سطر واحد، لم يكن لديها الوقت لتكتب أكثر من ذلك.

أعطانى "بروك" الرسالة المكتوبة على الورقة التى كانت فى يده، بالكاد استطعت أن أقرأ ما كان مكتوباً من خلال الغشاوة التى كانت فى عينىّ "الآن يمكن أن نكون معاً، تذكر أننا أسرة. أعقد الأمنيات معى، وتعال إلىّ فى أسرع وقت ممكن".

وقعت بظهرى على وسادتى "أدعو الله أن تصل فى الوقت المناسب"! بالكاد سمعت "بروك" وهو يحكى عما سمعه من الممرضات عن الوقت الذى تستغرقه تلك الحمى القرمزية، ولكنى كنت أعلم أنا وزوجتى مدى حدة هذه الحمى، فقد أصيبت بها من قبل كل من "مج" و "جو" ولكنهما كانا أقوياء واستطاعت كل منهما أن تقاوم المرض، ولكن "بث" فتاة ضعيفة البنية، تتسم طوال حياتها القصيرة بالعديد من الأمراض التى انتصرت عليها وجعلتها ضعيفة جسمانياً، كان يبدو لى أحياناً أن تمسكها بهذا العالم ليس أقوى من تمسك البتلة بالزهرة، وبرغم هذا فقد كانت أفضل منا جميعاً، هل سيكون هناك شبح آخر يطاردنى بجانب سريرى؟ لقد سمعت همس إحدى بناتى يقول لى "أبى، لماذا تركت فأرك الصغير؟ لو كنت قد مكثت معنا...".

شعرت بصدرى يضيق، ثم هاجمتنى نوبة من السعال الشديد، ظلت نوبة السعال تحطمنى حتى اعتقدت أن قلبى سينفجر حقاً، لقد تمنيت هذا فى هذه اللحظة، كانت فكرة السلوان تبدو لى كوعد بالراحة الجميلة وليس أكثر.

وعندما استسلمت بكل إيمانى منحنى الله الرحمة فى النهاية.

لن أقول إننى استيقظت على الأخبار السارة، لأننى مكثت مستيقظاً مع ابنتى البعيدة فى تلك الليلة، ولكن عند بداية ضوء الصباح، التفت لأرى مستر "بروك" يدخل إلى القسم، كانت على وجهه علامات الراحة والفرحة واضحة بالدرجة التى لا تحتاج إلى توضيح آخر من كلمات قليلة فى تلغراف.

لقد وصلت زوجتى "مارميه" لتجد أن "بث" تتماثل للشفاء، لقد تركتها الحمى وهى فى طريقها إليها، حيث إن ابنتنا الصغيرة استيقظت من صراعها الطويل مع الحمى على مشهد وجه والدتها المحبوبة.

وصلنى خطاب بعد ذلك من زوجتى تقول فيه: إنها ستبقى مع ابنتنا الصغيرة التى تتماثل الآن للشفاء ولن تعود إلى "واشنطن" وكتبت أنها تقترح أن تترك مهمة متابعتى لمراقبة مستر "بروك"، وأنهم جميعاً فى المنزل ينتظرون تحسن الجو متمنين اتحادنا السريع ببعضنا.

ولكن ما كانت تتوقعه كان من المستحيل أن يحدث، لم أكن أعلم كيف أحكم على خطابها، هل كان

محسوباً أى أنها تظاهرت بأحداث معينة أم أن عنادها وتمسكها بأن أعود هو حقيقى وليس ظاهرياً وأن لا شىء مما يقلته لها يستطيع الوقوف أمام عنادها.

إن الحقيقة هى: إنى لن أعود إلى المنزل، لم اكتسب ذلك الحق، فخدمتى لم تنته بعد. إذا صارعت الآن لأسرع بفترة نقاهتى، فإن هذا لأننى حريص لأضع قدمى على طريق التكفير عن ذنوبى وأن أجد البيئة الملائمة حيث يمكن لرجل ضعيف أن يكون ذا منفعة متواضعة، وبالطبع، لقد فهم مستر "بروك" رغبتى الجديدة بقبول الطعام وبعض التمارين القليلة خطأ، فقد اعتقد أن مجهوداتى تلك التى أبذلها هى من أجل رغبتى فى الاتحاد بأسرتى، ونظراً لأن إقناعه بما أنوى عليه سيكون معقداً، لذلك جعلته يفكر كما يشاء.

ببطء استرددت قوة أطرافى وتمكنت من أن أكون مع المرضى الذين فى فترة النقاهة لبضع ساعات كل يوم أساعد فى خدمة هؤلاء الذين يعانون من شدة المرض أكثر منا وبذلك نريح قليلاً الممرضات من الأعباء الروتينية التى يقومون بها كل يوم، وإذا كانت المهام التى أقوم بها تأخذنى بعيداً عن القسم الذى كنت به، أى إلى قسم الجراحة، أكثر من أى مكان آخر فلن أعتذر عن القيام بذلك. وذلك لأننى كنت أشعر بالرضا من القيام بأى مجهود ضئيل يقلل من مهام "جريس كليمنت"، التى أصبحت مهاراتها فى تمريضى

مذهلة مثل هؤلاء الذين يحتلون مراتب عالية فى فن التمريض.

إن "جريس" نفسها لم تكن تحبذ استخدام هؤلاء الذين فى فترة النقاهة كمساعدين وقد قالت لى هذا بنفسها ذات يوم وهى تعلمنى كيف أبلل جرعة ضبى يدعى "سيفس وايت". "كان ينبغى أن يمشى من هنا على رجليه الاثنتين، إذا لم يكلفوه بأعمال ثقيلة قبل أن تلتئم جراحه". قالت "جريس" كان الصبى من حسن الحظ فاقداً الوعى بعد الجراحة كان السم قد انتشر من جرحه فبعد أن قطع الطبيب رجله اضطر أن يتعامل مع فخذه بطريقة جعلته يشبه اللحم غير المطهى المقزز المعلق على خشبة عند الجزار، لابد أنه سيستيقظ على ألم مبرح.

وكما وجهتنى "جريس" ببطء سكبت الماء البارد على كماداته حتى امتصت الماء تماماً ثم وضعت قطعة من قماش الزيت أسفل سريره لتتساقط عليها نقط الماء الساقطة من كماداته. كان يعانى من الحمى فوضعت "جريس" كمادات باردة على جبينه. "ستكون معجزة إذا ترك هذا المكان حياً".

قالت. وهى تنظر إلىّ عبر جسمه "عليك أن تهتم بصحتك وقوتك ولا تدع المرض يقضى عليك، وإلاَّ ستقضى معنا هنا فترة أطول مما تحتاج".

وماذا يهم فى ذلك؟ لابد أن أجد طريقة ما لأكون ذا فائدة .. على الأقل هنا، يمكن أن أقدم لك مساعدة ولو قليلة".

رفعت حاجبى عينيها "ربما"، لبضعة أسابيع ليس أكثر من ذلك، فهم يشكلون الآن مجموعة طبية لخدمة الكتائب الملونة وقد وافق دكتور "هيل" على انضمامى إليها".

فلتت يد الإبريق من يدى وهى تقول هذا وانسكب الماء على القماش المبلل بالزيت، لم أدرك كم كان لدى من مخزون عاطفى تجاهها وكم من سعادة كنت أشعر بها وأنا أخدمها وأساعدها، وبدا لى حرمانى منها بهذه السرعة بعد اتحادنا غير المتوقع حدثاً قاسياً.

"لقد كنت أخطط، أى كنت أتمنى أن نعمل معاً، وأن أتعلم بعض المهارات الأساسية التى تكون مفيدة لك، كما أنت مفيدة للآخرين وأن أتعلم من دكتور هيل...

قالت: "لابد أن تفكر بدلاً من هذا فى العودة إلى المنزل وأن تستعيد قواك مرة أخرى". "لا يمكن أن تشفى تماماً هنا، غالباً فى حالتك الضعيفة هذه سترسل إلى مستشفى خاص لعلاج الأمراض وحتى إذا لم يتم نقل أى عدوى إليك، أو إذا لم تصاب بأى مرض جديد، فأنت تعلم طبيعة الحمى التى تعانى منها، من الممكن أن تعود إليك ثانية".

"ولكننى لا أرغب فى الشفاء! كيف أستطيع أن أبحث عن الراحة، وآخرون - مثل هذا الصبى هنا - مازالوا يعانونه؟ لن يتركنى ضميرى أنعم بالراحة فى

المنزل دون أن أكون مفيداً للآخرين" انخفض صوتى بعد ذلك "هل تعلمين أن هناك أموراً خطيرة، أخطاء فشل- أود أن أصححها وأكفر عنها".

قالت :"إنك لست الشخص الوحيد الذى يعيش بضمير منزعج". "كثير منا هنا يتحمل ذنب ما فعلناه، ما قادته إلينا ظروف حياتنا".

نفد صبرى معها فقلت "أنت" "أنت لا تعرفين شيئاً عن هذا، إنك أنبل شخص قابلته. اختيارك، بأن تهتمى بذلك الرجل - ذلك الرجل الذى يدعى أباك، بينما كان يمكن لك أن تتركيه ولا أحد يمكن أن يلومك ....." قالت بحدة. "إن هذا ليس المكان الذى يمكن أن نتحدث فيه عن تلك الأمور". اخفضت صوتها "ولكنك مخطئ تماماً، تمشى معى، إذا استطعت، اليوم فى فترة الظهيرة، أن الجو معتدل اليوم، إذا بقى هكذا، أعتقد أن تمشية قصيرة فى الهواء يمكن أن تفيدك سأنتظرك، بعد الساعة الثالثة بقليل، بجانب أطلال بيت الوزير الفرنسى، كانت هناك نيران، فقد احترق المنزل تماماً، يستطيع أى شخص أن يدلك عليه فهو ليس بعيداً.

التفتت بعيداً، وبدلاً من أن أذهب إلى السرير التالى الذى كان من يرقد عليه فى فقدان وعى، عبرت الجانب الآخر لأغير كمادات رجل كان مستيقظاً. كان من المستحيل أن نستكمل حديثنا، كما أرادت هى ذلك بوضوح.

مسحت الأرض وذهبت لأرقد على السرير لكى تكون لدى القوة بعد ذلك للسير معها، وفى تمام الساعة الثالثة، استعرت معطفاً كبيراً وقفازاً من ممرض، وقبل أن أبدأ فى الذهاب إلى المكان المتفق عليه، فكرت فى أن أطمئن على "وايت" ذلك الصبى الذى كنا نقوم بتضميد جراحه فى الصباح. وأن أرى إذا كان قد استعاد وعيه علىّ كذلك أن أتأكد أنه تم إعطاؤه دواء ليخفف من معاناته.

عندما ذهبت إلى سريره، كان من الواضح، أن معاناته قد انتهت تماماً ذهبت أبحث عن ممرض ليحمل الجثة إلى القسم الذى يضعون فيه الموتى، ولكن الجميع كانوا مشغولين بنقل الجرحى من عربات الإسعاف التى وصلت مؤخراً، عدت إلى سرير "وايت" وأنا أفكر فى إبعاد الوسادة التى كانت تحت رأسه، وبينما أفعل هذا وقعت ورقة على الأرض. انحنيت لأخذها، كان مكتوباً عليها بعض الشعر بخط غير معروف:

"لم أعد جريئاً وقوياً

كل هذا مضى،

إننى مستعد ألاَّ أقوم بهذا

أخيراً، أخيراً

إن عملى قد انتهى فى منتصف اليوم

وهذا كله جزئى

أعطيت الله مريضاً

أعطيته قلبى الصبور

لقد كتب الصبى هذا قبل أن تقطع رجله، أتوقع أنه قد عانى الكثير ليعرف قدره المحتوم "إننى مستعد ألاَّ أقوم بهذا" لقد حرق السطر قلبى، كيف يمكن لصبى مثل "وايت" وهو غير متعلم أن يكتب بمثل هذه الحكمة والاستسلام، فى حين أننى أنا الذى أنهلت من العلم والكتب والفلسفة كل الحكمة لم أستطع أن أعلم قلبى الصبر.

وضعت الورقة بحرص مع متعلقات "وايت" وتركت المستشفى، ضرب الجو البارد وجهى مثل صفعة مرحبة وأخرجنى بذلك من حلم كئيب.

مددت أرجلى وأنا أشعر بالسعادة عندما تستجيب عضلاتى مرة أخرى لرغبتى، وسمحت لنفسى برفاهية التوقع، كان هناك الكثير الذى كنت أرغب فى أن أقوله "لجريس"، وكل ما أريد أن أقوله كان من المستحيل أن يقال داخل المستشفى.

كان كما قالت من السهل إيجاد القوقعة السوداء للقلعة، أى المكان الذى حددته للقائنا. كان البيت المدمر يحيطه حقل شجر أرز يقطعه جدول مياه فضى ضيق حيث تأتى نساء "جورج تاون" السوداوات يغسلن مجتمعين غسيل الزيائن، ولأن خطوتى كانت بطيئة، فقد وصلت "جريس" قبلى. أخبرتها بموت "وايت" ولكنى لم أذكر القصيدة التى وجدتها. أومأت برأسها بحزن، لم تتوقع أن ينجو مما حدث له، أن وفاته دون معاناة أخرى، كانت رحمة فى حد ذاتها.

شكل قبضتين، ضغطت عليهما ببعض ودفعت بهما بجانب فكيها، تنفست بعمق ومسحت وجهها بيديها وفردت كتفيها وبدأت تتحدث، كان صوتها منخفضاً وبطيئاً.

"لقد قلت لك إن ابن مستر "كليمنت" توفى عندما فرغت البندقية التى كان يستخدمها فى الصيد فى وجهه، قلت لك إن حذاءه البوت قد حشر فى دغل فى حظيرة الجدى، لم أقل لك - لم أقل لأى شخص - القصة الكاملة للحادثة ولم أقترح أن أقولها الآن" ورمقتنى بتلك النظرة التى أتذكرها سنوات مضت "ولكنك لست البرىء الذى أتى إلى منزل "الكليمنت " منذ فترة طويلة فى الربيع، أعتقد أنك رأيت الكثير من الشر الآن لكى تفهم كيف تتشكل الأمور، كل ما أود أن أقوله هو: عندما علم حقيقة الأبوة، وعندما علم أنه أخ لى، اقترف جريمة كبرى يدرك تماماً حجمها حتى الوحوش، وهل تعلم ما هو أسوأ انتهاك؟ هو أننى أدركت أن أبى كان ينوى أن يقوم بارتكاب نفس الجريمة وأنهم أبقونى لتحقيق نفس الغرض أى أنهم أبقونى معهم ليحققوا نفس ما كانوا يقومون به مع أمى وليستخدمونى لنفس الهدف. ما حدث له كان جزء منه حادثًا، جزء منه فقط لا أعتقد أننى قصدت أن أقتله ولكننى سعدت بموته، مستر "مارتش".

للحظة كانت هناك نار مشتعلة فى عينيها بدت وكأنها إثارة، بدأ ذهنى يسترد الصور. لم أستطع أن أعرف، لن أعرف أبداً، إذا شاهدت بوضوح تفاصيل

غير متوقعة فى الحفل الخريفى، شاب يستسلم للحظة شهوة أو لاشتياق عام بأكمله، مشهد داخل حظيرة الجدى، سقطة بندقية تفرغ وجه ينفجر مثل البطيخ المتفتت ووجه آخر جميل بدون رحمة يجرى فى صمت بعيداً.

انخفض صوت ورأس "جريس" وعندما تحدثت ثانية، كان صوتها أكثر انخفاضاً من ذى قبل "الندم - الذى شعرت به بعد ذلك عندما رأيت الخسارة فى عيون أبى وفى عيون مستر "هاريس" وعندما رحل مستر "هاريس" بسبب موت أخى وشهدت أن الزرع لا يأتى بثمره حيث لم يكن هناك من يقوم بزرع البذور، ورأيت كيف أن الجميع قد عانوا من جراء ذلك. وقد تم بيع "برودنس" و "جستيس" وغرقت "آنى" كل هذا كل هذا، بسبب تصرفاتى.

"ولهذا لا تعتقد أننى ليست لدى خبرة مع ضمير يوبخنى ويقتلنى حية كل يوم أستيقظ فيه".

"مهما يكن الذى قمت به " توقفت ثم بدأت ثانية "مهما تكن الأحداث السيئة التى حدثت وأنت تقومين بالدفاع عن نفسك " ولكنها قاطعتنى، تلوح بيديها بعدم صبر وكأنها تزيح ضباباً عن وجهى.

"أنا لا أسألك أن تسامحنى. أنا أطلب منك فقط أن ترى أن هناك شيئاً واحداً يمكننا فعله عندما نسقط هو أن ننهض ونستمر فى الحياة .. ونحاول أن نفعل الأشياء الحسنة التى تستطيع أن تصنعها أيدينا

للناس الذين يأتون فى طريقنا. هذا على الأقل كان طريقى.

"إذاً، قلت كما لو كنت أشكو قليلاً "هذا ما أنوى فعله" – عندما أستعيد قواى يمكننى أن أعمل معك، سيكون هناك احتياجات، الكثير من احتياجات، عندما تنضم الجيوش الملونة أخيراً فى........"

قاطعتنى مرة ثانية ولكن بغضب هذه المرة:

"لقد نلنا كفايتنا من الشعوب البيضاء يأمرون ويزعجون وجودنا، هناك رجال من جنس أقوى ينبغى أن يحضروا ويحملوا أكثر منك، وهناك الواعظون السود وكثير منهم يعلمون اللغة الحقيقية القريبة لأرواحنا، يجب أن يتعلم الشعب الحر كيف يدير قدره".

رفعت صوتها ولمعت عيناها، نظرت بعيداً وأنا مندهش من قوة رفضها قالت "عد إلى المنزل مستر "مارتش" ثم بدأ صوتها ينعم "إذا كنت تريد مساعدتنا بإخلاص، عد إلى كونكورد واعمل ما يريده شعبك، اكتب بعض العظات التى تّحضر بها جيرانك بأن يتقبلّوا عالماً يكون فيه الأبيض والأسود متساويين.

"ولكنى لا أعلم إذا كان باستطاعتى أن أعظ مرة ثانية.." تحشرج صوتى مثل صبى فى بداية مرحلة الرجولة، تخيلت أن صوتى سينكسر، ولم أتخيل أنى سأستطيع أن أصعد درج المنبر ثانية، بالنسبة لى أصبح الصمت أبلغ من العظة.

تحركت نحوى ووضعت يدها على ذراعى، "عد إلى المنزل .. كن أباً لبناتك، فهذا على الأقل ما يمكنك فعله إنهم يحتاجونك".

لم تقل كلمة واحدة .. ولكن الكلمات غير المنطوقة كانت فى الهواء بيننا، إنهم قد يحتاجوننى ولكنها بالتأكيد لا تحتاجنى.

الفصل الثامن عشر

كونكورد

استمر فى السير وضع قدماً أمام الأخرى، وإذا صرخ صوت رفيع خلفك، تظاهر بأنك لا تسمع واستمر فى السير.

ولكن بعض الخطوات تتطلب مجهوداً أكثر من خطوات أخرى، وفيما أنا أضع قدمى على الطريق المؤدى إلى البيت البنى الصغير شعرت وكأننى محتال بالتأكيد، ليس لدى عمل أقوم به هنا، إن هذا منزل رجل آخر 00رجل أتذكره رجل ذو أخلاق وقيم وبعض الحكمة أطلق عليه الكثيرون شجاعاً كيف أقوم بتمثيل واحد مثله؟ لأننى كنت أحمق جباناً غير متأكد من أى شىء.

إذا كنت بمفردى، لكنت قد استدرت إلى الخلف وذبت مثل الجليد الذى يذوب فى ذلك الصباح اللامع المعتدل، أصبحت جزءاً مفقوداً فى الفيضان الذى يغمر كل شىء من خلال مشهد الحرب، ولتعش بناتى على ذكريات ذلك الرجل الآخر غير مضطرات أن يتعرفن على ذلك الرجل الضئيل المكانة الذى حل محله.

ولكننى لم أكن بمفردى، كان "جون بروك" يمسك ذراعى بقبضة محكمة وكان الصبى "لورانس" يمشى بزهو وسعادة أمامنا، بالكاد يستطيع أن يحتوى إثارته، كان مستمراً فى السير كأنه قد أحضر معه هدية عيد الميلاد ملفوفة بورق لامع وجميل، لو كان يعلم أن ما يسير خلفه هو مجرد سلعة رديئة وزائفة، جذبت الوشاح لأعلى ليغطى وجهى ولأخفى الزوايا المرتعشة من فمى. حقاً أن سيرى فوق ذلك الطريق كان عملاً شجاعاً أكثر من الذى كان يطلب منى فى أثناء الحرب.

لقد اقتحم المنزل الصبى "لورانس"، وفتح الباب المؤدى إلى الردهة واختفى خلفه. استندت إلى مائدة الصالة، كان "جون بروك" يعتقد أن ضعفى نتيجة طول الرحلة التى قمنا بها، أمسك بقوة ظهرى ليتملك منى وصار بى إلى الأمام قليلاً وهو لا يعبأ إذا كنت أستطيع السير أم لا .

فتح الباب.. كانت عيناى المغبشتان من آثار الجليد قد سجلتا فقط غشاوة ورؤية غير واضحة، كان "بروك" يحاول أن يقول شيئاً ولكن كلماته اختفت تحت صيحات عالية وصراخ. هناك ذراع ناعمة ولينة التفت حول عنقى، وقف شخص فوق قدمى ولم يزعج نفسه بأن يرفع قدمه ولكنه ظل يحضن ويقبل حذائى البوت، نظرت إلى أسفل فوجدت شعراً ذهبياً مجعداً. إنها "آمى" حبيبتى و"جو" - يدى على رأسها المجعد وشعرها الذى تم قصه - كما لو كانت ستفقد وعيها

"مج" - هل يمكن آن تكون هذه هى "مج"، تلك المرآة؟ - تهز رأسها "لبروك" فى ارتباك وتضيف على ذلك احمرار وجهها وبعض الاعتذارات المتمتمة "مج" و"جون" - هذه هى القصة إذاً - لم أدرك - و "مارميه" هادئة فى مركز دوامة هائل، كان وجهها متعباً. شعرت بقوة إرادتها مثل خطاب غرس فى أعماقى: لقد صممت أن ترى ذلك اليوم، كانت تريد أن ترجعنى إلى القارب .. تريد أن تحتفظ بذلك المركب، عائلتنا.. تبحر معاً بصرف النظر عن حالتى الصحية المدمرة، أو حالتها الصحية، وبصرف النظر عن حالة البحار غير المستقرة.

كانت ترفع يدها فى إشارة هادئة.

قالت "هش"! "تتذكر بث".

ولكن "بث" استمعت إلى الثورة، بالطبع .. كيف لا فى ذلك الكوخ الصغير؟ فأرى الصغير، قميص نومها الأحمر يتطاير وهى تجرى تجاهى بأرجل غير مستقرة، بغريزتى فتحت ذراعى ومسكت بخصلة شعرها الضعيفة التى استطعت أنا المجهد أن أمسك بها دون مجهود.

كنت أتحسس طريقى فى الساعات التالية وأنا أشعر بأننى كالمومياء أو قطعة قماش رديئة مبللة، فى بعض الأحيان كنت أشعر بأن أحداً يلمسنى ولكننى لم أشعر بالاتصال فى جسدى، كنت أعلم أن أحداً يتحدث إلىّ ولا أستطيع أن أفهم كلماته .. أوه، كنت أشعر بأننى أجاوب: كنت أعلم هذا، لأننى كنت أشعرَ

أن فمى يشكل الكلام، ولابد وأنى قلت أشياء معقولة، لأن الوجوه التى كانت تنظر إلىّ ظلت صامتة وهادئة ولم يندهش أحد أو شعر بالتعجب والذهول، ولكنى لا أستطيع أن أقول كلمة واحدة من الكلمات التى سمعتها وأنا أشق طريقى بين تلك التهانى التى استقبلتها من الردهة إلى مائدة عشاء عيد الميلاد وأخيراً إلى كرسى ذى ذراعين بجانب ضوء المدفأة.

لقد انخفضت درجة الحرارة فجأة وبحدة عندما حل المساء وبدأ الثلج يتساقط فى الخارج، إذا مشى أحد على الملاءة البيضاء ونظر من النافذة علينا، سيرى مشهداً لعائلة مجتمعة وسعيدة تنعم بفرحة داخل المنزل، كانت "بث" تجلس على ركبتى، و"مج" تجلس بجانبى ويدها موضوعة بارتياح على ذراع الكرسى و"جو" تجلس من الناحية الأخرى و "آمى" تجلس بالقرب من قدمىّ.

وفى أثناء حديثنا وقعت عيناى على يد "مج" كان لحمها محروقاً ومتجعداً. فجأة .. لم تكن يد "مج" ولكن لحم "جيمس" الذائب الذى كان ملفوفاً بشاش أبيض مثل العنكبوت وبالطريقة التى لا تسمح لكف يده بأن يكون مفتوحاً بالشكل الكامل، كنت فى ذلك الوقت منزعجاً بأن يده ستزعجه فيما بعد، ولكن الآن لا توجد له حياة .

حتى وهذه الفكرة تملأ عقلى وتغطى قلبى مثل السحب المزدحمة، كان فمى يمدح "مج" وعملها المتميز فى المنزل وكيف أن يدها المتعبة تبدو أجمل بالنسبة

لى من يدها الأخرى غير المتجعدة التى كانت تستخدمها بصورة أقل.

أما "بث" فكان وجهها الصغير بجانب أذنى، سألتنى أن أقول رأيى فى كيف غير العام الذى تغيبت فيه من "جو" وهكذا فعلت ومدحت قوة تحملها وتمريضها الحريص لأختها الصغيرة. وطوال الوقت الذى تحدثت فيه كان قلبى يتألم لقوة تحمل الممرضة الأخرى التى سرعان ما سترحل لتراعى الجيوش الملونة والتى من المحتمل ألاَّ أراها ثانية.

"الآن بث" طلبت "آمى" وهى تستند على ركبتىَّ، قلت شيئاً عن إيجاد فأرى خجلاً ثم بدأ كلامى عن "بث" يأخذ شكل قصيدة عاطفية عندما تذكرت أنى كنت سأفتقدها، مسكت بها بقوة "الآن وصلت إليك وأنت فى أمان "بث" حبيبتى وسأحتفظ بك هكذا، من فضلك يا الله" ونظرت إلى أسفل وبدأت أتحدث عن التغيير الذى طرأ على "آمى" وكيف أنى لاحظت عليها أثناء العشاء اهتمامًا من جانبها للآخرين، ولكن عندما نظرت إلىّ وهى سعيدة بمدحى فإن رأسها المتمايلة والضوء الذى كان فى عيونها ذكرنى بتلميذتى "سيلا" تلك الفتاة الصغيرة المسكينة التى لم أستطع الحفاظ عليها فى أمان تذكرت جراحها البشعة صوت الذباب.. العفونة.... شعرت بأن الأكل الذى تناولته يصعد إلى حلقى وعلمت بأننى لن أستطيع استكمال حديثى، هذا ما يجب أن يكون، الآن سأفعل ما فى وسعى لكى أعيش فى ذلك العالم السريع، ولكن أشباح الموتى ستظل تلازمنى.

ومن حسن الحظ، طلبت "جو" من "بث" فى تلك اللحظة شيئاً ما، وابتعد الحديث عنى. انزلقت "بث" من حجرى وذهبت إلى "البيانو" الخاص بها الصغير، وبخفة لمست المفاتيح وبدأت تغنى.

"هو الذى فى القاع لا يخاف من السقوط

هو الذى فى الحضيض، لا كرامة....

كل العيون كانت عليها الآن، قبل أن تفكر واحدة منهن فى أن تسأل أباها كيف استطاع عام بأكمله فى الحرب أن يغيره، خبأت وجهى فى الظلام حتى جاءت "مارميه" وفى يدها شمعة رفيعة وانحنت تجاه المصباح، والتقطت الشعلة، كانت هناك خشخشة صغيرة وهى تضع الزجاج، وفيما هى تدير قرص المصباح لتضبط الشعلة، توهج الضوء فجأة. وللحظة، كان كل شىء يسبح فى تألق وبهاء.

الفهرس

صدر من هذه السلسلة

١ ـ «ملكة الصمت» للكاتبة الفرنسية «مارى نيمييه» ـ رواية ـ جائزة ميديسيس.

٢ ـ «فتاة من شارتر» للكاتب الفرنسى «بيير بيجى» ـ رواية ـ جائزة «انتير».

٣ ـ «موال البيات والنوم» للكاتب المصرى «خيرى شلبى» ـ رواية ـ جائزة الدولة التقديرية.

٤ ـ «أوائل زيارات الدهشة» للشاعر المصرى «محمد عفيفى مطر» ـ سيرة ذاتية ـ جائزة «سلطان العويس».

٥ ـ «اللمس» للكاتبة السعودية «ملحة عبدالله» ـ مسرح ـ جائزة «أبها».

٦ ـ «عاشوا فى حياتى» للكاتب المصرى «أنيس منصور» ـ سيرة ذاتية ـ «جائزة مبارك».

٧ ـ «قبلة الحياة» للكاتب المصرى «فؤاد قنديل» ـ رواية ـ «جائزة التفوق».

٨ ـ «ليلة الحنة» للكاتبة المصرية «فتحية العسال» ـ مسرح ـ «جائزة التفوق».

٩ ـ العاشقات ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٠ ـ نوّة الكرم، للكاتبة المصرية «نجوى شعبان»، رواية، «جائزة الدولة التشجيعية».

١١ـ «الفسكونت المشطور» للكاتب الإيطالى ـ «إيتالوكالڤينو» رواية ـ عدد خاص ـ جائزة «فياريچيو».

١٢ـ القلعة البيضاء ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٣ ـ أين تذهب طيور المحيط ـ للكاتب المصرى «إبراهيم عبدالمجيد» ـ أدب رحلات ـ «جائزة التفوق».

١٤ ـ قرية ظالمة ـ للكاتب المصرى «محمد كامل حسين» ـ عدد خاص ـ «جائزة الدولة للأدب».

١٥ ـ الرجل البطىء ـ للكاتب الجنوب إفريقى «ج . م . كويتسى» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٦ ـ طحالب ـ للكاتبة الجنوب إفريقية «مارى واطسون» ـ متتالية قصصية ـ «جائزة كين».

١٧ ـ شوشا ـ للكاتب البولندى «إسحق باشيفيس سنجر» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٨ ـ شارع ميجل ـ للكاتب من ترينداد ـ «ف. س. نايبول» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

١٩ ـ الحياة الجديدة ـ للكاتب التركى «أورهان باموق» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٠ ـ عشر مسرحيات مختارة ـ للكاتب الإنجليزى «هارولد بنتر» ـ مسرح ـ «جائزة نوبل».

٢١ ـ الآخـر مـثلى – للكاتب البـرتغـالى «جـوزيه ساراماجو» – رواية – «جائزة نوبل».

٢٢ ـ المستبعدون ـ للكاتبة النمساوية «إلفريدة يلينك» ـ رواية ـ «جائزة نوبل».

٢٣ ـ الأنثى كنوع ـ للكتابة الأمـريكية «جـويس كـارول أوتس» ـ قصص ـ جائزة بن مالامود.

٢٤ ـ ثلاثة أيام عند أمى ـ للكاتب الفرنسى «فرانسوا فايرجان» ـ رواية ـ جائزة الجونكور.

٢٥ ـ اسطنبول.. الذكريات والمدينة.. للكاتب التركى «أورهان باموق».. «جائزة نوبل».

٢٦ ـ الطوف الحجرى.. للكاتب البرتغالى «جوسيه سارامارجو».. رواية.. «جائزة نوبل».

٢٧ ـ نار وريبة.. للكاتبة الألمانية «بريچيتّه كروناور» مختارات جائزة «چورج بوشنر الكبرى».

٢٨ ـ الذكريات الصغيرة.. للكاتب البرتغالى «جوسيه ساراماجو» .. سيرة ذاتية.. جائزة نوبل.

٢٩ ـ إليزابيث كُستّلّو.. للكاتب الجنوب إفريقى ج.م. كوتسى .. رواية.. «جائزة نوبل».

٣٠ ـ السيدة ميلانى والسيدة مارتا والسيدة جيرترود.. للكاتبة الألمانية بريچيته كروناور .. قصص جائزة چورج بوشنر الكبرى.

٣١ ـ حين تقطعت الأوصال .. للكاتبة المكسيكية أمبارو دابيللا.. قصص.. جائزة بيريياروبيا.

يصدر قريباً من هذه السلسلة

١ ـ عن الجمال.. زادى سميث.. جائزة الأورانج ٢٠٠٦.

٢ ـ البصيرة.. جوزيه ساراماجو.. جائزة نوبل ١٩٩٨.

٣ ـ بريك لين.. مونيكا على.. جائزة البوكر ٢٠٠٣.

"مارتش" هو البطل / الأب الغائب الذي تخرجه الكاتبة "جيرالدين بروكس" من صفحات رواية "نساء صغيرات" للكاتبة "لويزا ماي الكوت"، وترسله إلى أتون الحرب الأهلية الأمريكية كقس يدعم الجانب الروحي والديني للجنود ويعاني طوال الرواية جرّاء صراع الإنسان المرير بين الاحتفاظ بمبادئه وقيمه الأخلاقية ونزواته وأهوائه الشخصية.

كانت الجملة الأكثر حضوراً في الاحتفاء النقدي برواية "مارتش" لـ "جيرالدين بروكس": لو قرأت "لويزا ماي الكوت" صاحبة رواية "نساء صغيرات" هذه الرواية لسعدت بها كثيراً.





الهيئة المصرية العامة
١٣ جنيها

ISBN# 9789774203242

